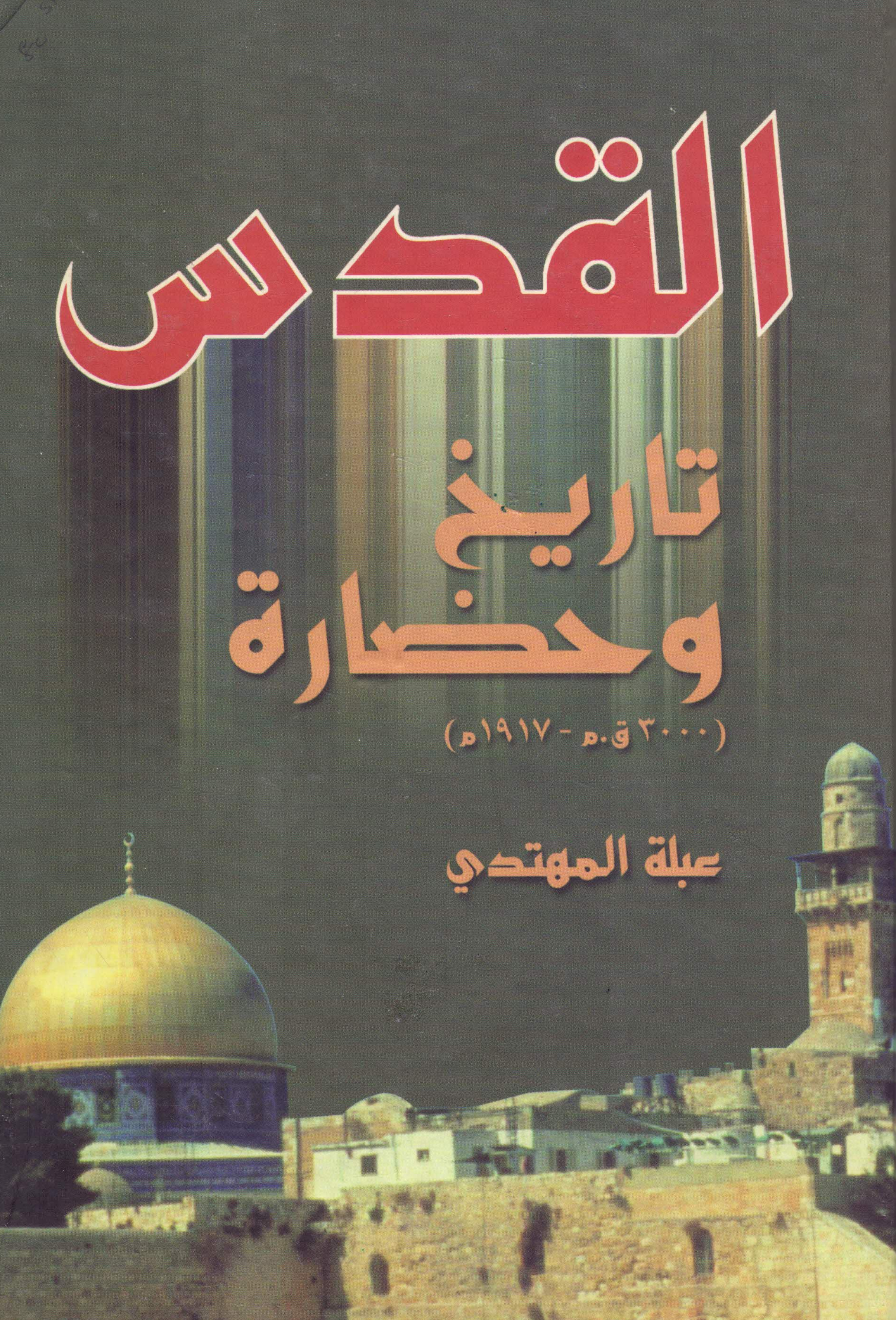


القدس

تاريخ وحضارة

(٣٠٠٠ ق.م - ١٩١٧م)

عبلة المهتدي

S.I
80

يا قُدسُ..

يا قُدسُ..

يا منيةَ النفسِ... وعشقَ الروحِ،

عشتُكِ أياماً....

عشتكِ لحظات...

عشتكِ دهراً بين السطور والكلمات،

فما وجدتك إلا...

شامخةً أبيةً....

صامدةً أمام غدر الزمان والإنسان،

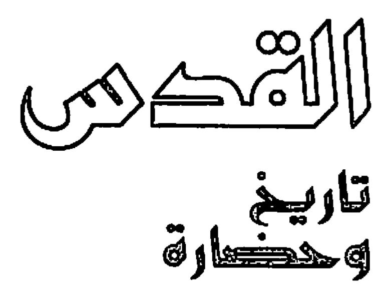
وبقيتِ

أنتِ.. أنتِ

مدينة الحرب والسلام.

عبلة المهتدي

بسم الله الرحمن الرحيم


القدس
تاريخ
وحضارة

القدس تاريخ وحضارة (٣٠٠٠ق.م-١٩١٧م) / تاريخ عربي.
عبــلة المهتدي / مؤلفة من الأردن.
تلفاكس: ٠٠٩٦٢٦٤٦٤٩٦٦١ص.ب٩١٠٧٨١ عمان/ الأردن. E-mail:abla MZ@hotmail.com
الطبعة العربية الأولى، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م.
جميع الحقوق محفوظة للمؤلفة .

الصف الضوئي : محمد أبو ريان
عمان/ الأردن.

الطباعة : دار نعمة للطباعة
بيروت/ لبنان.

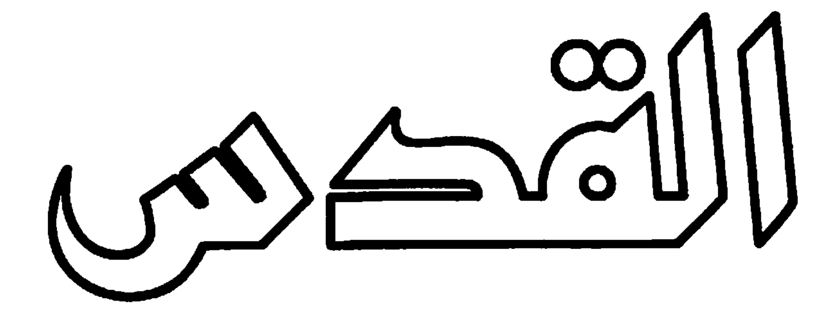
لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من المؤلفة.

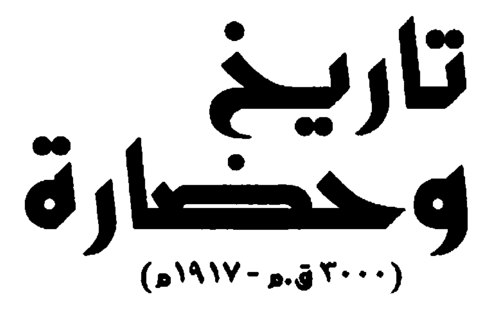
رقم التصنيف : ٩٥٦،٤١١

رقم الإجازة المتسلسل لدى دائرة المطبوعات والنشر : ١٩٩٨/٦/٦٧٥

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبات والوثائق الوطنية : ١٩٩٨/٦/٩١١

عبلة المهتدي





كلمة وفاء

الى مؤرخ القـــدس الذي أحبها وعشقها حتىّ الموت، وكتب لها وعنها فيض إحساسه المرحوم الدكتور كـــامل جميل العسلي، أستـــاذي ومعلمي ورائدي.

عبلة المهتدي

المحتويات

تقديم : ١١

الفصل الأول : ١٣

١- القدس ...... كلمة ومعنى ١٥

٢- موقع القدس الجغرافي ١٥

٣- أسماء القدس ١٧

الفصل الثاني : القـــدس في عهودهـــا الغـــابرة ٢١

١- القدس في زمن اليبوسيـــين ٢٣

٢- القدس في زمن الفراعنـــــة ٢٧

٣- القدس في زمن العـــبرانيـــين ٢٨

٤- القدس في زمن الآشوريـــين ٤١

٥- القدس في زمن البـــابليـــين ٤٣

٦- القدس في زمن الفـــــرس ٤٦

٧- القدس في زمن اليونـــــان ٤٩

٨- القدس في زمن الرومـــان ٥٤

٩- القدس في زمن البيزنطيـــين ٦١

الفصل الثالث : القدس في العصر الإسلامي الأول ٧٥
– صلة الإسلام الأولى بمدينة القدس ٧٧
١ – القدس والفتح العُمَـــــريّ ٧٩
٢ – القدس في زمن الأمويــــــين ٨٤
٣ – القدس في زمن العباسيـــــين ٩٧
٤ – القدس في زمن الطـــولونيــين ١٠٠
٥ – القدس في زمن الإخشيديــين ١٠٢
٦ – القدس في زمن الفـــاطميــين ١٠٥
٧ – القدس في زمن الأتراك السلجوقيين ١١٠

الفصل الرابع : الحروب الصليبية على القــــدس.................... ١١٧

الفصل الخامس : القدس في عهد الأيوبيــــين ١٧٩

الفصل السادس : القدس في عهد المماليــك ٢٤٣
الفصل السابع : القدس في عهد الأتراك العثمانيين ٣١٣
– المصادر والمراجع العربية ٤١١
– المصادر والمراجع الأجنبية ٤٢١
– مصادر الصور ٤٢٥

تقديم

في هذه الأيام العصيبة تقف مدينة القـــدس الخالدة على منعطف تاريخي هام، حـــيث تتصاعد فيها حدة الصراع بين الحق العربي التاريخي الثابت، ومحنة تهويدها وطمْس معالمها وهُويّتها العربية الإسلامية من قبل السلطات الإسرائيلية التي تســعى جاهدة الى تثبــيت الإدعاءات الصهيونية بالحق الديني والتاريخي في المدينة المقدسة من خلال فرض وتثبــيت وتوسيع الواقع الإستيطاني فيها، في معركة السلام القائمة الآن.

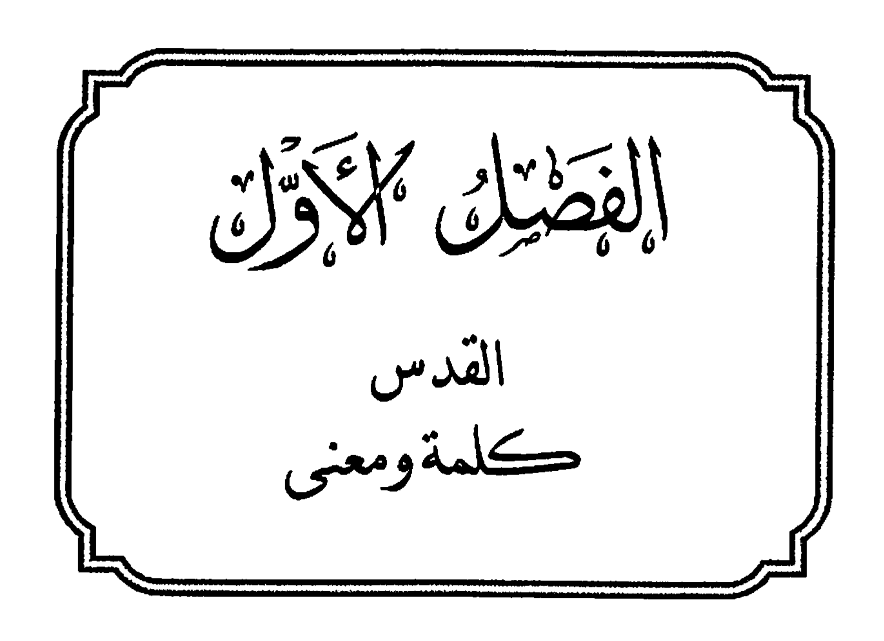
ولكي تظل القدس في الفكر والوجدان كان هذا الكتاب محاولة متواضعة للإســهام في رد عاديات التحريف والتزييف المتعَّمد للحقائق المتعلقة بالحق العربي في المدينة المقدســة، والتي كثيراً ما نجدها في التأليف الأجنبية وفي مقــدمتها المؤلفات الصهيونية التي تنطلق في معظمها من موقع العداء للعرب والمسلمين.

ومن جانب آخر رغبت أن أطلع القارئ العربي وشباب أمتنا العربية وهم بناة المستقبل بتاريخ مدينتنا المقدسة، لأن من يقرأ تاريخ القدس يقــرأ تاريخ أمتنا ويتعرف على ماضيها المجيد، وكذلك اطلاعهم على التراث الحضاري الزاخر الذي شــهدته المدينة الخالدة عبر العصور الطويلة حــتى عام ١٩١٧م، وذلك من خلال التعّرف على مقدســاتها وبــيوتها ومدارسها وخوانقها ومؤسساتها وجميعها تؤكد على خصوصيتها وقدسيتها، ليزداد حبهم لها وتمسكهم بكل ذرة من ترابها الطهور.

لقد توقفت في سرد تاريخ القدس عند العام ١٩١٧م، وهو العام المشؤوم الذي دخلت فيه مدينة القدس وكامل الأراضي الفلسطينية تحت الإحــتلال البريطاني لتشــهد المدينة المقدسة تحولا جذريا في وضعها السياسي من خلال الصراع والنزاع العربي الإسرائيلي على أرضها الطهور، والذي امتد لعقــود طويلة ولا زال مســتمراً لغاية تاريخه، وإنني لآمل من المولى عز وجلّ أن أتمكن في المستقبل القــريب من إصدار الجزء الثاني من تاريخ القــدس الحديث والوقوف على أبرز مراحله وأحداثه.

ولأن القـــدس كانت وما زالت مسرحـــاً للصراع من أجل انتزاع هويتها العربـــية الإسلامية، وتشويه تراثها العربي الأصيل من قبل القوى الاستعمارية والصهيونية الغاصبة، لذا أنتهزها فرصة لأدعو كل إنسان ينبض فيه الدم العربي، أن يقف وقفة مسؤولة أمام الحق والتاريخ والمستقبل للعمل ســويا وعلى كافة الصُعُد، لنؤكد جميعاً على ثوابـــتنا التاريخية والحضارية والدينية، أن القدس عربية وستبقى عربية إسلامية.

عبلة المهتدي



الفصل الأول

القدس
كلمة ومعنى

القدس ..... كلمة ومعنى

ورد في معجم لسان العرب أن (التقديس تتريه الله عز وجل، وفي التهذيب، القدس تتريه الله تعالى، وهو المتقدس، القُدس، المقدّس، والقُدس بلغة أهل الحجاز (السطل) لأنه يُتقدس منه أي يتطهر فيه أو به، ومن هذا فإن بيت المقدس أي البيت المطهر، والأرض المقدسة هي دمشق وفلسطين وبعض الأردن وبيت المقدس منه.)[1]

كما ورد في كتاب الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل للقاضي مجير الدين الحنبلي أن (بيت لَمقدس بفتح الميم وسكون القاف، أي المكان المطهر من الذنوب، واشتقاقه من القدس وهي الطهارة والبركة. فمعنى بيت المقدس هو المكان الذي يتطهر فيه من الذنوب ويقال المترفع والمتره من الشرك ...... والبيت المُقدَّس بضم الميم وفتح الدال المشددة، أي المطهر وتطهيره أي إخلاؤه من الأصنام.)[2]

والقدّوس هو اسم من أسماء الله تعالى، فقد ورد في القران الكريم قوله تعالى :(**هو الله الذي لا اله إلا هو الملك القدّوس السّلام**).[3]

ورد في بصائر ذوي التمييز للفيروز أبادي (أن رب القدس هو الله تعالى، القدس والقدس الطهارة. ويقال : خرج الى بيت المقدس، والى القدس، والى الأرض المقدسة ، والى بيت المقدس أي الى بيت المكان المقدس،وقدس الرجل أي أتى بيت المقدس زائراً أو مقيماً).

موقع القدس الجغرافي :

تقع مدينة القدس على خط عرض ٣١،٥٢ درجة شمالا، وعلى خط طول ٣٥،١٣ درجة شرق غرينتش، وعلى ارتفاع ٢٥٩٨ قدما عن مستوى سطح البحر، وقدرت مساحتها سنة ١٩٤٥ حوالي ١٩ كيلو متراً مربعاً.[4]

تتمتع المدينة المقدسة بموقع جغرافي هام ومتميز عن غيرها من المدن المجاورة في المنطقة حيث أقيمت فوق قمم التلال والمرتفعات ويحيط بها الوديان مما وفر لها نوعا من الحماية الطبيعية أمام أخطار الغزوات الخارجية.

كانت النشأة الأولى لمدينة القدس على مرتفع الضهور (تل أوفل) المطل على قرية سلوان، ثم توسعت لتمتد فوق تلال ومرتفعات مجاورة هي مرتفع (تل موريا) حيث ساحة الحرم القدسي في الجهة الشرقية للمدينة، ومرتفع بيت الزيتون (بزيتا) في الجهة الشمالية الشرقية، وكذلك مرتفع (صهيون) في الجهة الجنوبية الغربيةمنها، وجميعها داخل سور المدينة وهي ما تعرف حاليا بالقدس القديمة. أما الأودية فتحيط بها من ثلاث جهات رئيسية هي وادي جهنم (قدرون) من الناحية الشرقية ووادي الربابة (هنوم) من الجهة الجنوبية ووادي (الزبل) من الجهة الغربية. (٥)

وصف المقدسي مدينة القدس في كتابة (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) بقوله أنها: (ليس في مدائن الكور أكبر منها وقصبات كثيرة أصغر منها، وهي أصغر من مكة وأكبر من المدينة، لا شديدة البرد وليس بها حر، وقلّ ما يقع بها ثلج وهواءها سجسج لا حر ولا برد شديد .... وهذا صفة الجنة.) (٦)

وهكذا أنعم الله على مدينة القدس بجمال الطبيعة وجودة المناخ، وأسبغ عليها قدسيته الدينية فأصبحت بحق زهرة المدائن وقبلة أنظار البشر منذ أقدم العصور التاريخية.

أسماء المدينة المقدسة :

لمدينة القدس عدة أسماء سميت بها على مر الأزمان تبعا للأمم والشعوب التي استوطنتها، ومن هذه الأسماء :

١-أورشليم أو يوروشالم :

وهو أقدم اســـم للمدينة ورد في نصوص اللعنة (الطهارة) المصرية EXECRATION TEXTS التي ترجع الى عصر الأسرة الثانية عشرة الفرعونية في القرن التاسع عشر قبـــل الميلاد (١٩٩١ق.م). وقد قال د.الزعبي في ذلك (من هذه النصوص يستنتج أن القـــدس كانت عاصمة لمملكة وعلى رأس هذه المملكة حـــاكم عربي ســـواء أكان كنعانياً أم عمورياً).[٧]

وتستمر الأوضاع في القدس على حالها خلال العصور اللاحقة حيث يرد اسمها في رسائل العمارنة كما يستمر ورود اسم حاكمها العربي الأصيل [٧]، فقد ورد اسم أورشليم أربـــع مرات في الرسالة رقم ٢٨٧ التي بعث بها عبد خيبا حاكم القدس الى أمنحوتب الرابـــع (أخناتون) في مطلع القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، وورد اسم أورشليم مرتين في الرسالة رقم ٢٨٨ ومرة واحدة في الرسالة رقم ٢٩٠. [٨]

أما أسماء المدن الكنعانية فقد كانت غالبا ما ترتبط بـــأسماء الآلهة الكنعانية التي تكرس عباداتها فيها، وقد أخذ بناة القدس بهذه القـــاعدة وأسموها أورشـــليم، وكما تؤكد معظم المصادر التاريخية أن الاسم مكون من مقطعين (أور) بمعنى مدينة و (شالم) أو (شـــليم) وهو اسم اله السلام عند الكنعانيين وكانوا يعبدونه.[٩]

٢-يبوس :

هو الاسم الذي عرفت به مدينة القدس قبل احتلالها من قبل الملك داود سنة ٩٩٦ ق.م وإنهاءه لحكم اليبوسيين سكانها وبناتها الأولين، ولقد ورد أسمهم في كثير من الأحيان في نهاية قائمة الشعوب المذكورة في التوراة.

٣-صهيـــون :

هو اسم سابق لوجود العبرانيين في مدينة القدس ، حيث كان يطلق هذا الاســـم على الحصن الذي بناه اليبوسيون على قمة (تل أوفل) قبل احتلال داود لمدينتهم وإقامته فيه [١٠] ، وكثيرا ما ورد ذكر اسم صهيون في العهد القديم .

٤ - مدينة داود :

وهو الاسم الذي أطلقه داود على المدينة بعد احتلاله لها وإقامته فيها، إلا أن هذا الاسم لم يدم طويلا، ولقد ورد الاسم مرارا في العهد القديم مرادفاً لصهيون.

٥- هيروسليما :

هو الاسم الذي كانت تدعى به المدينة أحـــيانا في أوائل الفتح الروماني، ومنه أخذت الأمم الأوروبية اسمها المعروف جيروسالم. [١١]

٦-إيليا كابيتولينا : AELIA CAPITOLINA

وهو الاســـم الذي أطلقـــه الإمبراطور الروماني أدريانوس (هدريان) PUBLIUS AELIUS ADERIENUS على المدينة المقدسة بعد أن هدمها وأعاد بناءها على شـــكل مستعمرة رومانية سنة ١٣٥م. [١٢]

وظل اسم ايلياء سائداً نحو مائتي عام الى أوائل الفتح الإسلامي للمدينة المقدسة، حيث ورد هذا الاسم في وثيقة الأمان التي أعطاها أمير المؤمنين عمر بـــن الخطاب (رضي الله عنه) لسكان المدينة، وقد صدرت بعبـــارة (هذا ما أعطى عبـــد الله عمر أهل ايلياء من الأمان) بالنص الذي أثبته ابن جرير الطبري في تاريخه ، وابن هشام في سيرته ، وياقوت الحموي في معجم البلدان.

٧- بيت المقدس أو القدس:

وهما الاسمان اللذان شاع استعمالهما بعد الفتح الإسلامي، فقـــد وردا في أحـــاديث متعددة ومنها ما ورد في الصحيحيْن وغيرهما من كتب السنة الشريفة.

ومهما قيل في أسمائها فإنها تستحق القول الذي قاله فيها أمير الشعراء أحمد شوقي:

بلد على أرض الهدى وسمائـــه   المجـــد حائطـــه ورأس بنـــائه
بلد بنوه الأكرمون قبورهـــم   وقصورهـــم وقف على نزلائـــه.


الفصل الثاني
القدس
في عهودها الغابرة

(١)
القـدس في عهد اليبوسيين
(٣٠٠٠ ق.م)

إنّ توفر المعلومات التاريخية الحقيقية عن المراحـــل المبـــكرة لأية مدينة في العالم هي في الواقع معلومات ضئيلة جداً وقـــد تكون نادرة، خصوصا إذا ما كانت تلك المعلومات عن مدينة موغلة في القدم مثل مدينة القدس التاريخية.

قال فرانكن H.J. FRANKEN (إن معظم المعلومات القديمة والمكتوبة عن القـــدس في مراحلها المبكرة هي معلومات ذات طبيعة أدبـــية ودينية بـــالدرجة الأولى، مثل ما نجده في الكتــــاب المقدس (العهد القديم) حيث استخدمها الكتّاب القدماء للعهد القديم لإعادة بناء تاريخ القبائل العبرية أو لتذكير القرّاء بـــأعمال يهوة العظيمة في الماضي .... أو كتلك النصوص في مجموعة الألواح التي عرفت بما دعيت بـــــــــــه نصوص اللعنة(الطهارة) EXECRATION TEXTS التي عُثر عليها في مصر ...). [١٣]

لكن من خلال الحفريات التي أجرتها عالمة الآثار البريطانية كينيون K.KENYON في مدينة القدس، تمكنّت من الكشف عن أحدَ عشرَ قبراً في القدس تنتمي الى العصر البرونزي المبكر (٣٢٠٠ق.م – ٢٠٠٠ق.م) على جبل الزيتون (الطّور)، وبالتالي فإن وجود هذه القبور هو دليل واضح على أن العموريين [١٤] كانوا يعيشـــون في نهاية الألف الثالث قبـــل الميلاد على مقربة من وادي قدرون (جهنم) [١٥] وهو الوادي الذي يحيط بالقدس القديمة من الناحية الشرقية.

كما تمكنت كينيون في سنة ١٩٦١م من العثور على مبانٍ في أسفل السفح الشرقـــي لجبل أوفل تعود الى العصر البرونزي الأوسط (٢٠٠٠ق.م –١٥٥٠ق.م) وهو عبارة عن جدار سمكُهُ متران يتجّه من الجنوب الى الشمال، وكان لهذا الجدار زاوية تتجه الى الداخل في الجهة الشمالية يختفي بعدها الجدار تحت سور المدينة الذي بُني بـــعده بـــزمن طويل [١٦] وارتأت كينيون أن ســـور المدينة اليبوســـي كان هو ذاته ســــورها في العصر البرونزي

المتأخر(١٥٥٠ق.م-١٠٠٠ق.م) كما أثبتت أنه لم يكن هناك أي أثر لانشغال المنطقة شمال الخط الذي يفترض بأنه السور الذي بُني في العصر البرونزي الأوسط.[١٦]

لكنّ فرانكن يقول : (ليس هناك ما يشير الى أن المدينة (أي في ذلك العصر) استمر وجودها مدة طويلة، ومن الجائز أن الهكسوس الغزاة دمروا المدينة حوالي سنة ١٧٠٠ق.م ، و لم يعيدوا بناءها .....) ويضيف قائلا : (إن التحقيقات الأثرية لم تؤيد حدوث أي تغيير في الطبيعة السكانية في نهاية العصر البرونزي المتأخر (١٥٥٠ق.م -١٠٠٠ق.م) وبذلك قد يكون اليبوسيون قد أعادوا بناء الموقع في أوائل القرن الرابع عشر وشغلوه طوال أربعمائة سنة).[١٧]

وهكذا فإن المكتشفات الأثرية أثبتت بما لا يدع مجالا للشك بأن الكنعانيين وأصلهم من العموريين المهاجرين من شبه الجزيرة العربية الى أرض كنعان في فلسطين، هم أول الشعوب التي استوطنت أرض مدينة القدس وهم بناتها الأولون في حدود الألف الثالث قبل الميلاد، وهي الفترة التي شهدت فيها المدن الفلسطينية بفضل الكنعانيين ازدهاراً واضحاً وتقدماً حضارياً بارزاً، ويطلق عليها العلماء عصر دويلات المدن. فقد كانت كل مدينة كنعانية تتمتع آنذاك بقوة اقتصادية وسياسية مستقلة عن غيرها من المدن، وتضم معبداً أو أكثر وبعض المرافق العامة والمنازل بأحجامها المختلفة، وكانت مادة البناء المستعملة من اللّبن المجفف، كما شهدت تطوراً في صناعة الفخار والأدوات البرونزية والحجرية وأدوات الزينة، كما شهدت تقدماً واضحاً في الزراعة مثل زراعة الحبوب والزيتون.[١٨]

كما أكدت المكتشفات الأثرية من ناحية أخرى أن اليبوسيين العرب هم آخر الأقوام التي دخلت مدينة القدس القديمة واستوطنوا وعاشوا فيها قبل الإحتلال الإسرائيلي، فعملوا على إعادة بنائها وتحصينها من أعدائها الطامعين بها وبقايا السور اليبوسي لهو شاهد على ذلك .

واليبوسيون بطنٌ من بطون العرب نشأوا في صميم الجزيرة العربية وترعرعوا في أرجائها ثم نزحوا مَع مَن نزح من القبائل الكنعانية واستوطنوا أرض القدس في فلسطين بدليل ارتباطهم فقط بمدينة القدس وكانت تدعى في عهدهم (يبوس)، إضافة الى عدم وجود

ما يشير الى إنتشارهم في أنحاء أخرى من فلسطين.

بنى اليبوسيون مدينة القدس التاريخية على قـمة مرتفع الضهور (تل أوفل)، ويبلغ معدل علوه ٢٤٤٠ قدما عن سطح البحر [١٩]، ويبلغ طوله الممتد من الشـمال الى الجنوب نحو ٤٠٠ مترا ، وعرضه من الشرق الى الغرب نحو ١٣٥ متراً، أي أن مساحـته نحو ٥٤ دونما في حين كانت المساحة التي تشغلها القدس خلال الألف الثاني قبل الميلاد تقدّر بنحو ٤٠ دونما [٢٠]، أي أن مرتفع الضهور لم يكن مشغولا كله آنئذ بالأبـنية ، ويقـدر عدد سكان القدس في ذلك الوقت بنحو ٣٠٠٠ نسمة.[٢٠]

اختار اليبوسيون مرتفع الضهور كموقع لبناء مدينتهم لتمتعه بميزات استراتيجية طبيعية منها :

أولا :- أنّ مرتفع الضهور (تل أوفل) تحيط به أودية عميقـة من ثلاث جهات ، فكونت هذه الأودية الثلاثة خطوطا دفاعية طبيعية، وقد لاحـظ جميع المؤرخين أن جميع الجيوش التي فتحت القدس قديما وحديثا دخلتها من جهة الشمال. [٢١]

ثانيا :- أن قرب عين الماء جيحون (أم الدرج) في الجانب الشرقي من تل الضهور ساعد على توفير المياه للسكان.

ثالثا :- وقوع المدينة على الطريق التجاري الرئيسي الذي كان يربط مصر ببلاد الشـام، والطريق هي التي تبدأ من بحيرة التمساح مارة بسيناء - بئر السبع - الخليل - بيت لحم - القـدس- الجيب - بيتين - نابلس - ومن ثم تلتقي في مجدو مع الطريق الرئيسة الكبرى.[٢٢]

وكان لليبوسيين في القدس حكومة ذات نظام ، لها تجارتها وكيانها المعروف بين المدن المتحضرة آنذاك، كما عمل ملوكها على بناء القلاع والحصون لتحمي المدينة ، كما أقاموا حول الحصن سوراً من الصخر والطين ، مما ساعد على مكوثهم ردحـا من الزمن في عزة ومنعة واستقلال [٢٣]، ولما كانت عين الماء خارج سور المدينة حفر اليبوسيون نفقـا يصل منها الى داخل السور ويفضي الى بركة في الداخل عرفت فيما بعد (بـركة سـلوان) ،

وذلك ليتمكنوا من الشرب في حالات الحصار.[٢٣]

أما اللغة السائدة في تلك الأوقـات فكانت اللغة الكنعانية[٢٤] الى أن تم الفتح البابـلي لمدينة يبوس وأصبحـت اللغة البابـلية هي اللغة الرسمية ، وبقـيت اللغة الكنعانية هي لغة تخاطب أبناء الشعب وفيها كانت تؤدى الصلوات حيث كانت لليبوسيين ديانة هي مزيج من العقائد السامية والحورية ، وتقوم على عبادة الأصنام. ومن أشهر ملوكهم :

ملكيصادق : هو الملك الذي قيل عنه أنه التقى سيدنا إبراهيم عليه السـلام عند مجيئه الى فلسطين وهو في طريقه الى مصر، فهنأه بسلامة الوصول وقدم إليه بعض الهدايا ومنها الخبز والخمر.

سالم اليبوسـي : هو الملك الذي عُرف أنه بذل جهداً كبيراً في سعة عمران هذه المدينة، فقد بنى قلعة حصينة على الرابية الجنوبية الشرقية من يبوس سميت حصن يبوس والذي يُعد أقدم بناء في مدينة القدس[٢٥]، كما أقام من حوله الأسوار، وبـرج عال في أحـد أطرافه للسيطرة على المنطقة المحيطة بيبوس للدفاع عنها وعرف حصن يبـوس فيما بـعد بحصن صهيون، ويعرف الجبل الذي أقيم عليه الحصن بجبـل صهيون، وكانت يبـوس في عهده محصنة تماما حتى أنها صمدت أمام بني إسرائيل وقاومتهم مقاومة عنيفة.

آدوني صادق : هو الملك اليبوسي الذي ترأس حـلفاً من أربـعة ملوك للتصدي للغزو الإسرائيلي لمدن فلسطين بزعامة يشوع، لكن يشوع استطاع أن يترل الهزيمة بالحلفاء دون أن يتمكن من احتلال يبوس .[٢٦]

ولما تفرقت كلمة اليبوسيين و لم يكن فيها سوى حامية صغيرة، كان العبرانيون في تلك الأوقات قد حلوا بفلسطين واستولوا على كثير من القرى والمدن، فغزو مدينتهم وهاجموا السكان المحليين مما اضطر حاكم يبوس (القدس) عبـد خيبـا الى طلب العون من فرعون مصر أخناتون ليحـميه من العبرانيين، فكان هذا سببـاً لخضوع القـدس فترة من الزمن للفراعنة وسيطرتهم .

(٢)

القدس في عهد الفراعنة

(١٣٧٠ ق.م)

إن الحضارة المزدهرة التي كانت تتمتع بها يـــوس وأهلها، قـــد جعلتها مطمح الأنظار وخاصة من العبرانيين الذين كانوا يعيشون عيش البداوة في البراري والخيام ، والذين كانوا يزعجون اليبوسيين بالغزوات المتلاحقة حتى أنهم كادوا يقتحمون المدينة.

كان العبرانيون كلمـــا احتلوا مدينة أعملوا السيف والنار فيها وفي سكانها، في حين كان المصريّون يكتفون بالجزيـــة ولا يتعرضون لسكـــان البلاد ومعتقداتهم ، فأرســـل ملك القدس اليبوسي عبد خيبـــا ABED KHIBA الى فرعون مصر أخناتون يقدم له الولاء ، ويطلب منه العون ليحـــميه من غارات العبرانيين وذلك كما ورد في ست رسائل من مراسلات تل العمارنة في القرن الرابع عشر قبل الميلاد.[٢٧]

أسرع الفراعنة لنجدتهم وحمايتهم ، ومنذ ذلك الوقت خضعت يـــوس لحكم الفراعنة ومنهم أخناتون ١٣٧٠ ق.م. و توت عنخ آمـــون ١٣٥١ ق.م.

اتخذ المصريون يـــوس مخفراً أماميا لهم لقـــربها من الطريق التجاري الرئيســـي ، ولاهتمامهم الكبير بحماية الطرق التجارية ، فكان لهم فيها حـــامية كبـــيرة وجند كثيرون وموظفون وجباة.[٢٨]

لم يسع المصريون الى تمصير البلاد، ويستدل من قراءة ألواح تل العمارنة أن يـــوس لم تكن وحدها يومئذ خاضعة لسلطة الفراعنة، بل كان معها بقـــية المدن الكنعانية وكذلك سوريا وفينيقية، وكانت جميعها تدفع الجزية لمصر.[٢٩]

ومع مرور الوقت بدأ اليبوسيون بـــالتمرد على المصريين والثورة ضدهم ، وأبـــوا أن يدفعوا الجزية ، فساعدت هذه الاضطرابات على استغلال العبرانيين للموقف ومحاربـــتهم والتمكن من احتلال يبوس في عهد داود.

(٣)
القدس في عهد العبرانيين
(٩٦٦ ق.م)

اعتمد كثير من الباحثين والدارسين والمؤرخين القدامى منهم والمحدثين على حد سواء في كتاباتهم وأبحاثهم عن التاريخ المبكر لشعب بني إسرائيل على النصوص الواردة في كتاب العهد القديم أو ما يعرف بالتوراة.

لكن خلال الربع الأخير من هذا القرن ظهرت عدة نظريات حديثة من خلال منظور علم الآثار الحديث تؤكد أنه لا يمكن الاعتماد على النصوص التوراتية في كتابة تاريخ شعب إسرائيل القديم لأنها على حد قولهم عبارة عن مرويات شفوية ومجموعة من القصص التي تألفت من الحكايات الشعبية والأساطير والملاحم كانت قد كتبت في العهد الفارسي على شكل نماذج أدبية وبعد فترة طويلة من الأحداث التي تؤرخ لها والتي تمتد بين ٥٠٠-١٥٠٠ سنة.

وبناءً عليه سأقوم بسرد ما ورد إلينا من الروايات التاريخية المعتمدة على النصوص التوراتية عن تلك الحقبة الزمنية وما رافقها من أحداث تتعلق بمدينة القدس، كما سأورد ما نشر من نظريات وفرضيات تحاول دحض هذه الروايات والتشكيك بها.

تحدثنا الروايات التاريخية أن العبرانيين [٣٠] خرجوا من مصر حوالي عام (١٢٢٠ق.م) بقيادة موسى عليه السلام متجهين نحو أرض فلسطين، ولما حاولوا في بادئ الأمر دخول البلاد من ناحيتها الجنوبية قاومهم الفلسطينيون [٣١] وحالوا دون تحقيق هدفهم من دخول البلاد، عندئذ توجهوا الى جبال مؤاب والمناطق الواقعة شرقي الأردن.

في تلك الأثناء توفي موسى عليه السلام، فتولى قيادتهم يشوع بن نون الذي عَبَر بهم الأردن واحتلوا في طريقهم عدة قرى وأماكن في فلسطين، إلا أنهم لم يكتفوا بذلك بل

أرادوا احتلال مدينة يبوس، لكن المقاومة العنيفـــة التي أبداهـــا أهلهـــا، ووجود الأســوار المحصنــة حال دون تمكينهم من تحقيق هدفهم بالرغم من غزواتهم المستمرة والتي دامت أكثر من قرنين من الزمان الى أن تم لهم ذلك في عهد الملك داود.

أما من وجهة نظر بعض علماء الآثار وعلى رأسهم عالم الآثار الإسرائيلي البروفيســور فنكلشتاين (٣٢) أكد أنه لا يوجد أي دليل أثري على ما ورد في التوراة من قصة خروجهم من مصر الى أرض كنعان معتمداً في قوله هذا على نتائج البحـث الأثري العلمي والحفريات الأثرية التي أجريت على كامل أراضي سيناء والدلتا المصرية خلال العقود الأخيرة من القرن العشرين والتي لم يتم من خلالها اكتشاف أية بـراهين أثرية تؤكد هذا الخروج من مصر، كما يضيف قائلا : ليست هناك أية أدلة مكتوبة على وجود تجمع سكاني عبري اسـتوطن أرض مصر في القرن الثالث عشر قبل الميلاد وهي الفترة المفترضة للأحداث.(٣٣)

ونظرية فنكلشتاين تقضي بأن الكيان الإسرائيلي ظهر من خلال أحــداث اجتماعية محلية ومن قبل سكان محليين وليس نتيجة لحدث واحد .... ويقــول : كانت هناك ثلاث موجات استيطانية في المنطقة حدثت بينها ثلاث أزمات، الموجة المبكرة بين الألف الرابــع والثالث قبل الميلاد وبعد ذلك انهار هذا الموقع السكاني واختفى عن الوجود، والموجة الثانية حــدثت في مطلع الألف الثاني وذوت هي الأخرى، أما الموجة الثالثة المســماة الموجة الإسرائيلية..... فقد حدثت قريبا من فترة انهيار الحكم المصري وكانت أرض فلســطين مقاطعة مصرية فرعونية، وعندما بدأت مصر الفرعونية بالانهيار بدأت سلسلة أحداث أدت فيما تمخضت عنه الى بدء الاستيطان الدائم من قبل السكان الرحّل في البلاد.(٣٣)

هذا ومن جهة أخرى أكد د. طومسون (٣٤) وهو الأستاذ المتخصص في علم آثار التوراة ومن خلال دراسة له نشرها عام ١٩٩٢ عن التاريخ المبكر لشعب بني إســرائيل، أن نظرية خروج العبرانيين من مصر وغزوهم لفلسطين قد أثبتت عدم صحـــتها لأن دراســة أصول السكان والمستوطنات تؤكد أن السكان الأصليين في فلســطين لم يتغيروا كثيراً منذ العصر الحجري وخلال فترة القرن السادس الى الرابع قبل الميلاد، حيث قامت في فلســطين خلال العصر البرونزي القديم أنماطاً استيطانية واقتصادية بقيت واستمرت من خصائص المنطقــة

حتى الحقبة الآشورية على الأقل [٣٥] خلال القرن الثامن ق.م.

ووفقاً لنصوص التوراة يُعتقد أن العبرانيين حكموا مدينة يبوس نحو ثمانين عاماً ، وذلك في عهدي الملك داود وابنه الملك سليمان، وما تلا ذلك كان حكمهم تابعاً للأمم التي غزت المدينة المقدسة كالآشوريين والبابليين والفرس .

ومع أن العبرانيين اقتبسوا الشيء الكثير من الحضارة التي عُرفت بها يبوس ، فغيرت من طريقة معيشتهم وطورت أسلوب حياتهم، ونقلتهم من حـــياة البـــداوة الى المدنية ، إلا أن التقاليد القبلية والشعائر البدوية ما برحت بارزة في حـــياتهم حـــتى تاريخه رغم تعاقـــب الأجيال.[٣٦]

القدس في عهد الملك داود

(٩٩٦ق.م -٩٦٣ ق.م)

تذكر الروايات التاريخية المعتمدة على نصوص التوراة أن داود نُصّب ملكاً على العبرانيين في عام (١٠٠٤ق.م) بعد أن كان محاربا بين جند الملك شاؤول وكان يقيم في مدينة حبرون (الخليل)، ولما استقر له الحكم أراد أن يتخذ لنفسه موقعا أكثر تحصينا فوجد مطلبه هذا في مدينة يبوس فهي وعرة المسالك للقادم من الأردن أو من البحر أو من الجنوب على حد سواء، وهي مسوّرة غير مكشوفة للغزاة، كما أن المدينة كانت تتوسط مواقع القبائل اليهودية وكانت إثنتي عشرة قبيلة متفرقة في البلاد وبذلك يتمكن من السيطرة على جميعها.[٣٧]

يقال بأن الملك داود زحف نحو مدينة يبوس بجيش قوامه ثلاثون ألف مقاتل، الا أن اليبوسيين قاوموه مقاومة عنيفة وصدوه عنها، كما أن أسوار المدينة كانت ذات قوة ومنعة بحيث كان من الصعوبة بمكان على الغزاة اجتيازها الى داخل المدينة .

وعندما أعاد الملك داود الكرّة على المدينة، تمكن من احتلال (عين جيحون) وهي عين الماء الوحيدة الموجودة خارج أسوار المدينة والمعروفة اليوم بعين (أم الدرج). ولما كانت هي النبع الوحيد الذي يستقي منه اليبوسيون الماء ، كانوا قد حفروا نفقاً تحت الأرض يصل من بركة سلوان في داخل المدينة الى هذه العين خارجها، خاصة في أيام الحصار. فتمكن داود ومن خلال خدعة حربية أن يجتاز أسوار المدينة حيث عَبر جنده هذا النفق وتمكنوا من الوصول الى قلب المدينة، فسقطت بأيديهم عام (٩٩٦ ق.م).[٣٨]

لما استولى داود على مدينة يبوس، كانت تتمتع بوجود حكومة فيها وصناعة وتجارة وحضارة متقدمة، فاتخذها عاصمة ملكه وأسماها مدينة داود كما جعل اليهودية الديانة الرسمية في البلاد.[٣٩]

ولما كان داود على طريقة الكثير من الحكام القدماء الذين كانوا يدّعون أنهم يستمدون



١ مدخل النفق الواصل بين عين سلوان (جيحون، أم الدرج، خارج سور المدينة الى بركة سلوان في داخلها.

سلطتهم من الإله، فقـــد جعل من مدينته (مدينة داود) مقـــراً لجميع السـلطات الدينية والسياسية والعسكرية، ولذلك أعتبر داود المؤسس الأول للمملكة العبرية حيث جعل هناك نوعا من الاتحاد بين القبائل اليهودية في مملكة واحدة، وتابـعة لحكم مركزي واحـــد.[40] ويعتبر المؤرخون فترة حكم الملك داود الفترة الذهبية الأولى في حياة العبرانيين من النواحي السياسية والأدبية على وجه الخصوص.[41]

لكن فنكلشتاين يقول أن التوراة تصف الملك داود كحـاكم لأكبر الدول الإمبريالية الأقوى في الشرق الأوسط القديم في حين يعتقد هو أن داود كان مجرد حاكم عسكري قَبلي وضابط عسكري ممتاز.[42]

أما د. طومسون يرى أن نظرية قيام مملكة موحدة في الفترة المشار إليها قد سقطت لأن وجود إسرائيل أو يهوذا في هذا التاريخ المبكر لا تؤيده المعلومات المتوفرة عن فلســطين في تلك الفترة،[43] كما أن سكان يهوذا لم يكونوا قد استقروا بعد خلال القرن التاســع ق.م كما لم تكن هناك قاعدة سياسية أو اقتصادية قـــد وجدت بـــعد.[44] وهكذا فإن مدينة القدس من وجهة نظر د. طومسون لم تكن مؤهلة سكانياً وعمرانياً لتكون عاصمة لمملكة موحدة وأنها ظلت كذلك حتى حوالي القرن الثامن قبل الميلاد عندما كانت فلسطين تابعة لبابل وأخذت في التوسع بسبب التكاثر السكاني المحلي لا بأي سبب آخر.[45]

أهم إنجازات الملك داود في مدينة القدس حسب ما أوردته الروايات التاريخية :

١ – أنه ابتنى لنفسه قصراً من الحجارة وخشب الأرز كان قد أرســلها له صديقـــه الملك الفينيقي (حيرام) من مدينة صور في فينقية (لبنان) مع عدد من الصناع الفينيقيين[46]، كما بنى لرجاله من حوله بيوتا.

لكن فراس السواح يرد قائلا :(لا نملك حتى الآن أية وثيقـــة كتابـــية أو أركيولوجية (أثرية) تؤكد وجود ملك على مدينة صور في القرن العاشر ق.م اسمه حيرام).[47]

٢– عمل الملك داود على نقل تابوت العهد من بـــيت جيرين KERIATH JEARIM

الى مدينة القدس ليجعل من مدينة القدس المركز الديني للعبرانيين.[٤٨]

و(تابوت العهد) هو الرمز الأساسي لعبادة الإله الأوحد عند اليهود، وهو عبـــارة عن صندوق فيه لوحان من الحجر كُتب عليهما الوصايا العشر التي أنزلت على نبيهم موســـى. وكان يحفظ في حينه في خيمة تسمى خيمة الاجتماع، أي اجتماع الناس للعبـــادة وكان ينقل معهم في ترحالهم الدائم، إلا أنه كان دائم التعرض للاغتصاب من قبل أعدائهم ، كما حدث من قبل الفلسطيين الى أن تمكن داود من تحريره من أيديهم وعمل على نقله باحتفال كبير الى القدس.

فكرة بناء الهيكل عند الملك داود:

بعد أن استقر الحال لداود ولمن معه من العبرانيين في المدينة المحتلة الجديدة، أراد أن يبني هيكلا أو بيتاً مقدساً باسم الإله ليضع فيه تابوت العهد وليكون مركزاً عاماً للناس لعبـــادة ربهم.

اختلف المؤرخون في السبب الحقيقي الذي دعا الملك داود الى التفكير في بناء الهيكل، فمنهم من عزا ذلك الى رغبته في إرضاء أبناء شعبه بعد أن ســـلّط الله عليهم الطاعون لكثرة طغيانهم في الأرض.

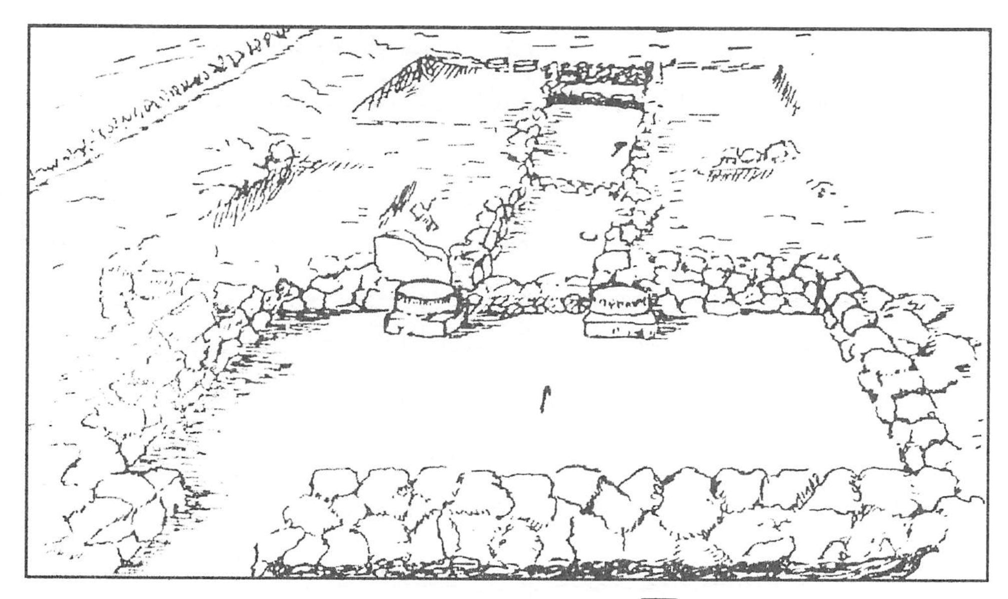
وفئة أخرى عزت رغبته تلك أنه وجد اليبوسين عندما تم له احتلال مدينتهم قد بـــنوا فيها بيتا للإله (شالم) على مكان مرتفع في المدينة كعادة الكنعانيين، لأن العبـــادة عندهم واجبة أن تتم في مكان محدد لا في المكان الذي يختاره كل متعبد على حـــدة، وكان المكان المرتفع يشير الى صلة الإله أو بيته بالسماوات العليا التي كانوا يعتقدون أنه ينطلق منها.[٤٩] ولذلك حاول داود أن يقتبس طريقة اليبوسسيين في بـــناء الهيكل وعلى مكان مرتفع أيضا ليضع فيه تابوت العهد.

في حين عزت فئة ثالثة رغبته تلك لكونه قد استولى على مدينة ليست ملكاً للشماليين أو للجنوبيين من العبرانيين وقد اتخذها عاصمة ملكه ومد منها سيطرته على جميع القبـــائل

اليهودية، ولكي يؤكد أهميتها أراد جعلها مركزاً دينيا عاماً لهم [٥٠]، وبما أن تابوت العهد هو الرمز الأساسي لعبادة الإله عند جميع اليهود، فقد أراد بناء هيكلا في المدينة ليضعه فيه.

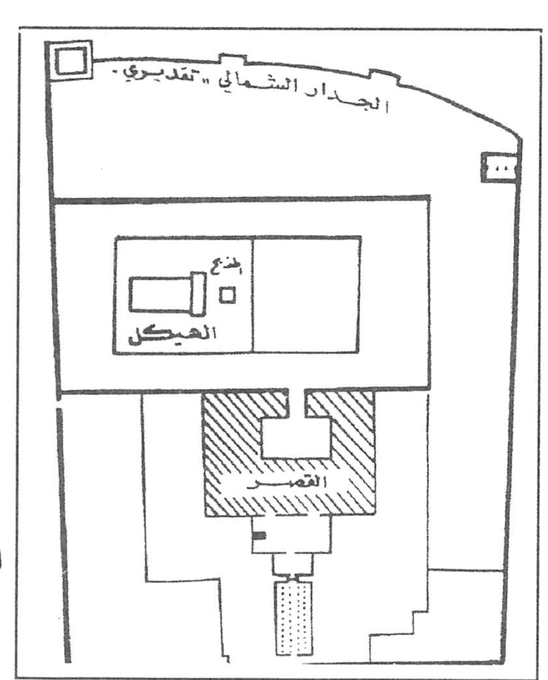
لكن الملك داود وجد معارضة من قبل بعض أحبار اليهود الذين رأوا أن بناء الهيكل يحصر وجود تابوت العهد في مكان واحد، وذلك خلافا لما اعتادوا عليه في سهولة نقله معهم الى كل مكان ينتقلون هم إليه منذ أن أنزل على نبيهم موسى. لكن داود لم يأبه للمعارضة التي لقيها وشرع في الإعداد لبناء الهيكل حيث ابتاع من أرنان اليبوسي بيدره الواقع على مسطح قمة جبل موريا (موقع الحرم القدسي الآن) ليبني عليه الهيكل، إلا أن أحد أنبياء اليهود وهو النبي ناثان أخبره أن يترك هذا المشروع لابنه من بعده [٥١]، وهكذا انصاع داود لإرادة الله و لم يَبْنِ الهيكل وأوكل الأمر لابنه سليمان وبقي تابوت العهد في الخيمة حتى آخر أيامه.

ومن الجدير بالذكر أنه عندما احتل داود مدينة يبوس، بقي السكان المحليين في مدينتهم واعترفت التوراة بهذا البقاء (فسكن بنو إسرائيل في وسط الكنعانيين والحثيين والأموريين واليبوسيين.).[٥٢] ولما مات الملك داود عام ٩٦٣ ف.م، تولى الحكم من بعده ابنه سليمان.



٢ هيكل كنعاني من الداخل

أ. الساحة ب. القدس جـ. قدس الأقداس



٣ هيكل سليمان من الخارج وبجواره (المذبح) وقد بني الى جوار (القصر) الخاص بالملك

نقلنا عن كتاب القدس العربية

القدس في عهد الملك سليمان

(٩٦٣-٩٢٣ق.م)

تذكر الروايات التاريخية أنه بعد موت الملك داود نصّب سليمان ملكاً على العبرانيين وأن حكمه كان أفضل من حكم أبيه، حيث رُوي عنه أنه كان رجلا حكيما في حين اتصّف أبوه داود بأنه قائد ومحارب أكثر منه حاكما.

وتقول الرواية التوراتية أن الملك سليمان رأى أن يكون على وفاق مع فرعون مصر ليأمن شره، فصاهره وتزوج من ابنته وبذلك تمكن من بسط نفوذه وحكمه الى جهات العقبة وسيناء وسورية[٥٣] وقد يكون امتد من دان الى بئر السبع على حسب القول المشهور عند اليهود. وهكذا يُعتقد أن المملكة العبرية وصلت في عهد الملك سليمان الى ذروة مجدها وشابهت في كثير من الأمور الممالك الشرقية المعاصرة.[٥٤]

لكن النص التوراتي لم يعطي أية تفاصيل أخرى عن فرعون مصر، ولذلك افترض المؤرخون أن حما سليمان هو الفرعون سيامون آخر فراعنة الأسرة الواحدة والعشرين، لأن الفرعون شيشنق الذي خلفه حسب ما ورد في التوراة كان من أعداء سليمان واستقبل خصمه يربعام عندما لجأ إليه، لكن النصوص المصرية المتوفرة من عصر الفرعون سيامون لا تذكر شيئا عن سليمان ولا عن مملكته، وكذلك الأمر بالنسبة للفرعون شيشنق حيث أن سجلاته لم تأتي على ذكر الملك سليمان ولا عن مدينة أورشليم ولا عن وجود مملكة قوية موحدة في فلسطين.[٥٥]

أهم إنجازات الملك سليمان في مدينة القدس حسب ما أوردته الروايات التاريخية :

١ – أنه بنى لنفسه قصراً ملكياً خاصاً به استغرق بناؤه ثلاث عشرة سنة.

٢ – يقال بأن الملك سليمان شرع في بناء الهيكل الذي أشتهر في التاريخ باسم هيكل سليمان في العام الرابع من حكمه وأنه أنجز في سبع سنوات (٩٦٠ق.م – ٩٥٣ ق.م).[٥٦] وتشير الروايات التاريخية أن الهيكل بقي قائماً منذ أن تم بناؤه في عهد الملك سليمان عام ٩٥٣ ق.م

٩٥٣ق.م الى أن تم تدميره نهائياً في عهد البابليين على يد نبوخذناصّر عام ٥٨٦ ق.م وذلك خلال حملته الثانية على القـــدس، حـــيث أخذ زينات الهيكل ومحتوياته ثم دمره تدميراً نهائياً.(٥٧) ولم يتمكن الأثريون من إيجاد أي أثر له على الإطلاق في المكان الذي يُقال أنه بُني عليه.(٥٨)

٣- قام الملك سليمان بتجديد بناء ما كان هناك من أسوار للمدينة .

٤- أن الملك سليمان عمل على إنشاء وفتح المخازن التجارية في المدينة لتمد القوافل المتنقلة بين بلاد الرافدين ومصر عبر مدينة القدس بما تحتاجه من المواد التموينية.(٥٩)

لكن فنكلشتاين يقول: أنه بناء على نصوص التوراة كان الملك سليمان بانياً كبيراً، الا أن الملك أحاب بالتحديد الذي تتحدث عنه التوراة بـــصفته حـــاكما ضعيفا ومتزوجاً من امرأة زانية اسمها ايزابيل كان على ما يبدو هو البناء الأكبر للأبنية التاريخية الهامة، حيث يعلل ذلك قائلا: إن المكتشفات الأثرية التي أرجعناها حتى الآن لفترة حكم داود وســـليمان في القرن العاشر ق.م بنيت على ما يبدو بعد ذلك بمائة عام أي في فترة حكم الملك أحاب.(٦٠)

هذا وتجمع الروايات التاريخية على أن الملك سليمان حتى ينجز بـــناء قـــصره الملكي والهيكل سخّر العمال لذلك تسخير العبيد وفرض على شعبه الضرائب الباهظة، فأدى ذلك الى تذمر العامة من حكمه. كما أنه قد تزوج عددا من النساء الأجنبيات غير ابـــنة فرعون وأذن لبعضهن بإحضار معبوداتهن الوثنية الى القصر والهيكل (٦١)، فأثّر ذلك في ديانة المجتمع اليهودي، فارتد اليهود عن عبادة الرب الى عبادة آلهة متعددة وعبـــادة الأوثان، فتمزقـــت بذلك وحدتهم ويعزو بنو إسرائيل خراب ملك اليهود بـــعد موته الى عمله هذا . ولما توفي الملك سليمان تولى الملك من بعده ابنه رحبعام عام (٩٢٣ ق.م.)

انقسام المملكة اليهودية :

تشير الروايات التاريخية المعتمدة على النصوص التوراتية أن الوحدة المؤقتة بين القبـــائل اليهودية التي حققها داود وسليمان خلال حكمهما كانت معرضة في كثير من الأحـــيان

للانهيار، إذ كان الخلاف اقتصادياً بالدرجة الأولى بين أهل الشمال الذين عملوا في الزراعة وأهل الجنوب الرعاة، وكذلك الخلاف بين طقوس الشماليين الكنعانية الطراز وطقوس الجنوبيين التي عبدت الإله يهوه، كل ذلك أدى الى تحيّن الطرفين الفرصة للانقسام.[٦٢] وقد لاحت هذه الفرصة بعد موت الملك سليمان عام (٩٣٢ق.م) حين اجتمع ممثلو القبائل الاثنى عشر في شكيم (قرب نابلس) لمبايعة رحبعام بن سليمان ملكاً عليهم وكان في السادسة عشرة من عمره، وعندما سئل عما إذا كان سيعمل على تخفيف عبء الضرائب التي فرضها والده عليهم، رد رحبعام بقسوة على سائليه ، فاتفق ممثلو عشر قبائل منهم على عدم مبايعته، فأدى ذلك الى انقسام المملكة اليهودية الى قسمين :

١ - مملكة إسرائيل وعاصمتها السامرة (نابلس) وانضم إليها عشرة أسباط.
٢ - مملكة يهوذا وعاصمتها أورشليم (القدس) وانضم إليها سبطان فقط.

مملكة يهوذا في القدس:

تشير الروايات التاريخية أن هذه المملكة لم تكن تزيد على بضعة مئات من الكيلومترات المربعة حول مدينة القدس.[٦٣] كما تشير النصوص التوراتية أن عرش يهوذا شهد عدداً من الملوك يماثل عدد ملوك إسرائيل الشمالية وهو تسعة عشر ملكا، غير أن المملكة الجنوبية دامت نحو قرن وثلث القرن أكثر من مملكة إسرائيل الشمالية.

ونتيجة لانقسام المملكة اليهودية ضعفت شوكة اليهود، وتعرضت القدس الى غزوات متلاحقة وغدت البلاد نهبا مقسماً بين الغزاة والمهاجمين من المصريين والسوريين والآشوريين.

وحسب النص التوراتي أن فرعون مصر شيشنق استغل فرصة تقسيم المملكة اليهودية وزحف الى مملكة يهوذا حوالي عام ٩٢٠ ق.م. واحتل أورشليم[٦٤] ونهب خزائنها وقفل راجعا الى مصر حاملا معه كنوز الهيكل والقصور كغنائم[٦٥]، فكانت تلك أول الغزوات التي شهدتها مملكة يهوذا.

إلا أن سجل الحملة الوحيدة لشيشنق على آسيا لم يأتي على ذكر مدينة أورشـــليم ولا عن أية مدينة مهمة من مدن يهوذا.[٦٦]

وتشير الروايات التاريخية أن مدينة القدس تعرضت بعد الغزو المصري الى غزو سوري، فقد أخذ (بنحدد الأول) وهو أحـــد ملوك دمشـــق في الفترة (٨٤٣ ق.م-٧٧٩ق.م) من ملوك يهوذا كنوزاً من معبـــدهم ومن القـــصر الملكي في أورشـــــليم وجعل المدينة تحت سيطرته.[٦٧]

وهكذا كانت تسير الأمور من سيئ الى أسوأ في المملكتين، و لم يكن لمملكتي يهوذا أو السامرة أي سلطان على الأجزاء الباقية من فلسطين.

لكن على ضوء الأبحاث التاريخية المعتمدة على الأبحاث الأركيولوجيـــة (الأثريـــة) الحديثة والتي شارك فيها باحثون يهود، لم يتأكد وجود مملكة إسرائيل في الشـــمال ومملكة يهوذا في الجنوب في الفترة المذكورة في التوراة.[٦٨]

(٤)

القدس في عهد الآشوريين

(٧٢١ ق.م)

ورد في كتب التاريخ أن أول الغزوات التي تعرضت لها مملكة إسرائيل الشمالية كانت على أيدي الآشوريين، فقد حاول الملك شلمنأسر الخامس القضاء على يهود السامرة الذين كانوا يشكلون مملكة اسرائيل الشمالية ولكنه مات قبل أن تستسلم له، فتولى أمر الفتح من بعده الملك صارغون الثاني الذي تمكن من فتحها وتأديب هوشع آخر ملوك إسرائيل وسبي أفضل رجاله الى أشور ومدن فارس[٦٩]، وبذلك تلاشت مملكة إسرائيل الى الأبد في حدود عام (٧٢١ق.م).[٧٠] وهكذا أصبحت مملكة يهوذا الجنوبية أكثر تعرضاً للهجمات المباشرة من قبل الآشوريين وبخاصة من المناطق الشمالية. وفي أوائل فترة حكم حزقيا لمملكة يهوذا (٧٢١-٦٩٣ق.م) أجبر على دفع الجزية لأشور .[٧١]

أراد حزقيا أن يتّبع سياسة تحد ضد آشور محاولا الإفادة من الصراع المصري الآشوري، فأيد المصريين في تحدي الآشوريين حيث أوقف دفع الجزية لأشور وقام بإنشاء سور حول الأحياء المنتشرة في جبل صهيون، كما حفر نفقاً جديداً في الصخر بين بركة سلوان وعين أم الدرج بلغ طوله ١٧٠٠ قدم[٧٢]، وذلك ليتمكن سكان المدينة من الوصول الى رأس النبع من داخل السور بسهولة ويسر دون أن يعرضوا أنفسهم لهجمات الأعداء.

إلا أن هذه المشاريع التي قام بها حزقيا ما كانت كافية لتنقذ القدس من الآشوريين الذين قاموا بمحاصرتها بقيادة سنحاريب عام (٧٠١ ق.م)، وكادت أن تسقط بأيديهم لولا تفشي مرض الطاعون الذي انتشر بين جند المحاربين وكاد أن يقضي عليهم لولا انسحابهم بعد أن سمحوا لحزقيا بالاحتفاظ بعرشه على أن يدفع الجزية المتأخرة عليه، وأن يرسل بناته وغيرهن من نساء القصر والكنوز الثمينة بعد عودة سنحاريب الى نينوى .[٧٣]

عاد الآشوريون الى القدس مرة أخرى في عهد الملك منسه الذي تولى المُلك بعد أبيه

حزقيا للفترة (٦٧٨ق.م -٦٤٤ق.م))، فاحتلوا المدينة واعتقلوا الملك وأرسلوه مكبــلا الى بابل[٧٤] ولكنهم بعد حين أطلقوا سراحه فرجع الى القدس .

فاق الآشوريون غيرهم من الأمم في تلك الأزمنة من حــيث التنظيم الإداري وســـن الأنظمة المتقنة للبلاد التي احتلوها في حين لم يهتموا بتحسين الأوضاع الصناعية والتجارية للولايات التابعة لهم، وكان جل اهتمامهم منصرفا الى سلب البلاد وجمع ما فيها من ذهب وفضة وأمتعة نفيسة، وفي حالة نشوب ثورة في إحدى الولايات التابــعة لهم كانوا يعزلون أميرها المحلي وينصّبون مكانه واحداً منهم .

كان من واجبات هذا الحاكم أن يحفظ النظام، ويرسل التقــارير عن حــالة ولايته الى الحكومة المركزية، وأن يجمع الضرائب ويرسلها الى العاصمة بعد أن يبقي منها مقــدار ما يحتاج إليه في إدارة البلاد التي جمعت منها. وبــعد مدة وجيزة دب الضعف والانحلال في صفوف الآشوريين فتخلوا عن هذه البلاد.

(٥)

القـدس في عهد البابليين

(٥٩٧ ق.م)

بعد أن حلّ الضعف والانحلال في صفوف الآشوريين انحازت مملكة يهوذا لملوك مصر وخضعت لسلطانهم وكانت تدفع لهم الجزية. إلا أنه في عام ٦٠٥ ق.م [٧٤] قامت بين المصريين والبابليين عند الفرات معارك دامية، كان النصر فيها للبابليين عظيما بدرجة أن نيخاو فرعون مصر لم يحاول الاشتباك معهم في حرب مرة أخرى، واضطر المصريون بمرور الوقت التخلي عن بلاد الشام وفلسطين فدخلت هذه البلاد تحت الحكم البابلي.

تعرضت مدينة القدس في عهد البابليين لحملتين واسعتين قام بهما ملكهم نبوخذناصّر الذي مكث على عرش بابل في الفترة الواقعة بين عامي (٦٠٤ق.م - ٥٦١ ق.م) فتمكن من فتح المدينة وسبي أهلها وكانت غالبيتهم من اليهود.

الحملة الأولى / السبي البابلي الأول:

وكان سببها أن مملكة يهوذا الصغيرة رفضت تأدية الجزية لبابل بعد أن شجع نيخاو (نخاؤس) فرعون مصر الملك يهوياقيم ملك يهوذا على الاستهانة بالبابلين وعلى تحدي ملكهم الثاني نبوخذناصّر، فجرّد عليهم حملة تأديبية عام ٥٩٧ ق.م [٧٥]

لم تقو المملكة الصغيرة على مقاومتها، فسقطت مدينة القدس وقُتل ملكها يهوياقيم، ولم يكن ابن ملك يهوذا وكان اسمه أيضا يهوياقيم أكثر حكمة من أبيه، حيث ثار مجدداً على بابل بعد مضي ثلاثة أشهر من توليه الحكم، لكنه سرعان ما وجد نفسه محاصراً وتم سبيه وأسرته وعددا من أتباعه ومنهم النبي حزقيال الى بابل، وعُين صدقيا ملكا على مملكة يهوذا.

الحملة الثانية / السبي البابلي الثاني:

وقد تمت بعد بضع سنين من السبي البابلي الأول حيث تظاهر الملك صدقيا في بداية حكمه بالولاء للملك نبوخذناصّر ، لكنه بعد ذلك انضم الى جملة المدن الثائرة على بابل، وحاول الاستقلال عنها استجابة لرغبات الزعماء الوطنيين في المملكة التي غذتها المعونات المصرية، فعاد إليه جيش نبوخذناصّر عام ٥٨٧ ق.م، وبعد حصار دام قرابة الأربعة أشهر سقطت مدينة القدس في عام ٥٨٦ ق.م [٧٥] فأحرقها الملك البابلي وهدم هيكل سليمان، وقد حاول بعض اليهود الهرب من المدينة وعلى رأسهم ملكهم صدقيا، فتبعهم البابليون في البرية وألقوا القبض على الملك وبنيه ومن معهم من الرجال، وعندما أُتي به الى معسكر نبوخذناصّر قتل أبناءه أمامه، ثم سُملت عيناه لكي يكون ذلك آخر مشهد يراه، ثم قُيد الملك بسلاسل وحُمل الى بابل مع من سُبي من أهل المدينة. [٧٦]

أهم النتائج التي ترتبت على السبي البابلي :

أولا: هروب العديد من اليهود الذين استبقاهم نبوخذناصّر في القدس و لم ينفهم الى بابل، الى بلاد مصر والحجاز وذلك إما لضعفهم أو لفقرهم. فكتب نبوخذناصّر الى فرعون مصر يطلب إرجاعهم قائلا : هؤلاء عبيدي هربوا إليك. فلم يرجعهم فرعون مصر ورد قائلا : ليس هم بعبيدك وإنما هم أحرار. فكان هذا سبب توجه نبوخذناصّر لغزو مصر وقتل فرعون الأعرج [٧٧]، وأما جماعة اليهود الذين تمكنوا من الهرب الى بلاد الحجاز فقد أقاموا مع العرب هناك. [٧٧]

ثانيا: في أثناء إقامة اليهود في بابل أخذوا يفكرون ملياً في شؤون ديانتهم، وأخذ شيوخهم هناك يتبعون لأول مرة عقيدة التوحيد الصافية، تلك العقيدة التي ضمنوها التوراة وجمعوا فيها كتابات أسلافهم وأقوالهم. [٧٨]

وهكذا تحول اليهود بعد السبّي وتدمير الهيكل الى جماعات حطت في أماكن متفرقة من العالم، فتجنسوا بجنسيات البلاد التي نزلوا فيها وتصاهروا مع عائلاتها، واستطاع كثير

أن يجمع ثروات طائلة من وراء اشـــتغالهم بـــالتجارة.[٧٩] فكانت النتيجة التي جاءت على لسان أرميا ١٩ : ١١ (كُسر هذا الشـــعب وهذه المدينة كما يكســـر وعاء الفخار بحيث لا يمكن جبره).

وبذلك أصبحت هذه البلاد من أدناها الى أقصاها مســـتعمرة بابـــلية تدفع الضرائب لبابل، وازداد تعاملها التجاري والاقتصادي معهم، كما انتشـــرت الكتابـــة المســـمارية وشاعت اللغة البابلية في السياســـة والتجارة وظلت هذه لغة البـــلاد الرسمية حـــتى الفتح الفارسي، في حين كانت اللغة الدارجة بين سكان البلاد اللغة الكنعانية.

(٦)
القـدس في عهد الفرس
(٥٣٨ ق.م)

عندما تغلب كورش ملك الفرس على البابليين وأخضع مدن بابل وآشور حـــوالي عام ٥٣٩ ق.م، سار في فتوحاته قدماً حتى احتل بلاد الشام ثم جاء الى القـــدس واحـــتلها عام ٥٣٨ق.م.[٨٠]

حينما وقعت بابل تحت الحكم الفارسي وجد فيها الملك كورش اليهود الذين تم أسرهم على يد نبوخذ نصر، وهم أسرى سنة ٥٩٧ ق.م وأسرى سنة ٥٨٦ ق.م، فخيّرهم بـــين الرجوع الى القدس أو البقاء في بابل، فآثر فريق منهم البقاء وهم الذين أصابوا نجاحا وثراء في منفاهم، في حين استجاب ما يقرب من خمسين ألفا من الرجال لهذه الدعوة وهم بـــصورة رئيسة من العناصر الناقمة من اليهود.[٨١]

اختلف المؤرخون في السبب الحقيقي الذي دفع كورش بالسماح لليهود بالرجوع من المنفى وتم إيعازه للأسباب التالية :

الرواية الأولى : تذكر زواج كورش من أخت زربابيل[٨٢] وهو من سلالة الملك يهوياقـــيم ملك يهوذا الذي تم أسره في السبي البابلي الأول عام ٥٩٧ق.م، ولما دخل بها ارتفعت عنده فقال لها اطلبي ما تشائين، فطلبت منه أن يسمح لليهود المنفيين الى بابل بالعودة الى القدس، فسمح لهم بذلك.

الرواية الثانية : التي ذكرها بعض المؤرخين، أن أسرى اليهود في بابل هم الذين ســاعدوا كورش على فتح المدينة، مما جعله يصدر أمره بالســـماح لمن يرغب منهم بـــالرجوع الى القدس، كما سمح لهم بإعادة بناء الهيكل.[٨٣]

الرواية الثالثة :بأنه كانت لديه رغبـــة في جعل العائدين من اليهود جماعة موالية للســـلطة

الفارسية ضد الجماعات الموالية للنفوذ المصري ذات التأثير البارز في المنطقة الفلسطينية.[٨٤]

وما هو مؤكد منه هو أن عودة المنفيين الى القدس قد تمت في عهد كورش الفارسي، وكان زعيم العائدين من اليهود هو زربابيل وهو من سلالة الملك يهوياقيم، وقد أعيدت معه كنوز الهيكل الذي هدمه نبوخذ ناصر، كما عينته الجماعة العائدة حاكما عليها بعض الوقت، وعند وصولهم الى القدس بنو مذبحا على موقع الهيكل كما وضعوا أساس الهيكل إلا أنهم سرعان ما أوقفوا عن العمل، و لم يتم بناء الهيكل ثانية إلا بعد مرور أكثر من خمس عشرة سنة وفي عهد الملك داريوس وعلى نفقة الدولة الفارسية سنة ٥١٥ق.م[٨٤]، ويقال أنه تم تخطيطه وفقاً لتنظيم وتصميم الهيكل القديم (هيكل سليمان) وبذات المقاييس القديمة.[٨٥]

ومن أشهر ملوك الفرس الذين كان لهم شأن في هذه البلاد الملك أرتاكس الأول أو كما يسميه بعضهم أرتخشتا الأول ودام حكمه قرابة أربعين عاما (٤٦٥ق.م -٤٢٤ ق.م) وقد حذا هذا الملك حذو سابقه كورش حيث سمح بعودة فريقين من اليهود المسبيين.

الفريق الأول: برئاسة عزرا ويسمى بالعزيز أيضا، وهو من ذرية هارون بن عمران وكان قد رسم كاهنا في بابل، فرجع الى القدس ليصلح ديانة الشعب اليهودي بإذن من الملك الذي أقر الديانة اليهودية عام ٤٥٨ق.م.

الفريق الثاني: برئاسة نحميا وكان في الحادية والعشرين من عمره ويعمل حاملا للكؤوس في البلاط الملكي ومن المقربين الى الملك، فوصل الى القدس عام ٤٤٤ ق.م ، وقد عينه الملك حاكما على القدس ومنحه سلطة واسعة وأذن له ببناء ما تهدم من السور، وقد تمت عمارته في اثنين وخمسين يوما[٨٦] بالرغم من معارضة جيرانه مثل صنبلاط حاكم السامرة و جشمو الزعيم العربي وحتى بعض وجهاء اليهود المحليين.

حكم نحميا شعبه في ظل السيادة الفارسية بين عامي (٤٤٤ق.م- ٤٣٢ق.م) وكانت الدولة دولة دينية كما في عهد زربابيل، لكن اللغة الدارجة بينهم كانت الآرامية في حين لم تعد تستعمل اللغة العبرية إلا كلغة دين، وذلك ليس في منفاهم فقط وإنما في القدس أيضا.[٨٧]

ولما تولى عزرا [٨٨] الحكم بعد نحميا كان من أهم أهدافه إيجاد العنصر اليهودي النقي، وبلغ برنامجه العنصري حداً جعله يحتم طلاق النساء غير اليهوديات وإعلان أبـــنائهن غير شرعيين، وبذلك يكون قد فاق نحميا الذي اكتفى بـــلعن هؤلاء الأزواج وجلدهم ونزع شعورهم وانتزع اليمين منهم بعدم عمل ذلك ثانية.

وهكذا بقـــيت مدينة القـــدس خاضعة لملوك الفرس وتدفع الضرائب والعوائد لهم، وتسهل لهم سبل العبور الى مصر الى أن تغلب اليونان عليهم، فدخلت القدس تحت حكم اليونان سنة ٣٣٢ ق.م.

(٧)

القـدس في عهـد اليونانيين

(٣٣٢ ق.م)

في عهد الملك الفارسي دارا اشتعل فتيل الحرب بين دولتي الفرس واليونان بقيادة الملك الإسكندر المقدوني الذي تمكن من قـــهرهم وفتح المدن والأمصار التي كانت تابــعة لهم. فاحتل مدينتي دمشق وصيدا، وفيما كان يحاصر مدينة صور أرسل رسله الى الحاخام الأكبر بمدينة القدس طالبا منه أن يمده بــعدد من المتطوعين، وأن يكون على صلات حســنة مع المقدونيين كما كان قبل ذلك مع الفرس، ولما لم يأته جواب يرضيه استشاط الإســكندر غضباً وكانت مدينة صور قد سقطت في يده فوجه جيشـــه نحو مدينة القـــدس، ولما سمع اليهود باقتراب جيش الإسكندر من مدينتهم، هرعوا لاستقباله خارج المدينة حتى يقال أنه لم يتبق في داخلها أحد من السكان.

وهكذا فتحت المدينة المقدسة سلماً عام ٣٣٢ ق.م، ومنح الإسكندر اليهود المقــيمين في المدينة حريتهم وسمح لهم بالحكم الذاتي وأعفاهم من دفع الجزية إلا مرة كل سبع سنين.

بعد وفاة الإسكندر المقدوني سنة ٣٢٣ ق.م [٨٩] احتدم الصراع العنيف بين قادته على من سيتولى الحكم من بعده، الى أن انتهى الصراع عام ٣٠٢ ق.م باقتسام مُلكه بين قـــادته الأربعة، ويهمنا منهم اثنان :

الأول : سلوقس وقد تولى حكم سورية الشمالية وآسية الصغرى وبلاد الرافدين والهضبة الإيرانية.

الثاني : بطليموس وقد تولى حكم مصر وبرقة وبعض جزر بحر إيجة وفلسطين.

وبوفاة الإسكندر المقدوني بدأ العهد الهلنستي [٩٠]، وقـــد تميز هذا العهد بـــالنزاعات المستمرة بين السلوقيين والبطالمة حول امتلاك ســـورية المجوفة (وهي المنطقـــة الممتدة الى الجنوب من اللاذقية وتشمل لبنان وفلسطين وبعض أجزاء من سورية الداخلية كدمشق).

القدس تحت حكم البطالمة :

حكم بطليموس الأول اليهود بالرغم منهم، فقد قام بمحاصرة مدينة المقـــدس فترة من الزمن، لكنها امتنعت عليه في بادئ الأمر نتيجة لمقاومتهم، إلا أنه علم أن اليهود يقدسون يوم السبت SABBATH DAY ولا يأتون بأي عمل فيه، فهاجم المدينة في يوم سبت وقعد اليهود و لم يدافعوا عنها، فتم له فتح المدينة ودكّ قســماً من حـــصونها وجرّد أهلها من السلاح، إلا أنه عاد فتساهل في معاملتهم بعد أن تعهد كاهنهم الأكبر إبسس IPSUS بدفع الجزية بانتظام.(٩١)

وتذكر المصادر التاريخية أن الحكام البــطالمة كانوا يحابـــون اليهود كثيرا لدرجة أن بطليموس الثاني كان يُعتبر صديقاً لليهود بسبب ما أولاهم به من الرعاية أكثر من أي ملك آخر ، كما أجزل الهدايا الثمينة لمعبدهم في القدس.(٩٢)

لكن السلوقـــيين بقـــيادة ملكهم أنطيخوس الثالث (٢٢٣- ١٨٧ ق.م) تمكنوا من التغلب على البطالمة في موقعة بانيون PANION عام ١٩٨ ق.م، وأحرزوا النصر الكبـــير على جيش البطالمة مما أدى الى وقوع فلسطين تحت حكمهم، وبالتالي أصبحت القدس تتبع حكم السلوقيين.

القدس تحت حكم السلوقيين :

مـــــن أشهر ملوك السلوقيين الذين كــــان لهم شأن في إدارة مدينـــــة القدس أنطيوخس الرابـــع ANTIOCHUS IV ، وكان يعلم مدى ارتباط أهلها اليهود بمنافسيه البطالمة، فوجد أن خير وسيلة للقضاء على تعنتهم وإضعاف وخلخلة صفوفهم عن طريق محاولة صبغتهم بالصبغة الإغريقية. فأرسل في عام ١٦٧ ق.م أحد قادته الى القدس وكلّفه بإلغاء الطقوس الدينية اليهودية والاستعاضة بـــالإله زيوس ZIOS الأولمبي عن الإله يهوه، وإقامة مذبح على النمط الإغريقي فوق المذبح اليهودي، وحرّم الختان واقـــتناء الأســـفار المقدسة وأوجب أكل لحم الخنزير.(٩٣) فأدت هذه الأوامر الى انقسام اليهود الى قســـمين:

القسم الأول : انصرف عن التعاليم اليهودية وأقام في القدس، وهم المتأغرقون أو المتهلنون.

القسم الثاني: هرب خارج المدينة المقدسة وأُطلق عليهم اسم حزب القديسين CHASIDIM واعتمدوا لقيادتهم ماتاتيه MATTATIAH كبير عائلة الأشمونيين HASMONEANS لكنه توفي بعد فترة وجيزة من تولي زعامتهم، فتولى من بعده ابنه الثالث يهوذا وكان يلقب بالمكابي، وقد تمكن من النجاح في التصدي للقوات السلوقية مما دفع بالكثيرين من المرتدين اليهود الى الانضمام إليه.

في عام ١٦٥ ق.م. اندلعت ثورة المكابيين ضد السلوقيين بقيادة يهوذا المكابي، وتم لهم النصر بعد معارك عديدة مع السلوقيين، مما دفع أنطيوخس الرابع الى الاستجابة لطلب المكابيين بالسماح لهم بالعودة الى القدس وإقامة حكم ذاتي متسم بالحرية الدينية، فعاد المكابيون الى القدس في ١٢/٢٥/ عام ١٦٤ق.م[٩٤]، وما زال اليهود يحتفلون بهذا العيد تحت اسم عيد الأنوار (حانوكا).

بعد وفاة الملك السلوقي أنطيوخس الرابع أخذ المكابيون بالضغط على المتأغرقين اليهود الذين استجاروا بالقائد لوسياس LUSIAS نائب الملك في إنطاكية، فأنجدهم هذا وهزم المكابيين في معركة بيت زكريا بالقرب من بيت صور.[٩٥] وفي تلك الفترة رغبت روما في إزاحة لوسياس عن مركز السلطة في إنطاكية فساعدت أحد أدعياء العرش السلوقي ويدعى دمتريوس الأول على استعادة عرشه سنة ١٦٢ ق.م.

أقام الملك دمتريوس على رأس الإدارة في القدس أحد أمناءه واسمه بكيدس، وقلّد الكيمس رئاسة الأحبار وهو يهودي من بني هارون الذين لا يحق لهم الرئاسة، ووضع تحت تصرف الاثنين جيشاً كبيراً ليحكما به البلاد.[٩٥]

حروباً كثيرة وقعت بعد ذلك بين اليهود أنفسهم من أنصار الكيمس من ناحية والمكابيين من الناحية الأخرى، وقد سالت فيها دماء كثيرة، فاستبدل الملك دمتريوس الوالي بكيدس بوال غيره يدعى نكانور الذي أمره الملك بإلقاء القبض على رئيس المكابيين وإرساله اليه، فقامت بين الفريقين حرب من جديد وقتل نكانور، فخشي المكابيون أن

يبطش بهم الملك دمتريوس فأرسلوا رسولين من رجالهم الى روما ووقـــعوا معاهدة تعهدت لهم فيها روما بمد يد العون إليهم في حـــــــــال تعرضهم لهجوم [٩٥]، وكان ذلك في عام ١٦١ ق.م. إلا أن حروبا أخرى جديدة نشبت بين قادة دمتريوس والمكابيين، حققوا فيها نصراً كبيراً على المكابـــين وقُتل يهوذا المكابي في عام ١٦٠ ق.م وفر اخوته وصحبـــه عبر الأردن. [٩٥]

وفي عام ١٥٧ ق.م. عرض الملك دمتريوس على يوناثان زعيم المكابـــيين الجديد وهو شقيق يهوذا الصلح شرط ألا يقيم وجماعته داخل أسوار القدس، فقبل يوناثان ذلك وأقـــام في مكماش. [٩٥] وبعد موت الكاهن الأعظم في القدس اغتصب يوناثان المنصب لنفســـه ومد نفوذه وأسس إمارة مستقلة بالقدس بزعامته.

وفي عام ١٥٠ ق.م. نشب قتال بين الملك دمتريوس ومنافســـه الإســـكندر بـــالاس ALEXANDER BALAS من أجل الحكم، وبتأييد من روما ودعم اليهود للإســـكندر تمكن من هزيمة دمتريوس وقتله. [٩٦] ومنذ عهد الإسكندر بـــالاس تمتعت الطائفة اليهودية بالاستقلال الذاتي في مدينة القدس بزعامة يوناثان و لم يكن لينتقص منه إلا وجود حـــامية سورية صغيرة في قلعة القدس، فاستغل يوناثان النزاع الذي نشب بين بـــالاس ودمتريوس الثاني (ابن الأول) وضرب حصاراً على القلعة للتخلص من آخر مظاهر السيطرة الملكية. ونجح بالهدايا والأموال في استمالة الملك الإسكندر الذي تغاضى عن توسع المكابين وامتداد نفوذهم . [٩٦]

ومع تزايد الخلافات الداخلية في ســـورية ومصر تمكن المكابـــيون في عهد هركانوس الأول وفي عهد خليفته أريستوبـــولس عام ١٠٤ق.م - ١٠٣ ق.م. من مد نفوذهم على معظم فلسطين. [٩٦]

وفي سنة ٦٧ ق.م. تمكن أريستوبولس الثاني من انتزاع الملك ورئاسة الأحبار من أخيه هركانوس الثاني، فنشبت بين الأخوين حروب دامية حتى عام ٦٥ ق.م. الذي تمكنت فيه القوات الرومانية من الوصول الى دمشق، فسعى كل من الأخوين المتحاربين للاستنجاد بروما لدعمه وتأييده ضد أخيه.

وفي عام ٦٣ ق.م. وصل بـومبي الى دمشـق ومن ثم توجه الى القـدس [٩٧]، فقـام أريستوبولس الثاني بتسليم نفسه في حين أخذت جماعته بـالدفاع عن منطقـة الهيكل و لم يتمكن بومبي من الدخول الى المدينة إلا بعد مرور ثلاثة أشـهر، فأصر بـومبي على دخول الهيكل للاستهزاء بمشاعر اليهود وإذلالهم لكن دون إلحاق الضرر بمحـتوياته [٩٧]، ومن ثم عمل على نقل الآلاف من اليهود كعبيد ليعملوا في الغرب. [٩٧]

وهكذا لم يتم القضاء على الحكم اليوناني في المنطقة فحسب، بـل وعلى غطرسـة المكابيين أيضاً.

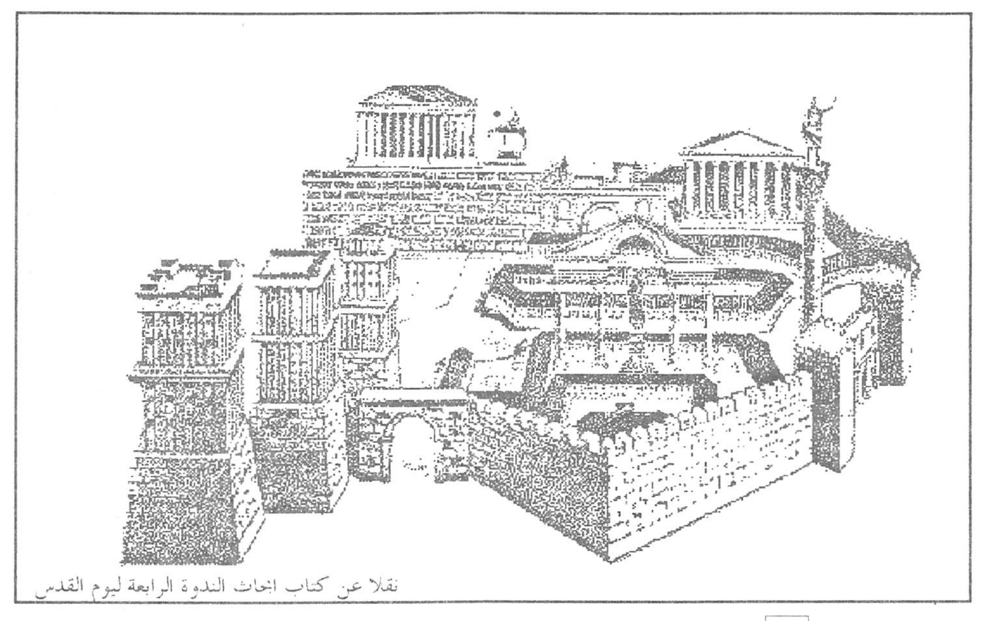
(٨)
القـدس في عهد الرومان
(٦٣ ق.م)

دخلت مدينة القدس ضمن النفوذ الروماني سنة (٦٣ ق.م) وذلك عندما تمكن القائد بومبي (بومبيوس) الروماني من فتحها ودخولها سلما، وكان سكانها آنذاك على قول سترابو الذي كتب حوالي سنة ١٩م بأن ثُلُثي عددهم تقريبا كان من اليهود أما الباقـــون فكانوا من الأنباط ويسكنون بلاد أدوم جنوب القدس وحـــولها، أما المصريون والعرب والفينيقـــيون فكانوا الى الشمال.(٩٨)

ولما اعتبرت ولاية سورية ذات أهمية مركزية في الممتلكات الأسيوية، أصدر بومبي قراراً بأن تحكم ولاية سورية مباشرة من قبل نائب أو قنصل روماني يتمتع بســـلطة تجنيد الجيوش والاشتراك في الحروب.

كان من أبرز الذين تولوا حكم ولاية سورية أوليوس غابينوس AULUS GABINIUS الذي حكم للفترة (٥٧ ق.م-٥٥ ق.م)، فعمل على تقليص ســـلطة المملكة اليهودية في القدس والتي كانت خاضعة له ضمن إطار ولاية ســـورية وذلك بـــتجريد الكاهن الأعظم هيركانوس من رتبته الملكية، وفرض الضرائب البـــاهظة على الســـكان، وتقســـيم الدولة اليهودية الى خمسة أقاليم يحكم كلا منها مجلس أو سنهدرين.(٩٩)

لما نشبت الحرب الأهلية في روما وقتل بومبي سنة ٤٨ ق.م، اضطربت الأحوال العامة في الدولة الرومانية مما أدى الى اضطراب الوضع في سورية، وأثناء تقسيم العالم الروماني من قبل الحكومة الثلاثية أصبحت سورية ومصر وبلاد الشرق تحت سلطة مارك أنطونيو الذي بتوليه لشؤون الشرق أهمل الأسرة المكابية ورفع مكانها الأسرة الهيرودية.


نقلا عن كتاب ابحاث الندوة الرابعة ليوم القدس

٤ مجسم مدينة إيليا كابيتولينا/ القدس في العصر الروماني.

القدس في عهد هيرودس الكبير : (٣٧ق.م - ٤ق.م)

في سنة ٣٩ ق.م أعلن مجلس الشيوخ في روما تنصيب هيرودس الكبير وهو آدومي الأصل ويهودي الديانة وروماني التبعية ملكاً على الدولة اليهودية في القدس، فعاد أدراجه الى فلسطين ليحارب من أجل منصبه الجديد وقد كان حاكما لمنطقة الجليل فقط، وفي سنة ٣٧ ق.م تمكن من فرض سيطرته التامة على القدس وظل يحكمها باسم الرومان حتى وفاته في السنة الرابعة قبل الميلاد .(١٠٠)

تمتع هيرودس الكبير بسلطة نافذة وثروة باهظة مكنّته من تحقيق رغبته في تبديل وجه المملكة اليهودية تبديلاً كاملاً وجعلها من الفخامة والجمال شبه مملكة هلنستية، وإن بعض مبانيه الضخمة وكثيراً من شوارعه في القدس لا تزال تُرى وتستعمل حتى يومنا هذا.

بدأت إعادة بناء مدينة القدس بصورة جدية بعد سنتين من المجاعة التي شهدتها المنطقة سنة ٢٤ أو ٢٥ ق.م [١٠٠]، حيث استهلت أعمال البناء بإنشاء القصر الملكي غربي المدينة وكان يتألف من مبنيين كبيرين يتوسط بينهما حدائق تنساب فيها المياه، كما أقيم في الطرف الشمالي للقصر ثلاثة أبراج غنية بالزخارف الجميلة [١٠١]، وكان لها قواعد متينة يبلغ ارتفاعها حوالي ١٥ متراً للمقاومة والدفاع عن القصر إبان المعارك [١٠٢] ولا تزال قاعدة أحد هذه الأبراج تشكل جزءاً من قلعة القدس، وكان يحيط بالقصر خندق. كذلك قام هيرودس برصف الشوارع على التل الغربي للمدينة بأسلوب جديد، كما سار قدماً في توسيع المدينة.[١٠٢]

وفي سنة ١٩ أو ١٨ ق.م خطط هيرودس لإعادة بناء الهيكل اليهودي، وقد واجه اعتراضات مختلفة من الكهنة، لكنه شرع في إعادة البناء وتم الانتهاء منه بعد ١٨ شهراً.[١٠٢]

أما بالنسبة لتزويد المدينة المقدسة بالمياه، فقد ذكر يوسيفوس فلاويوس في كتابه (الحرب الرومانية اليهودية) أن قصر هيرودس الذي كان قائماً على أعلى نقطة في القدس كان مزوداً بالمياه بصورة جيدة، وأن نبع القدس في سلوان يوجد في أسفل الزاوية الجنوبية الغربية من المدينة، وأن الجزء العلوي من المدينة ظلّ لفترة طويلة يزود بالمياه من البرك التي كانت تتجمع فيها مياه الوديان المجاورة، وكان يتم نقل مخزونها الى أطراف المدينة بواسطة الأقنية، كما أضاف قائلا: أن هناك احتمال كبير أن يكون هيرودس هو باني البركة المعروفة ببركة (ماملا) التي تبعد عن غرب المدينة بمسافة قصيرة، وأن هناك بركة أخرى هي البركة الكائنة في منطقة القدس الجديدة والتي لم يكن السور زمن هيرودس قد أحاط بها.[١٠٣]

كما بنى هيرودس في القدس مسرحاً وميداناً لسباق الخيل، وأقام ألعاباً عامة وكانت جميع وسائل الترفيه هذه غريبة على اليهود ولا تتفق مع ديانتهم . [١٠٤]

نشوء الديانة المسيحية :

إن أول نشوء للديانة المسيحية شهدها المدن الفلسطينية خلال العهد الروماني، حـــيث يستخلص من كتب الإنجيل أن السيد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام ولد في تلك الفترة الزمنية أي سنة ٤ ق.م في مدينة بيت لحم، ثم انتقل مع أسرته الى مدينة الناصرة للعيش هناك، لكن أهل بلدته الناصرة رفضوا الاعتراف بأنه المسيح المنتظر فانتقل الى بـــلدة كفر ناحـــوم وظل فيها مدة سنة يعلّم تلاميذه ليكونوا رسُله. (١٠٥)

نتيجة لتعاليمه الداعية الى الفضائل الأخلاقية والإصلاح الاجتماعي ذاعت شهرة السيد المسيح وكثر أتبـــاعه من الفقــــراء والمضطهدين، إلا أن جماعات اليهود أخذت تعمل على محاربة دعوته ومقاومة تعاليمه. وفي سنة ٣٠م وبمناسبة عيد الفصح ذهب السيد المسيح الى مدينة القدس وزار الهيكل (١٠٥)، فخاف اليهود من زيارته تلك وما قد ينتج عنها من تبعات فأسرع بمجلس السنهدرين الى الاجتماع وقرر إلقاء القبض عليه وأصدر في الحال الحكم عليه بالإعدام، وكان حاكم القدس آنذاك بونتيوس بيلاطوس وهو من له الحق في تنفيذ الحكم، فنفذ الحكم فيه في المكان المسمى بالجلجلة.(١٠٦)

الثورات اليهودية ضد الحكم الروماني :

تعرضت مدينة القدس لأحداث خطيرة ومهمة في تلك الفترة الزمنية، كانت جميعها رد فعل لثورات اليهود المتكررة ضد الحكم الروماني والتي جلبـــت الخراب والدمار ليس على المدينة المقدسة فحسب وإنما أيضا على اليهود أنفسهم.

في عهد الإمبراطور (نيرون) أعلنت أولى الثورات اليهودية على الحكم الرومـــاني في خلال السنوات (٦٦-٧٠م) فأعد حاكم سوريا سيستيوس غالوّس العدة لمحاربـــة اليهود وزحف الى القدس حيث وصلها في أواسط تشرين الثاني سنة ٦٦م، وأقام معسكره في جبل سكوبس (جبل المشارق) ومنه ذهب الى بيت حسدا مما يدل على أن السور الشمالي لم يكن قد بُني بعد (١٠٧)، ولكنه ما أن اقترب من المدينة حتى قفل راجعا أدراجه، فلاحقه اليهود أثناء تراجعه على الطريق المؤدي الى عمواس، وهُزمت قواته وقـــتل اليهود ما يزيد على خمســـة

آلاف جندي منهم.[١٠٨]

لم يكتفِ اليهود بما جرى، بل سعوا جاهدين الى مواصلة استعداداتهم لحرب ضارية مع الرومان، فعملوا على بناء السور الشمالي للمدينة مستغلين الوقت قبـــل وصول إمدادات جديدة من الجيوش الرومانية. فتم استخدام أحجار كثيرة في بناء السور كانت قد حضّرت لصنع النصب الحجرية في زمن هيرودس الكبير.[١٠٩]

عهَد نيرون بمهمة قمع الثورة اليهودية الى القائد فسباسيان VESPASIAN الذي تمكن من إخضاع منطقة الريف بين عامي (٦٧-٦٨م)، وحين كان فسباســيان على وشــك محاصرة القدس توفي نيرون ودُعي فسباسيان لتولي العرش فأمر ابنه تيطس TITUS بــإنهاء المهمة الحربية.

وصل تيطس أسوار القدس في أواخر شهر كانون الثاني أو أوائل شهر شباط من ســنة ٧٠م فشدد الحصار على القدس مدة خمسة أشهر، وفي شهر أيار من ذات العام أحدث ثغرة في السور الشمالي الجديد ثم تلاه بثغر آخر في السور المحيط بالأسواق الذي بــناه هيرودس الكبير، وبعدئذ نشب قتال من أجل الاســتيلاء على الهيكل. وفي أوائل شــهر آب تمكن الرومان من دخول الهيكل فأمر تيطس بأن تسوى بقــايا الهيكل والمدينة كاملة بــالأرض، فدُمر الهيكل تدميرا تاما والأبنية الوحيدة التي تم استثناؤها من الهدم السور الواقع غربي المدينة من أجل توفير الحماية للفيلق العاشر الذي أبقاه كحامية للمدينة والأبــراج الثلاثة المقــامة شمال القصر. وعلى الرغم من الهدم الكامل لأسوار المدينة إلا أن الشكل العام للمدينة بقي قائما ، كما بقي بعض اليهود في المدينة بالرغم من انتقال مجلسهم الى يامنيا JAMNIA و لم تعد القدس مقراً لرياستهم .[١٠٩]

ولا بد من الإشارة الى ما تذكره كتب التاريخ من قيام نوع من التعاون بين أحد ملوك الأنباط وهو مالك الثاني وتيطس الروماني في الهجوم على القدس، فقد أرسل مالك الثاني في عام ٦٧م ألف فارس و خمسمائة من المشاة لمساعدة تيطس في هجومه على القدس.[١١٠]

وفي عهد الإمبراطور تراجان وأثناء انشغاله بمد نفوذ الإمبراطورية من ناحية الشــرق

والعمل على ضم أراضي بلاد ما بين النهرين حتى الخليج العربي تحت سلطانه، انتهز اليهود فرصة انشغال الرومان وثاروا عليهم في عام ١١٦م، فأخمد تراجان ثورتهم.[١١١]

القدس في عهد أدريانوس: PUBLIUS ELIUS ADERIENUS

عندما تولى أدريانوس (هدريان) حكم الإمبراطورية الرومانية خلفا لتراجان، تبنى فكرة التخلص من مشاكل اليهود، واعتقد أن خير وسيلة الى ذلك هو العمل على إضفاء الصبغة الرومانية على اليهود، فأصدر قراراً في عام ١٣١م بتحريم الختان وإنشاء مستعمرة رومانية في مدينة القدس.

على أثر تلك القرارات أعلن قائد يهودي واسمه سيمون باركوخبا SIMON BARKOKBA عن رفعه مجدداً لراية الثورة اليهودية ضد الرومان، وأرغم جميع من كان في المدينة من غير اليهود على مغادرتها وأعلن استقلاله. فجرد عليه الإمبراطور أدريانوس جيشا قويا وهزمه وطرد رجاله منها وهدم المدينة مرة أخرى عام ١٣٥م.[١١٢] أما باركوخبا فقد مات في حصار ضُرب عليه على بعد ستة أميال جنوب القدس.[١١٣]

مضى أدريانوس قدماً في تنفيذ خطته بجعل القدس مستعمرة رومانية أطلق عليها اسم إيليا كابيتولينا AELIA CAPITOLINA وحرّم على من بقي حياً من اليهود زيارة المدينة أكثر من مرة في السنة.[١١٤]

كانت مدينة إيليا كابيتولينا مدينة صغيرة وجديدة مُقامة على أساس القدس الهيرودية، لكنها كانت مقسمة بطريقة مختلفة كما تم استخدام الكثير من الأحجار المستخدمة زمن هيرودس، فقد قام بإنشاء شوارع الأعمدة المتقاطعة التي تم الكشف عن بقاياها. كما بنى مسرحاً وبنى مدرجاً عند مدخل المدينة ورفع تمثاله على عمود أمام البوابة التي لا تزال تعرف باسمه حتى يومنا هذا.[١١٥] ويسود الاعتقاد بأنه هو من أنشأ بركة سلوان.

أما الديانة الرسمية لمدينة إيليا كابيتولينا فقد كانت هي ذات الديانة الرسمية

للإمبراطورية الرومانية وهناك دلائل تشير على عبـــادة الإله سيرابـــيسSERAPIS(إله الشفاء المصري اليوناني) في بركة بيت حسدا.[116] ثم بدأ اتباع المسيح وكانوا قـــليلي العدد في التعبد في بيت صغير يقع جنوب المكان الذي كان يشغله معسكر الفيلق العاشـــر والذي توجد فيه الآن حارة الأرمن التي سمّوها صهيون.[117] ثم أخذت الديانة المسيحية في الانتشار والتوسع حتى أصبح أتباعها قوة يحسب حسابها في بداية القـــرن الثالث الميلادي على الرغم من أنهم أعضاء في طائفة غير مشروعة.[117]

وفي سنة ٣٠٣م أصدر الإمبراطور الروماني ديو كليتيانوس مرسوماً يقضي بـــتطهير الجيش من المسيحيين كما أمر بإحراق جميع الكتب المقدسة المسيحية وتدمير جميع مبـــاني الكنائس، وكان قبر السيد المسيح يقع على رابية كانت في السابق محجراً خارج أســـوار المدينة، فأمر بردم الموقع وبـــناء معبـــد للآلهة أفروديت فوقـــه.[118] وترتب على الزعماء المسيحيين أن يقدموا الأضاحي للآلهة الرومانية واستمر هذا الاضطهاد للمسيحـــيين مدة سبع سنوات حتى عام ٣١٠.[119]

وبتولي قسطنطين حكم الإمبراطورية الرومانية بدأ العالم يشهد مرحـــلة حـــضارية جديدة وهي البيزنطية.

(٩)

القـدس في العهد البيزنطي

شهدت الإمبراطورية الرومانية في أوائل القرن الرابع الميلادي بدء مرحـلة حـضارية جديدة وهي البيزنطية التي نتجت عن اتحاد المسيحية مع الهيلينية الوثنية، والتي حـلّت محل الحضارة اليونانية اللاتينية القديمة. وان تاريخ بدء الحضارة البيزنطية ارتبط ارتباطاً وثيقـاً بتاريخ اعتناق الإمبراطور قسطنطين للديانة المسيحية.

في سنة ٣٠٦م تولى قسطنطين الكبير حـكم الإمبراطورية الرومانية مع إمبراطور آخر، لكنه بعد انتصاره على منافسـه في معركة خارج روما سـنة ٣٢٤م أصبـح الإمبراطور الأوحد للدولة للفترة الممتدة بين السنوات (٣٢٤-٣٣٧م).

ونتيجة لإهتمامه بالشرق وإدراكه لمدى أهميته بالنسبة للإمبراطورية عمل على نقـل عاصمته من روما الى موقع بيزنطة القديمة (استنبول حالياً)[١٢٠] حيث تلتقي أوروبا بآسـيا، وأسماها القسطنطينية نسبة الى اسمه.

اهتم قسطنطين بالمسيحية والمسيحيين قبل تفرده بـالحكم، وحـاول معاملتهم معاملة حسنة وأصدر أمره في سنة ٣١٢م بإعادة بناء الكنائس التي هُدمت في عهد سلفه وعلى نفقة الدولة على الرغم أنه هو نفسه لم يكن قد اعتنق الديانة المسيحية بعد.[١٢١]

مع مضي الوقت اعتنق قسطنطين الديانة المسيحية وآمن بوجوب ازدهارها واتحادها، فدعا الى عقد المجمع المسكوني في نيقية سنة ٣٢٥م، فاتخذ المجمع قـراراً بتوحـيد المذاهب المختلفة[١٢٢]، وأصدر قسطنطين المرسوم الشهير EDIC OF MILAN القـاضي بجعل المسيحية الديانة الرسمية للإمبراطورية البـيزنطية.[١٢٣] وخلال انعقـاد ذلك المجمع تمكن أسقف إيليـا (القدس) من إقناع الإمبراطور قسطنطين بضرورة الكشف عن قبر السيد المسيح وإزالة ما هو قائم عليه من هياكل وثنيـة.[١٢٤]

وما أن صدر ذلك المرسوم الشهير حتى بدأت مدينة إيليا كابـيتولينا تشـهد تحولا في

مكانتها من مجرد مستعمرة رومانية الى مدينة عظيمة الأهمية بالنسبة للإمبراطورية، حيث بدأت تشهد اهتماما بالغاً وكبيراً من قبل العائلة الحاكمة، ووفود الحجاج والزوار إليها من مختلف المناطق وبأعداد كبيرة[125]، كما بدأت تشهد حركة عمرانية كبيرة وتوسعاً حضارياً بالغاً. أما بالنسبة لليهود فقد حرّم قسطنطين عليهم الإقامة أو العيش في المدينة في حين سمح لهم بالحج مرة واحدة في السنة الى موقع الهيكل للبكاء على خرابه.[125]

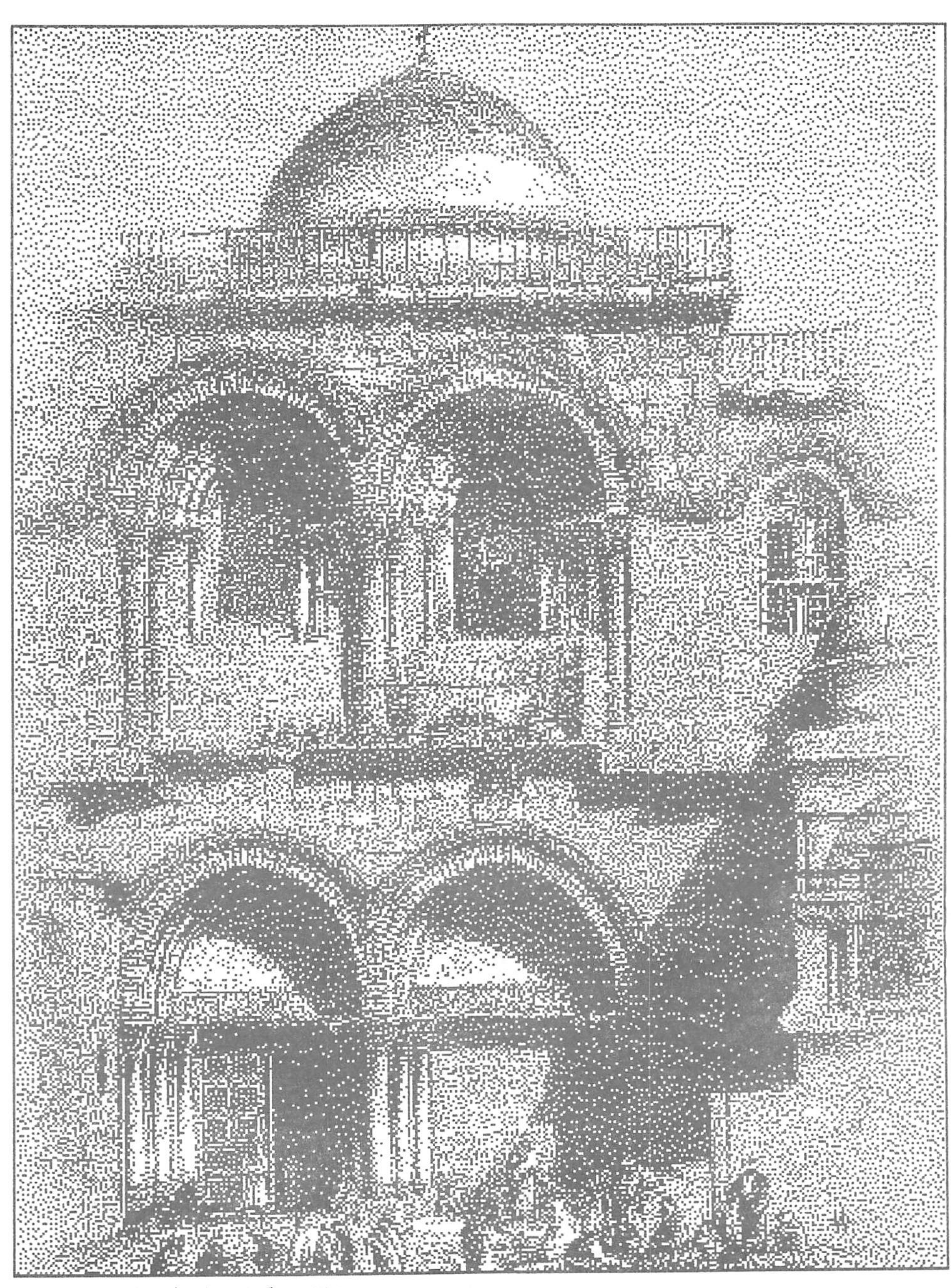
وفي سنة ٣٢٦م قامت والدة قسطنطين الملكة هيلانة بالحج الى الديار المقدسة في فلسطين، وعند وصولها الى مدينة إيليا كانت أعمال الهدم جارية للكشف عن قبر السيد المسيح، فلما حُطمت الأصنام وأزيلت الأنقاض والأتربة ظهرت صخرة الجلجثة (الجلجلة)[126] بارزة على هيأتها الأصلية وظهرت كذلك مغارة المسيح[126]، ويُروى أن الملكة هيلانة أسهمت في استخراج الصليب الخشبي[127] كما قيل أنها أمرت بجعل موقع الهيكل موضعاً لجمع قمامات المدينة عقاباً لليهود على ما فعلوه بمكان الصلب وقبر السيد المسيح.[128]

بناء كنيسة القيامة :

كنيسة القيامة هو المجمع الذي يشتمل الآن على جميع الكنائس والمعابد المشيّدة فوق الجلجلة وقبر السيد المسيح والمغارة التي اكتشف الصليب فيها.[129] وتعتبر كنيسة القيامة أعظم الكنائس المسيحية شأناً وأعظمها قداسة لدى المسيحيين كافة لكونها الكنيسة التي تضم ضريح السيد المسيح عليه السلام.

يقول عارف العارف نقلا عن الراهب ثاوفانوس (إن قسطنطين لم يبن كنيسة واحدة في ذلك الموضع بل بنى ثلاث كنائس هي كنيسة القيامة (القبر المقدس)، كنيسة الجلجلة وكنيسة الشهادة (الشهداء).)[129]

وكما تحدثنا سابقا أن أول عمل أُجري في الموقع كان في سبيل البحث عن قبر السيد المسيح، ويصفه عارف العارف قائلا (كان قبر المسيح في البدء عبارة عن مغارة محفورة في



نقلا عن كتاب فلسطين تاريخ وحضارة

٥ كنيسة القيامة - القدس ١٨٥٠م

الصخر لها حجرة خارجية بمثابة دهليز، ولهذا الدهليز باب منخفض جداً من الجهة الغربية يسده حجر كبير وهو يفضي الى حجرة داخلية ترى فيها عن يمينك حفه محفورة في الصخر وضع عليها رفات المسيح).[١٢٩]

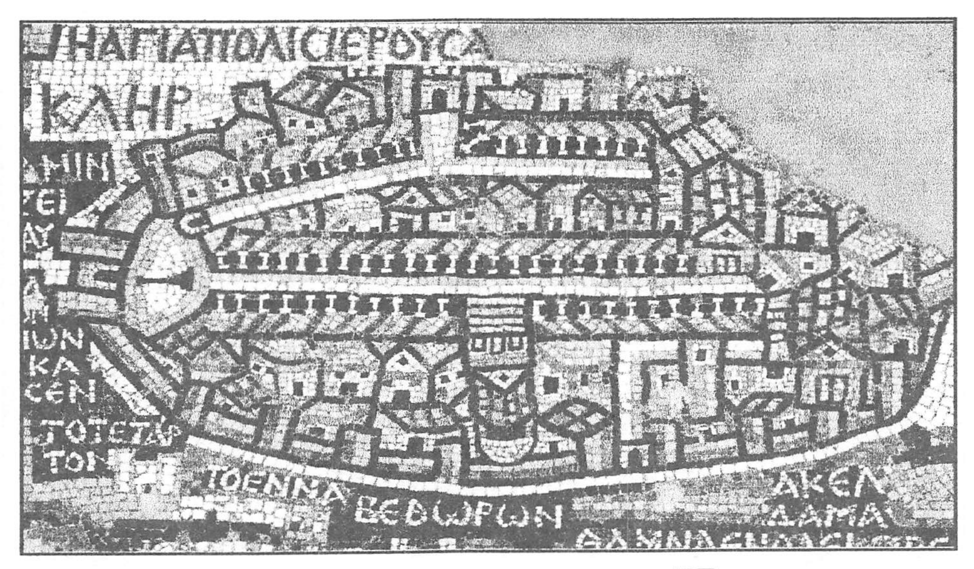
عندما تم العثور على القبر أرسل قسطنطين من عاصمته قسيسا يدعى أوستاتيوس EUSTATHIUS للشروع في بناء الكنيسة....... كما قام أسقف القدس بزخرفة القبر وأضاف إليه رواقا [١٣٠]، ويقول ولكنسون (ان أول كنيسة بناها قسطنطين حملت اسم كنيسة الشهداء [١٣٠] MARTYRIUM ولكن المبنى المستدير الذي بُني فوق القبر لم ينتهِ العمل منه إلا في عام ٣٤٨م)[١٣١] أي بعد وفاة قسطنطين بعشر سنوات.

وهكذا ما أن تم الانتهاء من تشييد كنيسة الشهداء حتى مضى البناءون قدما في بناء كنيسة الجلجلة والقبة فوق القبر، وان أول قيد بإتمام بناء كنيسة الجلجلة كان في سنة ٣٤٧م.[١٣٢]

وفي أواخر القرن الرابع الميلادي امتلأت مدينة القدس بالرهبان والراهبات الذين زهدوا بمتاع الدنيا وتمتعوا بسمعة قدسية، وكانت الصلوات العامة تقام في المدينة باللغة اليونانية بوجود أحد التراجمة لكي يردد الكلمات بالآرامية .[١٣٢]

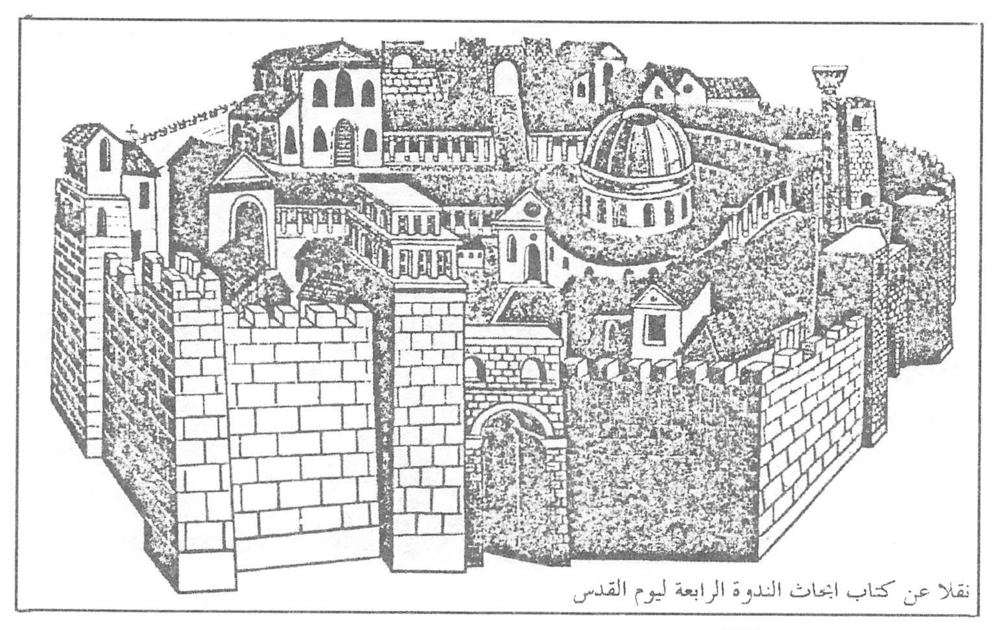
هذا وقد تقلب على حكم الإمبراطورية البيزنطية العديد من الأباطرة منهم الإمبراطور يوليانوس الذي دعا شعبه الى العودة الى الديانة القديمة، كما منح اليهود حق العيش في القدس وسمح لهم بإعادة بناء هيكلهم، وبدأ العمل في إعادة البناء لكنه توقف بسبب زلزال ضرب المدينة، ومع وفاة يوليانوس بعد شهرين تم التخلي عن فكرة البناء وذلك لأن خلفه كان مسيحيا أرثوذكسيا.[١٣٢]

أما الإمبراطور جوستنيان فقد كان آخر ملك روماني يبني كنيسة في القدس وهي كنيسة العذراء مريم وكان بناؤها سنة ٥٤٠م، وقد ضمت الكنيسة مستشفيين يحتويان على مائة سرير للحجاج المرضى ومائة أخرى للسكان المحليين، ولكن الكنيسة دمرت بفعل زلزال ضرب المدينة [١٣٢]، وتم الكشف عن أساساها في الحفريات التي تمت سنة ١٩٧٠م.



٦ الخارطة الفسيفسائية في مأدبا/ الأردن.

ويمكننا التعرف على مخطط مدينة إيليا كابيتولينا (القدس) وعلى شوارعها ومبانيها وأهم العناصر المعمارية التي كانت موجودة فيها آنذاك من خلال الخريطة الفسيفسائية (١٣٣) التي وجدت في مدينة مادبا في الأردن، وهي أقدم خريطة وجدت للمدينة كما كانت عليه في ذلك الوقت. فالمدينة كانت محاطة بأسوار عالية وقد رتبت بشكل بيضاوي تنقصها الزاوية اليسرى من الأعلى ولا يظهر في الخريطة سوى الحائط الغربي لساحة الهيكل، وللمدينة أربعة أبواب على الأقل وهي الباب الشمالي وهو باب العامود، الباب الشرقي وهو باب الأسباط وبجانبه الباب المغلق الذي يعرف بالباب الذهبي، والباب الغربي وهو باب داود ويعرف اليوم بباب الخليل. ويخترق المدينة شارعان على جوانبهما أعمدة، أحدهما وهو الأكثر انخفاضا وهو الشارع الذي يُعرف اليوم بسوق (خان الزيت) ويمر هذا الشارع أمام كنيسة القيامة التي تظهر مقلوبة وهي المعلم المركزي في المدينة ثم يمتد الى كنيسة العذراء مريم وينتهي عند كنيسة صهيون. أما الشارع الثاني العلوي فإنه يتجه من ساحة الباب الشرقي (باب الأسباط) نحو الجنوب الشرقي (طريق الواد)، وفي وسطه يلتقي بشارع آخر قادم من الشرق ويبدأ من الباب الشرقي. وعند نهاية الشارع هناك قوس قرب الباب الشمالي وهو باب العامود الذي ربما كان هو الباب القديم للسور الذي بناه هيرودس الكبير حول منطقة


نقلا عن كتاب ابحاث الندوة الرابعة ليوم القدس

٧ مجسم مدينة القدس في العصر البيزنطي

السوق [١٣٤]، كما يظهر العامود في الساحة الشمالية بالقرب من الباب.

أما الكنائس التي أمكن تحديدها فهي كنيسة الشهداء التي بناها قسطنطين قرب باب الأسباط والتي تشرف على شارع الأعمدة، وكنيسة العذراء مريم التي بناها جوستنيان في الجهة الجنوبية الشرقية، والكنيسة التي تلي الجسر هي كنيسة الحكمة المقدسة وهي المكان الذي أحيا فيه المسيحيون ذكرى محاكمة السيد المسيح أمام بيلاطس البونطي.[١٣٤]

ويقول د. مروان أبو خلف (كانت مدينة ايليا (القدس) في العهد البيزنطي مقسمة الى مناطق أو أحياء ، لكن منطقة المسجد الأقصى كانت مهجورة تماما و لم يظهر فيها أي بناء يعود لتلك الفترة الزمنية. في حين كانت منطقة باب المغاربة وهي المنطقة الواقعة في الجهة الشرقية من كنيسة العذراء منطقة سكنية كثيفة لدرجة اعتبرت فيها أكثف منطقة سكنية في المدينة المقدسة خلال تلك الفترة).[١٣٥]

لقد قدّر للإمبراطورية الرومانية البيزنطية التي أسسها قسطنطين والتي كانت يونانية في

لغتها ومسيحية في عقيدتها وشرقـــية في اتجاهها، أن تدوم مع ما تخللها من أحـــداث خطيرة حوالي أحد عشر قـــرنا من الزمان الى أن سقـــطت نهائيا في عام ١٤٥٣م في أيدي الأتراك العثمانيين. لكن مدينة القدس استمرت تحت سيطرة الحكم الروماني البيزنطي حتى سـنة ٦١٤م حين استولى الفرس بقيادة كسرى الثاني على المدينة بمســاعدة اليهود، فنزح عنها المسيحيون الذين نجوا من المذبحة التي أعقبت سقوط المدينة وراح ضحيتها تسـعون ألف مسيحي (١٣٦)، وعمل الفرس على تدمير معظم المباني المسيحـــية المقدســة في المدينة وعلى رأسها كنيسة القيامة التي جعلوها خراباً، وأخذوا الصليب المقدس ونقــلوه الى عاصمتهم المدائن .

إلا أنه في سنة ٦٢٨م تمكن البيزنطيون بقيادة هرقل HERACLIUS من معاودة احتلال المدينة وطرد الفرس منها، كما قاموا بذبـــح اليهود وحـــظروا عليهم دخولها (١٣٧)، وأعاد الإمبراطور الصليب المقدس الى القدس بعد ما ألحقه من هزائم بالفرس.

ومن الجدير بالذكر أن استيلاء الفرس على القدس وتدميرها كان من الحوادث الخطيرة والمهمة في تاريخ هذه المدينة، إذ قضى على الحضارة الهلنستية وأضعف التأثيرات المسيحية فيها، ومهد لبسط السيادة الإسلامية فيها فيما بعد حيث تم تحريرها على أيدي المســلمين بقيادة الخليفة عمر بن الخطاب في عام ٦٣٨م.

هوامش الفصلين الأول والثاني

١ - ابن منظور الخزرجي، معجم لسان العرب ، مادة قدس .

٢ - مجير الدين الحنبلي ، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، ج١ ، ص٦.

٣ - عن القران الكريم ، سورة الحشر ، آية ٢٣.

٤ - مصطفى مراد الدباغ ، بلادنا فلسطين ، ج١، ص٢٤٨.

٥ - الموسوعة الفلسطينية، ج٣، ص٥٠٩.

٦ - المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ص١٦٥-١٦٦.

٧ - أ.د محمود عبد الحميد الزعبي ، يوم القدس - الندوة السابعة، بحث بعنوان (العرب الكنعانيون بناة القدس الأولون ومدن فلسطين)، ص٧٣-٧٤، عمان ١٩٩٦.

٨١-اكتشفت هذه الرسائل عام ١٨٨٧ في قرية تل العمارنة بمنطقة أواسط مصر، وهي الرسائل التي بعث بها أمراء سوريون الى الفرعون أمنحوتب الثالث وابنه أخناتون يطلبون منه النجدة العسكرية ضد أعدائهم وأعداء مصر، وبلغ عدد هذه الرسائل ٣٧٧رسالة. للمزيد أنظر

WILSON, J. *THE AMARNA LETTERS* A.N.E.T. P 483 ff

٩ - فيليب حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ج١، ص١٧٣.

١٠ - العهد القديم ، سفر إشعياء ، ٢:٣.

١١ - عارف العارف ، تاريخ القدس ، ص١٦٧.

١٢ - فيليب حتي ، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ج١ ، ص٤٢٣.

١٣ - ولد السيد هـــــندريكوس ياكوبوس فرانكن H. J. FRANKEN في هولندة سنة ١٩١٧ ودرس اللاهوت واللغات السامية في أمستردام ولايدن وحصل على الدكتوراه في الفلسفة في دراسات العهد القديم من لايدن حيث أصبح محاضرا من المرتبة العليا في علم آثار فلسطين ، وهو أستاذ متقـــاعد منذ ســـنة ١٩٨٤. للمزيد أنظر:د. كامل العسلي، القدس في التاريخ ، ص١٧-٢٥. (مؤلف ومترجم ومحرر)

١٤ - العموريين : شعب سامي هاجر من شبه الجزيرة العربية في تاريخ مبكر الى بادية الشام، واستقر في مراكز الحضارات المتطورة والمستقرة في العراق وسورية وفلسطين .

١٥ - د. كامل العسلي ، القدس في التاريخ ، ص٣٦. (مؤلف ومترجم ومحرر)

١٦- KENYON,K *DIGGING UP JERUSALEM* , P 78-79.

١٧ - د. كامل العسلي ، القدس في التاريخ ، ص٤٧-٤٨. (مؤلف ومترجم ومحرر)

١٨ - الموسوعة الفلسطينية ، ج٣، ص٢٧٨.

١٩ - مصطفى مراد الدباغ ، بلادنا فلسطين ، ج٩، ص١٣.

٢٠ - محمد أديب العامري ، القدس العربية ، ص٢٠-٢١.

٢١- الموسوعة الفلسطينية ، ج٣، ص٥٠٩.

٢٢- مصطفى الدباغ ، بلادنا فلسطين ، ج٩، ص٢٣.

٢٣- KENYON.K. *JERUSALEM EXCAVATING 3000 YEARS OF HISTORY*, P 22-24

٢٤ - محمد أديب العامري ، القدس العربية ، ص٢٢.

٢٥- الموسوعة الفلسطينية ، ج٣، ص٥١٠.

٢٦- ذات المرجع ، ج٤، ص٦٢٦.

٢٧- *ENCYCLOPEDIA BRITANNICA* VOL X . JERUSALEM. P 139. (15 TH EDITION).

٢٨ - عارف العارف ، المفصل في تاريخ القدس ، ص٧ .

٢٩- فيليب حتي ، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ج١، ص١٤٣ .

٣٠- العبرانيون : نسبة الى إبراهيم عليه السلام الذي نقّب بالعبري ، إما لعبوره نهر الأردن أو نهر الفرات كما تذكر بعض الروايات ، وإما تيمنا باسم أحد أحداده المدعو (عيبر) كما تذكر روايات أخرى ، ويُعد العبرانيون رابع شعب استوطن أرض كنعان بعد العموريين والكنعانيين والآراميين.

٣١- الفلسطيون : وهم من أولى الجماعات التي حلت بأرض فلسطين واستوطنت فيها بعد أن نزحت من موطنها الأصلي في جنوب جزيرة كريت ، واشتهروا بالتاريخ بأنهم قوما جبارين.

٣٢- البروفيسور يسرائيل فنكلشتاين عالم آثار يهودي وهو رئيس قسم الآثار في جامعة تل أبيب.

٣٣- صحيفة الدستور الأردنية، صادرة بتاريخ ٩٨/٤/٢٣ ، عن تقرير للكاتب اليكس دورون ، من صحيفة معاريف الإسرائيلية.

٣٤- د. تومامس ل. طومسون THOMAS L. THOMPSON وهو أستاذ جامعي مختص بعلم آثار التوراة، وقد عمل حوالي عشرين عاما في إنجاز دراسة تم نشرها سنة ١٩٩٢ تحت عنوان: التاريخ المبكر للشعب الإسرائيلي من المصادر المكتوبة والأثرية .للمزيد أنظر :

EARLY HISTORY OF THE ISRAELITE PEOPLE from WRITTEN & ARCHAELOGICAL SOURCES.

٣٥- د. تومامس ل. طومسون، التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، الفصل الخامس، ص١٢٤ (مترجم) ١٩٩٥.

٣٦- حتي ، جرجي ، جبور ، تاريخ العرب المطول ، ج١، ص١٢.

٣٧- *ENCYCLOPEDIA JUDAICA*. VOL 9 , P 1381 .

٣٨- KENYON .K. *JERUSALEM EXCAVATING 3000 YEARS OF HISTORY*. P 19.

٣٩- فيليب حتي ، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ج١، ص٢٠٤

٤٠- KENYON, K. *JERUSALEM EXCAVATING 3000 YEARS OF HISTORY*. P 54.

٤١- الموسوعة الفلسطينية ، ج١، ص١٨٥.

٤٢- صحيفة الدستور الأردنية، صادرة بتاريخ ٩٨/٦/٢٣ ، عن تقرير للكاتب اليكس دورون من صحيفة معاريف الإسرائيلية

٤٣ - د. توماس طومسون ، التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، الفصل السابع، ص٢١١. (مترجم).

٤٤ - ذات المرجع ، الفصل التاسع ، ص٢٨٤.

٤٥ - ناجي علوش، الندوة السادسة ليوم القدس، بحث بعنوان:القدس في دراسة أثرية جديدة، ص١٥٥. عمان١٩٩٥ .

٤٦ -العهد القديم ، سفر صموئيل الثاني ، ٥:١١

٤٧ - فراس السواح ، آرام دمشق وإسرائيل ، ص١٤٩.

٤٨ - DE VAUX, ROLAND. *ANCIENT ISRAEL, ITS LIFE AND INSTITUTIONS* . (TRANS . BY JOHN MC GRAW HILL) P 312 .

٤٩ - محمد أديب العامري، القدس العربية، ص٥٢.

٥٠ - DE VAUX, ROLAND. *ANCIENT ISRAEL*, P 312. (TRANS)

٥١ - العهد القديم، سفر صموئيل الثاني، ١٣:٧.

٥٢ -العهد القديم، سفر القضاة، ٥:٣.

٥٣ - محمد أديب العامري، القدس العربية ، ص٤٩.

٥٤ - الموسوعة الفلسطينية ، ج٣، ص١٨٥.

٥٥ - فراس السواح ، آرام دمشق وإسرائيل ، ص١٤٩.

٥٦ - العهد القديم ، الملوك الأول ، ٢٨:٦.

٥٧ - فيليب حتي، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ج١،ص٢٢٠.

٥٨ - KENYON, K . M. *JERUSALEM EXCAVATING 3000 YEARS OF HISTORY*. P55

٥٩ - *ENCYCLOPEDIA JUDAICA* , VOL 9 , P 1383.

٦٠ - صحيفة الدستور الأردنية، الصادرة بتاريخ ٩٨/٤/٢٣ عن تقرير أليكس دورون من صحيفة معاريف الإسرائيلية.

٦١ - محمد أديب العامري، القدس العربية ، ص٥٥.

٦٢ - الموسوعة الفلسطينية ، ج٣، ص١٨٥.

٦٣ - محمد أديب العامري، القدس العربية ، ص٥٦.

٦٤ - *ENCYCLOPEDIA BRITANICA*, VOL X, P 139.

٦٥ - فيليب حتي ، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ج٢، ص٢١٥.

٦٦ - فراس السواح ، آرام دمشق وإسرائيل ، ص١٤٩. ومن أجل الإطلاع على نص حملة شيشنق أنظر كتاب:
JAMES PRITCHARD. *ANCIENT NEW EASTERN TEXTS*, PP 263-264.

٦٧ - فيليب حتي، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ج١، ص١٧٩.

٦٨ - د. توماس طومسون، التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، أنظر الصفحات ٣٢٤، ٣٢٧، ٣٣٢، ٣٣٤.(مترجم).

٦٩ - العهد القديم ، سفر الملوك الثاني ، ٦:١٧.

٧٠ - الموسوعة الفلسطينية ، ج٣، ص١٨٦.

٧١ - فيليب حتي ، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ج١، ص٢١٦.

٧٢- عارف العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص٢٥.

٧٣- فيليب حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج١، ص٥٢.

٧٤- عارف العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص٢٥-٢٧.

٧٥- الموسوعة الفلسطينية، ج٢، ص٥٣٩-٥٤٠.

٧٦- العهد القديم، سفر الملوك الثاني، ٢٥: ١- ٧.

٧٧- مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج١، ص١٥١.

٧٨- محمد أديب العامري، القدس العربية، ص٥٦.

٧٩- سامي حكيم، القدس، ص٢٨.

٨٠- عارف العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص٢٨.

٨١- فيليب حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج١، ص٢٤٣.

٨٢- زربابيل: وهي كلمة مشتقة من ZERU BABILI وتعني ذرية بابل. أنظر: عارف العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص٢٨.

٨٣- العهد القديم، سفر عزرا، ٣: ٦ -٥.

٨٤-فيليب حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج١، ص٢٤٢-٢٤٤..

٨٥- DE VAUX. ROLAND, *ANCIENT ISRAEL*, P 324.

٨٦- عارف العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص٣٠.

٨٧- العهد القديم، سفر نحميا، ١٣: ٢٤

٨٨-ذكرت مرويات التوراة أن عزرا الكاهن والكاتب رجع الى القدس قبل نحميا ليصلح ديانة الشعب اليهودي برخصة من الملك إلا أنه تولى الحكم بعد نحميا.

٨٩- توفي الإسكندر المقدوني بالحمى في قصر نبوخذ نصر في بابل سنة ٣٢٣ ق.م وذلك قبل أن يتم الثالثة والثلاثين من عمره.

٩٠- العصر الهلنستي وهو اصطلاح تاريخي أطلق على المدة الزمنية الممتدة منذ تاريخ وفاة الإسكندرعام ٣٢٣ق.م حتى قيام الإمبراطورية الرومانية على يد أوغسطس عام ٣٠ ق.م. وهي عنوان للدلالة على حضارة القرون الثلاثة السابقة للميلاد والتي كانت تسود فيها الثقافة والحضارة الإغريقية في مصر وفارس وبلاد الرافدين وآسيا الصغرى وسورية وفلسطين بالإضافة الى بلاد اليونان.

٩١- BEVAN. EDWYN ROBERT , *THE HOUSE OF SELEUCUS*, VOL 2, P 163.

٩٢- الموسوعة الفلسطينية، ج٣،ص٢٦٧.

٩٣- B EVAN, EDWIN, ROBERT, *THE HOUSE OF SELEUCUS*, VOL 2,P 169- 174.

٩٤- الموسوعة الفلسطينية، ج٣ ،ص٢٦٧

٩٥- DE VAUX . ROLAND, *ANCIENT HISTORY*, VOL V111, P 517-523.

٩٦ - الموسوعة الفلسطينية ، ج٣ ، ص ٢٦٧-٢٦٨.

٩٧- DE VAUX. ROLAND, *ANCIENT HISTORY*, VOL 9, P 402-403.

٩٨- د. كامل العسلي، القدس في التاريخ ، ص٩٦. (مؤلف ومترجم ومحرر)

٩٩- السنهدرين : وتكتب في بعض الأحيان بالميم خطأ (سنهدريم) وهو المجمع الديني الأعلى عند اليهود.

للمزيد أنظر : فيليب حتي ، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ج١ ، ص ٣١٠.

١٠٠- JOSEPHUS.F ,*THE GREAT ROMAN- JEWISH WAR*, VOL 1, P 249.

١٠١- د. كامل العسلي ، القدس في التاريخ ، ص٩٩-١٠٠. (مؤلف ومترجم ومحرر).

١٠٢- JOSEPHUS, *WAR*, VOL 2, P 163-165.

١٠٣- د. كامل العسلي ، القدس في التاريخ ، ص١٠٠-١٠١. (مؤلف ومترجم ومحرر)

١٠٤- فيليب حتي ، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ج١ ، ص٣١١.

١٠٥- الموسوعة الفلسطينية ، ج٤ ، ص٢١٦.

١٠٦- عارف العارف ، المسيحية في القدس ، ص٢١٥.

١٠٧- د. كامل العسلي ، القدس في التاريخ ، ص١٠٣ .

١٠٨- JOSEPHUS, *WAR*, VOL 2, P 540.

١٠٩- د. كامل العسلي ، القدس في التاريخ ، ص١٠٤-١٠٥ .

١١٠- فيليب حتي ، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ج١ ، ص٤٢٣ .

١١١- الموسوعة الفلسطينية ، ج٤ ، ص٥١٣.

١١٢- فيليب حتي ، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ج١ ، ص٤٢٣ .

١١٣- د. كامل العسلي ، القدس في التاريخ ، ص١٠٥ . (مؤلف ومترجم ومحرر)

١١٤- فيليب حتي ، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ج١ ، ص٤٢٣.

١١٥- د. فوزي زيادين ، أبحاث الندوة الرابعة ليوم القدس ، ص١١٤ .

١١٦- بركة بيت حسدا : وهو اسم البركة التي تقع عند باب الأسباط ولها خمسة أروقة تحيط بها من جميع الجهات ، وهي البركة التي تمت فيها معجزة السيد المسيح بشفاء الرجل المصاب بالشلل ، انظر : إنجيل يوحنا ٥:٢.

١١٧- د. كامل العسلي ، القدس في التاريخ ، ص١٠٨ - ١٠٩ . (مؤلف ومترجم ومحرر)

١١٨- د. فوزي الزيادين ، أبحاث الندوة الرابعة ليوم القدس ، ص١١٤ .

١١٩- د. كامل العسلي ، القدس في التاريخ ، ص١٠٩ . (مؤلف ومترجم ومحرر)

١٢٠- فيليب حتي ، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ج١،ص٣٨٦.

١٢١- د. كامل العسلي ، القدس في التاريخ ، ص١٠٩ .(مؤلف ومترجم ومحرر)

١٢٢- الموسوعة الفلسطينية ، ج٤، ص٢١٧.

١٢٣- اسكندر ميخائيل مكسي ، القدس عبر التاريخ ، ص٤٤ .

١٢٤- عارف العارف ، المسيحية في القدس ، ص٢١٦ .

١٢٥- د. كامل العسلي ، القدس في التاريخ ، ص١١٠ . (مؤلف ومترجم ومحرر)

١٢٦- الجلجثة : وهي كلمة أرامية ، أما الجلجلة فهي كلمة عبرية وتعني الجمجمة ، وهي اسم المكان الذي ذهب إليه المسيح حاملا الصليب لينفذ فيه حكم الموت ، وكان من عادة الرومان أن يدفنوا أدوات الصلب بجوار قبر الرجل المحكوم عليه بالموت . للمزيد أنظر : عارف العارف ، المسيحية في القدس ، ص٢١٥ .

١٢٧- د. فوزي زيادين ، أبحاث الندوة الرابعة ليوم القدس ، ص١١٥ .

١٢٨- اسكندر ميخائيل مكسي ، القدس عبر التاريخ ، ص٤٤ .

١٢٩- عارف العارف ، المسيحية في القدس ، ص٢١٤-٢١٧ .

١٣٠- السيد جون ولكنسون JOHN WILKINSON كاهن من هيئة كهان كاتدرائية القديس جورج في المدينة المقدسة. أنظر: د. كامل العسلي ، القدس في التاريخ ، ص١١٠. (مؤلف ومترجم ومحرر)

١٣١- د. فوزي زيادين ، أبحاث الندوة الرابعة ليوم القدس ، ص١١٥ .

١٣٢- د. كامل العسلي ، القدس في التاريخ ، ص١١٠-١١٤ . (مؤلف ومترجم ومحرر)

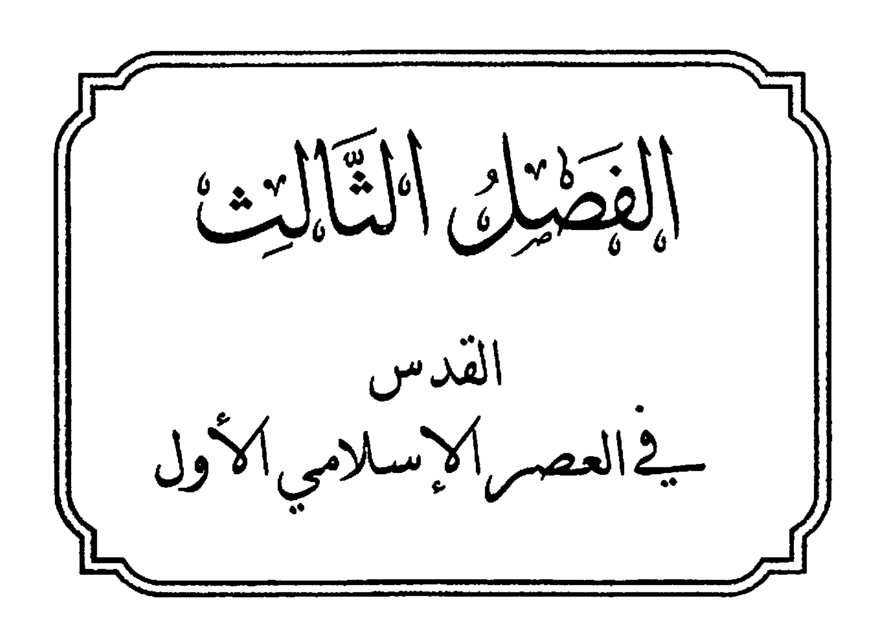
١٣٣- الخريطة الفسيفسائية : وهي أقدم خريطة جغرافية لمدينة القدس وجدت حتى يومنا هذا ، ورصفت في عهد الإمبراطور الروماني يوستينيانوس حوالي سنة ٥٧٥م ، وتم اكتشافها عام ١٨٩٦م عندما شرعوا ببناء الكنيسة الجديدة للروم الأرثوذكس في مدينة مأدبا في الأردن.

١٣٤- د. كامل العسلي ، القدس في التاريخ ، ص١١٥ . (مؤلف ومترجم ومحرر)

١٣٥- د. مروان أبو خلف ، أبحاث الندوة الرابعة ليوم القدس ،ص٩٦.

١٣٦- GRAY. JOHN.. *A HISTORY OF JERUSALEM*. PP 207-208.

١٣٧- فيليب حتي ، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ج١ ، ص٣٨٨.



الفصل الثالث

القدس
في العصر الإسلامي الأول

القدس

في العصر الإسلامي الأول

صلة الإسلام الأولى بمدينة القدس:

تفتخر مدينة القدس على غيرها من المدن بأن الرسول محمد عليه الصلاة والسلام قد فتحها بنفسه قبل الفتح العملي للمسلمين لها، وذلك عندما شاءت قدرة الله العلي العظيم بأن تكون مدينة القدس موضع صلة بين السماء والأرض، إذ أسرى بالنبي الكريم إليها ومنها عرج الى السماء. فكان أن اتخذ الرسول الكريم من المسجد الأقصى قبلته الأولى، فصلى نحوه المسلمون زهاء سبعة عشر شهرا إلى أن أمره الله سبحانه وتعالى بالتوجه نحو الكعبة المشرفة.

قال الرسول الكريم ﷺ (**لا تشد الرحال إلا الى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى.**)[1]

وفي جمادى الأول من السنة الثامنة للهجرة شرع الرسول الكريم محمد في التمهيد لتطهير بيت المقدس من حكم الرومان، وتأمين ظهر ديار الإسلام بإرسال أول قوة إسلامية الى بلاد الشام وفلسطين، وجعل عليه الصلاة والسلام على رأس تلك القوة زيد بن حارثة وان أصيب فجعفر بن أبي طالب، فان أصيب فعبد الله بن رواحة.[2]

سارت القوة الإسلامية وعددها لا يزيد على ثلاثة آلاف مجاهد للاحتكاك بقوات الروم التي تسيطر على بلاد الشام ومن جملتها شرقي الأردن وفلسطين. وحينما وصلت قوات زيد بن حارثة الى معان (جنوب الأردن اليوم) علم المسلمون أن هرقل قد حشد في مؤاب (شرقي الأردن) مائة ألف من جند الرومان، وانضم إليهم مثل هذا العدد من قبائل العرب المحكومة من قبلهم.[3]

أقام المسلمون في معان ليلتين يفكرون في الأمر، واقترح بعضهم أن يكتبوا الى الرسول عليه الصلاة والسلام يطلبون النجدة وأوامر جديدة، فانبرى عبد الله بن رواحه يشجع الناس قائلاً (يا قوم والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون الشهادة، وما نقاتل الناس

بعدد ولا قوة ولا كثرة، وما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقـوا فإنما هي إحدى الحسنيين: إمّا ظهوراً وإما شهادة).

تشجع المسلمون وزحفوا نحو الشمال حتى قابلتهم جموع الروم في مؤتة بالقـرب من مدينة الكرك الأردنية، ودارت رحى معركة حامية غير متكافئة. فقاتل زيد بن حارثة براية الرسول عليه الصلاة والسلام حتى قتل ثم تسلم الراية جعفر بن أبي طالب فقاتل حتى قطعت يمينه، فحمل الراية بشماله فقطعت، فاحتضنها بعضديه حتى قتل، ثم تسلم الراية عبد الله بن رواحه وقاتل حتى قُتل، ثم رأى المسلمون أن يتسلم خالد بن الوليد الراية فنفذ خطة حكيمة للانسحاب وأنقذ قوات المسلمين من هزيمة محققـة وفناء أكيد، وعاد خالد بـالجيش الى المدينة المنورة.

كانت موقعة مؤتة من عوامل إصرار الرسول الكريم على تأمين حدود ديار الإسلام وتطهيرها من الأعداء المتربصين بها، فأمر عليه الصلاة والسلام بتجهيز جيش يقوده أسامة بن زيد للانتقام لشهداء موقعة مؤتة، لكن الرسول الكريم انتقـل الى الرفيق الأعلى وجيش أسامة يتأهب للسير الى حدود الشام وكان ذلك سنة إحدى عشرة للهجرة.[٣]

(١)

الخلفاء الراشدون ....والقدس

الخليفة أبو بكر الصديق:

عندما تولى أبو بكر الصديق خلافة المسلمين من بعد الرسول الكريم، عمل على توطيد دعائم الإسلام في الجزيرة العربية بالقضاء على المرتدين عن الدين الإسلامي، ولما استقرت له الأمور في الجزيرة العربية صمم على إرسال الجيش الذي أعده الرسول الكريم قبل وفاته الى بلاد الشام وفلسطين وعلى رأسه أشهر قادة المسلمين، منهم أبو عبيدة بن الجراح ويزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة وعمرو بن العاص.[٤]

يقول البلاذري في كتابه فتوح البلدان (كانت أول وقعة واقعها المسلمون الروم في خلافة أبي بكر الصديق، أرض فلسطين وعلى الناس عمرو بن العاص......).[٥] إلا أن أبا بكر الصديق قضى نحبه قبل أن يتم فتح فلسطين.

الخليفة عمر بن الخطاب:

هو ثاني الخلفاء الراشدين وأول من تلقب بأمير المؤمنين، ولقّبه النبي الكريم بالفاروق، وتمت له البيعة بالخلافة يوم وفاة أبي بكر الصديق سنة ١٣ هـ / ٦٣٤م، وهو أول من وضع للعرب التاريخ الهجري وكانوا يؤرخون بالوقائع، وهو أول من دون الدواوين في الإسلام، واتخذ بيت مال للمسلمين.[٦]

شهدت خلافة عمر بن الخطاب أشد المراحل حسما في تقرير مصير فلسطين، فقد أخذت حشود البيزنطيين تتجمع في منطقة اليرموك للقضاء على المسلمين، فعزل عمر بن الخطاب خالد بن الوليد وولى قيادة الجيوش لأبي عبيدة بن الجراح.

ولما التقى الجمعان في معركة اليرموك في ذات العام ١٣هـ /٦٣٤م وتم النصر المبين للمسلمين وهُزم جيش الروم شر هزيمة، أرسل أبو عبيدة بالبشارة الى عمر بن الخطاب، فرد عليه عمر أن يوجه شرحبيل بن حسنة وعمرو بن العاص الى الأردن وفلسطين.

في سنة ١٥هـ/٦٣٦م وبعد معركة أجنادين نجح المسلمون بقيادة عمرو بن العاص في

فتح العديد من مدن الشام وفلسطين، فتوجه القائد أبو عبيدة بن الجراح نحو مدينة القدس لحصارها وفتحها، وصادف حصار المسلمين لمدينة بيت المقدس أيام الشتاء والبرد، فظن الروم أن المسلمين لا يقدرون عليهم في ذلك الوقت، إلا أن حصار أبي عبيدة للمدينة استمر أربعة أشهر كاملة، وما من يوم إلا ويقاتلهم قتالا شديدا.[٧]

ويصف الطبري الوضع في كتابه قائلا: (فلما وجد الروم أن أبا عبيدة غير مقلع عنهم و لم يجدوا لهم طاقة بحربه وحصاره قالوا له نصالحك على مثل ما صالح عليه مدن الشام من أداء الجزية والخراج، على أن يكون تسليم المدينة الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ..... فقبل أبو عبيدة ذلك).[٨]

كتب أبو عبيدة الى عمر بن الخطاب قائلا: (بسم الله الرحمن الرحيم لعبد الله عمر أمير المؤمنين من أبي عبيدة بن الجراح سلام عليك، فإني أحمد الله إليك الذي لا اله إلا هو أما بعد، فإن أقمنا على أهل إيلياء، فظنوا أن لهم في مطاولتهم فرجا فلم يزدهم الله بهذا الا ضيقا ونقصاً وهزالاً وذلاً، فلما رأوا ذلك سألوا أن يقدم عليهم أمير المؤمنين فيكون هو الموثوق لهم والكاتب. فخشينا أن يقدم أمير المؤمنين فيغدر القوم ويرجعوا فيكون مسيرك - أصلحك الله - عناء وفضلا، فأخذنا عليهم المواثيق المغلظة بأيمانهم ليقبلن وليؤدن الجزية، وليدخلن فيما دخل فيه أهل الذمة، ففعلوا فان رأيت أن تقدم فافعل، فان في سيرك أجرا وصلاحا، أتاك الله رشدك ويسر أمرك والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.[٩]

دعا عمر كبار المسلمين إليه، وقرأ عليهم كتاب أبي عبيدة، فقال عثمان بن عفان (إن الله قد أذل الروم، وأخرجهم من الشام، ونصر المسلمين عليهم، وقد حاصر أصحابنا مدينة ايلياء وضيقوا عليهم... فان أنت أقمت و لم تسر إليهم رأوا أنك بأمرهم مستخف ولقتالهم مستحقر، فلا يلبثون الا اليسير حتى يترلوا على الصغار ويعطون الجزية.[٩]

وقال علي بن أبي طالب: (عندي غير هذا الرأي وأنا أبديه لك. فقال عمر وما هو يا أبا الحسن؟ فرد علي قائلا : إن القوم قد سألوك، وفي سؤالهم ذلك فتح للمسلمين، وقد أصاب المسلمين جهد عظيم من البرد والقتال وطول المقام، وإني أرى إن سرت إليهم فتح الله هذه المدينة على يديك.[٩] فخرج عمر من المدينة قاصدا بيت المقدس بعد أن استخلف على المدينة علي بن أبي طالب.[١٠]

فكان أول عمل قام به الخليفة عمر بن الخطاب لدى وصوله الى بيت المقدس هو أن أعطى أهلها العهد التاريخي المعروف بالعهدة العمرية.

العهدة العمرية:

اختلفت الروايات التاريخية حـول من أعطى الأمان من جانب المسـلمين لأهل إيلياء (القدس)، وحول من قام من أهل ايلياء بأخذ الأمان، ثم تختلف بعد ذلك في مضمون العهد وشروط الأمان. فقد قيل أن العهد أعطي على يد القادة المسلمين في بلاد الشام، وقيل أنه كان على يد الخليفة عمر بن الخطاب كما ذكر الطبري في كتابه عن خالد وعبادة قـالا: صالح عمر أهل ايلياء بالجابية (وهي منطقة بالشام) وكتب لهم فيها الصلح، ومن ثم فتحوها له.[10] لكن ما تجمع عليه غالبـية المصادر التاريخية أن الذي أعطى الأمان وكتبـه لهم هو الخليفة عمر بن الخطاب بنفسه، وأشهد عليه قادة المسلمين.

أما من قام بأخذ الأمان من أهل إيلياء، فقد قيل أنه البـطريرك صفرونيوس وذلك كما ذكر الواقدي في كتابه (حينما بلغ عمر سور المدينة مد البطريرك عنقه ونظر إليه وقال: هذا والله الذي صفته ونعته في كتبنا، حينئذ خرج البطريرك يتبعه الأساقفة والقسيسين والرهبان الى حيث يقف الخليفة عمر، فخف عمر للقائهم وقد حياهم بالسلام ثم تحدثوا في شـروط التسليم، وكتب لهم وثيقة الأمان.[11] وقيل أن الذي تولى مصالحة المسـلمين هم العامة من أهل ايلياء، في حين يقول اليعقوبي (والمجمع عليه النصارى).[12]

أما بخصوص العهد فقد اختلف العديد من المؤرخين في نص الوثيقة، فاليعقوبي يقـدم نصا للوثيقة جاء فيه (بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب كتبه عمر بن الخطاب لأهل بـيت المقدس، إنكم آمنون على دمائكم وأموالكم ، وكنائسكم لا تسـكن ولا تخرب ، الا أن تحدثوا حدثا عاما).[12] وأشهدوا شهودا عليها.

أما ابن البطريق فقد جاء نصه يماثل تقريباً ما ورد عند اليعقـوبي (بسـم الله الرحمن الرحيم، من عمر بن الخطاب لأهل مدينة ايلياء أنهم آمنون على دمائهم وأولادهم وأموالهم وكنائسهم الا تهدم ولا تسكن).[13] وأشهد شهودا .

أما ابن الجوزي فقد أورد نص العهد على النحو التالي: (إني قد أمنتكم على دمائكم وأموالكم وذراريكم وصلاتكم وبيعكم ولا تكلفوا فوق طاقتكم ....ومن أراد أن يلحـق لأمنه فله الأمان وأن عليكم الخراج كما على مدائن فلسطين).[14]

لكن ما أورده الطبري في كتابه فقد جاء بشـكل مفصل، وقـد أجمع عليه كثير من المؤرخين وهو على النحو التالي :

(بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها. أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم. ولا ينتقص منها، ولا من حيزها، ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن إيلياء معهم أحد من اليهود.

وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن. وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص. فمن خرج منهم فانه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم. ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية. ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم، فانهم آمنون على أنفسهم حتى يبلغوا مأمنهم، ومن كان بها من أهل الأرض فمن شاء منهم قعد، وعليه مثل ما على أهل ايلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع الى أهله ، لا يؤخذ منهم شيء حتى يُحصد حصادهم . وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية.

كتب وحضر سنة ١٥ هـ، وشهد على ذلك خالد بن الوليد وعبد الرحمن بن عوف وعمرو بن العاص ، ومعاوية بن أبي سفيان.) [١٥]

وبعد أن تم لعمر بن الخطاب فتح بيت المقدس، أول عمل قام به هو زيارة كنيسة القيامة وفي أثناء الزيارة حان وقت الصلاة، فأشار عليه البطريرك صفرونيوس أن يصلي في داخلها قائلا: مكانك صل، لكن عمر أبى وخرج من الكنيسة وصلى في مكان قريب منها لجهة الجنوب، وبعد أن أتم صلاته قال للبطريرك: (آذن لي أيها الشيخ، أنني لو أقمت الصلاة في كنيسة القيامة لوضع المسلمون عليها الأيدي من بعدي في حجة إقامة الصلاة فيها، وإني لآبى أن أمهد السبيل لحرمانكم منها وأنتم لها أحق وأولى) ، ثم طلب من البطريرك أن يريه مكان الهيكل، فوجد المكان مهجوراً الا من بعض الآثار البالية لمبان قديمة يرجع عهدها الى أزمنة بعيدة، و لم يكن هناك أي نوع من أنواع البناء وإنما كان المكان مغطى بالأقذار لأنهم كانوا قد اتخذوه موضعا لجمع قمامات المدينة، فأخذ عمر يعمل على رفعها من مكانها ويلقيها في الأودية ثم اقتدى به قادة المسلمين ورؤساء الجند حتى طهروا المكان، ثم خط بها محرابا من جهة الشرق وهو موضع مسجده فتقدم وصلى هو وصحبه. [١٦]

مسجد عمر (١٥هـ / ٦٣٦م):

بعد أن منّ الله على المسلمين بفتح بيت المقدس وبسط السيادة الفعلية على المدينة، شرع الخليفة عمر ببناء أول مسجد في المدينة عرف بالتاريخ باسم مسجد عمر.

هناك خلاف بين المؤرخين في تحديد الموقع الذي بني عليه المسجد في ساحة الحرم القدسي. فقد ذكرت بعض الروايات أنه بُني في موقع الصخرة أو قريبا منه، لكن معظم الدلائل تشير الى أنه بُني في موقع المسجد الأقصى الحالي.

فقد قال المؤرخ كليرمونت جانو CLEARMONT GANNEAU (أن المسجد الذي بناه عمر كان في نفس الموضع الذي يقوم عليه المسجد الأقصى في يومنا هذا). [١٧]

كما قال الأستاذ كرزويل CRESWELL (ان المسجد الأقصى قد بناه عبد الملك بن مروان مكان مسجد الخليفة عمر). [١٨]

كما وصلت من القرن الأول للهجرة رواية شاهد عيان وصف المسجد باقتضاب وهو المطران أركولفوس ARCULFUS الذي زار القدس في عهد خلافة معاوية بن أبي سفيان سنة ٥١هـ / ٦٧٠م وقال إن المسجد كان مبنيا من ألواح الخشب وجذوع الأشجار وكان بناؤه بسيطا ومربع الشكل ويتسع لثلاثة آلاف من المصلين.

ولما كانت المساجد في صدر الإسلام تبنى من الخشب واللبن ومن بعض المواد الأخرى التي لا تتحمل البقاء كثيرا، لذلك لم يبقَ أي أثر للمسجد الذي بناه الخليفة عمر، وقد زالت معالمه تماما منذ القرن الأول للهجرة. [١٩]

وهكذا بدخول الإسلام والمسلمين لمدينة بيت المقدس تغير الطابع الحضاري للمدينة بشيوع العقيدة الإسلامية واللغة العربية فيها، وحل السلام والأمن محل الفوضى والإرهاب. ويذكر الواقدي في كتابه فتوح الشام أن المدة التي أقام بها عمر بن الخطاب في بيت المقدس كانت عشرة أيام. [١٩]

(٢)
القدس في عهد الأمويين

١- معاوية بن أبي سفيان: تولى الخلافة في الفترة (٤٠هـ/٦٦١م- ٦هـ/٦٧٩م)

هو مؤسس الدولة الأموية. وكان أحد قادة الجيش العربي الإسلامي الذين حضروا فتح بيت المقدس، وكان من شهود العهدة العمرية التي أعطاها عمر بن الخطاب لأهل القدس. ولاه عمر بن الخطاب والياً على بلاد الشام وفلسطين سنة (١٨هـ/٦٣٩م) وولاه عثمان بن عفان نفس العمل بعد مقتل عمر، ولما قتل عثمان وتولى علي بن أبي طالب الخلافة لم يبايعه معاوية بالخلافة بل راح يطالب بدم عثمان ويتهم علياً بقتله، فقامت بين الرجلين وأتباعهما حرب صفّين المشهورة عام (٣٧هـ/٦٥٧م) كان النصر فيها حليف معاوية، فتولى خلافة المسلمين وأصبح الحاكم المطلق في بلاد مصر والشام والعراق والحجاز بعد أن كان أميراً على بلاد الشام مدة عشرين عاماً.

أما عن تولي معاوية خلافة المسلمين فان هناك اختلافاً بين كل من الطبري والمسعودي في السنة التي بويع بها معاوية بالخلافة في مدينة بيت المقدس.

قال الطبري (وفي هذه السنة أربعين للهجرة بويع لمعاوية بالخلافة بإيلياء. وكان قبل ذلك يدعى أميرا بالشام وكان علي عليه السلام يدعى بالعراق أمير المؤمنين، فلما قتل علي عليه السلام دعي معاوية أمير المؤمنين).[٢٠] بينما يقول المسعودي (بويع معاوية في شوال سنة إحدى وأربعين في بيت المقدس).[٢١]

وبالرغم من اختلاف هذين المؤرخين في تحديد السنة التي بويع بها معاوية بالخلافة، الا أنهما يتفقان في أن البيعة تمت في بيت المقدس. لكن معاوية اختار أن يجعل مدينة دمشق عاصمة لخلافته وولى سلام بن قيصر والياً على بيت المقدس.

القدس في عهد معاوية:

زار مدينة بيت المقدس في عهد مؤسس الدولة الأموية أسقف فرنسي يدعى أركولفوس ARCULFUS سنة ٥١هـ/٦٧٠م وقضى فيها تسعة أشهر وكتب مذكرة عن رحلته نقتطف منها ما يلي: (كان على سور القدس ٨٤٠ برجاً، وستة أبواب، يستعمل منها ثلاثة فقط. كما أن اليوم الخامس عشر من أيلول من كل سنة يعتبر يوماً مخصصاً للتجارة، ويقصد القدس جموع غفيرة من مختلف الأجناس والأديان ومن مختلف مدن فلسطين من أجل التجارة. وبهذا تكون القدس مكتظة بالزوار القادمين إليها ..... وأنه في تلك البقعة الجميلة حيث كان يقوم عليها هيكل سليمان، بنى المسلمون مسجداً مربع الأضلاع، وان هذا المسجد يتسع لثلاثة آلاف من المصلين).[٢٢] ويعني به مسجد عمر الذي بني سنة ١٥هـ/٦٣٦م.

بعد وفاة معاوية، تولى الخلافة كل من ابنه اليزيد ومن ثم معاوية الثاني ومن بعده مروان بن الحكم، لكنهم جميعاً لم تقع في عهودهم أية حوادث هامة في مدينة القدس تستحق الذكر حتى كان عهد الملك عبد الملك بن مروان لتشهد المدينة المقدسة أزهى وأبهى عصورها.

٢- عبد الملك بن مروان: تولى الخلافة في الفترة (٦٥هـ/٦٨٤م- ٨٦هـ/٧٠٤م).

تمت له البيعة بالخلافة في ٣ رمضان سنة ٦٥هـ/٦٨٤م، وقد شهد عهده العديد من الثورات في أنحاء متفرقة في جسم الدولة الأموية، فقد ثار أهل الحجاز بقيادة عبد الله بن الزبير وأيدته أقاليم أخرى، كما ثار أهل العراق بقيادة المختار الثقافي، وهاجمه الروم من ناحية السواحل الشامية من جهة البحر.[٢٣] لكنه تمكن من القضاء على ابن الزبير فبايعه أهل الحجاز واليمن، كما أخمد فتن العراق وصفا له مُلك مصر والشام والحجاز والعراق واليمن.

لكن أهم حدث جرى في عهده هو بناء قبة الصخرة المشرفة في بيت المقدس، وهي أعظم أثار بني أمية في فلسطين ، كما شرع في بناء المسجد الأقصى الذي أتم بناءه ابنه الوليد من بعده. كما عمل الخليفة عبد الملك على تعبيد الطرق الرئيسة بين الشام والقدس من أجل تسهيل سبل الزيارة لهذين المسجدين.

قبة الصخرة المشرفة

كلمة موجزة عن الصخرة المشرفة:

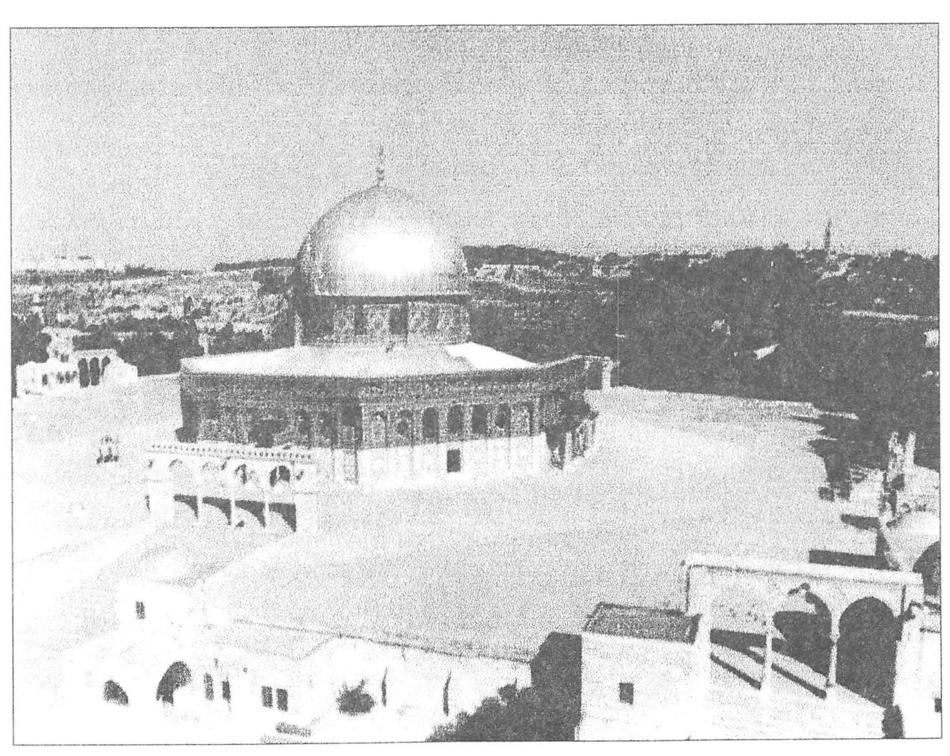
إن صخرة بيت المقدس المشرفة هي إحدى صخور المرتفعات في المدينة لم تهذب أوجهها وهي شبه مستديرة، ويتجه جانبها المنحدر الى الشرق بينما يتجه جانبها المستقيم المرتفع الى الغرب، وترتفع في بعض نواحيها عن سطح الأرض حوالي متراً، وتبلغ مقايســـها الداخلية حـــوالي (٥م × ٧م×٣ م الارتفاع) ومقاييســـها الخارجية (١٧,٥٠م× ١٣,٥٠م×٢م السمك).[٢٤]

والصخرة مقدسة منذ أقدم الأزمنة، فقد ذكرت بـــعض نصوص التلموذ (ان الله تعالى خلق الأرض ابتداء من هذه الصخرة).[٢٥]

وعند هذه الصخرة المشرفة صعد الرسول محمد عليه الصلاة والسلام الى السماء، ثم عاد الى الأرض في نفس المكان أيضا. وكان المسلمون يتوجهون في صلاتهم ناحية الصخرة الى أن كان أمر الله سبحانه وتعالى أن يتجه الرسول والمسلمون جميعا في صلاتهم نحو الكعبـــة. قال تعالى:(قد نرى تقلّب وجهك في السماء فلنولينّك قبـــلة ترضاها فوّل وجهك شـــطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره).[٢٦]

هذا وقد اختلف بعض المؤرخون في الأسباب الحقيقية التي دفعت بعبد الملك بن مروان لبناء مسجد قبة الصخرة ، وقد عزا كل واحد منهم ذلك الى دوافع مختلفة، أذكر أهم ما ورد منها:

قال اليعقوبي [٢٧] أن الدافع هو سياسي، وأن الغاية من بناء مســـجد الصخرة بهذا الشـــكل البديع هي للاستعاضة بها عن الكعبة المشرفة بمكة المكرمة بسبب ثورة عبد الله بن الزبير على الأمويين واستقلاله عنهم في بلاد الحجاز سنة ٦١هـــ/٦٨٠م، وأن عبد الملك بـــن مروان أراد أن يصرف الناس عن الكعبة خشية أن يأخذهم ابن الزبير عند الحج بالبيعة.



نقلا عن مجلة القدس الشريف

٨ قبة الصخرة المشرفة

لكن اليعقوبي مؤرخ شيعي وكان معادياً لبني أمية، ونستبعد تماما أن الخليفة عبد الملك أراد أن يصرف الناس عن الحج الى الكعبة لأن الحج الى الكعبة بمكة المكرمة ركن من أركان الإسلام، ولا يمكن أن يفكر خليفة من خلفاء المسلمين بتحويل الحج الى بيت المقدس.

ومنهم من ذكر أن عبد الملك بن مروان إنما بنى قبة الصخرة حتى يكون للمسلمين مسجد يضاهي في بهائه وعظمته ما لكنائس النصارى من الروعة، وخاصة أنه كان في سوريا وفلسطين يومئذ من الكنائس البالغة في العظمة.

ونحن نرى أن رأي المقدسي كان أقرب الى الصواب، فقد قال في كتابه أحسن التقاسيم (أن عبد الملك لما رأى عظم قبة القيامة وهيئتها خشي أن تعظم في قلوب المسلمين، فنصب على الصخرة قبة على ما ترى).[٢٨]

بناء قبة الصخرة:

كان من خبر البناء أن عبد الملك بن مروان حين قدم من دمشق الى بيت المقدس وأمر ببناء القبة على الصخرة الشريفة، بعث الكتب الى جميع عماله والى سائر الأمصار: (إن عبد الملك قد أراد أن يبني قبة على صخرة بيت المقدس تقي المسلمين من الحر والبرد، وكره أن يفعل ذلك دون رأي رعيته، فلتكتب الرعية إليه برأيهم وما هم عليه ...... فوردت الكتب اليه من سائر الأمصار......، نرى رأي أمير المؤمنين موفقاً رشيداً إن شاء الله يتم له ما نوى من بناء بيته وصخرته ومسجده، ويجري ذلك على يديه ويجعله تذكرة له ولمن مضى من سلفه).[٢٩] فشرع عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي الخامس في البناء سنة ٦٨هـ/٦٨٨م، وفرغ منه سنة ٧٢هـ/٦٩١م.[٢٩] ويوجد هناك كتابة مزخرفة بالفسيفساء على قناطر التثمينة الوسطى في الناحية الجنوبية الشرقية من الداخل، وبالخط الكوفي المذهب تقول (بنى هذه القبة عبد الله عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين في سنة اثنتين وسبعين . تقبل الله منه ورضي عنه آمين).[٣٠]

أتى الخليفة بالصنّاع من مختلف أنحاء البلاد، ووكّل على صرف المال كلا من رجاء بن

حيوة بن جود الكندي وكان من العلماء الأعلام ومن جلساء عمر بن عبد العزيز، ويزيد بن سلام مولى عبد الملك بن مروان وهو من أهل بيت المقدس وولديه.[٣١]

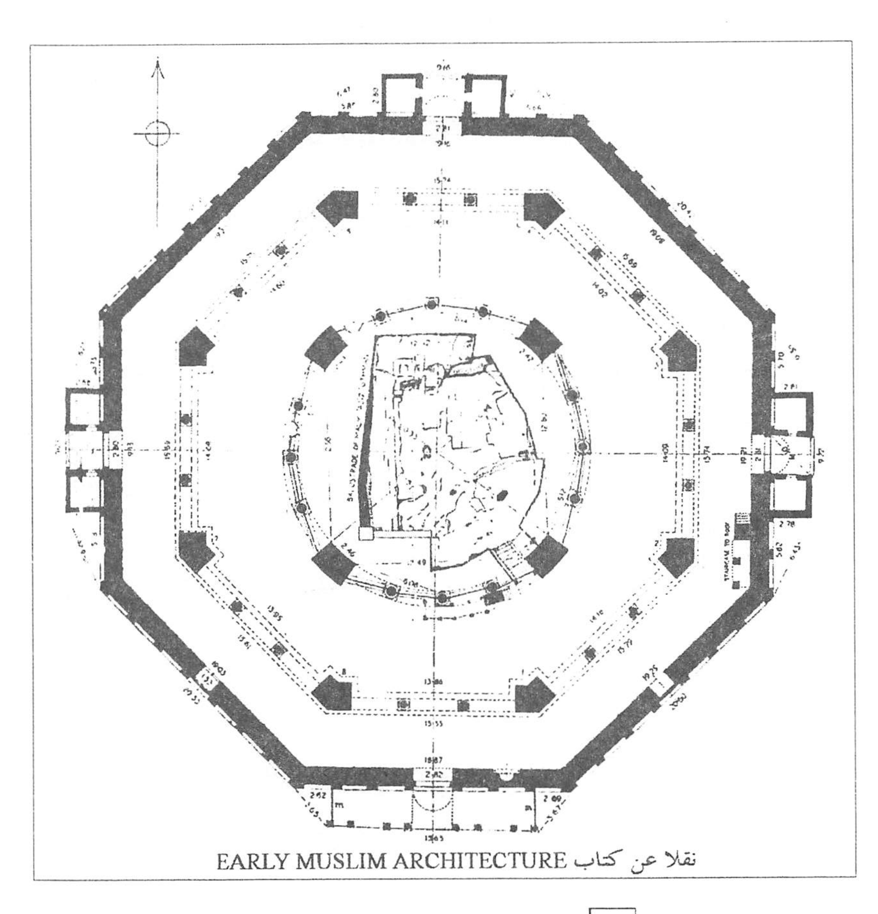
ولما تمّ الانتهاء من بناء قبة الصخرة، تبقى من الميزانية مائة ألف دينار، فكتب رجاء ويزيد الى عبد الملك بدمشق، فرد الخليفة عليهما بتقاسُم المبلغ بينهما، فرفضا قائلين أنهما أولى بزيادته من حلي نسائهما فضلا عن أموالهما الخاصة لينفقها الخليفة في أحب الأشياء إليه، فأمر الخليفة بأن تسبك ذهباً وتفرغ على القبة والأبواب.[٣١]

أما بالنسبة لمواد البناء التي استعملت في بناء مسجد قبة الصخرة، فقد ذكر بعض المؤرخين أن عبد الملك قد استعمل بعض الحجارة والأعمدة التي كانت مستخدمة في كنائس فلسطين المهدمة، والبعض الآخر ذكر بأنه استعمل بقايا حجارة وأعمدة كنائس البيزنطيين التي هدمها الفرس في عهد كسري سنة ٦١٤م[٣٢] أي قبل الفتح الإسلامي بثلاث وعشرين سنة، في حين تجمع الدراسات والاختبارات الأثرية الكثيرة التي أجراها العلماء المختصون على البناء، والتي أثبتت بما لا يدع مجالا للشك أن قبة الصخرة بكامل أساساتها وجدرانها الخارجية هي من إنشاء عبد الملك بن مروان، وأنها بناء متجانس الأجزاء لا يضم أي بقايا من أي بناء قديم كما توهم بعضهم.[٣٣]

التصميم الهندسي لقبة الصخرة:

لقد روعيت في إنشاء قبة الصخرة اتجاهات دينية في تحديد موقع البناء المباشر فوق الصخرة الشريفة، كما روعيت الاتجاهات الفنية في اختيار الشكل الثماني والقبة المركزية المزدوجة (فهي مكونة من قبتين واحدة داخلية والأخرى خارجية) والأبواب في الاتجاهات الأربعة، والكتابات الإسلامية، واستعمال النسب الهندسية في التصميم والزخرفة.

يتكون المبنى من قبة خشبية قطرها (٢٠،٤٤ م) متكئة على اسطوانة تشتمل على ١٦ شباكاً، وترتكز على أربع دعامات و١٢ عموداً منظمة في شكل دائري، بحيث يوجد ٣ أعمدة بين كل دعامتين.[٣٤] وتقع القبة في مركز الشكل الثماني الذي يبلغ طول ضلعه



نقلا عن كتاب EARLY MUSLIM ARCHITECTURE

٩ التصميم الهندسي لقبة الصخرة

(٥٩، ٢٠م) وارتفاعه (٥٠، ٩م) وهناك تصوينة فوق الجدران يبلغ ارتفاعها (٦٠، ٢م) ويوجد في الجزء العلوي من كل جدار خمسة شبابيك. كما هناك أربعة أبواب في الجدران الخارجية الأربعة الذي يبلغ قياس كل منها (٥٥، ٢م العرض ×٣٥، ٤م الارتفاع).[٣٤] أما زخرفة البناء الفسيفسائية فتغطي أكثر من ١٢٠٠م٢ من مساحة الجدران.[٣٥]

ومما لا شك فيه أن مسجد قبة الصخرة بقبته الجميلة وبنائه المتين وتكوينه الرائع جاء آية في فن الهندسة المعمارية على مر العصور والأيام، حتى أن الداخل من أي جهة الى المسجد تظهر أمامه جميع أطراف المكان ويرى القسم القريب والبعيد دون أن يقاطع بصره شيء من الأبنية، وهذا ما أكسب البناء روعة وجمالا وأظهره باتساع أكثر مما هو عليه في الحقيقة.

قال الأستاذ هايتر لويس HAYTER LEWIS وهو الأستاذ في فن العمارة الهندسية (إن مسجد الصخرة بلا شك من أجمل المباني على سطح الأرض بل إنها أجمل الآثار التي خلدها التاريخ).[٣٦]

وقال الأستاذ كريزول CRESWELL (إن لقبة الصخرة أهمية ممتازة في تاريخ العمارة الإسلامية، فقد بهرت ببهائها ورونقها وفخامتها وسحرها وتناسقها ودقة نسبها كل من حاول دراستها من العلماء والباحثين).[٣٧]

المسجد الأقصى

مفهوم المسجد الأقصى:

كان اسم المسجد الأقصى يطلق فيما مضى على الحرم القدسي الشـــريف كله، بما فيه المسجد الحالي الذي ندعوه بالأقصى وقبة الصخرة وما بينهما، وبعبارة أخرى جميع الأماكن والمعابد الإسلامية القائمة ما بين الأسوار. وهذا ما قصدته الآية الكريمة (**سبحـــان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله**).

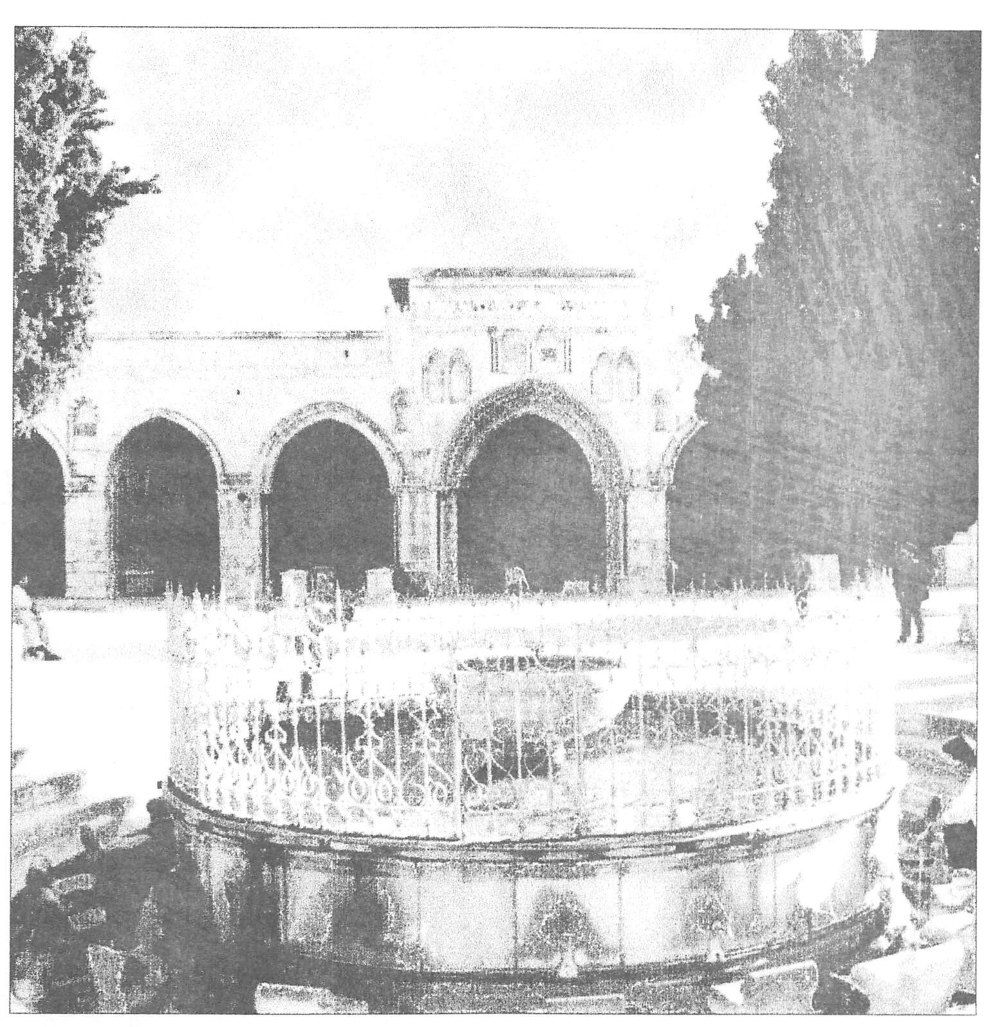
كما ورد في الحديث الصحيح أن الرسول الكريم حينما أخبر قومه عن إســـرائه ليلا الى القدس استنكروه وأرادوا أن يمتحنوه بالاستيضاح عن الموقع، فأخذ يصفه لهم ويعد أبوابـــه بابا بابا، وكانوا يعرفونه فتحققوا من صفة الوصف.

هذا وقد أصدر علماء المسلمين في الضفة الغربية عام ١٩٧٦ فتوى دينية، صرحوا فيها على أن (**الأقصى اسم لجميع المســـاجد مما دار عليه الســـور**) [٣٨]، وذلك اســـتناداً الى نصوص دينية وتاريخية موثقة، وقد أيد هذه الفتوى مؤتمر مجمع البحوث الإسلامية في الأزهر الشريف الذي عقد عام ١٩٦٨م.[٣٩]

وأما في أيامنا هذه فيطلق اسم المسجد الأقصى على المسجد الواقع جنوبي قبة الصخرة في الناحية القبلية من الحرم القدسي الشريف.

من هو باني مسجد الأقصى ؟؟

ينسب معظم المؤرخين المسلمين بناء المسجد الأقصى الى الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، ومن هؤلاء المقدسي ومجير الدين الحنبلي والســـيوطي، ويقـــولون أنه بـــناه ســـنة ٧٢هـــ/٦٩١م. في حين ينسبه بعض المؤرخين ومنهم ابن البطريق وابن الأثير الى الوليد بن عبد الملك الذي حكم من سنة ٨٦هـــ/٧٠٥م الى سنة ٩٦هـــ/٧١٤م.



نقلا عن مجلة القدس الشريف

| ١٠ | المسجد الأقصى المبارك.

ويستدل هذا الفريق على صحة قوله بما جاء في مجموعات من أوراق البردى والتي تضم مراسلات بين قرة بن شريك عامل الأمويين على مصر في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك الى أحد حـــكام الصعيد بـــين عامي (٩٠هـــ/٧٠٩م- ٩٦هــ/٧١٤م) وتتضمن ذكر نفقات العمال الذين كانوا يتولون بناء مسجد القدس[٤٠]، كما ويطلب منه أن يرســـل إليه صناعاً مهرة لمسجد بيت المقدس، وتدل هذه الأوراق بصورة قاطعة على أن العمل في بـــناء المسجد كان جاريا حوالي سنة ٩٠هـــ/٧٠٩م. ولهذا يميل الاعتقاد بأن الخليفة عبد الملك بن مروان بعد أن انتهى من بناء قبة الصخرة عام ٧٢هـــ شرع في بناء المسجد الأقصى الا أن ابنه الوليد أتم بناءه.

مكان بناء المسجد الأقصى:

ذكر الأستاذ كرزويل CRESWELL وهو أستاذ في علوم فن العمارة الإسلامية (إن المسجد الأقصى قد بناه الوليد بن عبد الملك بن مروان مكان المسجد الذي بناه الخليفة عمر بن الخطاب).[٤١]

وقد حذا حذوه الكثير من المؤرخين العرب فقالوا (إن المسجد الذي بـــناه عمر بـــن الخطاب يوم الفتح أقيم في نفس المكان الذي فيه المســـجد الأقـــصى الحالي، أي في الطرف الجنوبي من ساحة الحرم .) في حين ذكر بعض المؤرخين أن المسجد الأقصى بُني في الموضع الذي كانت تقوم عليه الكنيسة التي بناها الإمبراطور البيزنطي جوستنيان عام ٥٤٣م، الا أن المؤرخ جيمس فرغسون JAMES FERGSON قد أنكر هذا الكلام بقوله : (إن المسجد الأقصى ليس بكنيسة جوستنيان ، ولا صحة أيضا للقـــول القـــائل أنه بُني في الموضع الذي كانت تقوم عليه تلك الكنيسة فلا القناطر ولا العقـــود التي تحمل الأقـــصى ولا الأعمدة والتيجان التي فوق الأعمدة من النوع الذي كان معروفا على عهد جوستنيان، وبناء المسجد نفسه لا يشبه أية كنيسة من الكنائس التي بنيت في تلك العهود، كما لم يكن لأية كنيسة من الكنائس التي بنيت في تلك العهود قبة كقبة المسجد الأقصى).[٤٢]

ويؤيد هذا القول الأستاذ كرزويل CRESWELL بقوله أن منطقة الحرم الشريف لم تُبْن

وتعمر منذ تدمير تيطس الروماني للهيكل عام ٧٠م الا في عهد عمر بن الخطاب.[٤٣]

من المؤرخين الذين يؤيدون فكرة عدم وجود أي بناء لأية كنيسة في ساحة الحرم القدسي وأن المسجد الأقصى لم يُبنَ على أطلال كنيسة الأب مرمجي الدومنكي الذي قال: (إن الروم لم يعظموا مكان الهيكل و لم يبنوا عليه كنيسة لقول السيد المسيح في إنجيله (هو ذا يترك لكم بيتكم خرابا ، وقال أيضا : لا يبقى ها هنا حجر على حجر الا ويهدم) ولهذا ترك النصارى هذا المكان خراباً و لم يبنوا عليه كنيسة).[٤٤]

٣- الوليد بن عبد الملك: حكم في الفترة (٨٦هـ/٧٠٥م- ٩٦هـ/٧١٥م)

بعد وفاة عبد الملك بن مروان تولى الخلافة من بعده ابنه الوليد، وقد اهتم بمدينة بيت المقدس كثيراً، وقيل أنه تقّبل بيعة الناس له في مسجد قبة الصخرة. كما بلغت الدولة الأموية في عهده أقصى درجات العز والأمن والاستقرار، فقد تغلغلت جيوشه في بلاد الترك والروم والهند، وفتح موسى بن نصير باسمه الأندلس . أما أهم الأحداث التي جرت في القدس في عهده:

أولا: أنه أتم بناء المسجد الأقصى الذي شرع والده عبد الملك بن مروان في بنائه قبل وفاته.

ثانيا: يقول مجير الدين الحنبلي أنه في عهد الوليد بن عبد الملك تهدّم القسم الشرقي من مسجد قبة الصخرة بتأثير العوامل الطبيعية ، و لم يكن ببيت المال حاصل ، فأمر بضرب ما على القبة من ذهب نقوداً وأنفقه على ترميم ما تهدّم منه.[٤٥]

٤- سليمان بن عبد الملك: حكم في الفترة (٩٦هـ/٧١٥م- ٩٩هـ/٧١٧م)

تولى الخلافة بعد وفاة أخيه الوليد بن عبد الملك، وقد أتته بيعة الأجناد له وهو في البلقاء (منطقة في الأردن)، ثم سار منها الى بيت المقدس . ويقول مجير الدين الحنبلي عن زيارته تلك (فأتته الوفود بالبيعة، فلم يرد وفادة كانت أهنأ من الوفادة إليه .... فكان يجلس في قبة في صحن مسجد بيت المقدس مما يلي الصخرة..... ويبسط البسط، عليها النمارق

والكراسي والوسائد . والى جانبه الأموال وكتاب الدواوين. وقد همّ بالإقـامة في بيت المقدس واتخاذها منزلا ، وجمع الأموال والناس فيها .....) .[45]

وبعد وفاته تمت البيعة لابن عمه عمر بن عبد العزيز سنة ٩٩هـ/٧١٥م-١٠١هـ/٧١٩م الذي اشتهر بالعدل والحلم ، وأعقبه العديد من الخلفاء الأمويين الذين لم تجر في عهدهم أية حوادث في بيت المقدس تستحق الذكر .

نهاية الحكم الأموي:

في عهد مروان بن محمد (١٢٧هـ/٧٤٤م) وهو آخر الخلفاء الأمويين انتشر الفساد وعمت الفوضى وساءت الأحوال في البلاد ، وكثرت الفتن الداخلية وكثر منازعوه على الخلافة . فظل مشغولا بالفتن لا يكاد يطفئ واحدة حتى تستعر الأخرى ، ومن الذين ثاروا في وجهه ثابت بن نعيم الجذامي زعيم فلسطين في ذلك الحين ، لكن مروان بن محمد تمكن من القضاء عليه واستقامت له بعد ذلك بلاد الشام. في تلك الأثناء كانت البدايات الأولى للدعوة العباسية بالظهور في أرض الشراة من أعمال البلقاء ، حيث أرسل محمد بن علي بن عباس الى العراق وخراسان وأقنعهم بالخروج على الخلافة الأموية ، فتمت البيعة بالخلافة لأبي العباس عبد الله في الكوفة سنة (١٣٢هـ/ ٧٤٩م [46] في حين كان لا يزال مروان بن محمد صامداً في الجزيرة الفراتية ، فجمع الخليفة أبو العباس جيشا حارب به جيش مروان وتغلب عليه فهرب مروان الى مصر ، فلحق به أبو العباس وقتله في قرية بوصير قرب القاهرة سنة ١٣٢هـ وبهذا قضي على الدولة الأموية قضاءً تاما عام (١٣٢هـ/٧٥٠م).[47] وبدأ عهد جديد في الدولة الإسلامية هو عهد العباسيين .

(٣)

القدس في عهد العباسيين

بعد نجاح العباسيين في انتزاع الحكم من الأمويين سنة ١٣٢هـ/٧٥٠م، اتخذوا مدينة بغداد عاصمة لخلافتهم، ومنذ ذلك التاريخ خضعت فلسطين لحكمهم ومن ضمنها مدينة بيت المقدس .

لكن بدايات الحكم العباسي في جنوب بلاد الشام اتسم بالإرهاب والذبح لكبار زعماء الأمويين والتي تولاها عبد الله أبو العباس بنفسه في معسكره، حيث أسفرت عن ذبح ما يقارب الثمانين منهم، وذلك لاستئصال البيت الأموي وأهله وأنصاره لئلا يظهر منهم أي مطالب للحكم فيما بعد، فظل أهل هذه البلاد يكرهون الحكم الجديد ويعادونه.

وهكذا بعد أن كانت منطقة جنوب الشام تعتبر الإقليم الأول في العهد الأموي والأكثر حظوة ورعاية لم تعد كذلك في عهد العباسيين، إذ لم تخسر مركزها وأهميتها فحسب بل صارت ولاية ثانوية ويشك العباسيون في ولائها، ولهذا لم يعطوا حكمها الا لأمراء البيت العباسي، وغالبا ما كان يضاف حكم فلسطين ومن ضمنها بيت المقدس والأردن الى دمشق أو الى مصر.

ولكن على الرغم من الموقف العدائي من أهل بلاد الشام للعباسيين وحكمهم، الا أن بعض خلفائهم عملوا على إيلاء مدينة بيت المقدس وما تحتويه من مقدسات عناية خاصة دون غيرها من المدن الشامية، وهؤلاء الخلفاء هم:

١- أبو جعفر المنصور : تولى الخلافة في الفترة (١٣٦هـ/٧٥٤م- ١٥٨هـ/٧٧٥م)

هو ثاني الخلفاء العباسيين [٤٨] وقد اهتم بمدينة بيت المقدس والحرم القدسي الشريف اهتماما بالغاً. حيث قام بزيارة المدينة المقدسة مرتين إحداها سنة ١٤٠هـ [٤٩] والثانية سنة ١٥٤هـ [٥٠] وذلك حسب ما ذكره المسعودي في كتابه (أنه في سنة إحدى وأربعين ومائة،شخص المنصور الى بيت المقدس، فصلى فيه لنذر كان عليه وانصرف). [٥١]

اهتم الخليفة أبو جعفر المنصور اهتماما خاصا بتعمير المسجد الأقـصى، خاصة بـعد حدوث الزلزلة الأولى التي حدثت في عهده وهدمت بعض أقسامه. حيث يقول المقدسي: (وأما المسجد الأقصى فهو على قرنة البلد الشرقي نحو القبلة ...... وقد بنى عليه عبد الملك بحجار صغار حسان وشرفوه وكان أحسن من جامع دمشـق، ولكن جاءت زلزلة في دولة بني العباس، فطرحت المغطى الا ما حول المحراب، فلما بلغ الخليفة خبره قيل له لا يفي برده الى ما كان عليه بيت مال المسلمين، فكتب الى أمراء الأطراف وسائر القواد أن يبـني كل واحد منهم رواقاً فبنوه أوثق وأغلظ صناعة مما كان).[٥٢]

في حين يذكر مجير الدين الحنبلي عن عبد الرحمن بن محمد ...... أنه قال: (إن الأبواب كلها ملبسة بالصفائح الذهبية والفضية في خلافة عبد الملك بن مروان، فلما قدم أبـو جعفر المنصور العباسي كان شرقي المسجد وغربيه قد وقعا، فقيل له يا أمير المؤمنين قد وقع شرقي المسجد وغربيه من الرجفة في سنة ثلاثين ومائة ولو أمرت بـناء هذا المسـجد وعمارته. فقال: ما عندي شيء من المال، ثم أمر بقـلع الصفائح الذهبـية والفضية التي كانت على الأبواب فقُلعت وضُربت دنانير ودراهم وأنفقت عليه حـتى فرغ).[٥٣] وكان تاريخ إعادة تعمير المسجد الأقصى في عهد الخليفة المنصور سنة ١٥٤هـ/٧٧١م.[٥٤]

٢- المهدي بن المنصور: تولى الخلافة في الفترة (١٥٨هـ/٧٧٥م- ١٦٩هـ/٧٨٥م)

عند تولي المهدي خلافة المسلمين وقع زلزال آخر في مدينة بيت المقـدس أدى الى تهدم بناء المسجد الأقصى الذي أقامه أبو جعفر المنصور، كما تسبـب هذا الزلزال في انقـطاع المصلين عن ارتياد المسجد للصلاة فيه لمدة طويلة ، فأمر المهدي بإعادة بـنائه ، وقـد ذكر الحنبلي ذلك في كتابه قائلا: (رث هذا المسجد وطال وخلا من الرجال، أنقصوا من طوله، وزيدوا من عرضه) فتم البناء في خلافته سنة ١٦٣هـ/٧٨٠م.[٥٥] أ

أما المقدسي فقد قال: (بني المسجد هذه المرة بعناية فائقة وأنفقـت عليه أموال طائلة، وكان البناء يتكون من رواق أوسط كبـير يقـوم على أعمدة من رخام، وتكتنفه من كل جانب سبعة أروقة موازية له وأقل منه ارتفاعا.[٥٦]

ومن جهة أخرى علق محمد كرد علي على ذلك في كتابه قـائلا: أن عمارة المسـجد الأقصى قد ازداد على عهد المهدي بما أدخله عليه من تحسينات، حيث أقام به قبـة أخذت زينتها من الذهب والأحجار الكريمة الملونة.(٥٧) وقد قام المهدي بزيارة للمدينة المقدسة سنة ١٦٣هـ.(٥٨)

٣- المأمون بن المهدي: تولى الخلافة في الفترة (١٩٨هـ/٨١٣م/٢١٨هـ/٨٣٣م)

في عهده أصاب قبة الصخرة شيء من الخراب، فلما زار الخليفة المأمون بيت المقـدس سنة ٢١٥هـ/٨٣٠م أمر بترميمها، فتم ذلك وانتهى سنة ٢١٦هـ/٨٣١م، لكن الصناع أرادوا أن يتزلفوا إليه، فاستبدلوا اسـم الخليفة عبـد الملك بـن مروان بكتابـة اسمه على الفسيفسـاء الموجود على القبـة، ولكنهم غفلوا عن تغيير السـنة التي حـدث فيها هذا الترميم.(٥٩)

ومن عمليات الترميم التي أجريت على قبة الصخرة في عهد العباسيين، هو ما أمرت به أم الخليفة المقتدر بالله حوالي سنة ٣٠١هـ/٩١٣م بإصلاح قبة الصخرة وأمرت بـتزويد كل باب من أبوابها بمدخل خشبي فخم.(٦٠) وفي ربـيع سـنة ٢١٦هـ/أيار ٨٣١م أمر الخليفة المأمون ببناء الأبواب الشرقية والشمالية للحرم القدسي الشـريف.(٦١) كما أجرى البطريرك في القدس في عهده بعض الإصلاحات في القبر المقدس.(٦٢)

وفي عهده زار الإمام الأعظم محمد بن ادريس الشافعي بيت المقـدس(٦٣)، كما زارها عدد كبير من العلماء وأهل الفضل، وبلغ العلم في عهده مبلغاً عظيماً.

وما أن توفي الخليفة المأمون حتى أخذت حالات التمرد والثورات تشـتعل ضد نظام الحكم في مناطق متعددة من الدولة العباسـية المترامية الأطراف من أهمها في جنوب بـلاد الشام ومصر. وفي الوقت الذي كان مركز الخلافة في العراق يعاني من الفوضى العسـكرية وضعف السلطة المركزية واضطراب الأوضاع الاقتصادية العامة، كانت منطقة جنوب بلاد الشام ومصر تدخل في عهد من النشاط الاقتصادي والقدرة السياسية التي تمثلت في ظهور أسر حاكمة محلية مستقلة كآل طولون ثم آل الإخشيد.

(٤)

القدس في عهد الطولونيين

أحمد بن طـولـون : حكم في الفترة (٢٥٧هـ/٨٧٠م- ٢٧١هـ/٨٨٤م)

هو مؤسس الدولة الطولونية، وُلد في بغداد وأصله يعود الى قوم من المماليك الأتراك.[٦٤] وقد تمكن ابن طولون من جمع المهارة الحربية الى صنوف العلم، واتصل بالقادة الأتراك المتنفذين في الدولة العباسية في بغداد، وتزوج ابنة القائد التركي برقوق،ثم جعله الخليفة المستعين بالله من المقربين إليه لشجاعته. وفي عام ٢٥٤هـ/٨٦٨م وقع عليه اختيار القائد التركي بايكباك كي يحكم باسمه الفسطاط في مصر[٦٤]، ثم استخلفه والد زوجته برقوق على مصر كلها بعد أن آل اليه إقطاع مصر في ذات العام ٨٦٨م، ولما توفي يارجوخ بعد سنتين استقل ابن طولون في حكم مصر.[٦٤]

بعد مضي عشر سنوات على حكم ابن طولون لمصر توجه في مطلع عام ٢٦٥هـ/٨٧٨م[٦٤] الى احتلال فلسطين ومن ضمنها بيت المقدس ثم دمشق منتهزاً فرصة موت واليها أماجور، ومنها سار الى احتلال باقي مناطق الشام، وقد اعتبر هذه المناطق جزءاً متمماً لولايته فعمل على تنصيب العمال والولاة فيها من قبله، كما نظّم أمورها التجارية والحربية[٦٤]، وفي عام ٢٧٠ هـ/٨٨٤م توفي أحمد بن طولون تاركاً حكم مصر وفلسطين وجنوب الشام لابنه خمارويه .

استمر حكم الأسرة الطولونية بعد ذلك ٢٢سنة، حيث توالى على الحكم كل من خمارويه بن أحمد حتى قتل سنة ٢٨٢هـ/٨٩٥م، ثم ولداه جيش بن خمارويه الذي حكم لمدة تسعة أشهر فقط، فلما مات خلفه أخوه أبو موسى هارون الذي يقال أن عمه شيبان قد قتله بعد أن حكم لمدة تسع سنوات في الفترة (٢٨٣هـ/٨٩٦م- ٢٩٢هـ/٩٠٥م).[٦٤]

وبمقتل أبي موسى هارون انهارت الأسرة الطولونية كلها، وجاء الجيش العباسي ليسيطر

على الشام وفلسطين ومصر، وبذلك انتهى حكم الطولونيين لبيت المقدس في تلك الســـنة لتعود تحت حكم الولاة العباسيين. هذا و لم يكن لمدينة بيت المقدس أية أهمية اســـتراتيجية أو تجارية آنذاك، وما كان الناس يقصدونها الا لغايات دينية.

(٥)

القدس في عهد الإخشيديين

بعد أن تمكن الجيش العباسي من إعادة حكم مصر وجنوب الشـــام وفلســـطين تحت السيطرة العباسية في بغداد، تولى حكم البلاد ولاة مرسلون من قبـــلهم فعرفت تلك الفترة بعهد الولاة الذي استمر ما يقارب ٣٠ سنة (٢٩٢هـــ/٩٠٥م- ٣٢٣هـــ/٩٣٥م).(٦٥)

في عهد الخليفة العباسي القاهر بالله بن المعتضد عُهد في سنة ٣٢١هـــ/٩٣٣م الى محمد بن طغج صاحب دمشق ليكون واليا على مصر وجنوب الشـــام، فكان ذلك بـــداية ظهور الدولة التي عرفت بالإخشيدية نسبة الى لقب مؤسسها الإخشيدي.

١- محمد بن طغـج :

وهو تركي الأصل(٦٦)، شامي النشأة حيث كبر وتربى في طبرية وجنوب الشام، فأنشـــأ دولته في الشام على غرار الدولة الطولونية التي بدأت في مصر، فكان قيام الدولة الإخشيدية دليلا آخر يؤكد انقطاع الحكم المركزي للمناطق خلال عهد العباسيين .

ولما تمكن محمد بن طغج من توطيد حكمه لبـــلاد مصر أعلن استقـــلاله بحكمها ســـنة ٣٢٤هـــ/٩٣٤م، مما اضطر الخليفة العباسي الى تثبيته وملّكه فوق ذلك سوريا، وفي ســـنة ٣٢٧هـــ لقبّه بالإخشيد.(٦٧) وفي سنة ٣٣٤هـــ/٩٤٥م توفي الإخشيدي محمد بـــن طغج بدمشق وحُمل ليدفن في القدس حسب وصيته.

٢- أبو القاسم محمد :

وهو الملقّب بـــ (أنوجور)، تولى حكم الدولة الإخشيدية بعد أبيه وهو صغير السن لا يتجاوز عمره أربعة عشر عاماً وكان على وصايته أبو المسك كافور وهو مملوك زنجي وكان

مخلصا جداً وعاقلاً وجريئاً عرفه التاريخ باسم كافور الإخشيدي.[٦٩]

بوفاة مؤسس الدولة الإخشيدية حاول سيف الدولة الحمداني في حـــلب انتهاز الفرصة لدخول دمشق بجيوشـــه، فخرج كافور لملاقـــاته مصطحبـــاً معه أنوجور الصغير والجيوش الإخشيدية فحاربـــه وهزمه. لكن كافور الإخشـــيدي كان من الحكمة بحيث عاد لمهادنة ومصالحة سيف الدولة ليسانده في التصدي لعداء البـــيزنطيين من جهة والقـــوى العباســـية الطامعة من جهة أخرى.

في تلك الفترة الزمنية زار مدينة بيت المقدس الرحالة الفارسي المشهور ناصري خاســـرو ووصف المدينة المقدسة في كتابه قائلا:(إن أرضها كلها مبلطة بالحجارة وأنهم سووا الجهات الجبلية، فجعلوها مسطحة بحيث تغسل الأرض كلها وتنظف بعد الأمطار، وأنه يوجد على حافة سهل الساهرة قرافة عظيمة وقبور كثير من الصالحين).[٧٠]

كما زار ابراهيم بن محمد الفارسي الإصطخري بيت المقـــدس في عهد أنوجور ووصفها بكتابه قائلا:

(...وبيت المقدس مدينة مرتفعة على جبال يصعد إليها من كل مكان قصد من فلسطين، وبها مسجد ليس في الإسلام مسجد أكبر منه. والبناء في زاوية من غربي المسجد يمتد على نحو نصف عرض المسجد والباقي من المسجد فارغ الا موضع الصخرة فان عليه حـــجرا مرتفعا مثل الدكة وفي وسط الحجر على الصخرة قبة عالية جدا ......، وليس ببيت المقدس ماء جار سوى عيون لا تتسع للزروع، وهو من أخصب بلدان فلسطين..... وفي مســـجد بـــيت المقدس لعامة الأنبياء المعروفين لكل واحـــد منهم محراب معروف ..... ويزرع في جبـــالها وسهولها أشجار الزيتون والتين والجميز والعنب وسائر الفواكه أقل من ذلك).[٧١]

ولما توفي أنوجور بن الإخشيد سنة ٣٤٩هـــ/٩٦٠م، حُمل الى القـــدس ودفن بها عند أبيه. فتولى من بعده أخوه أبو الحسن الإخشيد لمدة ست سنوات أخرى حـــتى توفي ســـنة ٣٥٣هـــ/٩٦٦م ودفن بالقدس أيضا.

٣- كافور الإخشيدي :

تولى حكم البلاد رسميا بعد وفاة أبو الحسن الإخشيدي، وقـــد كان هو الحاكم الفعلي للدولة في عهد الأخوين السابق ذكرهما، واستمر في ذلك حتى تاريخ وفاته سنة ٣٥٧هـــ.

بعد تولى كافور الإخشيدي الحكم ولّى على مدينة بيت المقـــدس محمد بـــن إسماعيل الصنهاجي، وفي زمن هذا الوالي حدثت منازعات بين المسلمين والمسيحيين في المدينة، كان سببها أن الوالي محمد الصنهاجي قد بالغ في طلب المال لكافور الإخشـــيدي، فأمره كافور بالكف عن مطالبة البطريرك بالمال ولكن الصنهاجي لم يلتزم بذلك بل عاد للمطالبة بالمزيد من المال، فشكاه البطريرك الى حاكم مدينة الرملة الإخشيدي، مما أسخط والي القدس على البطريرك المذكور فحدثت على أثرها أعمال شغب أدت الى حرق كنيسة القيامة وسقوط قبتها.(٧٢) حاول كافور الإخشيدي بعد ذلك إعادة بناء كنيسة القـــيامة الى ما كانت عليه لكنه توفى قبل أن يتم ذلك (٧٣)، وقيل أنه دفن بالقـــدس في حـــين ذكر آخرون أنه دفن في مصر.(٧٤)

على أثر وفاة كافور الإخشيدي نشب الخلاف بين الإخشيديين، و لم يكن هناك من له القدرة على تسلم الحكم والإمساك بزمام الأمور في الدولة، فتمكنت القوات الفاطمية من احتلال مصر سنة ٣٥٨هـــ وألحقت بها منطقة جنوب الشام باحتلال كل من عسقـــلان والرملة والقدس وطبرية ثم دمشـــق في الســـنة نفســـها. وهكذا قـــضي تماما على الدولة الإخشيدية لتدخل بيت المقدس تحت الحكم الفاطمي.

ولقد كان للقدس منزلة خاصة عند الإخشيديين بدليل أن ملوكهم جميعاً دفنوا فيها بناء على وصاياهم، في حين لم يكن لها أية أهمية أخرى غير مكانتها الدينية، مما اقتصر حال العامة من الناس على الحج إليها كما كان الحال إليه في العهد الطولوني.

(٦)
القدس في عهد الفاطميين

قامت دولة الفاطميين في تونس في مدينة أسسها عبيد الله المهدي وأسماها المهدية سنة ٢٩٦هـ/٩٠٩م[٧٥]، وكان مطمحهم الكبير في احتلال مصر، وتم لهم ذلك سنة ٣٥٩هـ/٩٦٩م على يد القائد جوهر الصقلي الذي بنى القاهرة، واتخذها الخليفة الفاطمي المعز لدين الله عاصمةً لخلافته سنة ٣٦٢هـ/٩٧٣م.[٧٥]

لكن اهتمام الفاطميين لم يقتصر على مصر وحدها، وإنما كانوا يرون في بلاد الشام امتدادا طبيعيا لمصر ومنفذاً تجارياً لها. كما كانوا يرون في ضرورة القضاء على من تبقى من الإخشيديين في جنوب بلاد الشام والتي كانت تحت حكمهم وسيطرتهم أمراً ملحاً بعد أن تم لهم القضاء عليهم في مصر. فعمل القائد جوهر الصقلي على توجيه حملة في تلك السنة ٣٥٩هـ/٩٦٩ لفتح فلسطين والشام. فدخلت مدينة بيت المقدس تحت حكم الفاطميين في عهد العزيز بالله الذي خلف المعز لدين الله الفاطمي سنة ٣٦٥هـ/٩٧٥م[٧٦] وهو خامس الخلفاء الفاطميين.

١- أبو المنصور العزيز بالله: تولى الخلافة (٣٦٥هـ/٩٧٥م- ٣٨٦هـ/٩٩٦م)

دخلت مدينة بيت المقدس تحت السيادة الفاطمية في عهد العزيز بالله، وقد اتبع سياسة حسنة تجاه سكان مدينة بيت المقدس من النصارى واليهود حيث كان قد تزوج من امرأة مسيحية من الطائفة الملكية وكان يحبها كثيراً فاكتسبت نفوذا عنده، وجعل أخويها في مصاف البطاركة واحداً في الإسكندرية والآخر في القدس.[٧٧] كما أقام على فلسطين واليا قبطيا هو أبو اليمن قزمان بن مينا الكاتب.[٧٨]

وفيما يلي وصفاً لمدينة بيت المقدس في عهد العزيز بالله كما وصفها المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم الذي وضعه في عهده عام ٣٧٥هـ/٩٨٦م قال فيه:

(بيت المقدس ليس في مدائن الكور أكبر منها وقصبات كثيرة أصغر منها. لا شـــديدة البرد وليس بها حر، وقل ما يقع بها ثلج. وسألني القاضي أبو القاسم ابن قاضي الحرمين عن الهواء بها فقلت سجسج، لا حر ولا برد شديد . قال : هذه صفة الجنة . بنياهم حجر لا ترى أحسن منه ولا أتقن من بنائها ولا أعف من أهلها، ولا أطيب من العيش بها ولا أنظف من أسواقها، ولا أكبر من مسجدها، ولا أكثر من مشاهدها عنبها خطير، وليس لمعنقتها نظير، وفيها كل حاذق وطبيب، واليها قلب كل لبيب، ولا تخلو كل يوم من غريب).[٧٩]

الا أن المقدسي أشار أيضا الى ما يعتقده أنه من عيوبها في زمانه فقال: (الا أن لها عيوبـــا عدة، يقال أن في التورية (التوراة) مكتوب بيت المقدس طشت ذهب مليء عقـــارب ثم لا ترى أقذر من حماماتها، ولا أثقـــل مؤنة، قـــليلة العلماء، كثيرة النصارى وفيهم جفاء، على الرحبة والفنادق ضرائب ثقال على ما يباع، فيها رجالة على الأبواب فلا يمكن أحداً أن يبيع شيئا مما يرتفق به الناس الا بها، مع قلة يســـار، وليس للمظلوم أنصار، والمســـتور مهموم، والغني محسود، والفقيه مهجور، والأديب غير مشهود، لا مجلس نظر ولا تدريس، قد غلب عليها النصارى واليهود، وخلا المسجد من الجماعات والمجالس، وهي أصغر من مكة وأكبر من المدينة عليها حصن بعضه على جبل وعلى بقيته خندق ولها ثمانية أبواب حـــديد بـــاب صهيون باب التيه باب الأسباط باب جب أرميا باب سلوان باب أريحا باب العمود بـــاب محراب داود والماء برك عظيمة بركة بني إسرائيل بركة سليمان بـــركة عياض ......، غير أنها شديدة العمارة، قد رحل إليها خلق كثير من المشرق والمغرب.)[٧٩] وتوفي العزيز بعد أن دام حكمه عشرون سنة.

٢- بو علي المنصور : تولى الخلافة (٣٨٦هـــ/٩٩٦م- ٤١١هـــ/١٠٢٠م)

لما توفي العزيز بالله خلفه ولده المنصور أبو علي الملقّب الحاكم بأمر الله . في بداية حكمه كان معتدلا مع المسيحيين الا أنه انقلب عليهم وعلى اليهود سنة ٣٩٨هـــ/١٠٠٧م واتخذ بحقهم إجراءات قاسية وألزمهم أن يحملوا على ثياهم علامة تميزهم عن المســـلمين، وأمرهم بشد الزنانير ولُبس العمائم السود، وألغى أعيادهم وحرّم عليهم ضرب الأجراس، وأمر بأن يحمل اليهودي جرسا إذا ما دخل الحمام أما المسيحي فيحمل على صدره صليبا من الخشب،

وحرّم على المسيحيين واليهود ركوب الخيل وسمح لهم ركوب الحمير أو البغال مشترطا أن تكون سروجها من الخشب.[٨٠]

وفي سنة ٣٩٩هـ/١٠٠٨م أمر الحاكم بأمر الله بهدم الكنائس ومنها كنيسة القيامة[٨١]، وقد ذكرت الرواية الكنسية المعاصرة أن الحاكم أصدر أمره بهدم كنيسة القيامة في صورة موجزة الى والي الرملة بارختكين بقوله : (خرج أمر الإمامة إليك بهدم قيامة فاجعل سماها أرضاً وطولها عرضاً.) فقام بارختكين بتنفيذ الأمر حالا بهدم كنيسة القيامة وسائر ما اشتمل عليه حدودها سنة ٤٠٠هـ/١٠٠٩م.[٨٢]

ويعلل المؤرخون الأسباب التي دعت الحاكم بأمر الله لاتخاذ مثل هذا الأمر نحو أهل الذمة ، للأسباب التالية :

١- أنه في تلك الفترة الزمنية كانت هناك حروب بين المسلمين والروم، وقام الروم بتخريب وحرق جوامع المسلمين ، فانتقم الحاكم بأمر الله منهم بحرق الكنائس ومنها كنيسة القيامة.

٢- في عهده عمّت شائعة أن القيامة ستقوم في يوم معين، فتقاطرت على مدينة القدس جموع غفيرة من الأوروبيين الذين صدقوا الشائعة ورغبوا في الموت بجوار قبر المسيح. فلما مرّ هذا اليوم دون أن يحدث شيء، غضب الحاكم بأمر الله لاعتقاده بأن الشائعة كان القصد منها دفع أعداد هائلة من المسيحيين الى المدينة المقدسة مما يهدد أمنها.[٨٣]

٣- ويقال أيضا أن الوزراء والكُتاب الذين انتدهم لحكم المناطق من النصارى غالوا في الاستئثار بسلطاتهم واستغلالهم للوظائف الحكومية الهامة وحرّموا ذلك على المسلمين، كما قاموا باختلاس الأموال العامة مما أثار غضبه.[٨٤]

ويبدو أن الشدة التي اتبعها الحاكم بأمر الله مع النصارى واليهود قد أحدثت أثراً سيئاً في البلاد، كما جعل النصارى واليهود يفرون من البلاد الى خارجها، الا أن الحاكم بأمر الله ما لبث أن عاد عن سياسته تلك ومنح المسيحيين واليهود الحرية الدينية الكاملة، وسمح لهم ببناء

ما هدم من مقدساتهم.[85]

وفي عهده في العام ٤٠٧هـ/١٠١٥م حدث زلزال في مدينة بيت المقدس سقطت على أثره بعض أجزاء قبة الصخرة[86] وقسم كبير من سور الحرم.

وفي عام ٤١١هـ/١٠٢٠م اختفى الحاكم بأمر الله، وقيل أن أخته ست الملك أسهمت في قتله مع قائد جيشه على جبل المقطم في مصر، وبعد موته تولت أخته مقاليد الحكم مؤقتا ثم نادت بابنه علي أبي الحسن الملقب بالظاهر خليفة على المسلمين.[86]

٣- الظاهر لإعزاز دين الله: تولى الخلافة (٤١١هـ/١٠٢٠م- ٤٢٧هـ/١٠٣٥م).

بعد تولي الظاهر حكم البلاد، جرى في عهده سنة ٤١٣هـ/١٠٢٢م ترميم قبة مسجد الصخرة وكانت مغطاة بالرصاص من الخارج وبالفسيفساء من الداخل، فتم تعميرها على يد علي بن أحمد المنقوش اسمه على الأخشاب الملصقة في صدغ الدهليز في رقبة القبة.[87]

وفي سنة ٤١٨هـ/١٠٢٧م عقد الظاهر هدنة مع إمبراطور القسطنطينية الثامن، كان من شروطها أن يُطلق الإمبراطور سراح أسرى المسلمين من عنده مقابل أن يمنحه الظاهر الإذن بتجديد عمارة كنيسة القيامة وتعيين بطريرك على القدس، الا أن فقر المسيحيين المحليين حال دون تمكنهم من إتمام بناء الكنيسة.[88]

وفي عهده تم ترميم سور القدس وأخذت الحجارة من العمائر المتهدمة في المدينة نتيجة الزلزال الذي حدث في عهد والده الحاكم بأمر الله.[89]

وفي سنة ٤٢٥هـ/١٠٣٤م وقع زلزال آخر في مدينة بيت المقدس كان من نتائجه أن خرّب المسجد الأقصى الذي عمّره المهدي بن المنصور العباسي خراباً ظاهراً، فعمره الخليفة الظاهر في السنة التالية مبقياً ما أمكن إبقاؤه من البناء السابق، حيث لم يغير الخليفة الفاطمي من تخطيطه العباسي سوى تضيقه من الشرق والغرب بحذف أربعة أروقة من كل جانب فأصبح يكتنف الرواق الأوسط الكبير ثلاثة أروقة فقط من كل جانب، والمعتقد أن القبة

الحالية ورقبتها والأبواب السبعة التي في شمال المســـجد اليوم هي من صنع الظاهر لإعزاز دين الله، وتحتوي الواجهة الشمالية للعقد الذي يحمل القبة والمحلاة بالفسيفساء الذهبـــية كتابـــة بالخط الكوفي تشير الى ذلك التجديد هذا نصها: (بسم الله الرحمن الرحيم. سبحـــان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي باركنا حـــوله. جدد عمارته مولانا علي أبو الحسن الإمام الظاهر لإعزاز دين الله أمير المؤمنين ابن الحاكم بأمر الله صلوات الله عليه وعلى آبائه الأكرمين على يد أبي محمد الحسن بن أبي الحسن الحسين سنة ٤٢٧هـــ أعانه الله.)[٩٠]

٤- المستنصر بالله : تولى الخلافة (٤٢٧هـ/١٠٣٦- ٤٨٧هـ/١٠٩٤م)

في زمن الخليفة المستنصر بالله اتسع سلطان الفاطميين وامتد من المغرب العربي ومصر الى بلاد خراسان وفارس، ثم عاد ليتضائل من جديد. وفي عهده تجددت المعاهدة بين الفاطميين والبيزنطيين، فأجاز المستنصر للإمبراطور ميخائيل الرابع إعادة بناء كنيسة القيامة شريطة أن يسمح له بناء مسجدين للمســـلمين في القســـطنطينية، وانتهى بـــناء الكنيســـة في ســـنة ١٠٤٨م.[٩١]

كما ذكر مجير الدين الحنبلي في كتابه قائلا: (في سنة ٤٥٢هـــ سقط تنور قبة الصخرة وفيه خمسمائة قنديل، فخاف المقيمون به من المسلمين وقالوا : ليكونن في الإسلام حـــادث عظيم ، فكان أخذ الفرنجة له).[٩٢] وفي سنة ٤٥٨هـــ/١٠٦٦م أمر الخليفة المســـتنصر بـــالله بتجديد الواجهة الشمالية للمســـجد الأقـــصى.[٩٣] ويقـــول الحنبـــلي أيضا:(في ســـنة ٤٦٠هـــ/١٠٩٦م زلزلت الأرض في بيت المقدس، فانشقت صخرة بيت المقدس ثم عادت فالتأمت بقدرة الله).[٩٤]

وفي سنة ٤٦٥هـــ/١٠٧٢م استولى على بيت المقدس والرملة أحد زعماء السلاجقـــة الأتراك وهو أتسز بن أوق الخوارزمي صاحب دمشق، فأقيمت الدعوة العباسية ببيت المقدس وقطعت دعوة الفاطميين.

(٧)

القدس في عهد السلاجقة الأتراك

السلاجقة أصلهم فئة من الأتراك خرجوا في أواخر القرن العاشر الميلادي من سهول تركستان، اعتنقوا دين الإسلام وتحمسوا له، وأولاهم الخلفاء العباسيون حكم الولايات حتى أصبحوا أسياد دويلات مستقلة، فراحوا يحكمون صورياً باسم الخليفة العباسي وفعلياً باسمهم الخاص .

بدأ حكمهم الفعلي لبلاد العرب بدخول عظيمهم طغرل بك مدينة بغداد سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م[٩٥] وكان في بغداد يومئذ الخليفة العباسي القائم بأمر الله فأبقاه، ولكنه قضى على من سواه في الحكم من المتنفذين والقادة.

نافس السلاجقة الأتراك الفاطميين في بسط السيادة على بلاد الشام حتى تحققت لهم السيطرة على شمالي بلاد الشام، في حين كانت الخلافة الفاطمية تفرض سيطرتها على منطقة جنوبي بلاد الشام وهي فلسطين وأعمالها. وهكذا بدأ الصراع السياسي والنزاع العسكري بين السلاجقة الأتراك والفاطميين للسيطرة على فلسطين وخاصة مدينة القدس.

بعد وفاة طغرل بك تولى المُلك من بعده ابن أخيه ألب أرسلان للفترة (١٠٦٣-١٠٧٢م)، وقد تمكن أحد زعماء التركمان وهو أتسز بن أوق الخوارزمي في عام ٤٦٤هـ/١٠٧٢م من فتح الرملة وبيت المقدس وأخذهما من الفاطميين.[٩٦] فجعل أتسز الخوارزمي بيت المقدس مركزاً لحكمه وأبطل الدعوة للفاطميين وخطب للخليفة العباسي والسلطان السلجوقي.

من بيت المقدس عمل أتسز الخوارزمي على تعبئة قواته للاستيلاء على المدن المجاورة لتوسيع النفوذ السلجوقي في جنوبي بلاد الشام، فتم له الاستيلاء على مدينة عكا ٤٦٨هـ/١٠٧٦م وحاصر دمشق عدة مرات حتى تم له فتحها في عهد السلطان ملكشاه في ذات العام، فباتت مدينة القدس على عهده صاحبة النفوذ الأقوى في جنوبي بلاد الشام.

ونتيجة لانتصاراته بدأ أتسز الخوارزمي في التطلع نحو شمالي بلاد الشام لكنه عاد وترك أمرها للسلطان ملكشاه، فتوجه نحو مصر محاولا ضمها الى نفوذه لكن حملته سنة ٤٦٩هـ/١٠٧٦م أخفقت وتبعته القوات الفاطمية وهو ينسحب حتى الرملة بفلسطين، لكن أهل فلسطين لم يكونوا مرتاحين إليه بسبب تعسفه وهدره الأرواح إضافة الى أن بلاد الشام ساءت أحوالها الاقتصادية في عهده، مما دفع أهل القدس لانتهاز فرصة هزيمته أمام الفاطميين فثاروا عليه بزعامة القاضي، وحاول أتسز مفاوضتهم ثم قرر محاصرة المدينة واقتحامها، فدخلها عنوة وقتل ما يقرب من ثلاثة آلاف شخص من أهلها.[٩٧]

وفي عام ٤٧١هـ/١٠٧٨م قامت الخلافة الفاطمية بمصر بتوجيه حملة عسكرية بقيادة ناصر الدولة الجيوشي للهجوم على فلسطين، فاحتلت القدس ثم تقدمت نحو دمشق حيث كان أتسز الخوارزمي موجودا ، فاتصل بتتش بن ألب أرسلان بحلب مستنجداً به لإنقاذه من الحصار الفاطمي، فتحرك تتش على الفور ودخل دمشق، ولكنه ما لبث أن تخلص من أتسز بقتله وانفرد بالحكم، لكن عهد تتش بن أرسلان لم يكن ليختلف كثيراً عن عهد سلفه أتسز الخوارزمي إذ لم يأمل أهل فلسطين منه خيراً.

اقتطع تتش مدينة القدس وأعمالها الى أحد قادته وهو أرتق بن أكسك التركماني، وحين توفي أرتق بك سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م تولى الأمر من بعده ولديه ايلغازي وسقمان، ولما قتل تتش صاحب دمشق في سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٥م اقتسم ولداه رضوان ودقاق الحكم وصارت فلسطين تتبع الدقاق، لكن الخلاف نشب بين الأخوين مما دفع الأفضل بن بدر الجمالي أمير الجيوش بمصر للتوجه الى فلسطين ومحاصرة بيت المقدس لمدة أربعين يوماً، فما كان من أهل بيت المقدس الا أن اتفقوا مع الأفضل على منحهم الأمان فأمنهم، وهكذا استولى الأفضل على القدس بالأمان في شعبان سنة ٤٨٩هـ/١٠٩٦م.[٩٨] وبقيت مدينة المقدس في أيدي الفاطميين حتى سقوطها بأيدي الصليبيين سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م.

هوامش الفصل الثالث

١ - رواه البخاري ومسلم والنسائي.
٢ -ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج٢، ص١٥٨-١٥٩.
٣- ذات المرجع ، ج٢، ص٢١٥.
٤- البلاذري ، فتوح البلدان ، ج٢ ، ص١٤٩-١٥٠.
٥- ذات المرجع ، ج٢ ، ص١٨٨.
٦- الموسوعة الفلسطينية ، ج٣ ، ص٣٢٨.
٧- الواقدي ، فتوح الشام ، ج١، ص١٥٨.
٨- البلاذري ، فتوح البلدان ، ج٢، ص١٤٤-١٤٥.
٩- الواقدي ، فتوح الشام ، ج١، ص١٦٣.
١٠- الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج١ ، ص٢٤٠٤-٢٤٠٥.
١١- الواقدي ، فتوح الشام ، ج١، ص١٦٧.
١٢- اليعقوبي ، تاريخ ، ج٢ ، ص١٦٧.
١٣- ابن البطريق ، التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، ج٢، ص١٦.
١٤- ابن الجوزي ، فضائل القدس ، ص١٢٣-١٢٤.
١٥- الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج١ ، ص٢٤٠٥-٢٤٠٦.
١٦- الواقدي ، فتوح الشام ، ج١ ، ص١٦٧.
١٧- CLEARMONT GANNEAU, *ARCHEOLOGICAL RESEARCHES IN PALESTINE*, ,Vol 1, P 337.
١٨- K.A.C. CRESWELL , *EARLY MUSLIM ARCHITECTURE*, VOL 2 , P 374.
١٩- الواقدي ، فتوح الشام ، ج١ ، ص١٥١، ١٦٣.
٢٠- الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٢، ص٩٣ .
٢١- المسعودي ، مروج الذهب ، ج٥ ، ص٤.
٢٢- J.R. MACHPHERSON , *THE PILGRIMAGE OF ARCULFUS* , P 73.
٢٣- الموسوعة الفلسطينية ، ج٣ ، ص٢٤٣.
٢٤- رائف نجم وآخرون ، كنوز القدس ، ص٧١-٧٢ .
٢٥- تلمود توسفتا ، توما ، ٨:٨٤.
٢٦- رآن الكريم ، سورة البقرة ، الآية ١٤٤.

٢٧- اليعقوبي ، تاريخ ، ج٢ ، ص٢٦١.

٢٨- المقدسي، أحسن التقاسيم ، ص١٥٩.

٢٩- مجير الدين الحنبلي ، الأنس الجليل ، ج١، ص٢٧٢.

٣٠- عارف العارف ، المفصل في تاريخ القدس ، ص١٠٨ .

٣١- مجير الدين الحنبلي ، الأنس الجليل ، ج١ ، ص٢٧٣

٣٢- RICHMOND, *THE DOME OF THE ROCK*, P2.

٣٣- لموسوعة الفلسطينية ، ج٣ ، ص٢٤.

٣٤- رائف نجم وآخرون ، كنوز القدس ، ص٧١-٧٢.

٣٥- الموسوعة الفلسطينية ، ج٣ ، ص٢٤

٣٦- HAYTER LEWIS, *THE HOLY PLACES OF JERUSALEM*, P 26.

٣٧- K. A. C. CRESWELL, *EARLY MUSLIM ARCHITECTURE*, VOL 1, PP 65-68.

٣٨- عبد الحميد السائح ، أهمية القدس في الإسلام ،ص٤٧.

٣٩- د. عبد الحميد زايد ، القدس الخالدة ، ص١٨١.

٤٠- الموسوعة الفلسطينية ، ج٤ ، ص٢٠٤.

٤١- K. A. C. CRESWELL, *EARLY MUSLIM ARCHITECTURE*, VOL 2, P 374-350.

٤٢- JAMES FERGSON, *AN ESSAY ON THE ANCIENT TOPOGRAPHY OF JERUSALEM*, P 118.

٤٣- K. A. C. CRESWELL, *EARLY MUSLIM ARCHITECTURE*, VOL 1, P 32.

٤٤ - أ.س مرمجي الدومنكي ، بلدانية فلسطين العربية، ص٢٤٦ .

٤٥- مجير الدين الحنبلي ، الأنس الجليل ، ج١ ، ص٢٧٣ .

٤٦- الموسوعة الفلسطينية ، ج٣ ، ص٢٤٤.

٤٧- الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٣، ص٤٩-٥٠.

٤٨- أول من تولى خلافة العباسيين هو أبو العباس عبد الله بن محمد الملقب بالسفاح ودام حكمه أربع سنوات (٧٥٠م - ٧٥٤م).

٤٩- الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٣ ، ص١٢٩.

٥٠- ذات المرجع ، ج٣ ، ص٢٧٢. وأنظر : ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة ، ج١ ، ص٢٩.

٥١- المسعودي ، مروج الذهب ، ج٦ ، ص٢١٢.

٥٢- المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ص١٦٨.

٥٣- مجير الدين الحنبلي ، الأنس الجليل ، ج١، ص٢٨٢.

٥٤ - عارف العارف ، تاريخ قبة الصخرة ، ص١٥٧.

٥٥ - ذات المرجع ، ص١٥٧. وأنظر : الحنبلي ، الأنس الجليل ، ج١، ص٢٨٣.

٥٦ - المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ص١٦٨ .

٥٧ - محمد كرد علي ، خطط الشام ، ص٢٨١.

٥٨ - الموسوعة الفلسطينية ، ج٤ ، ص٢٠٤.

٥٩ - عارف العارف ، تاريخ قبة الصخرة ، ص٧٦.

٦٠ -ذات المرجع ، ص٢٤٨-٢٥٠.

٦١- VAN BERCHEM ,*JERUSALEM HARAM*, PP 248-249,250.

٦٢ - ابن البطريق ، التاريخ المجموع ، ج٢، ص٥٥ وما يليه.

٦٣ - مجير الدين الحنبلي ، الأنس الجليل ، ج١، ص٢٩٠.

٦٤ - جرجي زيدان ، تاريخ مصر الحديث ، ج١ ، ص١٨٠،١٨٩،١٩٤،٢٠٧-٢٠٨،٢٢٨.

٦٥ - الموسوعة الفلسطينية ، ج٣ ، ص٢٦٠.

٦٦ - أصله انحدر من ملوك فرغانة ، وكلمة الإخشيدي :هي لقب كان يطلق على ملوكهم.

٦٧ - جرجي زيدان ، تاريخ مصر الحديث ، ج١ ، ص٢٣٣.

٦٨ - عارف العارف ، المفصل في تاريخ القدس ، ص١٢٨. وأنظر: جرجي زيدان، تاريخ مصر الحديث ، ج١ ، ص٢٤٢.

٦٩ - جرجي زيدان ، تاريخ مصر الحديث ، ج١ ، ص٢٤٣.

٧٠ - ناصر خسرو علوي ، سفرنامة (وهي رحلة قام بها ناصر خسرو تقع حوادثها في الفترة الممتدة ٣٤٧هـ/٩٥٨م- ٤٤٤ هـ/١٠٥٢م، للمزيد أنظر الترجمة العربية د. يحي الخشاب.

٧١ - أبو اسحق إبراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري ، مسالك الممالك ، ص٥٦-٥٨.

٧٢ - د. شفيق جاسر محمود ، تاريخ القدس ، ص٢٣٢.

٧٣ - شحادة ونقولا خوري ، خلاصة تاريخ كنيسة أورشليم الأرثوذكسية ، ص٦١-٦٢.

٧٤ - على قول ابن تغري بردى في كتابه النجوم الزاهرة أنه توفي في مصر وحمل الى القدس ليدفن هناك، في حين ذكر ابن خلكان والمقريزي وجرجي زيدان أنه توفي في مصر ودفن فيها.

٧٥ - جرجي زيدان ، تاريخ مصر الحديث ، ج١ ، ص٢٣٦،٣٥٠-٣٥١ .

٧٦ - فيليب حتي ، تاريخ العرب المطول ، ج٢ ، ص٧٣٤-٧٣٥.

٧٧ - جرجي زيدان ، تاريخ مصر الحديث ، ج١، ص٢٥٥.

٧٨ - عارف العارف ، المفصل في تاريخ القدس ، ص١٣١.

٧٩- المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ص١٦٥-١٦٨.

٨٠- جرجي زيدان ، تاريخ مصر الحديث ، ج١ ، ص٢٥٩-٢٦٠.

٨١- ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٥.

٨٢ - محمد عبد الله عنان ، الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية ، ص٧٥. وأنظر : عارف العارف ، المسيحية في القدس ، ص٢٢١ .

٨٣- شحادة ونقولا خوري ، خلاصة تاريخ كنيسة أورشليم الأرثوذكسية ، ص٦٤-٦٦

٨٤-جرجي زيدان ، تاريخ مصر الحديث ، ج١، ص٢٠٨.

٨٥- اسكندر ميخائيل مكسي ، القدس عبر التاريخ ، ص٣١.

٨٦- مجير الدين الحنبلي ، الأنس الجليل ، ج١، ص٣٠٤-٣٠٥.

٨٧- عارف العارف ، تاريخ قبة الصخرة ومسجد الأقصى ، ص٧٨.

٨٨- د. شفيق جاسر محمود ، تاريخ القدس ، ص٢٤١.

٨٩- يحي بن سعيد الأنطاكي ، تاريخ الذيل ، ج٢، ص٢٧٢.

٩٠- عارف العارف ، المفصل في تاريخ القدس ، ص١٣٦ .

٩١- د. شفيق جاسر محمود ، تاريخ القدس ، ص٢٤٢.

٩٢- مجير الدين الحنبلي ، الأنس الجليل ، ج١، ص٣٠٤.

٩٣- عارف العارف ، تاريخ قبة الصخرة ، ص١٥٨ .

٩٤- مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل ، ج١ ، ص٣٠٥.

٩٥- عارف العارف ، المفصل في تاريخ القدس ، ص١٤٢.

٩٦-ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج١٠ ، ص٤٣-٤٤. وأنظر : مجير الدين الحنبلي ، الأنس الجليل ، ج١ ، ص٣٠٥.

٩٧- الموسوعة الفلسطينية ، ج٢ ، ص٥٧٤.

٩٨- مجير الدين الحنبلي ، الأنس الجليل ، ج١ ، ص٣٠٥. وأنظر: ابن قلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص١٣٥.



الفصل الرابع

الحروب الصليبية على القدس

حالة الوطن العربي
في القرن الحادي عشر الميلادي

في القرن الخامس الهجري الموافق للقرن الحادي عشر الميلادي، كانت تسود بلاد المشرق العربي حالة من الفوضى والتمزق والتفكك نتيجة لسوء العلاقات وكثرة الخلافات والمنازعات المذهبية والسياسية بين الخلافة العباسية السنية في بغداد، وبين الخلافة الفاطمية الشيعية في القاهرة. كما كانت أجزاء كبيرة من الحدود الشمالية لبلاد الشام وشمالها الغربي تحت الحكم البيزنطي في آسيا الصغرى، أما الأجزاء الجنوبية من بلاد الشام مع سواحلها فقد كانت خاضعة لحكم الفاطميين في مصر.

ومن ناحية أخرى كانت بعض بلاد المشرق العربي الإسلامي تحكم من قبل حكام غرباء عن أهل البلاد الأصليين وهم السلاجقة[1] الأتراك. أسلموا فحسن إسلامهم ودافعوا عن الإسلام، فوثق بهم الخلفاء العباسيون، فأولوهم حكم الولايات حتى أصبحوا أسياد دويلات مستقلة، فراحوا يحكمون صوريا باسم الخليفة العباسي وفعليا باسمهم الخاص، وما كانت هذه الحالة الا نتيجة مؤسفة من نتائج السياسة الفاشلة التي سلكها الخلفاء العباسيون بعد قضائهم على الأمويين وانصرافهم الى حياة اللهو والترف.

نتيجة لضعف الإدارة المركزية في الخلافة العباسية، قامت هناك حركات انفصالية متعددة عن جسم الدولة، أدت الى نشوء دويلات ضعيفة وهزيلة أطلق عليها اسم الأتابكيات وعلى ولاتها اسم الأتابكة[2]، وكانت بعض هذه الدويلات أو الأتابكيات صغيرة جداً لا تتعدى أسوار مدينة أو قلعة واحدة. كما أنها لا تملك من أسباب القوة غير الدفاع عن نفسها تجاه أبناء البلاد الأصليين. كما أن سادة هذه الدويلات لم تكن لديهم فكرة واضحة عن مفهوم الدولة وكيفية الحفاظ عليها وعلى استمرار وجودها، فكان كل واحد منهم يعتبر الدولة ملكاً من أملاكه الخاصة، يقسّمه بين الورثة في حياته أو يتقاسمها الورثة بعد وفاته، وكثيراً ما كانت تنشب الحروب بين الأخوة والأقارب من أبناء الأسرة الواحدة للفوز بالحكم والغنائم.

ومن أهم تلك الدويلات أو الأتابكيات، أتابكية دمشق ومؤسسها ظهير الدين طغتكين والتي استمرت من عام ٤٩٨ هـ/١١٠٤م الى عام ٥٤٩ هـ/١١٥٤م[٢]، وأتابكية الموصل بزعامة عماد الدين زنكي، وقد امتد نفوذها من شمال العراق الى شمال الشام واستمرت منذ عام ٥٢١هـ/١١٢٧م الى عام ٦٦١ هـ/١٢٦٢م.[٣]

وفي النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي ازداد الصراع والتنافس بين السلاجقة والفاطميين على أراضي بلاد الشام نظرا لأهميتها السياسية والدينية والاقتصادية لكل منهما، فقد كانت الخلافة العباسية في بغداد تريد الحفاظ على الشام كجزء من ممتلكاتها، في حين كان الفاطميون في مصر يرون في الشام امتدادا طبيعيا لمصر، وقاعدة عسكرية يستطيعون بها تأمين حدودهم الشرقية ضد الروم والعباسيين، وليجعلوا منها قاعدة لدعوتهم الشيعية.[٤] لكن قوة الفاطميين أخذت بالضعف والانحسار مما أدى إلى تقليص نفوذهم في بلاد الشام إلى أن خرجت من أيديهم عندما تمكن القائد السلجوقي التركماني (أتسز) من فتحها حتى دمشق في ذي القعدة سنة ٤٦٨هـ/حزيران ١٠٧٦م، فاستولى عليها أمراء السلاجقة وتم تقسيمها فيما بينهم.

والى جانب القوى العربية الإسلامية هذه في المنطقة، كانت هناك منطقة آسيا الصغرى التي كان يحسب حسابها والتي كانت قبل القرن الحادي عشر الميلادي من أملاك الإمبراطورية البيزنطية، فكانت مناطق الحدود ساحة قتال دائمة بين العرب المسلمين والبيزنطيين حتى كان عهد السلاجقة وانتصار ألب أرسلان السلجوقي على الإمبراطور البيزنطي رومانوس ديوجنيس في معركة ملاذكرت[٥]الشهيرة سنة ٤٦٣ هـ/١٠٧١م[٦]، فتبعها العديد من الانتصارات والفتوحات للمسلمين حتى تمت لهم السيطرة والسيادة على آسيا الصغرى من الفرات شرقا حتى بحر مرمرة غربا.

رأى كثير من المؤرخين أن ما حدث سنة ١٠٩٥ م من دعوة الغرب الأوروبي للحرب ضد المسلمين، ما هو إلا رد فعل للكارثة التي حلت بالدولة البيزنطية سنة ١٠٧١ م، لأن تلك الموقعة وما تبعها من استمرار توسع السلاجقة المسلمين في فتوحاتهم كانت دليلا واضحا على نهاية دور الدولة البيزنطية في حراسة الباب الشرقي لأوروبا من غزو

الآسيويين الشرقيين، مما أوجب على الغرب الأوروبي أن يقوم بهذه الحماية بدلا من اعتماده حتى ذلك الوقت على الإمبراطورية البيزنطية.

إلا أن ما يؤسف له أن الصراع بين الأمراء السلاجقة أنفسهم على السلطة أدى إلى ضعفهم وتفككهم مما كان له أكبر الأثر في نجاح الحملة الصليبية الأولى.

(١)

ماهية الحركة الصليبية

إن الدارس للحركة الصليبية يلاحـظ تعدد وجهات نظر المؤرخين في تعريف وتحديد ماهية الحركة الصليبية، وذلك لاختلاف وجهة نظر كل واحد منهم إلى الأسباب والبواعث المؤدية الى هذه الحركة. إلا أن الدكتور سعيد عاشور تمكن من تعريفها وتحديدها بصورة واضحة وشاملة وذلك حسب ما ورد في كتابه (الحركة الصليبية) وذلك بقوله:

(إن الحركة الصليبية هي حركة كبرى نبعت من الغرب الأوروبي المسيحي في العصور الوسطى، واتخذت شكل هجوم حربي استعماري على بلاد المسلمين وبخاصة في الشـرق الأدنى بقصد امتلاكها. وقـد انبـعثت هذه الحركة عن الأوضاع الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والدينية التي سادت غرب أوروبا في القرن الحادي عشر، واتخذت من استغاثة المسيحيين في الشرق ضد المسلمين ستارا دينيا للتعبير عن نفسـها تعبـيرا عمليا واسـع النطاق).[٧]

وهكذا في غمرة الصراع بين القوى المتعددة الحاكمة للمشـرق العربي، واهتمام كل واحدة منها بأوضاعها الخاصة دون النظر الى مصلحة البلاد الإسـلامية عامة، تطلع الغرب الأوروبي مدفوعا بأسباب قوية وحقيقية نابعة من صميم مجتمعه الغربي الى بـلاد المشـرق العربي لينتهز الفرصة الملائمة ليوقع بالمسلمين، وليؤسس له ملكا على أنقـاض بـنيانهم، وليحقق مكاسب كثيرة ومغانم مختلفة، فنشبت الحروب المعروفة في التاريخ باسم الحروب الصليبية، وهي الحروب التي شنتها أوروبا الغربية المسيحية على بلاد الشـام خاصة ومصر أحيانا، وقد ارتدت هذه الحروب حـلة الدين وحمل أفرادها شـارة الصليب، وادعوا أن غايتهم انتزاع الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين.[٨]

بدأت أحداث الحركة الصليبية بخطبة وجهها البابا أوربـان الثاني من مجمع كليرمونت الفرنسي في السابع والعشرين من شهر تشرين الثاني/ نوفمبر عام ١٠٩٥م، وبحضور أمراء من مختلف جهات أوروبا وعدد كبير من رجال الدين ومندوبين عن الإمبراطور البـيزنطي

وممثلين عن المدن الإيطالية. ومن خلال خطبته تمكن البابا من إثارة حماس السامعين، ودعوة المسيحيين جميعا للاتحاد لقتال المسلمين لاستخلاص الأراضي المقدسة من أيديهم، فتردد في أرجاء المجمع هتاف - هكذا أراد الله- واستقر الرأي على أن يحيك كل محارب صليبا من القماش الأحمر على ردائه الخارجي من ناحية الكتف رمزا للحركة التي أشترك فيها والفكرة التي خرج ليحارب من أجلها.[٩]

وما أن وجه البابا أوربان الثاني دعوته هذه، حتى رحبت القوى الاجتماعية المختلفة في الغرب الأوروبي بهذه الدعوة، لأنها كانت بمثابة الهدف العام الذي يمكن كل طبقة من طبقات المجتمع الأوروبي الغربي الذي كان يسوده النظام الإقطاعي، أن تعبر عن نفسها من خلاله. فقد كانت المجتمعات الأوروبية تتألف من ثلاث طبقات:

أ- رجال الدين

ب- النبلاء والفرسان

ج- وأخيرا طبقة الفلاحين ورقيق الأرض

لقد كانت كل من الطبقتين الأولى والثانية تشكل الأقلية في المجتمع، وهي الهيئة الحاكمة والمستغلة، في حين كانت طبقة الفلاحين تمثل الغالبية التي على أفرادها أن يعملوا ويشقوا ليسدوا حاجة أفراد الطبقتين، كما أن أولئك الفلاحين عاشوا مثقلين بمجموعة ضخمة من الالتزامات والخدمات مما جعلهم يعيشون حياة شاقة وفي ضيق دائم.

وهكذا رحب العامة من الناس في أوروبا بهذه الدعوة حيث وجدت فيها فرصتها للتخلص من الجوع والفقر اللذين خيما على حياتهم التعسة، بإيجاد سبل حياة أفضل[١٠]، لظنهم أنهم سيمضون صوب الأرض التي لا يوجد بها فقراء.[١١]

أما السبب في استجابة الفرسان الإقطاعيين لدعوة البابا هو أن الكثيرين منهم كانوا يتحرقون شوقا للمغامرة خارج أوروبا[١٢]، بعد أن باتت فرصة الغزو والتوسع داخلها ضئيلة ومحفوفة بكثير من المخاطر بسبب ثبات حدود الدوقيات والكونتيات الإقطاعية، كما أن

زيادة عدد السكان أدت الى زيادة في عدد الفرسان الذين لا يملكون إقطاعيات، وأولئك هم الذين كانوا على استعداد للمشاركة في الحملة الصليبية أملا في الحصول على الأملاك والضياع في فلسطين (الأرض التي تفيض باللبن والعسل) كما يقول الكتاب المقدس.(١٣) هذا بالإضافة الى أن بعضهم وجدها فرصة للهروب من العدالة، أو الهروب من الدائنين، في حين انضم آخرون إلى الحملة خوفا من أن يظن الناس أنهم كسالى متقاعسون، أو رغبة في صحبة أصدقائهم.

أما البابوية فقد رأت في الحملة الصليبية أداة من أدوات السياسة الداخلية والسياسة الخارجية على حد سواء، إذ كانت تهدف الى فرض سيطرتها على المسيحيين الشرقيين إضافة إلى خشية البابوية من النورمان الذين ازداد خطرهم على صقلية وجنوب إيطاليا، فرأت في الحروب الصليبية فرصة لصرفهم عن إيطاليا وتوجيه نشاطهم نحو ميدان آخر بعيد.(١٤)

وهكذا يتضح لنا على أنه بالرغم من اتخاذ الغرب الأوروبي للدين ستارا لهذه الحركة الحربية الاستعمارية، إلا أن حقيقتها كانت أبعد ما تكون عن هذا الدين، لأن الدوافع والأسباب الدنيوية على الأصعدة السياسية والاجتماعية والاقتصادية لدى كافة القوى الاجتماعية هي التي جعلت من أمر الحملة الصليبية أمرا محتملا.

لكننا إذا ما أضفنا كما ورد سابقا كيف أن التنافس والتناحر بين القوى العربية والإسلامية الحاكمة لبلاد المشرق العربي أدى إلى ضعفهم وتفككهم، فإن واقع الحال العربي الإسلامي هذا كان الحافز والسبب الرئيسي في جعل أمر الحملة الصليبية أمرا واقعا.

(٢)

السير نحو القدس

نتجت عن دعوة البابا أوربان الثاني استعدادات كبيرة على المستويين الشعبي والرسمي للإعداد للحملة الصليبية ضد الشرق، مما أدى الى تشكيل قسمين للحملة، ضم القسم الأول منها العامة من الناس وقد عرفت بالحملة الشعبية، في حين ضم القسم الثاني الأمراء.

أما الحملة الشعبية فقد ارتبطت باسم ناسك يدعى بطرس الى جانب زعيم آخر يدعى والتر.[١٥] كان الناسك بطرس يتمتع بشخصية قادرة على التأثير في الجماهير الغفيرة على الرغم من أنه كان ضئيل البنية زري الهيئة.

بدأ الناسك بطرس تحركه خلال الشهور الأولى من عام ١٠٩٦م في شمال فرنسا مستغلا فصاحته للدعوة للحركة الصليبية، ثم عبر هضبة اللورين إلى آخن وكلونيا التي وصلها قبل عيد الفصح من نفس العام ومعه عشرات الآلاف من الأتباع، كان معظمهم من الفلاحين والمنبوذين والرعاع. وكان على هذه الجموع أن تتحرك باستمرار للحصول على الطعام حيث لم تكن هناك مدينة في العصور الوسطى بإمكانها إطعام زائرين يصل عددهم الى عشرات الآلاف.

وبحلول الربيع رحلت المجموعة الأولى من الحركة الشعبية بقيادة والتر عبر المجر الى أراضي الدولة البيزنطية، وفي الطريق نسيت تلك الجموع أنهم يخترقون بلادا مسيحية، فأخذوا ينهبون ويسلبون ويعتدون على الأهالي الآمنين، ومع ذلك في بادئ الأمر رحب الحكام البيزنطيون في البلقان بتلك الجموع الصليبية رغم مظهرها الرث الذي يدل على سوء تنظيمها وجهل أفرادها أبسط مبادئ القتال.

أما الناسك بطرس فقد غادر كولونيا في نيسان عام ١٠٩٦م على رأس جمع غفير من أتباع الحركة الشعبية، وفي طريقهم عبروا أراضي الدولة الألمانية حتى وصلوا إلى الحدود المجرية، وقبل أن يغادر الصليبيون بلدة (أسملين) المجرية وقع خلاف بينهم وبين المجريين

بسبب الحصول على المؤن، فلم يكن من الصليبيين الا أن أحدثوا مذبحة رهيبة في تلك البلدة أسفرت عن قتل أربعة آلاف من أهلها المسيحيين الأبرياء، الى جانب سـلب ونهب كل ما يصل إلى أيديهم.[16] فتركت هذه الجريمة البشعة التي أتاها الصليبيون أثارا من الريبة والشك لدى البيزنطيين الذين أخذوا يتشككون في تلك الجموع التي أتت الى الشرق لتحارب باسم المسيح والمسيحية.

استمر أتباع الناسك شق طريقهم في سـلب ونهب كل ما يصل الى أيديهم من المدن والقرى حتى وصلت قواتهم إلى البسفور في أواخر حزيران عام ١٠٩٧م، وحينما اصطدموا بالسلاجقة انهزموا هزيمة نكراء، وانتهى أمرهم كحملة منفردة.[17]

أما القسـم الثاني من الحملة وكانت حملة الأمراء، فقـد أعدت جيدا وتألفت من مجموعات متعددة لكل منها طابعها المميز الذي لازمها منذ أول الأمر، كما ميز نشاطها في الشرق، أي أن روح الإقطاعية بدت واضحة في القسم النظامي من الحملة الصليبية الأولى. إذ تولى زعامتها عدة أمراء لكل منهم اتجاهاته وجنده وسياسته الخاصة بـه، مما جعل تلك الحملة في حقيقة أمرها عبارة عن عدة حملات.[18]

شكل الأمراء الصليبيون المتجهون إلى الشرق ثلاث مجموعات كبيرة:

المجموعة الأولى: ترأسها غودفري دي بويون وبرفقـته أخوه بـلدوين وهم من فرسـان اللورين.

المجموعة الثانية : ترأسها بوهيموند وابن أخته تانكرد وهم من النورمان.

المجموعة الثالثة : ترأسها ريموند دي تولوز وبصحبته الأسقف أدهمار ليكون مندوبـا يمثل البابوية في زعامة الصليبيين في الشرق.[19] والتقـت هذه الجموع الثلاثة في القسـطنطينية وكان عددهم يتراوح بين ستين ألفا ومائة ألف.[20]

أقسم جميع زعماء الحملة الصليبية الأولى باستثناء ريموند وتانكرد يمين الولاء والتبـعية للإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين، وتعهدوا له برد كافة الممتلكات البيزنطية القديمة

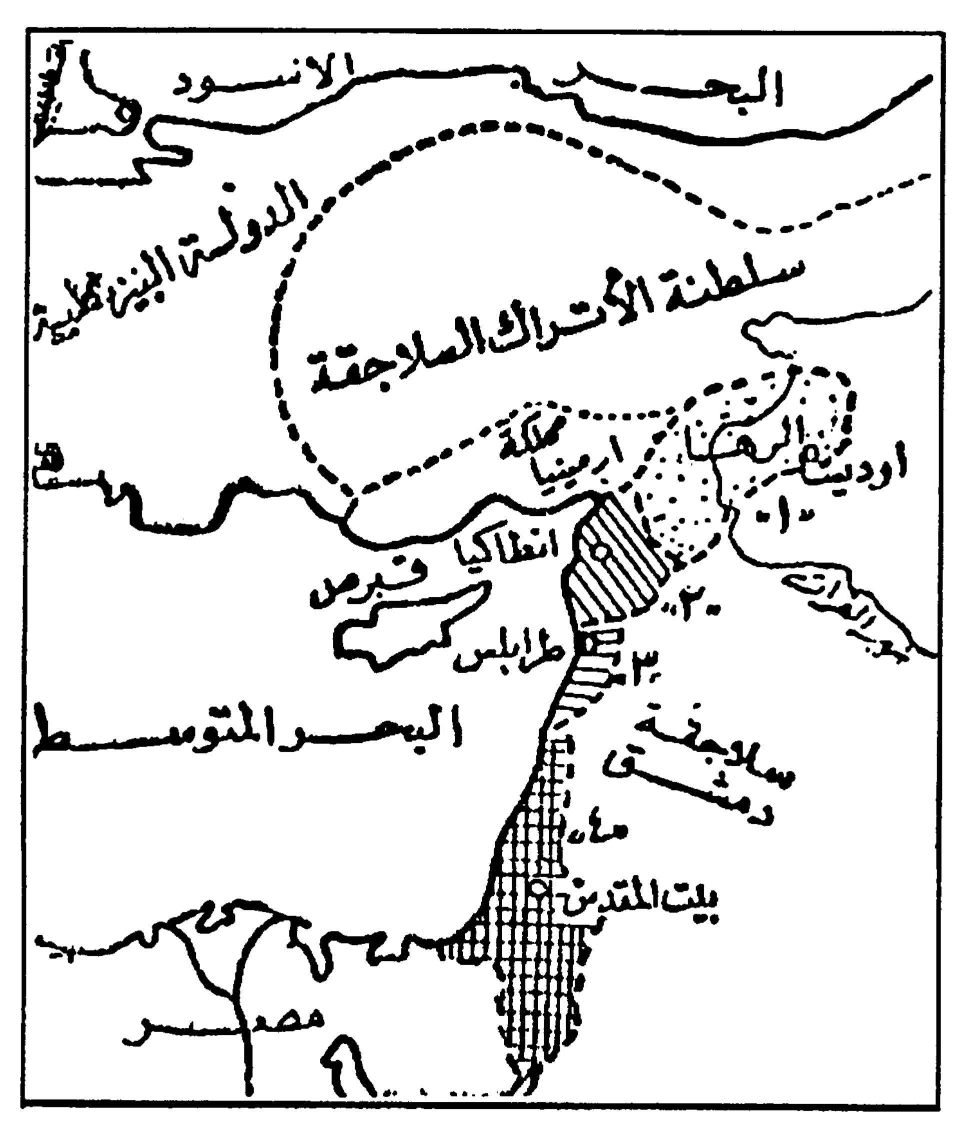
التي يستطيعون استردادها من السلاجقة من نيقية حتى إنطاكية، وفي مقابل ذلك تعهد الإمبراطور البيزنطي بمساعدتهم بكل قواه سواء في تقديم المؤن اللازمة لهم، أو بمدهم بفرق من الجيش البيزنطي في حال عدم تمكنه من مرافقتهم شخصياً.[٢٠]

واصلت الحملة تقدمها عبر الأناضول، فاحتلوا نيقية ثم هزموا السلاجقة في الموقعة الفاصلة عند (أسكي شهر) واستخلصوا بذلك منطقة غربي الأناضول كلها.[٢١] ثم اجتازوا جبال طوروس وانقسموا إلى قسمين، ترأس أحدهما تانكرد وبلدوين واتجها اتجاه الشمال الشرقي، في حين اتخذ بقية الصليبيين وعلى رأسهم المندوب البابوي أدهيمار وغودفري وبوهيموند وريموند طريقهم إلى بلاد الشام.[٢٢]

وصل البعض منهم برئاسة بلدوين إلى القرى والضياع الأرمنية، فرحب بهم الأرمن[٢٣] وبمساعدتهم تمكن الصليبيون من احتلال مدينة الرها، وأسسوا فيها أول إمارة صليبية في الشرق سنة ٤٩١هـ/١٠٩٨م.[٢٤]

في تلك الأثناء زحف باقي الصليبيين إلى إنطاكية[٢٥] واصطفت جموعهم أمام أسوارها، وشددت عليها الحصار مدة تسعة أشهر، ونتيجة للمقاومة الباسلة التي أبداها أهل المدينة بقيادة أميرهم ياغي سيان[٢٦] هلك كثير من الصليبيين حتى الموت[٢٧] كما فر قسم منهم وعلى رأسهم الناسك بطرس، لكن بوهيموند حاول جمع بقية الصليبيين تحت إمرته ليستخدمهم في تحقيق أهدافه في تأسيس إمارة لنفسه في إنطاكية.[٢٨]

وبسبب خيانة أحد حراس السور تمكن الصليبيون من دخول المدينة بعد أن فتح لهم أحد أبوابها، فسقطت بأيديهم في ٣ حزيران سنة ١٠٩٨م[٢٩]، فقتلوا الآلاف من سكانها قدر عددهم بعشرة آلاف مسلم[٣٠]، ونهبوا المدينة وخربوها وأقاموا فيها ثاني إمارة صليبية في الشرق.



١١ الإمارات الصليبية في الشرق

(١) إمارة الرها	(٣) إمارة طرابلس
(٢) إمارة إنطاكية	(٤) مملكة بيت المقدس

بعد أن تمكن الصليبيون من إقامة إمارتي الرها وإنطاكية، عقدوا مجلسا في محرم سنة ٤٩٢هـ/ تشرين الثاني ١٠٩٨م بكنيسة القديس بطرس في إنطاكية، حيث أجمع زعماؤهم على استئناف الزحف نحو مدينة القدس.(٣١) وعلى الرغم من اشتراك بوهيموند أمير إنطاكية في هذا المجلس وإقراره الاشتراك بالزحف إلى المدينة المقدسة، الا أنه عندما بدأت جحافل الصليبيين بالسير نحو المدينة المقدسة تخلف وفضل البقاء في إنطاكية(٣٢)، وكذلك فعل بلدوين أمير الرها الذي كان مشغولا بتنظيم إمارته.(٣٢)

قاد ريموند جموع الصليبيين المتجهة إلى القدس في صفر ٤٩٢ هـ/كانون الثاني ١٠٩٩م وتوغل في بلاد الشام متحاشيا المدن الداخلية الكبرى مثل حلب ودمشق، وفي أثناء تقدمهم اتصل ريموند ببعض القرى الصغيرة المستقلة وفي بعض مدن الشام مثل حمص وطرابلس وتعهد لهم بعدم مهاجمتهم إذا قدموا المساعدات للفرنجة، فحصل على موافقتهم.(٣٣) ثم واصل الصليبيون تقدمهم عبر إقليم العاصي الى مصياف، ثم إلى بعرين ومنها إلى سهل البقاع واستطاعوا احتلال حصن الأكراد، ثم حاصروا عرقة في شمال طرابلس، لكنهم تركوها بعد أن استعصت عليهم(٣٣)، كما حاصروا جبلة حيث عقدوا اتفاقا مع قاضيها تعهد فيه بدفع الجزية من المال والخيل.(٣٤) ثم تابع الصليبيون زحفهم نحو الساحل، فسالمهم أهالي بيروت في حين تعرضت مدينة صيدا لهجومهم وذلك لعدم إعلانها تبعيتها لهم وكذلك استعصت عليهم مدينة عكا.(٣٥) واستمر زحف القوات الصليبية نحو الجنوب الى أن وصلوا مدينة الرملة في فلسطين في أوائل حزيران عام ١٠٩٩م وعقدوا فيها مجلسا للحرب ناقشوا فيه فكرة مهاجمة الفاطميين في مصر على أساس أن مفاتيح مدينة القدس موجودة فعلا في القاهرة، الا أنهم في آخر الأمر قرروا الزحف مباشرة نحو المدينة المقدسة.(٣٦)

وفي السادس من حزيران من عام ١٠٩٩م ترك الصليبيون مدينة الرملة متجهين نحو القدس، و لم يحل يوم ٧ حزيران إلا وكان الصليبيون جميعا أمام أسوار القدس الشريف.(٣٧)

(٣)

حصار مدينة القدس

كانت مدينة القدس حين اتجه الصليبيون نحو الشرق تحت حكم الأراتقة[٣٨] المسلمين، في ظل سيادة السلاجقة الأتراك، حيث كان السلطان ملكشاه قد ولى الأمير أرتق بن أكسك على مدينة القدس سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٦[٣٩] ومن ثم ولاه تتش صاحب دمشق على فلسطين كاملة.[٤٠] وهكذا استمر حكمه للمدينة حتى وفاته سنة ١٠٩١م، فخلفه ولداه الأميران سكمان وايلغازي في حكم فلسطين والمدينة المقدسة.[٤١]

استغل الفاطميون انشغال السلاجقة الأتراك بالغزو الصليبي، فخرج الوزير الفاطمي الأفضل بن بدر الجمالي وكان الحاكم الفعلي لمصر على رأس جيش ضخم من مصر نحو مدينة القدس لمحاصرتها والاستيلاء عليها، فاضطر الأميران الأرتقان بعد حصار دام أربعين يوما إلى الانسحاب من المدينة في شوال ٤٩١هـ/آب ١٠٩٨م[٤٢]، فما كان من أهل المدينة الا طلب الأمان من الوزير الفاطمي فأمّنهم واستولى على المدينة وجعل الأمير افتخار الدولة واليا عليها، و لم تلبث أن سقطت بعد ذلك بقية مدن فلسطين في أيدي الفاطميين. إلا أنهم وبعد استرجاعهم للمناطق في فلسطين والساحل لم يدعموا نفوذهم فيها، مما أدى إلى سقوط المدن الساحلية والداخلية بأيدي الصليبيين بسهولة ويسر.

لما أدرك الأمير الفاطمي افتخار الدولة تقدم القوات الصليبية نحو القدس، اتخذ كافة الاحتياطات والاستعدادات لمواجهة الصليبيين، حيث اهتم بتقوية التحصينات والتأكد من سلامة الأسوار، وأمر رجاله بأن يقطعوا موارد المياه ويطمروا ما كان من آبار واقعة خارج المدينة، وقيل أنه وضع بها السم.[٤٣] كما زود المدينة بكميات كبيرة من المؤن والماء والأسلحة، وأحضر المواشي من النواحي والقرى المجاورة إلى داخل المدينة، كما دعم أبراجه بالقطن والقش لتصمد أمام قذائف منجنيقات العدو (وكانت تلك هي الطريقة السائدة في ذلك الوقت لصيانة الحصون) كما أمر افتخار الدولة بإخراج جميع من في المدينة من المسيحيين خوفا من انضمامهم إلى الصليبيين[٤٤] لكنه سمح لليهود بالبقاء داخلها[٤٥]،

واعتمد في دفاعه عن المدينة على حامية كبيرة من الجند المصرين والسودانيين.[٤٦]

وفي ٧ حزيران سنة ١٠٩٩م احتشدت جميع القوات الصليبية محاصرة لأسوار مدينة القدس وقد بلغت قواتهم حوالي اثني عشر ألفا من الرجالة وبين ١٢٠٠-١٥٠٠ فارس[٤٧]، وتم نصب خيامهم في مواجهة الأسوار.

عانى الصليبيون كثيرا من حرارة الشمس، وأصبح توفير الماء لهم مشكلة، فقد كان على بعض الفرسان قطع نحو ستة أميال يوميا لإحضار الماء، كما نفذت المؤن ولذلك لم يكن لهم أمل في النصر إلا باحتلال المدينة بأسرع وقت ممكن لمعرفتهم بعدم قدرتهم على الصمود طويلا في حصار المدينة.

في ١٢ حزيران ذهب مجموعة من الأمراء الصليبيين في رحلة حج إلى جبل الزيتون، وهناك أمرهم ناسك هرم بمهاجمة أسوار المدينة في صبيحة اليوم التالي، فعملوا بنصيحته وهاجموا الأسوار في ١٣ حزيران، لكنهم بعد مرور بضع ساعات من القتال انهزموا وكانت خسائرهم فادحة في الأرواح والعتاد.[٤٨] وعلى أثر هزيمتهم تلك عقدوا اجتماعا في ١٥ حزيران قرروا فيه حاجتهم الى المزيد من السلالم والمنجنيقات قبل معاودة الهجوم على المدينة.

وبينما كانوا في حيرة من أمرهم في كيفية الحصول على المواد اللازمة لهم وصلت في ١٧ حزيران من ذات الشهر إلى ميناء يافا ست سفن محملة بالإمدادات من طعام ومعدات لصناعة آلات الحرب.[٤٨] وعلى الفور بدء العمل في صنع السلالم من الحبال، بينما أشرف القائدان الصليبيان غودفري دي بويون وريموند على صنع القلاع والأبراج الخشبية المحملة على عجلات.[٤٩]

وفي أوائل شهر تموز من عام ١٠٩٩م وردت أخبار للصليبيين أن المصريين قرروا تجريد حملة لإنقاذ المدينة المقدسة، وأنها ستصل المدينة في غضون شهر واحد، فتسابق الصليبيون في الاستعدادات لشن هجومهم على المدينة قبل وصول الإمدادات المصرية.[٥٠]

وفي العاشر من تموز تم الانتهاء من إعداد برجين كبيرين تم وضع أحدهما باتجاه السور الشمالي، وتم وضع الآخر فوق جبل الزيتون وذلك استعدادا للحظة المواجهة والقتال.

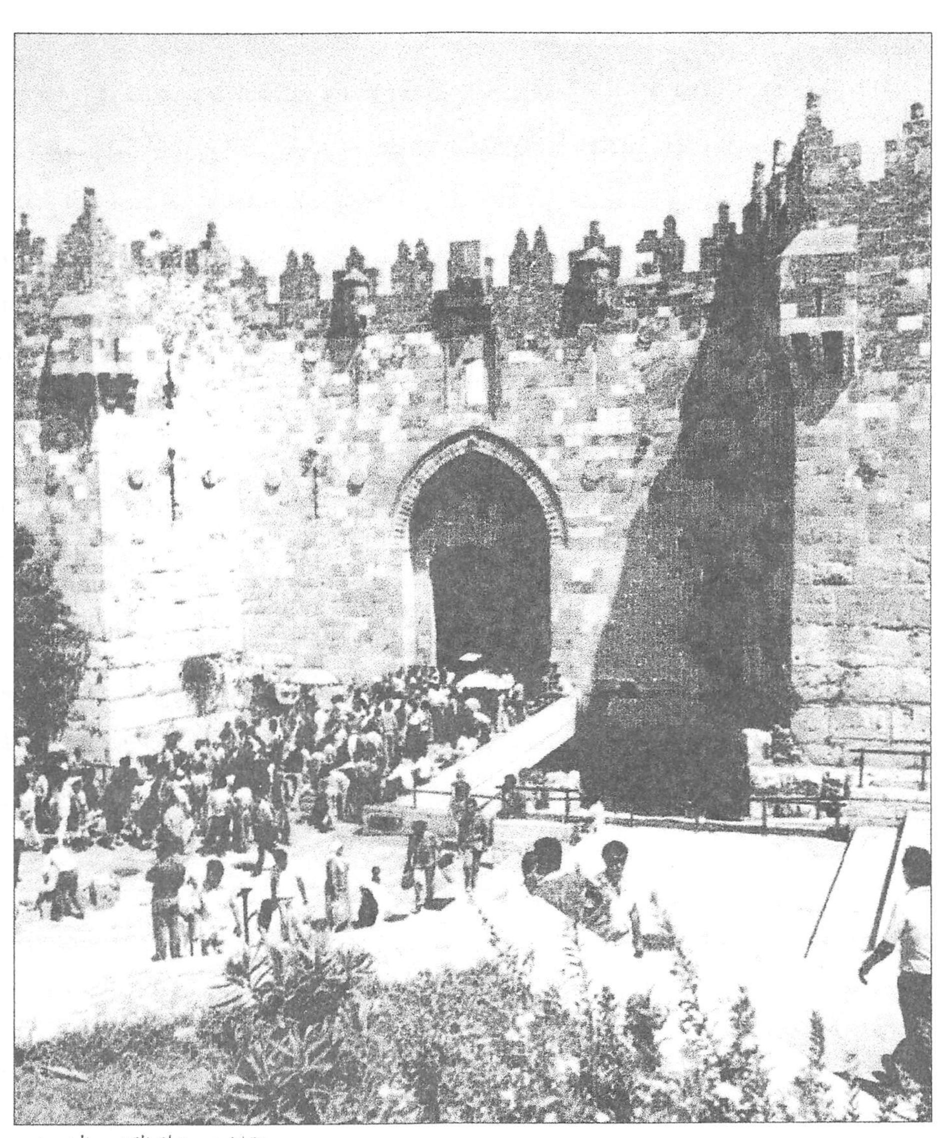
(٤)

سقوط المدينة المقدسة

قرر الصليبيون توقيت الهجوم الشامل على المدينة المقدسة في ليلة ١٣-١٤ تموز من عام ١٠٩٩م / ٤٩٢ هـ بإتباع أسلوب الخديعة، وذلك عن طريق الإيهام بأن الهجوم سيتم من الجهة الشمالية للسور الغربي، على أن يتم الهجوم الفعلي من الجهة الشرقية للسور الشمالي وجبل صهيون.[٥١] وجعلوا هدفهم الأساسي إحضار الأبراج الخشبية وإسنادها إلى الأسوار، فتم قضاء يوم ١٤ تموز في إنجاز هذا العمل في حين استمر المسلمون على قذفهم بالحجارة والحمم النارية من خلف الأسوار. وفي مساء ذلك اليوم كان برج القائد ريموند RAYMOND قد ارتكز الى السور من جهة جبل صهيون، إلا أن حاكم القدس الأمير افتخار الدولة قام بقيادة قوات الدفاع بنفسه من تلك الجهة، ولذلك لم يتمكن رجال ريموند من الاقتراب من السور.[٥٢]

في صبيحة اليوم التالي أي في ١٥ تموز تمكن القائد غودفري GODFREY وأخوه يوستاس EUSTACE من إقامة جسر يصل بين برجهم الذي أقاموه وقمة السور الشمالي وعلى بعد قريب من باب الساهرة، وفي منتصف النهار تمكن اثنان من الفرسان الانتحاريان وهما ليتولد LETOLD وجلبرت GILBERT من قيادة فرقة كبيرة عبر الجسر إلى قمة السور وتبعهم بعد ذلك غودفري بنفسه.[٥٣] وعند سقوط جزء من السور بأيدي الصليبيين، دخلوا المدينة على سلالم من الحبال صنعوها خصيصا لذلك، وفي الحال أخذ غودفري يقسم العمل على الأمراء، فأرسل بعضهم لفتح باب العامود ليدخل منه بقية الصليبيين.

ولى المسلمون أدبارهم نحو الحرم الشريف، ولما تحققوا من عدم قدرتهم على المقاومة، ووعدهم القائد تانكرد TANCRED بالإبقاء على حياتهم، سلموا له. إلا أن الصليبيين لم يفوا بوعد تانكرد للمسلمين وإنما قاموا بذبح كل من كان بالمسجد[٥٤] ومن ثم توجهت القوات الصليبية الأخرى عبر الشوارع الرئيسة للمدينة، وضيقوا الخناق على المدافعين عنها في الجهة الجنوبية الغربية حيث كان افتخار الدولة مشتبكا مع قوات ريموند، وعند الظهيرة



نقلا عن مجلة القدس الشريف

١٢ باب العامود (باب دمشق)

توقف افتخار الدولة عن القتال واحتمى في قـــلعة المدينة عند بـــاب الخليل، وعرض على القائد ريموند تسليم القلعة بكل ما فيها من كنوز، مقابل الســـماح له ولمن معه من الحراس بمغادرة المدينة.

قبل ريموند شروط التسليم واستولى على القـــلعة وسمح لافتخار الدولة بمغادرة المدينة والانضمام إلى الحامية المصرية الموجودة في عسقلان(٥٥)، فكانوا الفئة الوحيدة من مسلمي القدس التي نجت من وحشية الصليبيين ومن المذبحة التي قـــامت في المدينة، حـــيث انطلق الصليبيون في شوارع المدينة والى المســـاجد والمنازل يذبحون كل من صادفهم من الرجال والنساء والأطفال.(٥٦) أما اليهود فقد احتموا جميعا في معبدهم إلا أن الصليبيين أشـــعلوا النار فيه وأحرقوا جميع من كان فيه.(٥٧)

ويذكر المؤرخ الفرنسي فوشيه الشارتري FULCHER DE CHARTRE الذي كان مرافقا للحملة الصليبية الأولى وأرّخ لها يوم بيوم، بقـــوله : (كانت القـــدم تغوص حـــتى الكاحل بدماء المسلمين).(٥٨)

أما الدولة الفاطمية فقد تلقت تلك الأخبار في برود شـــديد وظلت تغط في سبـــاتها العميق، وكذلك بغداد حيث اتجه القاضي زين الدين أبو سعد الهروي قاضي دمشق ليخبر الخليفة العباسي بالكارثة التي حلت بالمسلمين في القدس.(٥٩) كما اجتمع المســـتنفرون من دمشق في بغداد واستغاثوا بالخليفة العباسي لكن الخلافة العباسية لم تحرك ساكنا.

هذا وقـــد كان لهذه المذبحة أثرها الســـيء في جميع أنحاء العالم واســـتاء لها كثير من المسيحيين، مما دفع بعض المؤرخين الأوروبيين المحدثين الى الاعتراف بأن مذبحة تموز من عام ١٠٩٩م كانت لطخة عار في تاريخ الحملة الصليبية الأولى.(٦٠)

(٥)

الوصاية على المدينة المقدسة

في يوم ١٧ تموز من عام ١٠٩٩ م بدأ الصليبيون بإخلاء الشوارع والبنايات من الجثث المتراكمة، وبدءوا يتشاورون في أمور عدة منها ترتيبات السماح للمسيحيين المحليين بالعودة للمدينة، وكيفية تنظيم الأمور الإدارية فيها، والاستعداد لمواجهة ما يحتمل أن يقوم به المصريون من هجوم. إلا أن المشكلة الرئيسة التي واجهتهم هي عدم وجود رئيس أو زعيم يعترفون جميعا بزعامته، فقد توفي المندوب البابوي أدهمار ADHEMAR الذي كان حتى وفاته سنة ١٠٩٨م يقوم بدور الزعيم الروحي للصليبيين، كما أنه كان يؤلف بين أمراء الصليبيين تحت زعامته.[٦١] في حين شاءت الظروف أن يكون كرسي بطريركية القدس خاليا عند سقوطها بأيدي الصليبيين لأن بطريرك المدينة الأرثوذكسي سيمون SIMON كان قد مات في قبرص قبل سقوط المدينة بعدة أيام.[٦٢]

عندما تشاور الأمراء الصليبيون تم استبعاد فكرة إقامة حكومة دينية في القدس وتم الاتفاق على اختيار رئيس علماني لها، فاتجهت الآراء الى أن الحاكم الذي سيتم انتخابه للمدينة المقدسة لابد أن يكون من بين الأمراء الأربعة وهم:

ريموند كونت تولوز	RAYMOND OF TOULOUSE
غودفري كونت بويون	GODFREY OF BOUILLON
روبرت فلاندرز	ROBERT OF FLANDERS
روبرت دوق النورماند	ROBERT OF NORMANDY

بينما لم يكن تانكرد TANCRED ويوستاس EUSTACE من المكانة التي تجعلهما ينافسان الأمراء الأربعة.[٦٣] أما الأمير روبرت فلاندرز لم يكن طامعا في الحكم وآثر الرجوع الى إمارته بعد أن تم للصليبيين تحقيق ما أتوا من أجله، وشاركه في هذا الموقف أيضا

روبرت النورمندي الذي لم يرغب في البقاء في الشـــرق.[٦٣] وبـــذلك انحصر التنافس على الحكم بين اثنين هما ريموند وغودفري.

كان ريموند الأمير الوحيد الذي استشاره البابا أوربان الثاني حول فكرة اســتخلاص المدينة المقدسة، كما كان يمتاز بقوة شخصيته ومرونته السياسية إلا أن سياســته في التعاون والتحالف مع الإمبراطورية البيزنطية أثارت استياء كثير من الصليبـــيين.[٦٤] أما غودفري فكان أول أمير يدخل مدينة القدس كما كان شجاعا ومحبوبا من قبل الجميع.

تألفت هيئة الناخبين من كبار رجال الدين وكبار الفرســـان وجرى عرض التاج أولا على ريموند فرفضه، لمعرفته أن هذا العرض لم يكن لينال تأييدا عاما، وأعلن أنه لا يرغب أن يكون ملكا في مملكة المسيح الدنيوية، آملا من هذا الرفض أن يمنع سواه من قبول المُلك.[٦٥]

ثم توجه الناخبون الى غودفري الذي رفض هو الآخر، لكن بقـــية الزعماء أجبروه على قبول حكم المدينة المقدسة في ٢٩ شعبان عام ٤٩٢ هـــ/ الموافق ٢٢ تموز ١٠٩٩م. ولكنه أنكر اللقب الملكي وقرر أن يتخذ لنفسه لقب حامي البيت المقـــدس أو المدافع عن القـــبر المقدس. ADVOCATUS SANCTI SEPULCHRI[٦٦] ومن الواضح أن اختيار غودفري هذا اللقب جاء اعترافا منه بأن الدولة الجديدة ليست لها الصفة السياسية البحـــتة، وأن لها صفتها الدينية التي تجعل للكنيسة نوعا من الإشراف عليها.[٦٧]

وفي الأول من آب سنة ١٠٩٩م اجتمع رجال الكنيسة لاختيار بطريرك القدس، فوقع اختيارهم على أرنولف مالكورن.ARNULF MALECORNE إلا أن البـــطريرك الجديد كان معتدلا و لم يحاول فرض سلطاته على غودفري وإنما قصر نشاطه على المسائل الكنسية، فقد وجه كل اهتمامه إلى إضفاء الصبغة اللاتينية على الكنيسة، كما استبـــعد القساوســـة الأرثوذكس من الكنيسة مما أثار استياء أهل القدس من المسيحيين المحليين.[٦٨]

موقعة عسقلان (١٢ آب سنة ١٠٩٩ م)

على الرغم من استيلاء الصليبيون على المدينة المقدسة، إلا أن هذا النصر لم يكن يعني النجاح الأكيد لهم، فهناك ما زالت القوات الفاطمية تشكل تهديدا كبيرا لهم.[٦٩] حيث قاد الوزير الفاطمي الأفضل بن بدر الجمالي جيشا كبيرا توجه به من مصر الى فلسطين لمواجهة الصليبيين بعد أن سمع بزحفهم نحو بيت المقدس، ولكنه وصل عسقلان في الرابع من آب أي بعد استيلاء الصليبيون على المدينة المقدسة بعشرين يوما.[٧٠] وهكذا أصيب الأفضل بخيبة أمل كبيرة بعد أن كان يعتقد أن الصليبيين سيقنعون بالاستيلاء على شمال الشام فقط، ويحرصون على صداقة الفاطميين بوصفهم حلفائهم الطبيعيين ضد الأتراك السلاجقة.

عند وصول الأفضل الى عسقلان أرسل سفارة الى القدس لتطلب من الصليبيين الرحيل عن البلاد[٧١]، إلا أن غودفري خرج بجيشه من القدس في ٩ آب ١٠٩٩م ومعه البطريرك أرنولف مالكورن والأمير روبرت فلاندرز وقصدوا الرملة حيث تأكدوا من وصول الفاطميين إلى عسقلان، كما انضم إليهم يوستاس وتانكرد، ولحق بهما ريموند وروبرت النورمندي ومعهما رجالهما.[٧٢]

وفي مساء يوم ١١ آب احتشد الجيش الصليبي في سهل المجدل شمالي عسقلان حيث يعسكر الوزير الفاطمي الأفضل والذي لم يكن يعلم بوجود القوات الصليبية على مقربة منه.

وفي ١٢ آب قامت القوات الصليبية بمباغتة القوات الفاطمية[٧٣]، فتشتت شمل القوات الفاطمية حتى أن بعضهم لم يجد مفرا سوى البحر، فألقوا بأنفسهم فيه حتى غرقوا، في حين احتمى جزء آخر بشجر الجميز وكان كثيرا هناك، فأحرق الصليبيون الشجر حتى هلك من كان فيه[٧٤]، أما الوزير الأفضل فقد هرب الى مدينة عسقلان ومعه بعض رجاله ومنها ركبوا سفينة في البحر فارين إلى مصر. وبذلك أصبح نصر الصليبيون للقدس مؤكدا، ولم يلبثوا أن استولوا على إقليم الجليل وطبرية وحيفا وأرسوف وقيسارية وعكا وغيرها من المدن والقرى الفلسطينية.

(٦)

بطريركية المدينة المقدسة

عندما توفي المندوب البابوي للحملة الصليبية الأولى أدهيمارADHEMAR، قام البابا أوربان الثاني بتعيين دايمبرت[٧٥]DAIMBERT مندوبا بابويا له في الأراضي المقدسة على الرغم مما أحاط به من شائعات عن عدم استقامته وانحراف مسلكه[٧٦]فخرج دايمبرت على رأس أسطول بيزي (بيزا مدينة ساحلية إيطالية) يتألف من مائة وعشرين سفينة في صيف عام ١٠٩٩ متجها نحو بلاد الشام[٧٧]، وما أن وصل على رأس سفنه إلى سواحل اللاذقية حتى أسرع بوهيموند النورماني أمير إنطاكية إلى الترحيب به وبالبيازنة، طامعا في استغلال تلك القوة البحرية الكبيرة في بسط نفوذه على الأطراف الشمالية لبلاد الشام. ولتحقيق ذلك عقد بوهيموند اتفاقا مع دايمبرت للاستيلاء على اللاذقية ذات الموقع البحري الهام والتي تتبع الإمبراطورية البيزنطية آنذاك. وتعتبر هذه الاتفاقية الحلقة الأولى من سلسلة الاتفاقات التي عقدها بيزا مع الصليبيين لتحقيق مكاسب واحتكارات تجارية لهم في الشرق.[٧٧]

في ذلك الوقت وصل ريموند وروبرت فلاندرز وروبرت النورمندي إلى جبلة فاستاءوا كثيرا لهجوم بوهيموند ودايمبرت على اللاذقية[٧٨]، لأن ذلك الهجوم سيؤدي إلى تعكير صفو العلاقات بين الصليبيين والإمبراطورية البيزنطية في الوقت الذي كان فيه الصليبيون بأمس الحاجة إلى معونة البيزنطيين.

ونتيجة لذلك الاستياء الذي أبداه ريموند ورفاقه، اضطر بوهيموند ودايمبرت إلى رفع الحصار عن اللاذقية، فدخلها ريموند وأعوانه حيث رحب به الأهالي ورفعوا علمه إلى جانب علم الإمبراطورية البيزنطية.[٧٩] وما أن وصل بوهيموند الى إنطاكية عائدا من حصار اللاذقية حتى اصطحب دايمبرت واتجه الاثنان للحج إلى مدينة القدس ، وفي طريقهم مرا بجبلة وحينما أدركا بانياس التقيا ببولدوين، ثم استأنف الثلاثة سيرهم جنوبا ويتبعهم عدد كبير من الرجال والنساء حتى قدر موكبهم ببضعة آلاف.[٨٠]

في طريقهم صادفوا الكثير من المتاعب بسبب اشتداد البرد في جبـــال لبـــنان من جهة، وبسبب الشعور العدائي الذي قوبلوا به من الأهالي المسلمين من جهة ثانية والذي حرمهم من الحصول على ما يلزمهم من المؤن والزاد، واستمر معهم الأمر على ذلك حتى وصلوا إلى مدينة القدس في ٢١ كانون الأول سنة ١٠٩٩م.(٨١)

سرّ غودفري كثيرا بـــرؤية ذلك العدد الضخم من الصليبـــيين يصلون إلى المدينة المقدسة، لأنه كان في حـــاجة ماســـة إلى الرجال لتوفير الأمن والحماية للمدينة وأهلها من المناطق الإسلامية المجاورة، حيث أنه لم يتبقى معه من قوات الحملة الصليبـــية ســـوى ثلاثة آلاف رجل.(٨٢) وهكذا أخذ غودفري يعمل جاهدا على إقناع بـــعض أولئك الصليبـــيين بالبقاء في المدينة بعد الحج، ويبدو أنه نجح في ذلك إلى حد كبير إذ اختار بعض الصليبيين أن يظلوا في خدمة غودفري عقب عودة بوهيموند وبولدوين إلى الشمال.(٨٣)

وبوصول دايمبرت إلى مدينة القـــدس أعلن أن انتخاب أرنولف مالكورن بـــطريركا عمل باطل وغير قانوني، مما أدى إلى عزله وشغور كرسي بطريركية القـــدس، وفي أواخر كانون الأول من سنة ١٠٩٩ تم انتخاب دايمبرت بطريركا للقدس(٨٤)، ولم يلبـــث أن ركع غودفري أمامه ليقلده حكم المدينة المقدسة مما جعل البطريرك الجديد السيد الأعلى في البلاد المقدسة.

بعد فترة وجيزة استحكم النزاع في المدينة المقدســـة بـــين غودفري ودايمبرت، وذلك عندما أصر دايمبرت على أن يأخذ جزءا من مدينة يافا التي تمكن غودفري بمســـــــاعدته والقوات البيزية من تعميرها وتحصينها مما أدى إلى ورود السفن الأوروبية إليها والاتجار عن طريقـــها(٨٥) ، وجزءا آخر من مدينة القـــدس، ونتيجة لضعف غودفري وقـــلة إمكانياته واحتياجه الكبير لدعم الكنيسة من الغرب وافق أن يستولي البطريرك على حـــكم المدينتين بعد وفاته، أو بعد أن يستولي غودفري على مدينتين بدلا منهما من المسلمين.(٨٥)

لكن غودفري لم يلبث أن مرض بـــالحمى ثم مات في ١٨ تموز ســـنة ١١٠٠م مما أثار مشكلة كبرى في اختيار من سيحل محله في حكم القدس، لأن حكمه كان بمثابة حل وسط بين النظامين الملكي والثيوقراطي.(٨٦)

(٧)

تأسيس مملكة القدس

أوصى غودفري قبل وفاته أن يخلفه أخاه بلدوين أمير الرها في حكم القدس[٨٧]، وعلى الرغم من أن هذه التوصية نالت موافقة جميع الأمراء والفرسان، إلا أنها لم تكن ترضي الأمير تانكرد وبطريرك القدس دايمبرت.

أرسل الأمراء وفدا من قبلهم يضم أسقف الرملة واثنين من الفرسان لمقابلة بلدوين أمير الرها، لمطالبته بالحضور على وجه السرعة ليتسلم مقاليد الأمور في المدينة المقدسة بعد وفاة أخيه غودفري.[٨٨] لكن البطريرك دايمبرت فكر في وسيلة يضيع بها على بلدوين فرصة الاستئثار بحكم القدس، وذلك بأن يعرض الحكم على بوهيموند أمير إنطاكية بوصفه القوة التي يمكنها الوقوف في وجه بلدوين من ناحية، ويمكن مساعدته من ناحية أخرى. إلا أن حامل الرسالة لبوهيموند وقع في أيدي رجال ريموند قرب اللاذقية، وهو المنافس اللدود لبوهيموند وبذلك لم تصل الرسالة.[٨٩]

غادر بلدوين إمارة الرها تاركا إياها تحت إشراف أحد أقاربه، واتجه إلى القدس مارا بإنطاكية واللاذقية وطرابلس وبيروت وحيفا ويافا.[٩٠] وعلى الرغم من الجهود الذي بذلها دقاق صاحب دمشق السلجوقي في اعتراض طريقه[٩٠]، لكنه تمكن من الوصول الى القدس حيث نادى به جميع أهل المدينة ملكا وسيدا عليهم فما كان من دايمبرت إلا الانسحاب إلى كنيسة جبل صهيون[٩١] كما أن بلدوين لم يشأ أن يتعجل في عزله عن كرسي بطريركية القدس وذلك خوفا من أحداث فتنة داخلية.

وفي ٢٥ تشرين الثاني خرج بلدوين على رأس قوة من ألف وخمسمائة فارس وخمسمائة من المشاة لمحاربة العربان الذين دأبوا على تهديد طريق الحجاج الى القدس.[٩٢] وفي ٢١ كانون الأول سنة ١١٠٠ م عاد إلى القدس ليتم الاتفاق بينه وبين البطريرك دايمبرت لتتويجه ملكا على المدينة المقدسة.

وفي يوم عيد الميلاد الموافق ٢٥ كانون الأول عام ١١٠٠ م تم تتويج بلدوين ملكا في كنيسة العذراء في بيت لحم[٩٣]، حيث وضع البطريرك دايمبرت التاج على رأس بلدوين ليكون أول ملوك مملكة القدس الصليبية. وبتتويج بلدوين على عرش المملكة تبددت جميع آمال البطريرك دايمبرت وزالت نهائيا فكرة قيام حكومة ثيوقراطية في القدس.[٩٤]

١- القدس في عهد الملك بلدوين الأول: BALDWIN 1

كان الملك بلدوين الأول يتمتع بالشجاعة والحكمة وبعد النظر ما جعل منه حاكما ناجحا، فبعد أن تم تتويجه ملكا على القدس وضع خطة استهدفت ضم جميع شواطيء فلسطين المواجهة لمملكته، لتأمين طريق الحجاج القادمين إلى المدينة من ناحية ولتنشيط التجارة مع الغرب من ناحية أخرى، مما يوفر للمملكة الصليبية الناشئة كثيرا من أسباب القوة والمنعة.[٩٥] وبالرغم من قلة عدد القوات الصليبية التابعة له لكنه استفاد كثيرا من مساعدات الأساطيل الإفرنجية القادمة إلى الشام في تحقيق هدفه[٩٦]، فقد تمكن من الاستيلاء على معظم المدن الساحلية في فلسطين، ومن ثم توسع في فتوحاته في منطقة جنوب شرقي الأردن إلى أن وصل بقواته إلى إيلة (العقبة) على البحر الأحمر، فاحتل المدينة وبنى في الخليج قلعة بحرية (قلعة فرعون) وأخرى برية وأمدهما بالرجال والعتاد ثم عاد إلى القدس.[٩٧]

وفي أثناء محاولة بلدوين إحكام السيطرة على فلسطين وجنوب شرقي الأردن بدأ بتنظيم الأمور الداخلية لمملكته، فقد رغب بلدوين التخلص من دايمبرت بطريرك القدس لكثرة ما أحاطت الشبهات تصرفاته وسلوكه، فأرسل البابا باسكال الثاني مندوبا له إلى القدس ليحقق في الموضوع، فجاءت هذه الاتهامات مقرونة بالأدلة الدامغة، مما جعل المندوب البابوي يصدر حكمه بإعفاء دايمبرت من منصبه وتم اختيار إبرمار EVREMAR بطريركا جديدا للقدس[٩٨] لكن ابرمار لم يستمر طويلا في منصبه وتم اختيار مندوب البابا جبلين نفسه بطريركا للقدس سنة ١١٠٨م، وكان هذا متقدما في السن، فلم يلبث أن توفي في سنة ١١١٢[٩٨]، فاختير بعده أرنولف مالكورن بطريركا من جديد على القدس[٩٩] بعد أن ظل اثني عشرة سنة ينتظر تلك الفرصة ليعود إلى كرسي بطريركية القدس.

بعد إعفاء دايمبرت من بطريركية القـــدس غادر إلى إنطاكية حـــيث عهد إليه تانكرد برعاية كنيسة القديس جورج في المدينة سنة ١١٠٢[١٠٠]، وفي عام ١١٠٤ عاد دايمبرت إلى إيطاليا في سبيل الحصول على تأييد البابوية لإعادته إلى كرسي بطريركية القدس، لكنه توفي في حزيران سنة ١١٠٧م.[١٠١]

ومن الأعمال الداخلية التي قـــام بها الملك بـــلدوين الأول تعمير مدينة القـــدس بالسكان المسيحيين الشرقيين من الأرثوذكس والسريان، لأن المدينة كانت تشـــكو فراغا ضخما ونقصا كبيرا من السكان بعد أن فقدت أبناءها المحليين من المسلمين والمسيحـــيين الشرقيين على السواء[١٠٢]، هذا بالإضافة إلى أن الصليبيين أنفسهم كانوا قلة، فقد قال وليم الصوري:(إن المواطنين في القدس كانوا قليلي العدد حـــتى أنهم بصعوبـــة يملئون شـــارعا واحدا).[١٠٣]كما عمل الصليبيون على تهجير السكان النصارى من مناطق وادي موســـى وعمان والسلط والبلقاء في الأردن إلى القدس بالترهيب والترغيب. ثم اضطروا فيما بعد السماح للمسلمين بالسكنى في المدينة ومنحوهم بعض الحقـــوق، فاشـــتغلوا بـــالتجارة والصناعة.[١٠٣] وأما اليهود فكان يحظر عليهم في الســـنوات العشـــــر الأولى من دخول المدينة.[١٠٤]

وفي شهر آذار من سنة ١١١٨م خرج الملك بلدوين الأول على رأس قوة صغيرة تتألف من ســـــتمائة رجل[١٠٥] إلى مدينة الفرما وهي أولى المراكز الأمامية في الأراضي المصرية، فوجدوها خالية بعد أن هجرها أهلها، مما هيأ للصليبيين سلبها وحرق مســـاجدها[١٠٦]،وفي طريق العودة مرض الملك بـــلدوين الأول ثم توفي قـــرب العريش في الأراضي المصرية في ٢ نيسان من عام ١١١٨م[١٠٧]فحُمل إلى مدينة القدس ليدفن فيها.

وهكذا يمكن القول بأن مملكة القدس الصليبية وصلت على يد ملكها بـــلدوين الأول سنة ١١١٨ إلى حدودها التاريخية المعروفة باستثناء عسقلان وصور.[١٠٨]

٢- القدس في عهد الملك بلدوين الثاني: BALDWIN OF LE BOURG

بعد وفاة الملك بـــلدوين الأول الذي لم يكن له ولد يرثه في الملك، اجتمع أمراء المملكة ومعهم أرنولف مالكورن بطريرك القدس لبحث مشكلة ملء العرش(١٠٩)، فاتجه الرأي نحو استدعاء الأخ الثالث لغودفري وبلدوين الأول وهو الأمير يوستاس البـــولوني EUSTACE OF BOULOGNE، لكن البعض اعترض على ذلك الرأي بحجة أن أحوال المملكة تتطلب عدم انتظار وصول ذلك الأمير من فرنسا، فنادى البعض بأمير الرها بـــلدوين دي بـــورج BALDWIN OF LE BOURGE لتولي عرش المملكة، وهو ابن عم الملك الراحل والوحيد الذي ما زال على قيد الحياة من كبار الأمراء الذين شاركوا في الحملة الصليبية الأولى.(١١٠)

كان بلدوين دي بورج في ذلك الوقت في طريقه إلى القدس لزيارة ابـــن عمه المريض الملك بلدوين الأول والحج الى الديار المقدسة، فاستقبله الأمراء بالمبايعة لعرش المملكة. وفي يوم ١٤ نيسان من سنة ١١١٨م قام البطريرك أرنولف بتتويجه ملكا على مملكة القـــدس في كنيسة القيامة بالقدس(١١١)، لكن البـــطريرك أرنولف مالكورن لم يعش طويلا بـــعد ذلك، فحل محله البطريرك جرموندGORMOND الذي عمل على إيجاد علاقات طيبة بين مملكة القدس الصليبية وروما.(١١٢)

بعد تولي الملك بلدوين الثاني عرش المملكة أخذ يعمل بسرعة في تثبيت سلطانه لا داخل المملكة فحسب بل وفي مختلف الإمارات الصليبية في بلاد الشام وشمال العراق، ففي عهده أخذت الجموع الإسلامية في التحالف بعد ســـنين طويلة من الشقـــاق والنزاع، فقـــد تم التحالف بين القاهرة ودمشق، لذلك حاول الملك بلدوين الثاني استرضاء طغتكين في دمشق بأن أرسل إليه يطلب تجديد الهدنة المبرمة بينهما سابقـــا، لكن طغتكين وافق على مد أجل الهدنة مقابل أن ترد إليه الأموال التي حصل عليها الملك بلدوين الثاني من خراج السلط ومن خراج السواد.(١١٣)

لم يوافق الملك بـــلدوين الثاني على طلب طغتكين، فأعلن طغتكين الحرب عليه وذلك بمهاجمة الصليبيين في الجليل وطبرية (فنهبها وما حولها ثم اتجه إلى عسقلان).(١١٣) وفي ذلك الوقت أيضا أرسل الوزير الفاطمي الأفضل بن بدر الجمالي أســـطوله إلى صور، وحشـــد

جيوشه في عسقلان ووضعها تحت إمرة طغتكين الذي اتخذ من عسقـــلان مركزا للقـــيادة العليا للجيوش [١١٣]، وبهذا تحققت قيادة إســـلامية موحـــدة جمعت تحت لوائها الفاطميين الشيعة والدمشقيين السنيين ضد الصليبيين مما أنذر بتهديد مملكة القدس تهديدا خطيرا.[١١٤]

ونتيجة لموقفه الحرج سارع الملك بلدوين الثاني بالاســـتنجاد بالصليبـــيين في إنطاكية وطرابلس، ورابط بنفسه في منطقة أشدود شمالي عسقلان في مواجهة الجيش الإســـلامي، وبقي الجيشان يرقب كل منهما تحرك الآخر دون اشتباك لمدة ثلاثة أشهر عاد بـــعدها كل فريق من حيث أتى.[١١٥] إلا أن الملك بلدوين الثاني أراد ألا يترك الأزمة تمر دون أن يثأر من طغتكين، فأغار على منطقة أذرعات واستولى على بعض المواقع شرقي طبرية.[١١٥]

موقعة البلاط سنة ١١١٩م

لم تكد تحل سنة ١١١٨م حتى كانت حـــلب تحت رحمة النورمان في إنطاكية، الأمر الذي جعل الحلبـــيون يتجهون نحو إيلغازي الأرتقـــي طالبـــين حمايتهم من الأمير روجر الإنطاكي[١١٥]، فسعى إيلغازي إلى تعبئة الجيوش الإسلامية لمواجهة الصليبيين، وفي شـــهر نيسان من سنة ١١١٩م تمكن إيلغازي من حشد جيوشـــه من الأتراك وانضم إليه بـــعض الأمراء المسلمين وكذلك طغتكين صاحب دمشق، فكانت قوة الجيش الإســـلامي عندئذ تبلغ أربعين ألفا، فطلب الأمير روجر الأنطاكي نجدة عاجلة من الملك بلدوين الثاني وبـــونز أمير طرابلس[١١٦]، وفعلا خرج الملك بلدوين الثاني على رأس جيش مملكته لمساندته في صد هجمات المسلمين.

كان إيلغازي قد اختار أن يتجه على رأس القوات المتحالفة إلى الفرات أولا، فهاجم تل باشر والرها[١١٧]، ثم عبر الفرات واتجه إلى قنسرين لينقذ حلب التي لم تفتأ تستغيث به، إلا أن الأمير روجر الأنطاكي لم ينتظر وصول الملك بـــــلدوين الثاني وإنما تعجل الخروج لصد المسلمين ومعه سبعمائة فارس وأربعة آلاف من المشاة[١١٨]، واستمر في سيره حتى وصل إلى جسر الحديد على نهر العاصي قرب (أرتاح)، وكان إيلغازي قد علم بضعف قـــوة الأمير روجر، فرأى أن يستغل الفرصة ويعاجله بالهجوم قبـــل وصول أية نجدة إليه، وفعلا تقـــدم

إيلغازي من قنسرين صوب الجيوش الصليبية، وفي ٢٨ حزيران سنة١١١٩م[١١٩] دارت موقعة (البلاط) بين الأتراك والدمشقيين السنيين من جهة والصليبيون من جهة أخرى في سهل قريب من أرتاح، والتي انتهت بتدمير الجيش الصليبي المتواجد هناك، حتى أن روجر مات صريعا في المعركة.[١٢٠]

كان لنصر المسلمين في تلك المعركة رد فعل قوي عند المسلمين والصليبيين على حد سواء، حيث أن المعركة في حقيقتها قررت بقاء حلب في أيدي المسلمين، في حين أصبحت إنطاكية وهي الباب الشمالي للأملاك الصليبية في بلاد الشام بلا أمير ولا فرسان ولا جيش، وفي ذات الوقت أخذ المسيحيون المحليون بالتآمر للخلاص من حكم الصليبيين الغربيين لهم.[١٢١]

عمل بطريرك إنطاكية على رعاية شؤون المدينة حتى حضر الملك بلدوين الثاني وتسلم الوصاية على الإمارة، وأخذ يعمل بسرعة لتنظيم الأمور وإعداد العدة لصد المسلمين. وقبل أن يستأنف الملك بلدوين الثاني حربه ضد الأتراك، استرد قلعة علاروز غربي البارة، وكفرطاب وسرمين ومعرة مصرين من المسلمين[١٢٢]، وبعد ذلك عاد مسرعا إلى إنطاكية لينظم أمورها ثم قفل راجعا إلى القدس.[١٢٣]

وفي سنة ١١٢٠ غادر إيلغازي بلاده متجها نحو إمارة إنطاكية، فأرسل أهلها يطلبون النجدة من الملك بلدوين الثاني الذي خرج من مملكته على رأس القوات الصليبية لملاقاة الأتراك، لكن الموقف انتهى بين الطرفين بعقد هدنة بينهما، اعترف فيها إيلغازي بحق إمارة إنطاكية في الاحتفاظ بمملكتها شرق نهر العاصي[١٢٤]، وبذلك حقق بلدوين الثاني نجاحا كبيرا للصليبيين بدون حرب عاد بعدها إلى مملكته .

وفي ١٨ نيسان سنة ١١٢٣م قام الملك بلدوين الثاني بمحاولة لفك أسر القائد جوسلين دي كورتناي الذي كان حبيس بلك الأرتقي في خرتبرت[١٢٥] لكن الظروف شاءت أن يقع الملك بلدوين الثاني نفسه أسيرا أثناء قيامه بتلك العملية. وظل أسيرا في قبضة بلك الأرتقي الذي نقله من خرتبرت إلى قلعة حران ثم إلى قلعة حلب إلى أن توفي بلك الأرتقي وآلت حلب الى تمرناش إيلغازي الذي وافق بفضل وساطة أمير شيزر العربي أبو العساكر

سلطان بن منقذ على اطلاق سراح الملك بلدوين الثاني مقابل مائة ألف بيزانت (أي قرابـــة ثمانين ألف دينار)، هذا علاوة على ما تعهد به الملك بلدوين الثاني بوصفه وصيا على إمارة إنطاكية من إعادة المناطق المجاورة لمدينة حلب للحلبيين. وعلى أسباب هذه الشـــروط تم الإفراج عن الملك بلدوين الثاني في أواخر حزيران من عام ١١٢٤م[١٢٦] بعد أن أودع لديهم رهائن لضمان تنفيذ الشروط.

أوفى الملك بلدوين الثاني بدفع المبلغ المفروض عليه لكنه تنصل من تنفيذ وعده بـــإعادة المناطق الى حلب. وبعد فترة وجيزة تمكن بمساعدة دبيس بن صدقة العربي من الوقوف في وجه صاحب حلب وإجباره على إطلاق سراح الرهائن الصليبيين لديه.[١٢٧]

سياسة بلدوين الثاني الداخلية:

اهتم الملك بلدوين الثاني في سياسته الداخلية بأمرين أساسيين هما:

أولا: الجانب الاقتصادي. ثانيا: تأسيس الفرق العسكرية.

أولا : الجانب الاقتصادي

حرص الملك بلدوين الثاني على إنعاش الأحوال الاقتصادية في مملكته بشكل كبير، فقد أصدر سنة ١١٢٠م قرارا يسمح بإعطاء جميع التجار والحجاج والزوار الغربـــين الحرية في نقل البـــضائع من المملكة وإليها.[١٢٨] كما سمح للمسيحـــين الشرقـــين من الســـريان والأرثوذكس وكذلك العرب المسلمين في إدخال الخضار والحبـــوب الى المملكة بـــدون ضرائب في سبيل تأمين الغذاء لأهل المدينة في سهولة ويسر.[١٢٩]

ثانيا : تأسيس الفرق العسكرية

تمثلت أهم الأحداث الداخلية في مملكة القدس في عهد الملك بـــلدوين الثاني بتأســـيس الفرق العسكرية وازدياد نشاط هيئات الفرسان وبخاصة الإسبـــتارية والداوية منهم، وكان هدفهم الأساسي هو العناية بمرضى الصليبـــين ورعايتهم وإرشـــاد الحجاج المسيحـــين

القادمين من الغرب، لكن هذا الهدف لم يلبث أن تحور، واتخذت تلك الهيئات طابعا حربيا وصار عليها أن تدافع عن ممتلكات الصليبيين بالشام وتحمي أماكنهم المقدسة وتحارب المسلمين، حتى جاء وقت أصبح فيه فرسان الداوية والإسبتارية هم حماة الكيان الصليبي بالشام.[١٣٠]

١- هيئة الإسبتارية:

يرجع وجودها في المدينة المقدسة إلى ما قبل قيام الحروب الصليبية، وذلك عندما أسس بعض تجار مدينة أمالفي الإيطالية سنة ١٠٧٠م جمعية خيرية وشيدو مستشفى قرب كنيسة القيامة في القدس للعناية بالحجاج الفقراء، ومن ثم أطلق عليهم اسم فرسان المستشفى التي حرفت إلى العربية بالإسبتارية، و لم يلبثوا أن صاروا يتبعون البابا في روما تبعية مباشرة، وبوصول الصليبيين إلى القدس قام فرسان الإسبتارية بحكم درايتهم بأحوال البلاد بتقديم مساعدات قيمة للصليبيين[١٣٠]، وبمرور الوقت أصبح لهم كيان ثابت ومستقل ونظام خاص بهم، فضلا عن أن كثيرا من كنائس القدس خصصت عشر دخلها لمساعدتهم للنهوض برسالتهم، وهكذا لم تحل سنة ١١٣٧م الا وكان للإسبتارية دور فعال في محاربة المسلمين.[١٣١]

٢-هيئة الداوية[١٣٢]:

تم تأسيس هذه الهيئة بأسس عسكرية على يد فارس فرنسي اسمه(هيو دي بايتر) HUGH DE PAYENS في عهد الملك بلدوين الثاني وبالتحديد في سنة ١١١٨م، حيث اختار ذلك الفارس قسما من المسجد الأقصى ليكون مقرا لمنظمته في القدس، وأطلق على أتباعه اسم فرسان المعبد TEMPLARS التي حرفت إلى العربية بالداوية. وكان أول عمل تعهدت به الداوية للقيام به هو حماية الطريق بين القدس وشاطىء البحر لحماية الحجاج المسيحيين القادمين الى البلاد وإرشادهم، لكنهم لم يلبثوا أن اسهموا في كل عمل حربي آخر قام به الصليبيون في بلاد الشام.[١٣٣]

ومما لا شك فيه أن تأسيس هيئة الداوية وتحول الإسبتارية إلى هيئة عسكرية، قد هيأ لمملكة القدس قوة حربية دائمة ساعدها في تحقيق كثير من أغراضها، وقد حظيت بعطف الملك بلدوين الثاني ومساعدته ومساندته مع أنها ظلت مستقلة عن سلطانه وتتبع البابوية، إلا أن هذه الهيئات لم تلبث أن تحولت عن مبادئها الأساسية، وعندما ازدادت امتيازاتها وكثرت ثرواتها أخذت في التدخل في كثير من الأمور التي لا تعنيها حتى أصبحت وكأنها كنيسة داخل كنيسة.

ومن الأحداث الداخلية التي جرت في عهد الملك بلدوين الثاني وفاة البطريرك جرموند في أوائل عام ١١٢٨م وتولى البطريرك ستيفن لافرت STEPHEN DE LA FERTE مكانه، إلا أن البطريرك الجديد والذي كان على صلة قرابة مع الملك كانت له أطماع سياسية أدت إلى سوء العلاقة بين الملك والبطريركية[١٣٤]، ولكن بمرض البطريرك وموته السريع، وتولي بطريركا آخر مكانه يتسم بالبساطة الشديدة وقلة الثقافة واستعداده التام لتلبية رغبات الملك[١٣٤]، أدى إلى عودة الأمور إلى طبيعتها بين الملك والبطريركية.

نهاية بلدوين الثاني:

لم يرزق الملك بلدوين الثاني من زوجته الأرمنية سوى أربع بنات مما دعاه للتفكير كثيرا في مصير عرش المملكة من بعده، وبعد طول تفكير واستشارة مجلسه بعث بسفارة من رجاله إلى ملك فرنسا سنة ١١٢٨م لاختيار أحد النبلاء الفرنسيين ليرثه عرش المملكة[١٣٥]، فوقع اختيار الملك لويس السادس على فولك الخامس الأنجوى FULK OF ANJOU لتولي تلك المهمة، وكان في سن الأربعين من عمره ومن أقدر أمراء المملكة الفرنسية عندئذ.

وفي أوائل ربيع عام ١١٢٩ غادر فولك الخامس فرنسا متجها نحو القدس وفي حال وصوله تم عقد قرانه على مليسند الابنة الكبرى للملك بلدوين الثاني في احتفال كبير، وهكذا أصبح فولك الخامس بحكم زواجه من وريثة الملك هو الخليفة المنتظر لعرش المملكة.

أراد الملك بلدوين الثاني أن يمرن خليفته على محاربة المسلمين، فصحبه عقب زواجه في حملة لمهاجمة دمشق التي كان حاكمها طغتكين قد توفي في شباط من عام ١١٢٨م، وتاركا

إياها في حالة شديدة من الفوضى بسبب ازدياد نفوذ الباطنية فيها[١٣٦]، لكن حملته وهجومه باءا بالفشل.

وفي عام ١١٣١م أخذت صحة الملك بلدوين الثاني في التدهور وما أن حل شـــهر آب من ذات العام حتى كان في نزاعه الأخير، فنقل من مكان إقامته الدائمة في قصره الى مسكن البطريركية تحقيقا لرغبته في الموت بالقرب من القبر المقدس، فكانت وفاته في ٢١ آب سنة ١١٣١م[١٣٧] بعد أن حكم ثلاثة عشر عاما.

وبوفاة الملك بـــلدوين الثاني وابـــن عمه جوســـلين دي كورتناي، انتهى عهد الرواد الصليبيين القدامى وتبعهم بعد ذلك ملوك وأمراء صليبيين ألفوا الشرق وحياتهم فيه.

٣-القدس في عهد الملك فولك الأنجوي: FULK OF ANJOU

بوفاة الملك بلدوين الثاني خلفه فولك الأنجوي في حكم المملكة وقد احـــتفل بـــتتويجه ملكا في ١٤ أيلول سنة ١١٣١م في كنيسة القيامة بالقدس.[١٣٨]

حرص الملك فولك على تشييد الحصون والقلاع في أنحاء متفرقة من مملكته حتى يسهل الدفاع عن حدودها من القوى الإسلامية المحيطة بها من كل جانب، كما حفظ بواســـطتها الأمن والهدوء داخل المملكة وعلى الطرق التجارية المؤدية إليها، فكانت لهذه السياســـية الأمنية التي اتبعها الملك فولك الأنجوي أثرها الجيد والمساعد في الحفاظ على أمن واستقرار المملكة لفترة أطول من الزمن.

أما من الناحية التجارية فقد سار الملك فولك على نهج أسلافه من الملوك، إلا أنه عقـــد معاهدة تجارية مع تجار مرسيليا تقرر بمقتضاها إعفاؤهم من الرســـوم الجمركية وسمح لهم بامتلاك شارع وكنيسة وفرن في القدس وعكا وسائر الموانئ في المملكة.[١٣٩]

وفي سنة ٥٣٩هـــ/١١٤٣[١٣٩]توفي الملك فولك بعد أن هوى عن فرسه أثناء تجواله في مدينة عكا، فتولت الحكم من بعده زوجته مليسند التي لم يكن لها ســـوى طفلين صغيرين، بلدوين الثالث وعمره ١٣ سنة وأملريك الأول وعمره ٧ سنوات. لكن الأمراء الصليبيين

رفضوا أن تنفرد مليسند بالحكم مما اضطرها لأن تشرك ابنها بلدوين الثالث معها في ادارة أمور المملكة في الفترة التي استمرت ما بين سنة ١١٤٣م حتى عام ١١٥٢م[١٤٠]، وحينما توفيت تولى الملك بلدوين الثالث مهام الحكم بمفرده.

٤- القدس في عهد الملك بلدوين الثالث: BALDWIN 111

يبدو أن مملكة القدس في عهد الملك فولك اقتصرت سيادتها على باقي المناطق الصليبية من الناحية النظرية فقط، مما جعل الأمراء الصليبيين لم يهتموا كثيرا بعد موته بسلطة مليسند وابنها، كما لم يكن لها ولابنها القدرة على تسوية النزاعات والخلافات التي نشبت بين أمراء الشمال[١٤١]، مما أضعف من نفوذ المملكة وهيبتها.

وحينما تولى الملك بلدوين الثالث مهام الحكم بمفرده، اتبع سياسة جديدة تهدف إلى توحيد القوى الصليبية المتنازعة في بلاد الشام لتستطيع الوقوف والتصدي لهجمات المسلمين المحيطين بمناطقهم، والتي أخذت بالازدياد في عهده بشكل واضح وكبير. ومع أن سياسته هذه أعادت لمملكته بعضا من نفوذها وقوتها أمام الإمارات الصليبية الأخرى، إلا أن الأوضاع في المنطقة عامة أخذت في التحول نحو منحى جديد بانبعاث حركة الجهاد الإسلامية بقيادة عماد الدين زنكي ضد الغزاة الصليبيين والتي أدت إلى اضمحلال المملكة وتدهور أوضاعها عبر العقود التالية.

الزنكيون وتوحيد القوى الإسلامية ضد الصليبيين:

كما أسلفنا سابقا كان لانقسام العالم الإسلامي وتفككه الأثر الأكبر في نجاح الحملة الصليبية الأولى، وامتداد نفوذ الصليبيين على الأراضي التي احتلوها وإنشاء إمارات صليبية عليها على الرغم من المقاومة الإسلامية التي لاقوها والتي كانت بمثابة الدفاع الغريزي أو العفوي في الوقوف في وجه العدو بكل الوسائل المتاحة، لكن النجاح والنصر لم يكن حليف المسلمين للأسباب التي ذكرناها سابقا والتي أدت إلى بعثرة قوتهم وإضعافها ولذلك لم يحسنوا الدفاع رغم ما بذلوه من جهود.

لكن في وسط ذلك الغمام الذي مر بالأمة الإسلامية وفي عهد الملك بـلدوين الثالث، انبعثت من جديد حركة الجهاد الإسلامية بظهور القيادات الزنكية في الموصل، والتي سعت إلى توحيد القوى الإسلامية المبعثرة في الإمارات المتناحرة في بـلاد الشـام تحت قـياداتها الموحدة للتصدي للغزاة الصليبيين. ومن أهم هذه القيادات الآتابـك عماد الدين زنكي الذي تولى حـكم ولاية الموصل سـنة ٥٢١هـ/١١٢٧م[١٤١]، فعكف على تنظيم إمارته وتقويتها بكل الطاقات والإمكانات المتاحة لديه لتكون ندا قويا للقوى الصليبية في المنطقة، فسعى الى السيطرة على المناطق الإستراتيجية الهامة والمحيطة بـه[١٤٢]كما عمل على ضمان ولاء وتبعية حكام المناطق الجبلية المحيطة بالموصل ،كما ضم حلب وقلعتها إلى إمارته سـنة ٥٢٢ هـ/١١٢٨ م[١٤٢]، ومن ثم توج إنتصاراته على الصليبيين بمهاجمة إمارة الرها[١٤٣] التي كانت تقف حاجزا يمنع أي اتصال بين حلب والموصل وتهدد دار الخلافة العباسية في بغداد، فاقتحمتها قواته في ٢٦ جمادى الثاني سنة ٥٣٩هـ/٢٣ كانون الأول سنة ١١٤٤م[١٤٤]، وتمكن من استردادها من الصليبيين وأعاد عمارتها ووضع حامية فيها لحمايتها.[١٤٥]

كان لفتح إمارة الرها أصداء هامة في كل من المعسكرين الإسـلامي والصليبي، فقـد تغيرت نظرة العرب والمسلمين إلى الصليبيين وانحلت عقدة الخوف لديهم، وتحولوا من حالة الدفاع إلى حالة الهجوم حيث انطلقت القوات الإسلامية بقـيادة عماد الدين زنكي تهاجم القلاع والحصون الصليبية في بلاد الشام مدفوعة إلى ذلك بالدعوة إلى الجهاد. لكن عماد الدين زنكي لم يعمر طويلا بعد فتحه لإمارة الرها إذ قتله أحد غلمانه عام ١١٤٦ م، فتسلم القيادة في الشام من بعده ولده نور الدين زنكي الذي حمل رسالة أبيه في حرصه على مصالح الأمة الإسلامية.

الحملة الصليبية الثانية:

اعتبر الغرب الأوروبي سقوط إمارة الرها إيذانا بضياع الإمارات الصليبية في الشـرق، فدعاهم الأمر إلى إرسال حملة صليبية ثانية إلى بلاد الشام قادها كل من لويس السابع ملك فرنسـا وكونراد الثالث إمبراطور المانيا.[١٤٦] فاتخذت هذه الحملة طريق البر دون البحـر، فاشترط البيزنطيون مساعدة الحملة بتعهد رؤسائها إعلان تبعيتهم للبـيزنطيين من جهة إلى

جانب تسليمهم كل ما يستولون عليه من ممتلكات السلاجقة في آسيا الصغرى من جهة أخرى.

رفض الإمبراطور الألماني كونراد الثالث الاعتراف بالتبعية للإمبراطور البيزنطي ولذلك حُرم من المساعدات البيزنطية، كما أنه أخطأ باجتيازه طريق أواسط آسيا الصغرى فتعرض لهجمات شديدة من قبل السلاجقة أدت إلى فشله في الوصول إلى بلاد الشام(١٤٦)، في حين أذعن الملك لويس السابع لرغبة الإمبراطور بتقديم الولاء والطاعة وسلك الطريق المحاذي لساحل البحر الأبيض المتوسط حتى أنطاليا ومنها ركب البحر إلى إنطاكية.

حينما وصل الملك لويس السابع مع جنوده إلى إنطاكية وجد نفسه وسط أراء واتجاهات متعارضة يدعو إليها الأمراء الصليبيون، يهدف كل منهم إلى تحقيق أهدافه ومصالحه الخاصة، فتمكن بلدوين الثالث ملك القدس من صرف الملك لويس السابع عن السعي لتحقيق هدفه من الحملة وأقنعه بضرورة مهاجمة مدينة دمشق والاستيلاء عليها(١٤٧)، وفي ربيع الأول سنة ٥٤٣ هـ/١١٤٨م(١٤٨) فرض الصليبيون الحصار على مدينة دمشق، لكن محاولتهم هذه باءت بالفشل الذريع. ونتيجة لفشل الحملة هذه قويت نفوس العرب والمسلمين الذين كانوا يخشون دائما من قدوم حملات صليبية جديدة فتعمل على تأسيس إمارات صليبية جديدة لهم في بلاد الشام، كما أدت إلى انتعاش آمال أهل الشام والوثوق بقادتهم، كما عمل نور الدين زنكي في حلب على استغلال الفرقة بين الصليبيين لينفرد بكل إمارة صليبية على حدة.

ولما تمكن الصليبيون من احتلال مدينة عسقلان آخر المعاقل الفاطمية على الساحل الفلسطيني(١٤٩)، وأمتد نفوذهم على ساحل الشام وفلسطين من الإسكندرونة في الشمال حتى غزة في الجنوب وانفتح الطريق أمامهم لغزو مصر، كان رد نور الدين زنكي على احتلال عسقلان بضم دمشق إلى سلطانه والقضاء على دولة البوريين في صفر سنة٥٤٩هـ / تموز ١١٥٣م(١٤٩)، وهي الدولة التي كانت تقف حائلا بينه وبين توحيد بلاد الشام تحت إمرته، فأصبحت مملكته تمتد من الرها والجزيرة شمالا إلى شرقي الأردن جنوبا.وفي ١٠ شباط سنة ١١٦٢م(١٥٠)توفي الملك بلدوين الثالث دون وريث له، فورث حكم مملكة القدس أخوه أموري الأول كونت يافا وعسقلان.

٥-القدس في عهد الملك آموري الأول: AMALRIC I

كان الملك أموري الأول يمتاز بالحنكة السياسية، فقد جعل من احتلال مصر هدفا إستراتيجيا وعسكريا لمملكته[١٥٠]، فتسابق كل من الملك أموري الأول ونور الدين زنكي للسيطرة على مصر، إلى أن تمكن نور الدين زنكي من تحقيق ذلك وتولى قائد جيوشه شيركوه الوزارة الفاطمية في ربيع الثاني سنة ٥٦٤هـ/كانون الثاني ١١٦٩م[١٥١]، ثم خلفه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي الذي تمكن من إنهاء الخلافة الفاطمية في مصر في محرم سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م[١٥٢] وتولى الحكم فيها.

كان لنجاح نور الدين في ضم مصر إلى سلطانه أثره الكبير في قلق الصليبيين من قدرات المسلمين، فقد أصبحت مملكتهم في القدس محاطة من الشمال الشرقي والجنوب الغربي بالمسلمين.

وفي ١١ شوال سنة ٥٦٩هـ/١٥ أيار ١١٧٤م[١٥٣] توفي نور الدين زنكي و لم يترك خلفا له سوى ابن صغير هو الصالح إسماعيل وكان في الحادية عشرة من عمره، وبعد حجاج وصراع طويل أجمع أمراء الجيش بدمشق على مبايعة الملك الصالح إسماعيل على الرغم من صغر سنه وأجلسوه مكان أبيه بالقلعة في دمشق.[١٥٤]

في تلك الفترة حاول الصليبيون بقيادة أموري الأول انتهاز فرصة وفاة نور الدين زنكي للتدخل في شؤون بلاد الشام واحتلال بعض أراضيها، حيث هجموا على بانياس وحاصروها في أواخر أيار سنة ١١٧٤م، فخرج إليهم ابن المقدم وهو قائد العساكر بدمشق، فهادنهم على أن يقدم لهم مبلغا ضخما من المال وأن يطلق سراح اسراهم.[١٥٥]

في أثناء عودة الصليبيون من الشام مرض الملك أموري الأول وما لبث أن مات تاركا ولده بلدوين الرابع وعمره اثني عشر عاما، فدب النزاع والصراع بين الأمراء والبارونات في القدس بسبب الوصاية على العرش. ولما علم صلاح الدين بشأن المعاهدة التي أبرمها ابن المقدم مع الصليبيين استنكرها بشدة وطلب منهم نقض المعاهدة، لكن الأمراء بدمشق لم ينقضوها. ولما كان صلاح الدين الأيوبي الوارث الحقيقي لسياسية نور الدين في توحيد

صفوف المسلمين لمجاهدة الصليبيين استخلف أخاه العادل على مصر وانطلق نحو بلاد الشام وبرفقته سبعمائة فارس، فوصل دمشق في أواخر ربيع الأخر سنة ٥٧٠هـ/تشرين الثاني ١١٧٤م[١٥٦]، وفيها استقبل استقبالا حسنا وقد خرج كل من بها من العساكر إليه لاستقباله.[١٥٧]

هذا وقد اتبع صلاح الدين في دمشق ذات السياسة التي نفذها في مصر إذ عمد إلى كسب الأهالي إلى جانبه بإصدار أوامره بإنفاق الأموال وتوزيعها على الناس، والمناداة بإزالة المكوس والضرائب[١٥٨]، فلما استقر أمره في دمشق أصبح سيد الموقف في بلاد مصر والشام.

٦- القدس في عهد الملك بلدوين الرابع: BALDWIN IV

تولى الملك بلدوين الرابع عرش مملكة القدس وهو لا زال طفلا صغير السن لم يتجاوز عمره الاثني عشر عاما، مما أدى وضعه هذا إلى نشوب التراعات والصراعات بين الأمراء والبارونات بسبب الوصاية على العرش، وبالتالي انشغال المملكة في مشاكل داخلية كثيرة شغلتهم عن أمور المسلمين من حولهم، مما أتاح الفرصة أمام صلاح الدين الأيوبي للسعي جاهدا إلى تقوية جبهة المسلمين بتوحيد صفوفهم للتصدي للصليبيين بكل عزم وقوة.

لما استقر أمر صلاح الدين في كل من بلاد مصر والشام، خرج من القاهرة في جمادى الأول سنة ٥٧٣هـ/١١٧٧م وخيم بظاهر بلبيس قاصدا الهجوم على مملكة القدس[١٥٩]، فلما وصل العسكر الأيوبي إلى عسقلان استولى على ما كان بها وقتل عددا من الصليبيين. ولما رأى العسكر الأيوبي هدوء الصليبيين وهمودهم انتشروا في معاقلهم القريبة لغرض الحصول على الغنائم،وبقي صلاح الدين بقليل من العسكر عند الرملة بالقرب من (تل الصافية) استعدادا للهجوم على الصليبيين، لكن سرعان ما اجتمعت حاميات المدن الصليبية والقريبة حول الملك بلدوين الرابع ملك القدس، وباغتت قوات صلاح الدين في معركة الرملة فحلت بالمسلمين هزيمة[١٦٠]، عاد على أثرها صلاح الدين بما تبقى من قواته إلى مصر، لكن معركة الرملة هذه أدت إلى رفع معنويات الصليبيين ودعمت مركزهم،حيث سعى الملك بلدوين الرابع إلى إنشاء الاستحكامات والحصون القوية في المنطقة، فاختار بناء حصن قوي عند (مخاضة الأحزان) في سنة ٥٧٤هـ/١١٧٨م وهو يبعد عن دمشق مسافة يوم وبينه وبين طبرية وصفد نصف يوم.[١٦١] ولما استشعر صلاح الدين خطورة هذا الحصن على بلاد المسلمين توجه لقتال الصليبيين، والتقى بهم عند (تل القاضي) في سهل مرج عيون، فانتصر عليهم وهزمهم وأسر بعضا من فرسانهم، منهم مقدم الداوية ومقدم الإسبتارية وأمير طبرية.[١٦٢] وبعد هذا الانتصار تمكن صلاح الدين من فتح (بيت الأحزان) وهدمه تماما.[١٦٣] ومن ثم عقد هدنة بينه وبين مملكة القدس في عام ١١٨٠م[١٦٤] وتبعها كذلك هدنة أخرى مع ريموند الثالث أمير طرابلس، غير أن الهدنة بين صلاح الدين ومملكة القدس لم تستمر إلا سنة واحدة لأن القائد ريجنالد (أرناط) صاحب بارونية الكرك نقضها بالاستيلاء على قوافل تجارية إسلامية كانت قادمة من مصر، فاستولى على ما كان فيها من أموال ومتاع.[١٦٥]

عزم أرناط في تلك السنة أي سنة ٥٧٧هـ/١١٨١-١١٨٢م على غزو المدينة المنورة بقصد تيماء من أرض الحجاز، غير أن عز الدين فرخشاه صده عن مطلبه[١٦٦]، وبذلك أخفقت حملة أرناط في الوصول إلى الأماكن المقدسة في بلاد الحجاز، كما أسفرت عن عداء شديد بينه وبين صلاح الدين[١٦٧]، مما دفع صلاح الدين إلى التصميم على فتح الكرك، فهاجمه في ربيع الآخر من عام ٥٨٠ هـ / آب ١١٨٤م وفرض الحصار عليه وكاد ينجح لولا تدخل ملك القدس الذي أفسد الحصار، مما اضطر صلاح الدين للانسحاب، لكنه انتقم بالهجوم على نابلس وسبسطية وجنين[١٦٨]، وبعدها سعى صلاح الدين بكل جهده إلى توحيد كافة القوى الإسلامية في شمال الشام والعراق ومصر قبل البدء في خوض المعارك الفاصلة مع الصليبيين.

في تلك الأثناء وبالتحديد في عام ١١٨٠م تزوجت سيبل[١٦٩] أخت الملك بلدوين الرابع من أمير فرنسي ضعيف الشأن هو غي دي لوزنيان **GUY DE LUSIGNAN** رغم معارضة أخيها، فنال غي دي لوزنيان كونتيتي يافا وعسقلان إقطاعا له، كما أصبح له حق شرعي في الوصاية على العرش.

ولما دب النزاع بين الملك بلدوين الرابع وغي دي لوزنيان، وقد أصيب الملك بمرض شديد وأشرف على الهلاك، عزله عن الوصاية على العرش وأوصى بالعرش لابن أخته الصغير بلدوين الخامس وجعل الوصاية عليه للأمير ريموند كونت طرابلس .

توج بلدوين الخامس ملكا على القدس وهو لا يزال طفلا في السابعة من عمره في كنيسة القيامة سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م[١٧٠] في حياة خاله الملك بلدوين الرابع الذي توفي بعد أسابيع قليلة من مراسم التتويج، وهو لم يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره. لكن الملك الصغير بلدوين الخامس ما لبث أن توفي في عكا في السنة التالية سنة ٥٨٢هـ/١١٨٦م[١٧٠]، فدب النزاع على السلطة بين زعماء الصليبيين، فسارعت أمه سيبل وأعلنت نفسها ملكة على البلاد وأيدها في ذلك زوجها غي دي لوزنيان وريجنالد صاحب الكرك والبطريرك هرقل، أما ريموند كونت طرابلس فقد توجه إلى نابلس ودعا إلى عقد المحكمة العليا للبارونات ولحق به أتباعه مستنكرين تتويج سيبل ملكة، لأن في ذلك مخالفة لوصاية الملك بلدوين الرابع، لكن الملكة بعد إتمام مراسم تتويجها قامت بوضع التاج

على رأس زوجها غي دي لوزنيان، وأقســـم الجميع يمين الولاء للملكة والملك الجديدين في حين توجه ريموند إلى الجليل رافضا مبـــايعتهم. لم يمكث الملك غي لوزنيان على عرش مملكة القدس أكثر من عام واحد، حيث أعلن القـــائد المســـلم صلاح الدين الأيوبي في أوائل عام ١١٨٧م الجهاد العام ضد الصليبيين وأدى إلى سقوط مملكة القدس الصليبية بأيدي المسلمين بعد احتلال دام ٨٨ عاما.

فيما يلي جدولا يبين أسماء ملوك مملكة القـــدس الصليبيـــية وفترة حـــكم كل منهم:

مملكة القدس الصليبية

الرقم	اسم الملك	حقه الشرعي في الحكم	الفترة الزمنية
١-	غورفري دي بويون	منتخب	١٠٩٩-١١٠٠
٢-	بلدوين الأول	شقيق غودفري	١١٠٠-١١١٨
٣-	بلدوين الثاني	ابن عم كل من غوردفري وبلدوين الأول	١١١٨-١١٣١
٤-	فولك الأنجوي	زوج أبنة بلدوين الثاني	١١٣١-١١٤٣
٥-	مليسند ةبلدوين الثالث	ابنة بلدوين الثاني وأبننها	١١٤٣-١١٥٢
٦-	بلدوين الثالث	ابن مليسند وفولك الأنجوي	١١٤٣-١١٦٣
٧-	أموري الأول	شقيق بلدوين الثالث	١١٦٣-١١٧٤
٨-	بلدوين الرابع	ابن أموري الأول	١١٧٤-١١٨٥
٩-	بلدوين الخامس	ابن شقيقة بلدوين الرابع	١١٨٥-١١٨٦
١٠-	سيبل وغي دي لوزنيان	ابنة أموري الأول وأم بلدوين الخامس	١١٨٦-١١٨٧

الوضع العام لمملكة القدس
في العهد الصليبي

أشرنا فيما سبق كيف تم احتلال المدينة المقدسة، وكيف تأسست أول مملكة صليبية في الشرق فيها وعن أهم الملوك الذين اعتلوا عرشها، ولاستكمال الصورة عن المدينة المقدسة في تلك الفترة الزمنية لابد لنا من التعرف بشكل واضح على وصف المدينة آنذاك ونظام الحكم والقضاء اللذان كانا متبعان فيها، بالإضافة الى مختلف مناحي الحياة من اجتماعية واقتصادية وسياسية وإدارية وغيرها من الأمور.

وصف المدينة المقدسة:

إن أفضل من حدثنا عن المدينة المقدسة في تلك الفترة الزمنية هو القسيس الفرنسي فولشيه الشارتريFULCHER DE CHARTRES الذي رافق الحملة الصليبية الأولى الى الشرق، وأقام في مملكة القدس وأرخ لها في كتب ثلاث منذ عام ١٠٩٥م وحتى عام ١١٢٧م حين انقطعت كتاباته إما بوفاته أو بسبب مرض أقعده عن الكتابة[١٧١]، ووصف المدينة قائلا:

١) تقع القدس في منطقة جبلية خالية من الأشجار والينابيع والجداول باستثناء عين سلوان(سلوام) التي تبعد مسافة رمية سهم عن المدينة، وقد يتوفر فيها الماء في بعض الأحيان أو يشح بسبب قلة المجاري. وتقع هذه العين في الوادي على سفح جبل صهيون من تيار جدول قدرون. وهذا الجدول يطفو عادة ويفيض في فصل الشتاء وسط وادي يهوشفات.

٢) تحتوي الأحواض والصهاريج المتعددة داخل المدينة والتي تمتلئ بأمطار الشتاء على كمية كافية من المياه. كما يوجد خارج المدينة أحواض أخرى لإنعاش الناس والحيوانات .

٣) من المسلم به أن المدينة منبسطة انبساطا متناسبا، فلا هي صغيرة ولا هي كبيرة، عرضها من السور الى السور أربع رميات سهم. وفي غربها يقع برج داود يحفه السور على

الجانبين. وفي جنوبها يقع جبل صهيون على بعد أقل من رمية سهم، وفي شرقها يقـــع جبل الزيتون على بعد ألف خطوة خارج المدينة.

٤) وبرج داود هذا مبني من حجر صلب في نصفه الأعلى قـــوالب ضخمة مربـــعة مختومة بالرصاص المصهور. وبوسع خمسة عشر أو عشـــرين رجلا، اذا ما توفر لهم الغذاء أن يدافعوا عنه ضد هجمات أي عدو.

٥) وفي المدينة نفسها يقع هيكل الرب وهو مستدير الشكل، وقد بني حيث شيد سليمان في قديم الزمان هيكله البديع، ومع أنه لا تجوز مقارنة البنيان الحالي بالقـــديم، الا أن منظره فائق الروعة يدل على مقدرة مذهلة بالعمار.[١٧٢]

٦) وكنيسة القيامة مستديرة الشكل أيضا وقد بقيت قمتها مفتوحة لتسمح بدخول الضوء من كوّة دائمة، حذق في بنائها معماري ماهر.

٧) لا أقدر، لا أجرؤ، ولا أدري كيف أعدد الأشياء التي تحتويها، أو احتوتها في الماضي، لئلا أضلل أولئك الذين يقرءون أو يسمعون عن هذه المسألة. بـــعد أن دخلنا الهيكل ولمدة خمس عشرة سنة اثر ذلك[١٧٣]، كانت هناك صخرة محلية في وسطه. وقيل أن تابـــوت العهد ومعه الجدث وصحائف موسى قد حفظت في داخلها، وأن يوشع ملك يهوذا أمر بوضعها هناك قائلا: (لن تستطيع أن تنقلها من هذا المكان) ((II'ARALIP ٣٥:٣)) إذ أنه تنبأ بمستقبل السبي.

٨) ولكن ذلك يتنافى مع ما نقرأ في وصف أرميا في كتاب المكابيين الثاني بأنه قد خبـــأها بنفسه في بلاد العرب قائلا إنها لن تكتشف حتى يجتمع خلق كثير. وكان أرميا معاصرا ليوشع. ولكن الملك يوشع مات قبل أرميا.

٩) قيل أن ملاك الرب وقف أمام الصخرة المذكورة (صموئيل الثاني ٢٤:٨ - ٢٥) وأهلك الناس بسبب حماقة داود في إحـــصائهم مما أغضب الرب(صموئيل الثاني ٢٤:١ -٢ ، ١٥-١٧) ولما كانت هذه الصخرة قـــد شـــوهت الهيكل فانه تم تغطيتها وتبـــليطها بالرخام. وقد وضع فوقها مذبح الآن، وعليه وضع الكهنة جوقة المرتلين.

كان الشرقيون يكنون فائق الاحترام لمعبد الله وقد فضلوا اداء صلاقم هنا عن أي مكان آخر، .... و لم يسمحوا للمسيحيين بدخول الهيكل.

١٠) وهناك معبد آخر فخم ورائع البنيان يدعى هيكل سـليمان، ولكنه ليس الهيكل الذي بناه سليمان و لم نستطع بسبب ضيق ذات اليد، أن نحافظ عليه في ذات الحالة التي وجدناه فيها. لذا فقد تلف جزء كبير منه.(١٧٤)

١١) كانت هناك مجار في شوارع المدينة يغسل فيها ماء المطر كل الأوساخ.

١٢) كان الإمبراطور ايليسي هدريان قـد زين هذه المدينة وزادها بهاء، وجمّل شـوارعها وميادينها بالأرصفة. وقد سميت القدس على اسمه (ايليا) ولهذا السبب، و كثير غيره عظم شأن القدس واشتهر صيتها).(١٧٨)

هذا وقد ورد وصف آخر للمدينة في العهد الصليبي من خلال تقرير لحاج غير معروف الاسم ألف كتابا تحت عنوان مدينة أورشليم(١٩٥) LA CITE DE JERUSALEM ذكر فيه أنه كان للمدينة أربعة أبواب رئيسة، وأحد هذه الأبواب هي البوابة الذهبية وكانت تفتح مرتين في السنة أيام الصليبيين، في حد السعف (الشعانين) وفي العيد الخاص بذكرى العثور على الصليب في القرن الرابع. كما يصف هذا الحاج شوارع المدينة، منها شـارع كان يسمى شارع جبل صهيون لأنه يؤدي الى جبل صهيون، وطريق مغطى يسمى شارع الأعشاب حيث تباع فيه كل الأعشاب وكل الفواكه، وذكر أنه عند قمة هذا الشارع يباع السمك، وخلف السوق ميدان واسع يباع فيه الجبن والدجاج والبيض، وعلى يمين هذا السوق حوانيت تجار الذهب من السوريين.

طبيعة المجتمع السكاني

عرفنا مما سبق كيف أن الفراغ السكاني الذي عانت منه مملكة القدس في أوائل العهد الصليبي كانت من أكبر المشاكل التي واجهت ملوك الصليبيين الأوائل، مما حدا بملوكهم الأوائل الى حل هذه المشكلة السكانية بإعادة توطين السكان في المملكة وذلك من خلال تشجيع سكانها الأصليين من المسيحيين الشرقيين للعودة الى المدينة والإقامة فيها، كما حثوا الحجاج الغربيين القادمين الى المدينة لزيارة الأماكن المقدسة بالبقاء والاستقرار فيها، فقد قال فولشيه الشارتري واصفا الوضع:(بقي بعضهم بعد ذلك في الأراضي المقدسة وعاد الآخرون الى موطنهم وقد بقيت أراضي القدس خالية من السكان لهذا السبب، لم يتوافر فيها من الناس من يدافع عنها...).[١٧٦]

وكذلك عرفنا كيف عملوا على تهجير السكان النصارى من مناطق وادي موسى وعمان والسلط والبلقاء في الأردن الى المدينة المقدسة بالترغيب حينا وبالترهيب أحيانا كثيرة، لكنهم اضطروا فيما بعد السماح للمسلمين بالسكن في المدينة ومنحوهم بعض الحقوق، أما اليهود فقد حظر عليهم في السنوات العشر الأولى دخول المدينة المقدسة.[١٧٧]

وهكذا تغيرت الطبيعة السكانية لمدينة القدس في العهد الصليبي بحيث أمكن تقسيمها على النحو التالي :

١-**الفرنجة اللاتين :** وهم الذين قدموا الى المدينة مع الحملة الصليبية الأولى واستقروا فيها، وكانت بأيديهم مقاليد الحكم وتسيير الأمور في المملكة، لكنهم كانوا قليلي العدد حيث كانت نسبة الوفيات فيما بينهم كبيرة في حين كانت نسبة المواليد عندهم ضئيلة نسبيا.

٢-**المهاجرون الفرنجة الجدد:** وهم الذين قدموا من غرب أوروبا عبر العقود المتتالية واستوطنوا القدس، وكانت أهدافهم متضاربة مع المستوطنين القدامى، وكثيرا ما أدى ذلك الى وقوع الخلاف والعداء بينهما.

٣-**التجار الإيطاليون :** وهم من ساهموا بشكل كبير في إرساء دعائم الوجود الصليبي في

المنطقة ككل، وكانت مواقفهم تتفق مع المستوطنين القدامى في السعي لإقامة علاقـــات حسنة مع المسلمين في سبيل تثبيت وجودهم واستقرارهم في المنطقة.

٤-المسيحيون الشرقيون: وكانوا مغلوبين على أمرهم ويعاملوا كمعاملة المسلمين تماما.

٥-المسلمون واليهود: وكانوا يمثلون نسبة ضئيلة بالنسبة لجموع المسيحيين ومغلوبين على أمرهم.

ولما كانت طبيعة الغزاة الصليبيين تغلب عليها الطبيعة البربـــرية والهمجية التي بـــدت واضحة جلية لما أظهروه وأبدوه من تصرفات همجية حال وصولهم للمدن الشرقية وبخاصة حال استيلائهم على مدينة القدس، الأمر الذي جعل ملوكهم الأوائل يجدون صعوبـــة في إيجاد حد معين من الاحترام بين السكان المحليين[١٧٨]، ولكن بمرور السنوات على وجودهم بين الشعوب العربية واستقرارهم في المدن التي كانت تفوق على جميع المدن الغربية بالتطور والتقدم والنظافة، تأثروا تأثرا كبيرا بعادات وسلوك ومظاهر حياة أهل الشرق التي هذبت ولطفت من أساليبهم وعاداتهم كثيرا، حتى امتد تأثير حـــضارة الشـــرق عبرهم الى العالم الغربي[١٧٨] ومن خلال استقرار الصليبيون في المنطقة سنحت الفرصة أمام الشعوب الغربـــية للقدوم الى الشرق والتعرف على حضارته الغنية واقتباس الكثير منها سبـــل العيش الرغيدة والمترفة كثيرا بالنسبة لهم، فقد اقتبسوا عادة تكرار الاستحمام وضرورة نظافة الأبـــدان، واستخدام العطور وارتداء أفخم الملابس والمصنوعة من الأنسجة الحريرية الناعمة، والنوم على الأرائك، وتناول الأطعمة المتنوعة والتزين بالجواهر،حتى نساءهم اتخذن طريقة نســـاء أهل الشرق في عدم الخروج من بيوتهن ســـفور ومكشـــوفات الوجوه فعملن على ارتداء الحجاب، وأما السيدات النبيلات والأكثر ثراء كن يقبعن في بيوتهن ولا يخرجن الا قـــليلا، وكن دائما محاطات بالخدم والحرّاس. كما تعلم الفرنجة أيضا ضرورة احترام النساء وكيفية التعامل معهن بلطف واحترام تماما كما يفعل المسلمون مع نسائهم، وهو الأمر الذي كان مفقودا في الغرب آنذاك.[١٧٨]

السياسة التنظيمية

عندما احتل الصليبيون مدينة القدس وغيرها من المدن والمناطق العربية الإسلامية واستقروا فيها، لم يكن لديهم الوقت أوالقدرة أو حتى الوسائل الكفيلة لتغيير النظم الإدارية المتبعة في البلاد العربية وفقا لأنظمتهم المتبعة في الغرب الأوروبي والتي كان يغلب عليها النظام الإقطاعي، ولذلك فان الظروف الاستثنائية للوجود الصليبي في المنطقة العربية بشكل عام وفي القدس بشكل خاص أوجب اتباع سياستين مختلفتين للتنظيمات الإدارية في داخل المجتمع المحلي الواحد وهما:

أولا-التنظيم الإداري التقليدي(العربي التقليدي):

وكان ينظم جميع أمور السكان المحليين وقضاياهم، حتى أنه بمرور الوقت أصبحت كثير من القطاعات الإدارية في الدولة تدار بأيدي المسلمين أنفسهم، وكانت لغة الإدارة في الدولة هي اللغة العربية السائدة بين كافة قطاعات السكان المحليين،في حين كان على الفرنجة أنفسهم أن يحاطوا بالمترجمين ومساعدين لهم من أصل محلي نتيجة لاتصالاتهم المتكررة بالمجتمع المحلي.[١٧٨]

ثانيا: التنظيم الإقطاعي

وكان يحكم وينظم مجتمع الفرنجة اللاتين وجميع الأمور المتعلقة بهم من خلال كل من ١- السلطة الملكية و ٢- المجلس الأعلى للدولة.

١-السلطة الملكية:

وهي ممثلة في الملك الذي هو على رأس التنظيم، وكان الملك اذا ما اعتلى العرش تصبح المملكة وكأنها إقطاع له، شأنه في ذلك شأن النبلاء في إقطاعياتهم، حيث كان ملك القدس يملك كلا من القدس وعكا ويافا وعسقلان والمناطق المحيطة بها[١٧٨]، في حين كان الملك في الغرب الأوروبي لا يملك الا إقطاعا صغيرا[١٧٨] كما كان ملك القدس مفوضاً بتوزيع الإقطاعيات التي تتبع أملاكه الخاصة أو التي اقتطعت منها، ويتبع هذه الخاصية أن له الحق

في إقرار زواج الوريثات للإقطاعيات لمن يجده مناسبا، وكثيرا ما سبب هذا الأمر للمملكة منازعات وخلافات كثيرة، كما كان له الحق أيضا في منع الإقطاعيين من بيع الأملاك اذا ما وجد أن عملية البيع تلك ستؤثر على مصالح الدولة[178].

وأما عن علاقة ملوك القدس بأمراء الإمارات الصليبيــية الثلاث (الرها - إنطاكية - طرابلس) لم تكن ذات سلطة مركزية ونفوذ مباشر عليهم، وإنما كانت ذات سياسة تنسيقية وتوفيقية فيما بينهم في سبيل التمكن من الوقوف في وجه القــوى الإســلامية المحيطة بهم، وعليه كان الأمراء يتصرفون في إماراتهم باستقلال تام فقــد كان لكل أمير منهم قــوانينه الخاصة به.[179] وكثيرا ما عقد بعضا منهم معاهدات مع المسلمين أو عملوا على مهاجمتهم على الرغم من وجود معاهدات بين ملك القدس والمسلمين .

لكن حقوق ملك القدس كانت أكثر ما تتضح عند خلو إمارة من الحاكم بوفاته دون أن يترك وريثا في سن الرشد أو أن يتولى حكم إحدى الإمارات أمير صغير السن، فيصير من حق ملك القدس الوصاية على الإمارة والأمير.[180]

ومن ناحية أخرى كان من حق ملك القــدس إعطاء الحق لأي قــادم من الغرب الى الشرق الإسلامي أن يمتلك ما يستولي عليه من قلعة أو مدينة بشرط أن يترل بها حامية ويرفع علمه عليها، وذلك من أجل تشجيع قيام إمارات متعددة في نواحــي مختلفة في فلســطين. ومثال على ذلك حصن الشوبك وقلعة الكرك. وهكذا نشأت الأرستقراطية الإقطاعية في المنطقة.[181]

وأما عن السلطة الملكية في الأمور الإدارية داخل التنظيم الإقطاعي فقد كانت محدودة نسبياً، فهو من يأمر الجيش، وكذلك يترأس مجلس النبلاء والمحاكم، وهو من يقوم بــتعيين الرجال في أعلى مناصب الدولة، وكذلك كان يحق له أن يفرض ضرائب معينة بسبــــب الحروب، لكنه لم يكن له الحق في اتخاذ أي قرار بمفرده، وأما في المحاكم فقــد كانت أراءه ورغباته ثانوية بالنسبة للقضاة.

٢- المجلس الأعلى للدولة :

وهو بمثابة حكومة الدولة، وكان مؤلفا من كبار البارونات ومن أصحاب المقـــامات الكنيسة الرفيعة وممثلين عن الجماعات الأجنبية وكبار قادة الجيش والفرسان، وبشكل عام كانت قــــرارات الجيش تتخذ يوميا في هذا المجلس، وأما الملك فلم يكن يطاع في هذا المجلس الا اذا كانت شخصيته قوية ولديه قدرة كبيرة على الإقناع لدرجة تقنع المجلس بالموافقة على خططه، لذا كان هذا المجلس يحظى بامتيازات كبيرة حيث كان أشبـــه ما يكون بـــالبرلمان بالنسبة لممالك القرون الوسطى.[١٨٢]

نظـام القضـاء

كان يوجد في مملكة القدس ثلاثة محاكم رئيسة تمارس القضاء وهي:

١ -المحكمة العليا : وهي الخاصة بطبقة النبلاء والبارونات، وكانت تفصل في القضايا التي تتعلق بالنزاع بين الملك وأسوياته من أمراء الإقـــطاعيات والنبـــلاء، وكذلك كانت هذه المحكمة تعتبر المصدر الأكبر للقضاء عند الطبقة الحربية، كما أنها كانت تحدد ســـلطة الملك فيما يتعلق في الأمور العسكرية، كما أنها الجهة المسؤلة في قرار انتقال لقب الملك.[١٨٣]

٢- المحكمة الوطنية : وهي المخصصة لسائر الفرنجة وكانت تتألف من اثني عشر مشرعا يختار رئيسها من طبقة الفرسان، وأما اختصاصاتها فكانت النظر في كل ما يجري بين الفرنجة وأهل المدن من المعاملات والعهود وامتدت سلطاتها الى القـــضايا الجنائية المتعلقـــة بـــأهل المدن.[١٨٣]

٣- المحكمة الكنسية : وكانت تفصل في الأمور الدينية والعلاقات الزوجية، وكانت تتمتع باستقلالية تامة عن باقي المحاكم في المملكة، وتمتعت بـــامتيازات وإعفاءات مالية كبـــيرة لدرجة أصبحت فيها أملاكها واسعة ومواردها هائلة تفوق ما يرد الحكومة ذاتها.[١٨٣]

القوات العسكرية

وكانت تتألف القوات العسكرية لمملكة القــدس الصليبيــية من فئات متعددة وهي:

١- الجيش الإقطاعي:

كان يعتبر الفرد فيه تابعا ومُلزما بأن يؤدي الخدمة العسكرية طوال الســنة وليس لفترة محدودة، الا أنه غير ملزم بأن يؤدي الخدمة ما لم يتقــاضى أجرا على ذلك، وليس هناك ما يعفي الملك من الالتزام بدفع الأجور لأفراد هذا الجيش سوى حدوث مجاعة أو قيام المسلمين بغارات عليهم، وكذلك كان من واجب الملك توفير الخيل لأفراد هذا الجيش بما أقــامه من النظام المعروف باسم التعويض أو البدل[١٨٤] RESTOR، فإذا فقد التابع حصانه بشرط ألا يكون ذلك نتيجة خطأ ما ارتكبه فانه يحصل على حصان غيره من بيت المال الذي اشــتهر باسم سكريتم[١٨٤] SECRETUM.

٢- الجيش المأجور: SOUNDOYERS

كان لدى مملكة القدس جيشــا آخر الى جانب الجيش الإقــطاعي وهو من المأجورين ويحصلون على ما يتحصل من الإقطاعيات من أموال.

٣- التركبولي: TURCOPOLI

وهي فئة من الفرسان المتخفيين وجرى تجنيدهم من أصل غير إفرنجي أي من الســريان مثلا ودرجوا على استخدام الأساليب المعروفة عند المسلمين.

٤- فرسان الطوائف الدينية:

وجيوشهم مؤلفة من الســكان الوطنيين ومقــدمو هذه الطوائف يعتبرون من الأمراء ويمتازون بالاستقلالية التامة.

٥- **فئة المشاة:** وكانوا من الأرمن ويعتبروا من خيرة جنود الشرق.

٦- **فئة الرماة:** وكانوا من المارونيين .

وهكذا نجد أنه على الرغم من القوة العسكرية الهائلة التي كانت تمتلكها مملكة القدس الصليبية والتي قدر عدد أفرادها بنحو ٢٥ ألف رجل، وذلك في سبيل الحفاظ على وجودها واستمرارها في الشرق، الا أن المجتمع الصليبي بقي على مر السنين منعزلا الى حد كبير ومتأثرا وليس مؤثرا في المجتمع المحلي بدليل ما سبق ذكره، ولذلك ما أن تجمعت القوات العربية الإسلامية واتحدت حتى تمكنت من القضاء عليها وإخراجها من المدينة المقدسة.

هوامش الفصل الرابع

١ - السلاحقة : أصلهم فئة من الأتراك خرجوا في أواخر القرن العاشر الميلادي من سهول تركستان، وحملوا السلاح للغزو ، ودخلوا الحروب للمغانم ، وكان على رأسهم ابن زعيم من زعمائهم اسمه (سلجوق) واعتنق هؤلاء الأتراك دين الإسلام وتحمسوا للدين ، فانقلبوا من فئة الى قبيلة ، ومن قبيلة الى أمة، وقد أولاهم الخلفاء العباسيون حكم الولايات حتى أصبحوا أسياد دويلات مستقلة، فراحوا يحكمون صوريا باسم الخليفة العباسي وفعليا باسمهم الخاص ، وقد بدأ حكمهم الفعلي لبلاد العرب بدخول عظيمهم (طغرل بك) مدينة بغداد سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م، وكان في بغداد يومئذ الخليفة العباسي القائم بأمر الله فأبقاه ليحكم صوريا، لكنه قضى على من سواه في الحكم من المتنفذين والقادة.

٢ - الأتابك : لفظ تركي مكون من (أتا) أي الأب المربي ، و(بك) أي الأمير ، ومعنى ذلك أنه مربي الأمير أو الملك ، وكان آل سلجوق اذا امتاز أحد قادتهم وأرادوا تشريفه أضفوا عليه هذا اللقب تكريما له. انظر : د. سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج١ ، ص١١٥-١١٦ .

٣ - د. أمينة البيطار ، تاريخ العصر الأيوبي ، ص٩.

٤ - انظر : جب - هاملتون ، صلاح الدين ، ص٤٦-٤٨.

٥ - عن معركة ملاذكرت أو مناذكرد ، أنظر : ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج١٠، ص ٦٥-٦٨.

٦ - د. أمينة البيطار ، تاريخ العصر الأيوبي، ص١٣.

٧ - د.سعيد عاشور، الحركة الصليبية ، ج١ ، ص ٢٦.

٨ - د . أمينة البيطار ، تاريخ العصر الأيوبي ، ص ١٤ .

٩ - د.سعيد عاشور، الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ١٣٤.

١٠ - W.B. STEVENSON , *THE CRUSADERS IN THE EAST*, P 5.

١١ - د.سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص١٣٧.

١٢ - د. سعيد عاشور ، أوروبا في العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٤٢٩.

١٣ - SETTON & BALDWIN , *A HISTORY OF CRUSADES* , Vol. 1, P 29

١٤ - د. سعيد عاشور ، أوروبا في العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٤٢٩.

١٥ - د. أمينة البيطار ، تاريخ العصر الأيوبي ، ص ١٩

١٦ - RUNCIMAN , *A HISTORY OF THE CRUSADES*, VOL 1, PP 183-184

١٧ - د. سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ١٣٥ - ١٤٠.

١٨ - د.أمينة البيطار ، تاريخ العصر الأيوبي ، ص ٢٠.

١٩ - د. سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ١٥٦-١٥٧.

٢٠- RUNCIMAN , *A HISTORY OF THE CRUSADES*, Vol 1, PP 210-222.

٢١- د. سعيد عاشور، الحركة الصليبية ، ج١ ، ص ١٦٥-١٦٦.

٢٢-د. أمينة البيطار ، تاريخ العصر الأيوبي ، ص ٢١.

٢٣- هاجر الأرمن من بلادهم حول بحيرة فان إلى كليكية هجرة كبيرة في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، وذلك أمام غزوات السلاجقة ، أنظر : د.سعيد عاشور ، الحركة الصليبية، ج ١ ، ص ١٧٣.

٢٤- RUNCIMAN , *A HISTORY OF THE CRUSADES* , Vol 1, PP 294-295.

٢٥- كانت مدينة أنطاكية حين حاصرتها الجيوش الصليبية بيد السلاجقة منذ أن انتزعها سليمان بن قتلمش سلطان سلاجقة الروم من البيزنطيين سنة ٤٧٧هـ/١٠٨٥م ، ثم أصبحت من أملاك تتش الذي سلمها لأحد رجاله من التركمان المعروف باسم (ياغي سيان) سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٧م. للمزيد أنظر: ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ١٠، ص١٣٨-١٣٩ و ص ١٤٧ -١٤٨.

٢٦- ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٢.

٢٧- أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ج ٢ ، ص ٢١٠.

٢٨- د. أمينة البيطار ، تاريخ العصر الأيوبي ، ص٢٢.

٢٩- الموسوعة الفلسطينية ، ج ٣ ، ص ٤٤٣.

٣٠- د. سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٠٥.

٣١- د. أمينة البيطار ، تاريخ العصر الأيوبي ، ص ٢٧.

٣٢- د. سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٢١-٢٢٤.

٣٣- RUNCIMAN , *A HISTORY OF THE CRUSADES* , Vol 1, PP 376-377,382-383.

٣٤- د.أمينة البيطار ، تاريخ العصر الأيوبي ، ص ٢٧.

٣٥- ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج١٠ ، ص ٢٨٣.

٣٦- د. سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج١ ، ص ٢٤٢.

٣٧- W.B. STEVENSON, *THE CRUSADERS IN THE EAST*, P 33.

٣٨- الأراتقة: وترجع تسميتهم إلى زعيمهم الأمير (أرتق بن أكسك) التركماني الأصل والذي يعتبر مؤسس دولة الأراتقة سنة ١٠٧٦م ، وكان يعمل أميرا في جيش السلاجقة وتمكن من الاستيلاء على المدينة المقدسة من أيدي الفاطميين.

٣٩- ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج١، ص ٨٥.

٤٠- د. أمينة البيطار ، تاريخ العصر الأيوبي ، ص ١٠.

٤١- ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ١٠ ، ص ٢٨٢-٢٨٣.

٤٢- ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٥

٤٣- SETTON & BALDWIN, *A HISTORY OF THE CRUSADES*. VOL 1, P333.

٤٤- د.عبد الحميد زايد ، القدس الخالدة ، ص٣٣ .

٤٥- SETTON & BALDWIN, *A HISTORY OF THE CRUSADES*, VOL 1, P333.

٤٦- د.سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٤٣.

٤٧- SETTON & BALDWIN . Vol 1, P333.

٤٨- STEVENSON , *THE CRUSADERS IN THE EAST*, P33-34.

٤٩- SETTON & BALDWIN . Vol 1, P335.

٥٠- RUNCIMAN , *A HISTORY OF THE CRUSADERS*, Vol 1, P336.

٥١- SETTON & BALDWIN, *A HISTORY OF THE CRUSADES*, Vol1, P336.

٥٢- ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٤٩٢هـ.

٥٣- SETTON & BALDWIN , Vol 1 , P336.

٥٤- STEVENSON . *THE CRUSADERS IN THE EAST*, PP34-35.

٥٥- ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٤٩٢هـ.

٥٦- SETTON & BALDWIN. *A HISTORY OF THE CRUSADERS*, Vol 1, P337.

٥٧- أبو المحاسن، النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ١٥٠. وأنظر: ابن قلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص١٣٧.

٥٨- FULCHER OF CHARTRE, *A HISTORY OF THE EXPEDITION TO JERUSALEM*, NEW YORK 1973, P186.

وأنظر : د. زياد العسلي ، فوشيه الشارتري ، تاريخ الحملة إلى القدس ، ص ٧٥.

٥٩- ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، حوادث سنة ٤٩٢هـ.

٦٠- RUNCIMAN , *A HISTORY OF THE CRUSADES*, Vol 1, P278.

٦١- الموسوعة الفلسطينية ، ج٣ ، ص ٥٤٣.

٦٢- د. سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج١ ، ص ٢٥١.

٦٣- SETTON & BALDWIN , Vol 1, P338.

٦٤- د. سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج١ ، ص٢٥٢.

٦٥- SETTON & BALDWIN, Vol 1 , P339.

٦٦- RUNCIMAN, *A HISTORY OF THE CRUSADES* , Vol 1 , P292-293.

٦٧- STEVENSON , *THE CRUSADERS IN THE EAST*, P36.

٦٨- RUNCIMAN, *A HISTORY OF THE CRUSADES*, Vol 1, P294.

٦٩- SETTON & BALDWIN, *A HISTORY OF THE CRUSADES*, Vol 1, P 335.

٧٠ - ابن عسقلان ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٧ .

٧١- د. عبد الحميد زايد ، القدس الخالدة ، ص ٢١٥.

٧٢- د. سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٥٩.

٧٣- ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٤٩٢هـ.

٧٤- د.سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج١، ص٢٥٩.

٧٥- دايمبرت : هو رئيس أساقفة مدينة بيزا الإيطالية ، وكان قد وقف إلى جانب البابا أوربان الثاني في مشروعه الصليبي لاحتلال الأراضي المقدسة في الشرق ، كما أثبت كفاءة سياسية عالية ومهارة نادرة جعلته يحتل مكانة ظاهرة في الأحداث التي أخذت تجري في نهاية القرن الحادي عشر .

٧٦- RUNCIMAN, *A HISTORY OF THE CRUSADES*, Vol 1, P 299.

٧٧- د.سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٧٤-٢٧٥.

٧٨- SETTON & BALDWIN, *A HISTORY OF THE CRUSADES*, Vol 1, P 374.

٧٩- RUNCIMAN, *A HISTORY OF THE CRUSADES*, Vol 1, P 301.

٨٠- FULCHER OF CHARTRES, *A HISTORY OF THE EXPEDETION TO JERUSALEM*, PP322- 326.

٨١- SETTON & BALDWIN, *A HISTORY OF THE CRUSADES*, Vol 1, P 375.

٨٢- STEVENSON, *THE CRUSADES IN THE EAST*, P 39.

٨٣- RUNCIMAN, *A HISTORY OF THE CRUSADES*, P 303.

٨٤- د. سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج١ ، ص٢٧٩.

٨٥- الموسوعة الفلسطينية ، ج٣ ، ص٤٤٤ .وأنظر: SETTON & BALDWIN, Vol 1, P 376-379.

٨٦- الحكم الثيوقراطي : هو الحكم الخاضع لرجال الدين والمرتبط مباشرة بالكنيسة.

٨٧- STEVENSON, *THE CRUSADERS IN THE EAST, P 42.*

٨٨- د.سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص٢٨٦.

٨٩- RUNCIMAN, *A HISTORY OF THE CRUSADES*, Vol 1, PP 318-319.

٩٠- لموسوعة الفلسطينية ، ج ٣ ، ص ٥٤٣.

٩١- د. سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٩٢.

٩٢- STEVENSON , *THE CRUSADERS IN THE EAST*, P 44.

٩٣- SETTON & BALDWIN, *A HISTORY OF THE CRUSADES*, Vol 1, P 382.

٩٤- الموسوعة الفلسطينية ، ج ٣ ، ص ٥٤٣.

٩٥- RUNCIMAN, *A HISTORY OF THE CRUSADES*, Vol 2, P7.

٩٦- STEVENSON, *THE CRUSADERS IN THE EAST*, P47.

٩٧- الموسوعة الفلسطينية، ج ٣، ص ٥٤٤

٩٨- SETTON & BALDWIN, *A HISTORY OF THE CRUSADES*, Vol 1, P383-384.

٩٩- د. سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج١، ص٣٤٠.

١٠٠- RUNCIMAN, *A HISTORY OF THE CRUSADES*, Vol 2, PP 81-82.

١٠١- د. سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج١، ص ٣٠٦.

١٠٢- RUNCIMAN, *A HISTORY OF THE CRUSADES*, Vol 2, P 100.

١٠٣- الموسوعة الفلسطينية، ج ٣، ص ٥٤٤-٥٤٥.

١٠٤- د. عبد الحميد زايد، القدس الخالدة، ص ٢١٧.

١٠٥- STEVENSON, *THE CRUSADERS IN THE EAST*, P66.

١٠٦- د. سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ١، ص٣٣٥.

١٠٧- STEVENSON, *THE CRUSADERS IN THE EAST*, P66.

١٠٨- RUNCIMAN, *A HISTORY OF THE CRUSADES*, Vol 2, P82.

١٠٩- د. سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ١، ص ٥٠٧.

١١٠- RUNCIMAN, *A HISTORY OF THE CRUSADES*, Vol 2, PP 143-144.

١١١- SETTON & BALDWIN, *A HISTORY OF THE CRUSADES*, Vol 1., P 411.

١١٢- RUNCIMAN, Vol 2, P 146.

١١٣- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، حوادث سنة ٥١٢ هـ، ج ١٠، ص ٣٨١-٣٨٣.

١١٤- SETTON & BALDWIN, *A HISTORY OF THE CRUSADES*, Vol 1, PP 411-412.

١١٥- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، حوادث سنة ٥١٢ هـ، ج ١٠.

١١٦- د. سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ١، ص ٥١٦.

١١٧- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠.

١١٨- RUNCIMAN, *A HISTORY OF THE CRUSADES*, Vol 2, P 149.

١١٩- د. سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج١، ص ٥١٧.

١٢٠- RUNCIMAN, Vol 2, PP149-150.

١٢١- STEVENSON, *THE CRUSADERS IN THE EAST*, P 104.

١٢٢- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص٣٩٦.

١٢٣- SETTON & BALDWIN, *A HISTORY OF THE CRUSADES*. Vol 1, P 414.

١٢٤- د. سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١٠ ، ص ٥٢٨ - ٥٢٩.

١٢٥- ابن الأثير، الكامل في التاريخ ، ج ،ص٣٩٧-٣٩٨..

١٢٦- د. سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٥٣٣.

١٢٧- ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥١٨هـ.

١٢٨- WILLIAM OF TYRE, *A HISTORY OF DEEDS DONE BEYOND THE SEA*. Vol 1, PP 534-535

١٢٩- RUNCIMAN, *A HISTORY OF THE CRUSADES*, Vol 2, P 156.

١٣٠- د. سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١،ص ٥١١-٥١٢. وانظر:
WILLIAM OF TYRE, Vol 1, PP 534-535.

١٣١- RUNCIMAN, *A HISTORY OF THE CRUSADES*, Vol 2, P 154.

١٣٢- الداوية : أصلها كلمة سريانية تعني الفقراء ،أي فرسان المسيح الفقراء.

١٣٣- NEW YORK, WILLIAM OF TYRE, *A HISTORY OF DEADS DONE BEYOND THE SEA*, Vol 1, PP 520-521.(1943)

١٣٤- RUNCIMAN, *A HISTORY OF THE CRUSADES*, Vol 2, P 176-177.

١٣٥- د. سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١، ص ٥١٤-٥١٥.

١٣٦- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، حوادث سنة ٥٢٣هـ. وأنظر: ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٢٠-١٢١.

١٣٧- RUNCIMAN, *A HISTORY OF THE CRUSADES*, VOL 2, P 185.

١٣٨- سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ص٥٤٦ .

١٣٩- RUNCIMAN, *A HISTORY OF THE CRUSADES*, Vol 2, P 231-232.

١٤٠- *ENCYCLOPEDIA BRITANNICA*, Vol 6, P 830. WILLIAM BENTON PUBLISHER.LTD

١٤١- RUNCIMAN, *A HISTORY OF THE CRUSADES*, Vol 2, P 231.

١٤٢- ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ١٠. وأنظر: ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ٣٢٨.

١٤٣- إمارة الرها : وهي أول إمارة صليبية أسست في الشرق ، وكانت تعتبر من أقوى الحصون وأمنعها.

١٤٤- ابن قاضي شهبة ، الكواكب الدرية في السيرة النورية ، تحقيق محمود زايد ، ص ١١٥ .

١٤٥- ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٧٩.

١٤٦- د. سعيد عاشور ، أوروبا في العصور الوسطى ، ص ٤٥٢-٤٥٣.

١٤٧- د. أمينة البيطار ، تاريخ العصر الأيوبي ، ص ٥٧.

١٤٨ - أبو شامة ، تاريخ الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، ج ١ ، ص ٤٨ .

١٤٩ - ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٢١-٣٢٢، ٣٢٧. وأنظر: ابن الأثير ، الكامل في التاريخ، ج ١١ ، ص ١٨٨

١٥٠- ZOE OLDENBURG, *THE CRUSADES*, Trans. From French by ANNE CARTER, NEW YORK, P 360,361-362.

١٥١ - أبو شامة ، تاريخ الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، ج ١ ، ص ١٥٨ .

١٥٢ - ابن واصل ، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، ج ١ ، ص ٢٠١ .

١٥٣ - ابن شداد ، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، ص ٤٧ .

١٥٤ - ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٢٩٦

١٥٥- STEVENSON, *THE CRUSADES IN THE EAST, P 213.*

١٥٦ - ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ١١ ، ص ٤١٧ .

١٥٧ - ابن واصل ، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، ج ٢ ، ص ١٩ - ٢٠ ، وأنظر: ابن الأثير الكامل في التاريخ ، ج١١، ص ٤١٧.

١٥٨ - أبو شامة ، تاريخ الروضتين في أخبار الدولتين ، ج ١ ، ص ٢٣٦ .

١٥٩ - ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ١١ .

١٦٠ - د. سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢، ص ٧٥٧ - ٧٥٨.

١٦١ - ابن واصل ، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، ج ٢ ، ص ٧٢

١٦٢ - ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ١١ . وأنظر : ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٢ ، ص٧٥-٧٦

١٦٣ - أبو شامة ، تاريخ الروضتين ، ج ٢، ص ١١ . وأنظر: ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ٨٢.

١٦٤ - د. سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٧٦٣.

١٦٥ - ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص٣٠٩ . وأنظر: ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ص ١٠١-١٠٢

١٦٦ - ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج١١ .

١٦٧ - ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ١٢٨ .

١٦٨ - ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ١١ . وأنظر: أبو شامة ، تاريخ الروضتين ، ج ٢ ، ص ٥٦ .

١٦٩ - كانت سبيل أرملة (وليام دي مونتفرات) الذي تزوجته في عام ١١٧٦م ولكنه توفي في السنة التالية تاركا وراءه طفلا صغيرا سمي بلدوين الخامس وقد أصبح ملكا فيما بعد .

١٧٠- ZOE OLDENBOURG, *THE CRUSADES* Trans. From the French by ANNE CARTER NEW - YORK, P403-405.

١٧١ - فوشيه الشارتري ، تاريخ الحملة الى القدس ، ترجمة د. زياد العسلي ، ص ١١.

١٧٢- ويقصد بها قبة الصخرة، المسجد العظيم المثمن الأضلاع الذي بناه الخليفة عبد الملك بن مروان سنة ٦٩١هـ فوق الصخرة المشرفة التي صعد منها الرسول محمد صلى الله عليه وسلم الى السماء في إسرائه الليلي، انظر: القران الكريم، سورة الإسراء والمعراج.

١٧٣- يعلق الدكتور زياد العسلي قائلا: بأنه قد تدل هذه الجملة على أن فوشيه كان قسيس الملك بلدوين الأول لمدة خمس عشرة سنة، مما أتاح له الدخول الى الهيكل في تلك الفترة

١٧٤- ويقصد به المسجد الأقصى، ثالث الحرمين الشريفين، وسبب التلف الذي لحق به هو أن الملك بلدوين الأول نزع الرصاص عن سقفه وباعه (يذكر فوشيه ذلك في نسخته الأولى فقط) وأصبح فيما بعد مركزا لقيادة الفرسان الهيكليين، أنظر: د. زياد العسلي، فوشيه الشارتري وتاريخ الحملة الى القدس، ص٩٦، ٧١-٧٢.

١٧٥- د.عبد الحميد زايد، القدس الخالدة، ص٢١٦.

١٧٦- فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة الى القدس، ترجمة د. زياد العسلي، ص١١٢.

١٧٧- د.عبد الحميد زايد، القدس الخالدة، ص٢١٧.

١٧٨- *THE CRUSADES*, BY ZOE OLDENBURG, Trans. From The French by ANNE -CARTER . NEW YORK , P 473,476-477,483-488.

١٧٩- أرنست باركر، الحروب الصليبية، ترجمة العريني، ص٥٤.

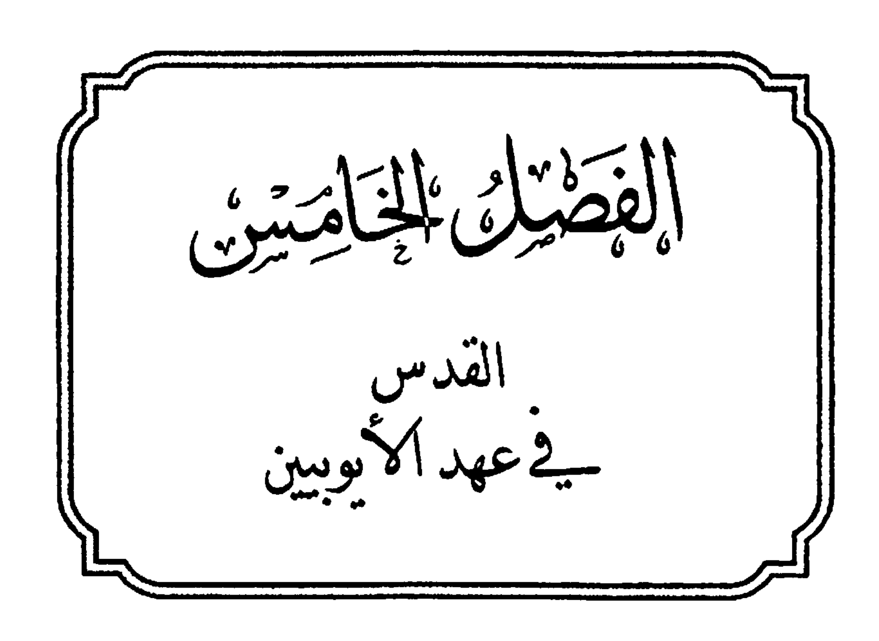
١٨٠- ومثال على ذلك أن الملك بلدوين الثاني أعتبر وصيا على إمارة إنطاكية خلال سنتي ١١١٩م و ١١٣٠م.

١٨١- أرنست باركر، الحروب الصليبية، ترجمة العريني، ص٥٤.

١٨٢- ZOE OLDENBOURG, *THE CRUSADES*, Trans. by ANNE CARTER, P 485.

١٨٣- د.حمد أحمد يوسف، بيت المقدس من العهد الراشدي وحتى نهاية الدولة الأيوبية، ص٢١٥-٢١٨.

١٨٤- LA MONTE, PP 120-121,167-168.



الفصل الخامس

القدس في عهد الأيوبيين

صـلاح الـدين الأيـوبي

أصلـه ونشأتـه:

صلاح الدين الأيوبي هو يوسف بن أيوب بن مروان بن شاذي من بـــلدة دوين[1]، في آخر أعمال أذربيجان[2].

لقد اختلف المؤرخون في أصل الأسرة الأيوبية، فمن قائل بأنها من الأكراد الروادية[3]، كابن الأثير وأبو شامة وغيرهم[4]، ومنهم من يرى أن أصلهم يعود إلى بلدة صغيرة في بـــلاد العجم[5]، هذا وقد جعل البعض أصلهم من العرب المهاجرين من الجزيرة العربية ونسبوهم إلى بني أمية[6]، ويبدو أن هذا النسب أورده من أراد التقرب منهم حـــين أضحـــوا ملوكا وسلاطين. والأرجح أن نسبهم يعود إلى الأكراد، وأنه لم يعرف بالضبـــط أحـــد بـــعد (شاذي)[7]، ومما يؤيد ذلك النسب ما ذكره ابن خلكان وغيره من أنهم تتبعوا نسب صلاح الدين فلم يجدوا أحدا ذُكر بعد شاذي أبا آخر[8].

ومهما كان أصل الأيوبيين، فالمهم هو أن أســـرتهم دخلت كنف الحياة الإســـلامية في الدول العربية كبغداد وتكريت وبعلبك ودمشق، وتثقفت بالثقافة العربـــية الإســـلامية في وقت كان فيه الدين الإسلامي هو شـــعار الحياة العامة ويجمع بـــين القـــوميات المختلفة لقوله تعالى (**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**). ولقول رسوله محمد ﷺ (**لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى**).

ذكر ابن شداد ولادة صلاح الدين فقال : (كان مولده رحمه الله على ما بلغنا من ألسنة الثقات الذين تتبعوه حتى بنوا عليه تسيير مولده على ما تقتضيه صناعة التنجيم، في شـــهور سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة وذلك بقلعة تكريت، وكان والده أيوب بن شاذي رحمه الله تعالى واليا بها، وكان كريما أريحيا حليما حسن الأخلاق. مولده بدوين ثم اتفق له الانتقال من تكريت إلى الموصل المحروسة وانتقل ولده المذكور معه، وأقام بها إلى أن ترعرع)[9].

وحينما فتح عماد الدين زنكي بعلبـــك ســـنة ٥٣٤هـــ/١١٣٩م وكان عمر صلاح

الدين سنتين، وليَّ عليها نجم الدين أيوب (والد صلاح الدين) درزداراً أي صاحب القلعة، كما قلّد عمه شيركوه قيادة الجند.

لبث صلاح الدين مع أسرته في بعلبك حتى بلغ السابعة من عمره سنة ٥٤١هـ/ ١١٤٦م حيث قُتل في ذلك العام عماد الدين زنكي، فتم انتقال نجم الدين أيوب مع أسرته إلى دمشق تاركا بعلبك. فنشأ صلاح الدين في دمشق ودخل مع أبيه وعمه شيركوه في خدمة نور الدين محمود بن زنكي صاحب دمشق وحلب والموصل.

وهكذا يمكن القول أن صلاح الدين نشأ وتربى بين أحضان أسرته، وأخذ عن أبيه نجم الدين أيوب براعته في السياسة، واكتسب من عمه شيركوه الشجاعة في الحروب، فنشأ متشبعا بالدهاء السياسي والروح الحربية، كما تعلم علوم عصره فحفظ القرآن ودروس الفقه والحديث.[٩] وتتلمذ على أيدي كبار العلماء وأساتذة منطقة الشام والجزيرة منهم الشيخ قطب الدين النيسابوري[١٠]، الذي قال عنه المقريزي بأنه جمع لصلاح الدين عقيدة تحوي جميع ما يحتاج إليه في أمور دينه، وأنه من شدة حرصه عليها كان يعلمها لصغار أولاده[١١].

وعندما شبّ وكبر صلاح الدين عمل في جيش نور الدين وتحت إمرة عمه شيركوه الذي كان له دورا بارزا في ضم مدينة دمشق لنور الدين، ونتيجة لإقدام شيركوه وشجاعته جعله نور الدين قائدا لحملاته الثلاث التي أرسلها الى مصر والتي انتهت باعتلاء شيركوه الوزارة الفاطمية.

صلاح الدين في الوزارة الفاطمية:

بعد وفاة أسد الدين شيركوه في مصر، علم الخليفة الفاطمي العاضد بإجماع الأمراء النوريين[١٢] على صلاح الدين الأيوبي ليخلف عمه في الوزارة الفاطمية في مصر. وكان صلاح الدين قد كسب محبة العاضد ووقع منه موقعاً حسناً كما يقول أبو شامة (بموقع أعجبه عقله وسداد رأيه وشجاعته....)[١٣]، فبعث اليه الخليفة العاضد بمنشور الوزارة

الصادر باسمه وبرفقــته خلعة الوزارة[١٤] التي كانت ثمينة للغاية، ولقّبــه بــالملك الناصر.

عند تولي صلاح الدين الوزارة الفاطمية كان في سن الثانية والثلاثين من عمره، فقــام بتنفيذ أعمالا عديدة كانت أولها العمل على تثبيت مركزه في مصر، وذلك من خلال تفقد قوات الجيش والعمل على التخلص من الأمراء المصريين والعربان والأرمن والسودانيين، في حين عمل على ضم الفرق الأسدية التي أنشأها عمه شيركوه في مصر، وكذلك ضم الأمراء الأكراد الى تلك القوات. و لم تنقض سنة على توليه الوزارة الا وكان قد شكل فرقة خاصة من الحرس تدعى الصلاحية، كما استعان صلاح الدين بالمماليك الأتراك.[١٥] وبعد أن تمت له السيطرة الكاملة على القوات والجيش توجه الى عامة الشعب المصري، ووجد في حــل مشاكلهم الاقتصادية خير وسيلة لكسبهم الى جانبه.[١٦]

إسقاط الخلافة الفاطمية على يد صلاح الدين:

بعد نجاح صلاح الدين في تثبيت سلطانه في مصر وكسب محبــة المصريين وميلهم إليه، أخذ نور الدين الزنكي صاحب حلب ودمشــق والموصل يلح عليه بــضرورة العمل على إسقاط الخلافة الفاطمية، وكذلك كان الخليفة العباسي المستضيء بالله يرســل لنور الدين معاتبا على تأخير إقامة الخطبة العباسية بمصر، فأرســل نور الدين لصلاح الدين والده نجم الدين أيوب ليحثه على ذلك[١٧].

سارع صلاح الدين الى التمهيد لذلك ببعض الأعمال منها التقرب الى الأهالي بــرفع جميع المكوس بديار مصر وأبطلها[١٨]، كما عزل قضاة مصر من الشيعة واستناب على سائر البلاد قضاة شافعية، وأزال أصول المذهب الشيعي مثل الآذان (حي على خير العمل) كما أثار قضية التشكيك بنسب الفاطميين وأنهم من نســل المجوس وان زعموا أنهم علويون.[١٩] وكان صلاح الدين قد أجهز على قوات الفاطميين العسكرية وقــضى على أمراء القــصر والجند السودانيين كما أسلفنا سابقا.

وحينما وجد صلاح الدين أن أقدامه أصبحــت ثابــتة في مصر، أراد تنفيذ خططه في الإجهاز على الخلافة الفاطمية دون تقديم أية ضحــايا ومن غير إثارة المصريين عليه، بــأن

طلب من الأمراء (القادة) الشافعيين أن يمضوا الى بـــيوت الأمراء الفاطميين في الليل، وأن يقف كل أمير منهم بجنده على بـــاب كل أمير من أمراء مصر، فإذا خرج الأمير الفاطمي للخدمة قبض عليه واحتاط على داره وما فيها وأخذها لنفسه.[٢٠] فلما أصبـــح الصبـــاح وخرجوا على عادتهم أحـــاطوا بهم الأمراء الأيوبـــيون من كل جانب، وقبـــضوا عليهم واستولوا على دورهم وذخائرهم.

وقد ساعد صلاح الدين على إتمام خطته بـــالكامل مرض العاضد الذي غلُب الظن أنه لن يُشفى منه، فجمع صلاح الدين أصحابه إليه واستشارهم في ذلك، فاختلفوا ، وكان في مصر في ذلك الوقت رجل أعجمي اسمه الخبوشاني[٢٠]، أعلن اســـتعداده لإعلان سقـــوط الخلافة الفاطمية فألقى بالفسطاط أول خطبة باسم الخليفة العباسي المستضيء بنور الله في أول جمعة من محرم سنة ٥٦٧هـــ/١١٧١م[٢٠]، ولم يحتج أحد على ذلك. وكان العاضد قد اشتد به المرض فتوفي بعد ثلاثة أيام دون أن يدري بشيء مما حـــدث، فقـــد منع صلاح الدين رجال العاضد من إزعاجه أثناء مرضه وبذلك سقطت الخلافة الفاطمية[٢١].

كان لسقـــوط الخلافة الفاطمية صدى بـــالغ الأثر في نفوس المصريين خاصة، والأمة الإسلامية عامة، وكان حدثا تاريخيا هاما وخطيرا في تاريخ الأمة الإسلامية، حيث عادت وحدة الخلافة السنية التي يوليها المسلمون كامل ولائهم الديني، فأقـــيمت بهذه المناسبـــة الاحتفالات ببغداد عاصمة العباسيين[٢٢]، وعلى أثر ذلك أرسل الخليفة العباسي المستضيء بنور الله الخلع الثمينة الى كل من نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي، كان من بـــينها سيفان أحدهما قلّد به الشـــام لنور الدين والثاني مصر لصلاح الدين على أن يكون صلاح الدين نائبه فيها.[٢٣]

توحيد مصر والشام على يد صلاح الدين :

حينما توفي نور الدين زنكي في بلاد الشام لم يترك له خلفاً سوى ابـــن صغير هو الملك الصالح إسماعيل وكان في الحادية عشرة من عمره، فأجمع الأمراء بدمشق بـــعد حـــجاج وصراع طويل على مبايعة الملك الصالح إسماعيل على الرغم من صغر ســـنه[٢٤]، ثم قـــاموا بإرسال كتب التعزية بـــوفاة نور الدين والتهنئة بـــتولي الملك الصالح وذلك لإعلام الأمراء ذوي العلاقة خارج منطقة دمشق لإقامة الخطبة باسم الملك الصالح، فلما وصل كتاب الملك الصالح الى صلاح الدين، جلس للعزاء ثلاثة أيام وفي اليوم الثالث أمر بإقامة الخطبة بـــالديار المصرية للملك الصالح.[٢٥]

حاول الصليبيون بقيادة آموري ملك بيت المقدس انتهاز فرصة وفاة نور الدين للتدخل في شؤون بلاد الشام واحتلال بعض أراضيها، حيث هجموا على بانياس وحـــاصروها في أواخر شوال سنة ٥٦٩هـــ/١١٧٤م فخرج اليهم ابن المقدم وهو قائد العساكر بدمشـــق وهادنهم على أن يقدم لهم مبلغا ضخما من المال وأن يطلق سراح أسراهم.[٢٦]

فلما علم صلاح الدين بشأن المعاهدة استنكرها أشد استنكار وبـــعث إليهم بـــكتاب يطلب الغاءها، الا أن الأمراء بدمشق لم ينقضوا المعاهدة، مما دعا صلاح الدين الى الاستعانة بعلماء الدين لتحريك الرأي العام ضد أولئك الأمراء، كما استخلف أخاه العادل على مصر وانطلق نحو بلاد الشام وكان برفقته سبعمائة فارس، وهو في طريقه اليهم بعث برســـالة الى الخليفة العباسي معلنا فيها أنه إنما خرج لإنقاذ الملك الصالح إسماعيل من أطماع المحيطين به، وللإشراف بنفسه على تربيته وتدبير مُلكه والقـــضاء على الفرقـــة التي أطمعت الفرنجة في بلاده، ولتوحيد ممتلكات نور الدين التي أضحت تمتد من حلب الى اليمن لما في هذا التوحيد من فائدة في تحرير بيت المقدس من الصليبيين.[٢٧]

فلما وصل صلاح الدين الى بصرى الشام، خرج منها الى صلخد وسار معه حـــاكمها الى الكسوة[٢٨] وفيها نظم صلاح الدين أمر دخوله الى دمشق التي وصلها يوم الثلاثاء أواخر ربيع الآخر سنة ٥٧٠هـــ/١١٧٤م[٢٩]، وفيها استقبل استقبالا طيبا، وقد خرج كل من بها

من العسكر إليه لاستقباله، فدخل البلد ونزل دار والده المعروفة بدار العقيقي.[٣٠]

ولما استقر أمره في دمشق ترك فيها أخاه سيف الإسلام طغتكين يحكمها باسم الملك الصالح إسماعيل. وبعد عودته الى مصر ثار الأمراء الزنكيون محاولين استرداد نفوذهم وسلطاتهم في البلاد، لكن صلاح الدين عاد أدراجه الى بلاد الشام وتمكن من التغلب عليهم وأعلن نفسه حاكما على مصر والشام وتخلى عن تبعيته للملك الصالح، كما قام الخليفة العباسي بإرسال الخلع السنية والتشريفات العباسية بالإضافة الى التوقيع من الديوان بالسلطنة على بلاد مصر والشام.[٣١] وبهذا التقليد أصبح صلاح الدين سلطاناً شرعياً بنظر المسلمين ووارثا حقيقيا لدولة نور الدين وجهاده.

صلاح الدين
وإعلان الجهاد العام ضد الصليبيين

الموقف العام بعد إتمام الوحدة:

في الفترة التي كان يسعى فيها صلاح الدين الى توحيد البلاد الإسلامية تحت إمرته بامتلاك مصر وبلاد الشام والجزيرة، اقتصرت سياسته مع الصليبيين على التصدي لهجماتهم على المناطق التابعة له، أو في الإغارة على بعض معاقلهم وحصونهم المتفرقة في المناطق المختلفة والموافقة على مهادنتهم دون الدخول معهم في مواجهة كبيرة وشاملة، ليتم له توحيد القوى الإسلامية والتعبئة الشاملة التي تمكنه من إحراز النصر المؤزر عليهم.

فلما تم له إتمام الوحدة بين المناطق الممتدة من النيل الى الفرات وأتم توحيد قواها وطاقاتها البشرية والمادية تحت إمرته، بلغت قوته ذروتها وبذلك أصبح مرهوب الجانب في داخل البلاد وخارجها على السواء.

ففي الداخل أصبح أمراء المسلمين ومعهم الخليفة العباسي يؤيدونه ويساندونه بكل طاقاتهم بعد أن كسب محبة وثقة الجماهير الإسلامية لقوته وشجاعته وكرم أخلاقه. وفي خارج البلاد الإسلامية استطاع صلاح الدين فرض هيبته، حيث سعت الإمبراطورية البيزنطية الى عقد صلح معه لتنتهي علاقتها العدائية معه.[٣٢]

أما بالنسبة للصليبيين فقد ساءت أحوال بيت المقدس في تلك الفترة بوفاة الملك بلدوين الرابع واعتلاء الملك بلدوين الخامس العرش من بعده الذي ما لبث أن مات، فتلاه غي دي لوزنيان الذي لم يكن على مستوى مسؤولية الحكم مما أدى الى تخبط الصليبيين في مشاكل داخلية.

وبنهاية عام ٥٨٢هـ/١١٨٦م كانت جميع الأمور والظروف قد هيأت لصالح السلطان صلاح الدين الذي كان ينتظر الفرصة المناسبة لإعلان الجهاد العام ضد الصليبيين

ومحاربتهم على الرغم من محافظته على شروط المعاهدة المبرمة بينه وبين ملك القدس سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م.[٣٣] لكن الفرصة الملائمة قد واتته ليتزود بذريعة مناسبة لمحاربتهم عندما نقض أرناط صاحب بارونية الكرك تلك المعاهدة مستغلا موقع حصنه الواقع على خط التجارة بين مصر والشام والحجاز واستولى في سنة ٥٨٢هـ/أوائل سنة ١١٨٧م على قافلة تجارية قادمة من القاهرة الى دمشق، فأخذها بأسرها وأسر جنودها المرافقين وأخذ خيلهم وعددهم وسامهم العذاب.[٣٤]

على أثر سماع صلاح الدين لذلك الأمر، أرسل الى ملك بيت المقدس يذكره بالهدنة المبرمة بينهما وطلب منه إعادة ما سلبه أرناط وفصله، فطلب الملك غي دي لوزنيان من أرناط ذلك لكن أرناط رفض ذلك معتبراً نفسه مستقلا وليس بينه وبين صلاح الدين أية هدنة [٣٥]، فرد الملك على صلاح الدين بعجزه عن فصله أو رد ما سلب. (فنذر السلطان دمه)[٣٦] ودعا صلاح الدين الى إعلان الجهاد العام، وأسرل الى جميع الأطراف والبلاد الإسلامية للتعبئة العامة لجميع القوى الإسلامية من موارد بشرية ومادية للسير لحرب أرناط.

كان صلاح الدين آنذاك بدمشق، فخرج مسرعا الى الجنوب متجها الى قصر السلام القريبة من بصرى، ليمنع اعتداء أرناط على قوافل الحجاج القادمة من مكة والتي قيل أن أخته كانت فيها،[٣٧] وكان ذلك في محرم سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م بعد أن ترك ابنه الأكبر الأفضل عند رأس الماء في حوران والقريبة من دمشق لتتجمع القوات عنده.

تمكن صلاح الدين من منع أرناط وقواته من الاعتداء على قافلة الحجاج، وتوجه بعد ذلك نحو الكرك لمهاجمتها ومشددا الحصار عليها، لكن صلاح الدين لم يتمكن من فتحها بسبب تحصينها الجيد وقلعتها المنيعة، فأمر برفع الحصار عنها وعاد الى رأس الماء في حوران ليلتقي بقوات ابنه الأفضل هناك وقد تجمع اثني عشر ألفا من المقاتلين.[٣٨] ثم خرج صلاح الدين بتلك القوات في يوم الجمعة ١٧ ربيع الآخر سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م وسار بهم الى الأردن ثانية ونزل بثغر الأقحوان وأقام بها خمسة أيام ليعين مواقع القتال ومواقف الأمراء في حين كانت جميع قواته قد أحاطت ببحيرة طبرية.[٣٨]

استعدادات الصليبيين:

عندما علم الصليبيون باجتماع قوات صلاح الدين الأيوبي عند طبرية أدركوا خطته في أنه لا بد قاصدا محاربتهم، فتداعى ملوك وأمراء الصليبيين وقادهم في المنطقة، ووحدوا صفوفهم، وتناسوا أحقادهم وحشدوا جيوشهم في صفورية، وعقدوا اجتماعا للحرب في عكا[٣٩] لبحث الموقف ومناقشة الأمر فيما بينهم.

تحدث ريموند الثالث أمير طرابلس وقدم عرضاً عن قوة المسلمين التي أخذت تتجمع، وقدم خطة عسكرية تقضي بعدم مغادرة قواهم لصفورية نظراً لما تتمتع به من موقع جغرافي ممتاز وبغزارة مياهها حتى في زمن الصيف ولخلو المناطق الأخرى من الماء[٤٠]، كما كان الأمير ريموند يقدر قوة صلاح الدين ويخشى مواجهته.[٤١]

غالبية ملوك وأمراء الصليبيين عارضوا خطة ريموند الثالث، وتوصلوا الى أن خير وسيلة للدفاع هي الهجوم، وقدموا خطة بديلة تقضي بتجميع أقوى وأفضل القوات الصليبية والسير بها نحو طبرية حيث كانت قوات صلاح الدين مرابطة فيها، ومهاجمته والقضاء عليه وعلى قواته.

تمكن الصليبيون من حشد جيش كبير في صفورية، يمثل كافة الممالك والإمارات الصليبية زاد قوامه على خمسين ألف مقاتل وفارس.[٤٢] كما تقرر حضور البطريرك هرقل من مملكة بيت المقدس للاشتراك في الحرب بصحبة الصليب الصلبوت المقدس[٤٣]، الا أن مرضه منعه من الحضور فأرسل الصليب الى أسقف عكا[٤٤]، كما عينوا هيئة لقيادة المعركة مع المسلمين من غي دي لوزنيان ملك بيت المقدس وريموند الثالث أمير طرابلس وأسقف عكا.

ومن خلال دعوة الصليبيين للبطريرك للاشتراك في الحرب بصحبة الصليب الصلبوت يتبين لنا أنهم كانوا يخططون لحرب شاملة ضد قوات صلاح الدين وما تمثله من قوة للمسلمين وأنها لم تكن مجرد معركة عابرة وعادية.

معركة حطين:

بعد أن أصدر الملك غي دي لوزنيان أوامره للجيوش المحتشـــدة في صفورية بالتقـــدم والسير نحو قوات صلاح الدين عند طبرية، تعرضت هذه الجيوش الصليبـــية أثناء ســـيرها شرقا لكمائن المسلمين، كما عانت من وعورة الطريق وحرارة شمس الصيف.

وفي الأول من تموز سنة ١١٨٧م ورد الى مسامع صلاح الدين من عيونه في المنطقـــة بشروع الصليبيين في الزحف إليه، فاطمأن الى نجاح خطته في استدراج الجيش الصليبي إليه وقال: (جاءنا ما نريد ونحن أولو بأس شديد وإذا صحت كسرتهم، فطبرية وجميع الساحل ما دونه مانع ولا عن فتحه وازع). [٤٥]

ترك صلاح الدين قوة صغيرة تحاصر طبرية، وانسحب على رأس قواته نحو خمسة أميال ليرابط غربي طبرية عند قرية حطين، وهي قرية صغيرة تقع في منطقـــة غنية المرعى ووفيرة الماء، وقد حرص صلاح الدين على أن يقف رجاله بحيث يحولون بين الصليبيين والوصول الى الماء في طبرية في وقت اشتد فيه الحر والعطش.

وفي صبيحة يوم الجمعة ٢٤ ربيع الآخر سنة ٥٨٣هـ/٣ تموز ١١٨٧م وصل الجيش الصليبي الى سطح جبل طبرية، وهي منطقة مرتفعة على شكل هضبة ولها قـــمتان أشبـــه بالقرنين مما جعل العرب يطلقون عليها اسم (قرون حطين)، فلما وجد الصليبـــيون أنهم لا يقوون على متابعة السير لشدة الإنهاك والعطش الشـــديدين الذي أصاب جندهم قـــرروا المبيت فوق الهضبة بعيدا عن خطر المسلمين.

وعندما أشرقت شمس اليوم التالي السبت ٤ تموز عام ١١٨٧م [٤٦]، اكتشف الصليبيون أن صلاح الدين استغل عتمة الليل ليضرب الحصار حولهم وقد أحاطت بهم قواته، وبـــدأ بالهجوم على قواتهم الصليبية بعد أن أمر بإشعال النار في الأعشاب والأشواك التي تكســـو الهضبة، وكانت الريح باتجاه الصليبيين فحملت حـــرّ النار والدخان اليهم [٤٧]، وبـــذلك تمكنت قوات صلاح الدين من سحق قواتهم، وإبادة أكبر جيش حشـــده الفرنجة في بـــلاد الشام، وانتهت المعركة باستسلام القادة [٤٨] بمن فيهم ملك بيت المقـــدس غي دي لوزنيان

وأرناط وغيره[٤٩]، وكذلك عدد كبير من البارونات وفرســـان الداوية والإسبـــتارية، و لم يستطيع النجاة من أمراء الصليبيين سوى ريمو ند الثالث أمير طرابلس الذي هرب الى صور في بداية المعركة مع قلّة من رجاله.

بـــعد انتهاء المعركة أدى صلاح الدين صلاة الشـــكر لله على نصره، ومن ثم جلس في خيمته وطلب إحضار ملوك الصليبيين ومقدميهم، وبادر بإعطاء الملك لوزنيان ماء ليشرب بعد أن أنهكه العطش، ثم نهض صلاح الدين نحو أرناط وعدّد عليه إســـاءاته وأفعاله وذكّره بجرائمه ثم ضربه بسيفه وقتله، كما أمر بقتل فرسان الداوية والإسبـــتارية لســـفكهم لدماء المسلمين، بينما طمأن بقية الملوك والأمراء على حياتهم وأمر بنقلهم الى دمشق حيث جرى الاحتياط عليهم.[٥٠]

والحق أن معركة حطين كانت بالنسبة للصليبيين أضخم من كارثة حربـــية، فلم ينتج عنها فقط أسر مليكهم وضياع هيبة ملكهم في فلسطين وحسب، وانما نتج عنها أيضا نقص واضح في الفرسان المحاربين بعد سقوط أفضل فرسانهم بين قـــتلى وأســـرى في هذه المعركة الفاصلة والخالدة.

أما من جهة أخرى فقد كان لانتصار صلاح الدين في معركة حطين صدى بالغ الأثر في نفوس المسلمين عامة، وأهالي دمشق خاصة حيث كانت دمشق في تلك الآونة مركزا ومقرا لقيادة صلاح الدين، وفيها قضاته وكتّابه الذين كانوا طوال أوقات المعركة ســـاجدين لله يدعونه لنصرة صلاح الدين على أعدائه، فلما سمعوا بنبـــأ الانتصار العظيم تهللت وجوههم فرحاً، وتساقطت دموعهم من شدة الفرح، وقد جاء بنص الكتاب الذي أرسله القـــاضي الفاضل من دمشق الى صلاح الدين ما يدل على ذلك (ليهن المولى أن الله قد أقام بـــه الدين القيّم ، وأنه كما قيل أصبحت مولاي ومولى كل مسلم ..... الرؤوس الى الآن لم ترفع من سجودها والدموع لم تمسح من خدودها ...... وللألسنة بعد هذا الفتح شرح طويل وقول جليل....).[٥١]

وبعد أن منّ الله على صلاح الدين بهذا النصر المظفر، أراد تتويج جهاده العظيم بتحرير المدينة المقدسة وطرد الصليبيين منها، الا أنه لم يتجه نحوها مباشرة، وإنما اختار التوجه لفتح

المدن والحصون والقلاع الصليبية المنتشرة على الساحل ضمن خطة تكفل استتراف قواهم وتمنع وصول الإمدادات إليهم من أوروبا.

في يوم الأحد ٢٥ ربيع الآخر سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م توجه صلاح الدين قاصدا طبرية واستولى على قلعتها، ثم تقدم نحو عكا[٥٢] وما أن وصلها حتى خرج إليه أهلها يتضرعون ويطلبون الأمان، فأمنهم على أنفسهم وأموالهم[٥٣]، فكان لهذه السياسة السمحة التي اتبعها صلاح الدين معهم فوائد كثيرة حيث ساهمت في تسهيل مهمة فتح المدن الصليبية الأخرى دون مقاومة تذكر، ثم انطلق لفتح المعاقل القريبة مثل الناصرة ، قيسارية ، حيفا ، صفورية ، الشقيف ، الفولة ، الطور وغيرها من المدن المجاورة[٥٤] منها مدن صيدا وبيروت ومنطقة جبيل[٥٥]، وقرر صلاح الدين أن يكون فتح مدينة صور بعد فتحه لمدينة بيت المقدس، ولذلك أراد التوجه نحو عسقلان لأن أمرها أيسر[٥٦]وفي طريقه الى عسقلان استولى على الرملة وحصن تبنين وبيت لحم والخليل واستسلمت له عسقلان في رجب سنة ٥٨٣هـ /أيلول سنة ١١٨٧م .[٥٦] كما فتح مدن غزة والداروم وأرسوف واللطرون وبيت جبريل، كما زحف العادل أخو صلاح الدين من مصر واستولى على يافا، وبذلك سقطت المدن والحصون الداخلية ما عدا الشوبك والكرك اللتان بقيتا على المقاومة.

وهكذا دخل الساحل برمته تحت امرة صلاح الدين من بيروت الى يافا ما عدا مدينة صور التي دخلها المركيز كونراد دي مونتفرات في ذلك الوقت، وكان شديد القوة كثير الحيلة والمال، فشرع بتحصين المدينة وأمر بتجديد حفر الخندق حولها استعدادا لملاقاة صلاح الدين[٥٧]، خاصة وأن الجيوش الصليبية التي خرجت من مدن الساحل قد تجمعت جميعها في مدينة صور بعد أن ترك لها صلاح الدين حرية الاختيار بين الرحيل الى بيت المقدس أو مدينة صور، فقصد معظمهم صور.

صلاح الدين
وتحرير بيت المقدس

حصار بيت المقدس:

بعد أن تم لصلاح الدين الأيوبي تحقيق النصر المؤزر على الحشود الصليبية في معركة حطين، وأعقبها بسلسلة من الانتصارات عليهم مكنته من إدخال الساحل الشامي برمته تحت إمرته وسلطانه، أراد تتويج جهاده باستعادة بيت المقدس وطرد الصليبيين منها، بعد أن تمكن من استنزاف كامل قواهم مع منعه لوصول أية إمدادات اوروبية اليهم عن طريق البحر. ولما اجتمعت عليه عساكره التي كانت متفرقة في الساحل والمناطق المختلفة، توجه صلاح الدين بقواته نحو المدينة المقدسة التي وصل ظاهرها يوم الأحد ١٥ رجب سنة ٥٨٣هـ/٢٠أيلول ١١٨٧م ونزل الجانب الغربي منها[٥٨]، فأخذت جيوشه مواقعها على مشارف المدينة وفرض حصارا عليها.

بقي صلاح الدين خمسة أيام يطوف حول المدينة لينظر من أين يبدأ القتال لأنها في غاية الحصانة والامتناع و لم يجد موضع قتال إلا من جهة الشمال نحو باب العامود، فانتقل إلى هذه الناحية في يوم الجمعة ٢٠ رجب ٥٨٣هـ[٥٩] الموافق ٢٦ أيلول ١١٨٧م، وأقام الأبراج في مواجهتها ونصب المجانيق، وفي تلك الليلة بدأ بمهاجمة الأسوار حتى تمكن جيشه من الاقتراب كثيرا من سور المدينة ونقّبوه عند باب العامود، واشتبك الفريقان في قتال عنيف ومات خلق كثير من الجانبين.[٦٠]

لما رأى الصليبيون شدة بأس المسلمين في هجومهم، وأصابهم اليأس من تحقيق الانتصار عليهم، أرسلوا رسلهم إلى صلاح الدين يعرضون عليه تسليم المدينة مقابل منحهم الأمان، فرفض صلاح الدين ذلك في بادئ الأمر، ثم عادوا فأرسلوا باليان دي ابلين وهو أحد قادتهم المشهورين وكان يتكلم العربية لمفاوضة صلاح الدين على تسليم المدينة بشروط العفو والأمان التي منحها إلى جميع المواقع الصليبية التي سلمت إليه، لكن صلاح الدين لم يجبه إلى طلبه، بل صمم على فتحها بالسيف قائلا له :(لا أفعل بكم إلا كما فعلتم بأهله حين

ملكتموه سنة إحدى وتسعين وأربعمائة، من القتل والسبي وجزاء السيئة بمثلها).[٦١]

عند سماع باليان لذلك اضطر إلى الكشف عن خطته قائلا:(إذا رأينا الموت لا بـد منه فوا الله لنقتلن أبناءنا ونسـاءنا ونحرق أموالنا وأمتعتنا، ولا نترككم تغنمون منها دينارا ولا درهما، ولا تسبون وتأسرون رجلا ولا امرأة. فإذا فرغنا من ذلك أخربنا الصخرة والمسجد الأقصى وغيرهما من المواضع، ثم نقتل من عندنا أسرى المسلمين وهم خمسة آلاف أسير، ولا نترك لنا دابة ولا حيوانا إلا قتلناه، ثم خرجنا إليكم كلنا نقاتلكم قتال من يريد أن يحمي دمه ونفسه وحينئذ لا يقتل الرجل حـتى يقـتل أمثاله ونموت أعزاء ..... أو نظفر كراما).[٦١]
ثم ناشده باليان قائلا : (امنحنا الأمان نسلمك المدينة دون أن يمسـها أحـد من الطرفين بسوء).

جمع صلاح الدين الأمراء والقادة ورجال الرأي، واتفق المؤتمرون على أن تسلم المدينة صلحا، على أن يرحل عنها الفرنجة اللاتين غير العرب وذلك خلال أربـعين يوما ويحملوا معهم جميع نفائسهم وأموالهم في نظير فدية يدفعونها قدرها عشـرة دنانير للرجل وخمسـة للمرأة وديناران لكل طفل[٦١]، أما الفقراء والشيوخ من الرجال والنساء فقد تقرر إعفاؤهم من الدفع.[٦٢]

الفتح العظيم لبيت المقدس الشريف:

في يوم الجمعة ٢٧ رجب سنة ٥٨٣هـ[٦٣] الموافق ٢ تشرين الأول سنة ١١٨٧م، وفي يوم ذكرى ليلة الإسراء والمعراج الشريفين، عاش العرب والمسلمون أمجد أيام تاريخهم عندما وقّع ملوك وأمراء وقادة الصليبيين على اتفاقية تسليم المدينة المقدسة إلى البطل الفاتح صلاح الدين الأيوبي والرحيل عنها مقابل الأمان.

في ذلك اليوم المجيد تدفقت جموع العرب والمسلمين إلى البطل الفاتح صلاح الدين تقدم له التهاني على النصر، الذي أعاد به للأمة شرفها، وغسل فيه عارها، وبذات اليوم بـدأت جحافل الصليبيين المهزومين بالرحيل مكسورة ذليلة من باب داود، يتقدمهم هرقل بطريرك اللاتين الذي خرج حاملا معه ما استطاع حمله من الذهب والفضة[٦٣] ولم يدفع غير عشـرة دنانير.

ولما أشار العماد الكاتب الى ما حمله البطريرك من التحف والجواهر والمصوغات الذهبية والفضية التي نزعها من كنيسة القيامة، والتي لا ينطبق عليها الاتفاق، أراد صلاح الدين أن يلقن الصليبيين درسا في التسامح والسخاء بأن رد قائلا :(نحن نجيبهم على ظاهر الأمان ونغريهم بذكر محاسن الإيمان).

وبعد أن فتح الله على المسلمين بدخول بيت المقدس انتشر جنود صلاح الدين في شوارع المدينة وأحيائها يحفظون الأمن والنظام، كما رفعت الأعلام الإسلامية على أسوار المدينة. وكان أول عمل قام به صلاح الدين أن ذهب إلى المسجد الأقصى وقبة الصخرة وأزال ما بهما من آثار نصرانية من نقوش وصلبان مرسومة على جدران الصخرة الداخلية، وغسل الصخرة بماء الورد.[٦٤]

وفي يوم الجمعة الثانية لفتح المدينة المقدسة وكان ذلك في ٤ شعبان ٥٨٣هـ[٦٥] الموافق ٩ تشرين الأول ١١٨٧م، أقيمت في المسجد الأقصى أول صلاة للجمعة بعد هذا الاحتلال الطويل، وعلا على المآذن صوت التكبير والتهليل بحضور صلاح الدين الأيوبي وجميع الأجناد والعلماء والمسلمين الذين كانوا في المدينة، فتقدم صلاح الدين من الإمام القاضي محي الدين محمد بن زكي الدين علي القرشي وطلب منه أن يخطب أول خطبة لأول صلاة الجمعة تقام في المسجد الأقصى بعد فتح بيت المقدس، كما ألبسه العماد الكاتب جبة سوداء من تشاريف الخلافة العباسية.[٦٦] وفيما يلي أذكر بعض ما ورد في نص تلك الخطبة:

(....فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين وصدق الله العظيم .... أيها الناس ابشروا برضوان الله الذي هو الغاية القصوى والدرجة العليا لما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالة من الأمة الضالة، وردها الى مقرها من الإسلام بعد ابتذالها من أيدي المشركين قريبا من مائة عام ......وهو (أي بيت المقدس) موطن أبيكم إبراهيم، ومعراج نبيكم محمد عليهما السلام وقبلتكم التي كنتم تصلون اليها في ابتداء الإسلام، وهو مقر الأنبياء .... وهو أول القبلتين، وثاني المسجدين، وثالث الحرمين، لا تشد الرحال بعد المسجدين الا إليه ....جددتم للإسلام أيام القادسية والوقعات اليرموكية والمنازلات الخيبرية والهجمات الخالدية .... أليس هو البيت الذي أمر الله تعالى موسى أن يأمر قومه باستنقاذه

فلم يجبه الا رحلان، وغضب عليهم من أحله، وألقـاهم في التيه عقوبـة العصيان ؟.... فاحفظوا – رحمكم الله – هذه الموهبة فيكم، واحرسوا هذه النعمة عندكم بتقوى الله التي من تمسك بها سلم، ومن اعتصم بعروبتها نجا وعصم، واحـذروا من اتبـاع الهوى ..... وإياكم أن يستـذلكم الشـيطان وأن يتداخلكم الطغيان، فيخيّل اليكم أن هذا النصر بسـيوفكم الحداد، وبخيولكم الجياد وبجلادكم في موضع الجلاد، والله ما النصر الا من عند الله، إن الله عزيز حكيم ...واحذروا عباد الله بعد أن شرفكم الله بهذا الفتح الجليل أن تأتوا عظيما من معاصيه، فتكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قـوة انكاثا..... والجهاد الجهاد، فهو أفضل عباداتكم وأشرف عاداتكم، انصروا الله ينصركم ... جدوا في حسـم الداء، وقطع شأفة الأعداء، وتطهير بقية الأرض التي أغضبت الله ورسوله، واقطعوا فروع الكفر واجتثوا أصوله ... واعلموا رحمكم الله أن هذه فرصة فانتهزوها ومهمة فاخرجـوا اليهـا هممكم وأبرزوها .....(إن يكن منكم عشـرون صابـرون يغلبـوا مائتين) صدق الله العظيم..) [٦٧]

مكث صلاح الدين في مدينة بيت المقدس ثمانية وعشرين يوما، عهد خلالها بـإدارة المدينة إلى أخيه العادل أبو بكر سيف الدين فاتخذ هذا دير القديسة مريم على جبل صهيون دارا للحكم ونزلها هو وجنده. [٦٨]

وبدخول المسلمين إلى المدينة المقدسـة عاد إليها طابـعها العربي الإسـلامي الأصيل واستتب الأمن فيها والسلام، الأمر الذي ترتب عليه نشاط وازدهار واضحـين في الحياة الاقتصادية للمدينة حيث قصدها الزوار من مختلف البلاد، وغدا المسـجد الأقـصى مرة أخرى مقصد العلماء والفقهاء والمحدثين ورجال الدين من المعلمين والمتعلمين، كما بقي في المدينة المقدسة المسيحيون الأرثوذكس واليهود.

ولما وصل إلى مسامع الإمبراطور البيزنطي اسحاق أنجيلوس أنباء انتصار صلاح الدين هنأه وطلب منه إعادة الأماكن المقدسة المسيحية إلى الكنيسة الأرثوذكسية، فاسـتجاب صلاح الدين لطلبه ووافق على تسليم كنيسة القيامة للأرثوذكس، وفي مقابـل ذلك وافق البيزنطيون على وصاية صلاح الدين على الجالية الإسـلامية في القسـطنطينية[٦٧]، فعمل

الأخير على إرسال الخطباء والمؤذنين والقراء إلى مسجد المسلمين هناك.

بعد أقل من عام على خروج الصليبيين مهزومين من المدينة المقدسة، حاولوا الغدر بصلاح الدين، ففي ليلة من شهر شوال من عام ٥٨٤هـ/١١٨٨م قام الصليبيون بمهاجمة قلعة (كوكبة) المطلة على مدينة طبرية، والتي كان صلاح الدين قد فتحها قبل فتح بيت المقدس وسلمها للأمير سيف الدين، فتمكنت القوات الصليبية التي تدفقت على القلعة الحصينة من كل جانب من اقتحامها وقتل كل من فيها. [٧٠]

لما جاء الخبر لصلاح الدين عظُم عليه الأمر كثيرا، فولى على إدارة المدينة المقدسة أحد قادته الأمير حسام الدين ساروج التركي [٧١] وتوجه ومعه أخوه العادل من القدس إلى قلعة كوكبة التي عاود الصليبيون تحويلها إلى حصن منيع، فقاتل قواهما أشد قتال، وبقي صلاح الدين ملازما الحصن بالرمي حتى هدم معظم بنائه، وبذلك تمكنت قواته من استرجاع الحصن وإخراج الفرنجة منه وغنم أموالهم وسلاحهم، وبعد أن ولى عليها قايماز النجمي وهو أحد رجاله الأشداء تحول إلى أرض بيسان ثم سار ومعه أخوه العادل إلى القدس وصلى في الصخرة ونحر الأضحية شكرا لله على نصره. [٧٢]

وبفتح المسلمين لمدينة بيت المقدس أصبحت معظم المدن في شمال الشام في أيديهم، و لم يبق من مملكة بيت المقدس في أيدي الصليبيين غير مدينة صور وبعض القلاع التي لم يتمكن صلاح الدين من فتحها حيث كان رجاله قد أصابهم التعب بعد الحروب الطويلة.

الحملة الصليبية الثالثة:

غضب الغرب كله لسقوط مدينة بيت المقــدس في أيدي المســلمين، فأراد الفرنجة أن يحتفظوا بوجودهم على أرض فلسطين، فعملوا على جمع الأموال والرجال في سبيل استرداد المدينة المقدسة، فكانت الحملة الصليبية الثالثة بــزعامة فريدريك بربروســا إمبراطور ألمانيا وفيليب أغسطس ملك فرنسا وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا.

حشد الصليبيون جيوشهم وأساطيلهم على مشارف الشام وسواحل فلسطين، وتمكنوا من دخول مدينة عكا في شهر تموز من عام ١١٩١م[٧٤] إثر غدرهم ونقضهم لاتفاق كان قد تم عقده مع أهل عكا يقضي بالسماح لحاميتها بالخروج من المدينة مقابل فدية قــدرها مائتا ألف دينار وتحرير ألفين وخمسمائة من أسرى الصليبيين فضلا عن رد صليب الصلبوت.[٧٤] لكنهم نقضوا شروط الصلح (فأسروا من فيها من المسلمين وكانوا ألوفاً).[٧٥] فأثار دخول الصليبيين إلى مدينة عكا موجة من الحزن والأسى لدى كافة المسلمين في مشــارق الأرض ومغاربها.

على أثر احتلالهم لمدينة عكا فكر ريتشارد في استرداد الشاطئ الفلسطيني من عكا حتى عسقلان، فبدأ زحفه في أوائل آب من عام ١١٩١م بمحاذاة الساحل وكانت تسانده السفن الحربية من جهة البحر، ولما علم صلاح الدين بهذه التحركات الصليبيــة رحــل في أثرهم وانقضّت قواته على مؤخرة الجيش الصليبي قرب عكا واستمرت الاشتباكات بين الطرفين، لكن الصليبيون استمروا في زحفهم واستولوا في طريقهم على حــيفا التي أخلتها حــاميتها الإسلامية، ثم استأنفوا زحفهم نحو قيسارية واســتولوا عليها في نهاية آب ١١٩١م حــيث وجدوها مخربةً تماماً، ثم اتجهوا إلى أرسوف وهناك طلب ريتشارد من صلاح الدين فتح باب المفاوضات.

تظاهر صلاح الدين بقبول التفاوض ريثما تصله الإمدادات من القوات التركية، وأناب أخاه الملك العادل في مفاوضتهم[٧٦]، وهنا أصر الملك ريتشارد على طلبه بإعادة مملكة بيت المقدس إلى سابق حدودها قبل حــطين قــائلا: (القــاعدة أن تعود البــلاد كلها إلينا)

فرفض العادل[٧٧]، وهكذا عاود الطرفان القتال في موقعة أرسوف في شهر أيلول من عام ١١٩١م[٧٨] تم النصر فيها للصليبيين، فكان لانتصارهم هذا نتائج عميقة الأثر فقد بعثت لديهم من جديد الشعور بالثقة بعد الهزائم التي توالت عليهم بعد معركة حطين. أما المسلمون بعد تلك المعركة عملوا على إخلاء مدينة عسقلان واتجه صلاح الدين إلى بيت المقدس للإشراف على الدفاع عنها لعلمه أنها غاية الصليبيين ومقصدهم، وفي طريقه مرّ بالرملة فخرب تحصيناتها كما خرب اللد.[٧٩]

وفي نهاية شهر تشرين الأول من عام ١١٩١م تحركت جيوش ريتشارد من يافا إلى اللطرون في طريقهم إلى بيت المقدس[٨٠]، وعندما علم صلاح الدين اتجاه ريتشارد نحو اللطرون أسرع إلى هدمها واتجه مسرعا نحو بيت المقدس لتقوية استحكاماتها وإعدادها للدفاع (فوقع الاهتمام في عمارة سور بيت المقدس وحفر الخندق).[٨١] وكان صلاح الدين يشارك بنفسه ومعه أولاده وأجناده والقضاة والعلماء والفقهاء في تجديد السور حتى اطمأن إلى قوة تحصين المدينة، كما عمد إلى إفساد المياه الموجودة في ظاهر القدس بحيث لم يبق حول القدس ما يشرب أصلاً.[٨٢] كما أخذ صلاح الدين يعمل من أجل رفع الروح المعنوية للمقاتلين ودفعهم للقتال بحزم وقوة عن طريق تذكيرهم باليوم الآخر والجهاد في سبيل الله، وقام بتعيين الأمراء وتسليمهم مهمة الدفاع عن أبراج سور المدينة وحمايتها.[٨٣]

تمكن ريتشارد من احتلال اللطرون، فملأ الفرح قلوب الصليبيين لاقترابهم من المدينة المقدسة، إلا أن ريتشارد عارض بشدة حصار مدينة بيت المقدس لعلمه بقوة تحصينها وبسبب الطقس الحار الذي كان شديدا في ذلك الوقت من السنة، كما أن البدو والأعراب أخذوا يغيرون على مؤخرة الجيش الصليبي[٨٤] ويقطعون عليه خطوط مواصلاته وإمداداته، ومن أجل ذلك دعا الملك ريتشارد إلى عقد المفاوضات مع المسلمين وناب فيها العادل عن أخيه صلاح الدين.[٨٥]

على الرغم من فشل المفاوضات بين الطرفين أرسل ريتشارد إلى صلاح الدين كتاب جاء فيه: (إن المسلمين والفرنجة قد هلكوا، وخربت البلاد وتلفت الأموال والأرواح وقد أخذ هذا الأمر حقه، وليس هناك حديث سوى القدس والصليب، والقدس متعبدنا ما نترل

عنه ولو لم يبق منا واحد، وأما البلاد فيعاد إلينا ما هو قاطع الأردن، وأما الصليب فهو خشبة عندكم لا مقــدار له، وهو عندنا عظيم، فيمُن الســلطان علينا ونســتريح من هذا العناء الدائم).[٨٦]

فجاءه رد صلاح الدين (القدس لنا كما هو لكم، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم، فإنه مسرى نبينا ومجتمع الملائكة، فلا يتصور أن نترل عنه، ولا نقدر على التلفظ بــذلك بــين المسلمين، أما البلاد فهي لنا في الأصل، واستيلاؤكم كان طارئاً عليها لضعف من كان بها من المسلمين في ذلك الوقت، وأما الصليب فهلاكه عندنا قربة عظيمة، ولا يجوز لنا أن نفرط فيه إلا لمصلحة راجعة إلى الإسلام هي أوفى منها).[٨٦]

في تلك الفترة أصبح الملك ريتشارد الزعيم الأوحد للصليبيين وخصوصا بــعد مقــتل المركيز كونراد دي مونتفرات في ١٣ ربيع الآخر سنة ٥٨٨هــ[٨٧]وانضمام أتباعه لقــوات ريتشارد الصليبية. ونتيجةً لفشل المفاوضات بين الصليبيين والمسلمين قرر الصليبيون السير نحو بيت المقدس لتخليصها من أيدي المسلمين في حين كان صلاح الدين قد أنهى استعداداته للدفاع عن المدينة وقد اجتمعت عليه العساكر من مختلف الأطراف والنواحي لمســاندته في دفاعه عن المدينة المقدسة.

لكن في صبيحة يوم السبت ٢١ جمادى الثاني / ٤ تموز ١١٩٢م وردت الأخبار الطيبة إلى مسامع صلاح الدين تفيد بأن الصليبيين مختلفون فيما بينهم[٨٨]وأنهم قرروا الرحــيل عن القدس دون مهاجمتها، وتم انسحابهم إلى مدينة الرملة في أواخر تموز من عام ١١٩٢م.

صلـح الرملـة:

في أواخر تموز من عام ١١٩٢م أتم الصليبيون انسحابهم من أمام أسوار بيت المقدس إلى مدينة الرملة بعد فشلهم في الاتفاق على مهاجمة المدينة والاستيلاء عليها. ومن هناك من مدينة الرملة بعثوا الرسل إلى صلاح الدين طالبين الصلح معه، ومع أن صلاح الدين كان كارها لعقد مثل هذا الصلح مع الصليبيين، إلا أنه وجد نفسه بحكم الظروف المحيطة به مرغما عليه، وقد أسر إلى صديقه وجليسه القاضي بن شداد بقوله له :(متى صالحناهم لم تؤمن غائلتهم، فإني لو حدث لي حادث الموت ما تكاد تجتمع هذه العساكر، ويقوى الفرنجة، والمصلحة ألا نزال على الجهاد حتى نخرجهم من الساحل، أو يأتينا الموت).[٨٨] ويعلق ابن شداد قائلا : (هذا كان رأيه وإنما غلب على الصلح).

وفي ٢٢ شعبان سنة ٥٨٨هـ/٢ أيلول ١١٩٢م تم صلح الرملة[٨٩] بين الملك ريشارد قلب الأسد ملك إنجلترا وبين السلطان صلاح الدين، وقد نص الصلح على أن يكون للصليبيين المنطقة الساحلية من صور إلى يافا بما فيها قيسارية وحيفا وأرسوف، وأن تكون عسقلان للمسلمين في حين تكون الرملة واللد مناصفة بين المسلمين والصليبيين.[٩٠]

أما بخصوص الأماكن المقدسة المسيحية فقد نصت الاتفاقية على أن يكون للمسيحيين حرية الحج إلى بيت المقدس دون مطالبتهم بأية ضريبة، كما أعلن صلاح الدين في الوقت نفسه (أن الصلح قد انتظم، فمن شاء من بلادهم أن يدخل بلادنا فليفعل، ومن شاء من بلادنا أن يدخل بلادهم فليفعل).[٩١] أما مدة الصلح فقد اتفق على أن تكون ثلاث سنوات وثلاثة أشهر، وهي المدة التي أجمعت عليها مختلف المصادر التاريخية.

وهكذا عقد السلطان صلاح الدين هذا الصلح وهو واضع نصب عينيه بعض الأمور الهامة منها أنه رأى في تلك الهدنة مصلحة للمسلمين حيث أصابهم الضعف والوهن بعد كثرة الحروب وقلة الموارد وشوق المجاهدين الى أوطانهم وعائلاتهم. كما أنه ساوم الفرنجة على الأرض المحتلة شبراً شبرا حتى اللحظة الأخيرة. كما أنه ترك الفرنجة في المنخفضات الساحلية بحيث لا يكون لهم شأن في المناطق الجبلية المرتفعة. فقوبل صلح الرملة بارتياح

شديد من قبل المسلمين والمسيحين على السـواء، وهذا الصلح انتهت سلسـلة الحروب الطويلة بين صلاح الدين والصليبيين على أرض فلسطين بعد أن دمرت البـلاد وخربـت وكلفت المتحاربين الأموال والأرواح.

يقول المؤرخ العربي المقريزي (كان يوم الصلح يوما مشـهودا عمّ فيه الطائفتين الفرح والسرور لما نالهم من طول الحرب).[٩١]

بعد الصلح أخذ النشاط يدب في مدينة بيت المقدس من جديد، حيث يقـول المؤرخ العربي أبو شـامة عن الموقـف غداة صلح الرملة: (اختلط العسـكران وذهب جماعة من المسلمين إلى يافا في طلب التجارة ووصل خلق عظيم إلى القدس للحج، وفتح لهم السلطان الباب لذلك ونفذ معهم الخفراء يحفظوهم حتى يردوهم إلى يافا.)[٩٢]

وفي ٩ تشرين الأول عام ١١٩٢م غادر ريتشارد قلب الأسد عن طريق البحر عائدا إلى الغرب الأوروبي.[٩٣]

وهكذا كان الاختلاف كبيراً بين مملكة الصليبين في فلسطين وعاصمتها بيت المقدس، والتي كانت تمتد من شرقي الأردن إلى البحر الأحمر ثم إلى البحر الأبيض لتشمل الساحـل الشامي بأكمله، وبين مملكة تمتد على الشريط الساحلي لفلسطين فقط وعاصمتها عكا.

وتجمع مختلف المصادر التاريخية على أن هذه المملكة ولدت هزيلة دون ركائز ثابـتة تدعم وجودها في المنطقة، حيث تحول الصليبيون فيها من مرحلة الهجوم إلى الدفاع، إضافة إلى أن التجار الإيطاليين الذين احتفظوا بمراكز قوية لهم في موانىء فلسطين صارت لهم كلمة نافذة في توجيه سياسة المملكة الصليبية في عكا[٩٤]، مما جعل طابعها تجاري واقتصادي أكثر مما هو ذو طابع سياسي وحربي، إضافة الى أن الفرنجة أنفسهم لم يحاولوا الانخراط والاندماج مع السكان العرب المحليين بسبب نظرتهم الاستعلائية مما أبقاهم منعزلين تماما عن أصحاب الأرض وسكانها الأصليين، كما لم يُقِم الفرنجة الصليبيون أية مؤسسات تعليمية أو حضارية

أو ثقافية تعمل على صهر مجتمعهم المؤلف من عناصر إفرنجية مختلفة في بوتقة واحدة تجمعهم وتوحد أفكارهم وأهدافهم لتثبت دعائم وجودهم وبقائهم، لذا أدت هذه الأسباب و كثير غيرها الى ضعفها وسرعة زوالها عن الوجود بعد أن استمر حكمهم في تلك المملكة مائة عام أخرى.

أما صلاح الدين وبعد توقيعه على صلح الرملة سنة ٥٨٨هـ/١١٩٢م ولّى الأمير عز الدين جرديك على مدينة بيت المقدس[٩٥]، ورحل عنها متجها إلى دمشق وكان يحبها كثيرا ويؤثر الإقامة فيها على سائر البلاد[٩٦]، وظل مقيما فيها إلى أن توفي في شـــهر آذار ســـنة ١١٩٣م ودفن في قلعة دمشق، ثم نُقل رفاته إلى شمال الجامع الأموي في دمشق، وكان عمره سبعا وخمسين سنة وترك من الأولاد سبعة عشر ذكراً وبنتاً واحـــدة صغيرة، و لم يخلف في خزانته سوى سبعة وأربعين درهماً.

آثار صلاح الدين ومؤسساته

في بيت المقدس

عندما فتح صلاح الدين الأيوبي مدينة بيت المقدس بعد ٨٨ عاما من الاحتلال الصليبي، كانت المدينة قد فقدت طابعها العربي الإسلامي الى حد بعيد، كما لم يكن هناك في المدينة المقدسة أية مؤسسات إسلامية من أي نوع. حتى المسجدان الكبيران قبة الصخرة والمسجد الأقصى حولا إلى كنائس ومنازل للفرسان الإسبتارية وفرسان الداوية وإسطبلات لخيولهم. وفي ذلك يقول المؤرخ المقدسي د. كامل العسلي (كانت مهمة صلاح الدين الأولى في القدس عقب الفتح، مهمة ذات شقين :إعادة الطابع العربي الإسلامي الى المدينة، وفي الوقت نفسه الدفاع عن المدينة إزاء محاولات الصليبيين إعادة الاحتلال).[٩٧]

ففي سبيل إعادة الطابع العربي الإسلامي الى المدينة كان أول عمل قام به صلاح الدين بعد فتحها مباشرة أن بادر الى إعادة القدسية لأهم معلمين إسلاميين لا في القدس وحدها وإنما في العالم أجمع، وهما قبة الصخرة والمسجد الأقصى التي انتهك الصليبيون المحتلون حرمتهما وقدسيتهما. كما سعى الى إعادة السكان المسلمين الى المدينة وإسكان عدد من القبائل العربية فيها، فقد حدثنا المؤرخ المقدسي عارف العارف أن صلاح الدين أسكن قبيلة بني حارث خارج المدينة قرب قلعة داود، وأسكن بني مرة شمالي غرب المدينة، كما أسكن بني سعد في حارة السعدية، وبني زيد قرب باب العامود.[٩٨]

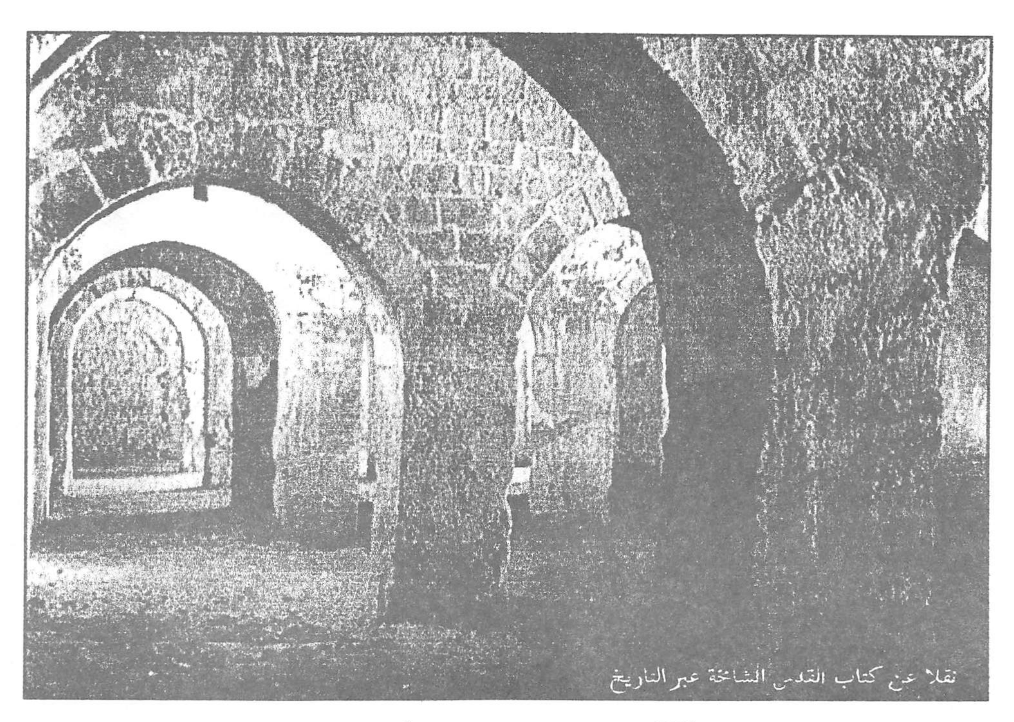
وأما في سبيل الدفاع عن المدينة، فكانت من أوائل الأعمال التي أهتم بها صلاح الدين هو تحصين المدينة، وتمثل ذلك في حفر خندق عميق، وإنشاء وتعمير سور المدينة، وإقامة أبراج حربية عليه من باب العامود حتى باب الخليل، وأنفق على ذلك أموالاً كثيرة، ويذكر لنا المؤرخون أن صلاح الدين كان يحمل الأحجار بنفسه ويشارك العمال في البناء والتعمير.[٩٩]

وقبل الحديث عن المؤسسات الجديدة التي أقامها وأنشأها صلاح الدين في المدينة المقدسة، لابد من الإشارة الى أهم التعميرات التي تمت على المعلمين المقدسين وهما المسجد الأقصى وقبة الصخرة المشرفة.

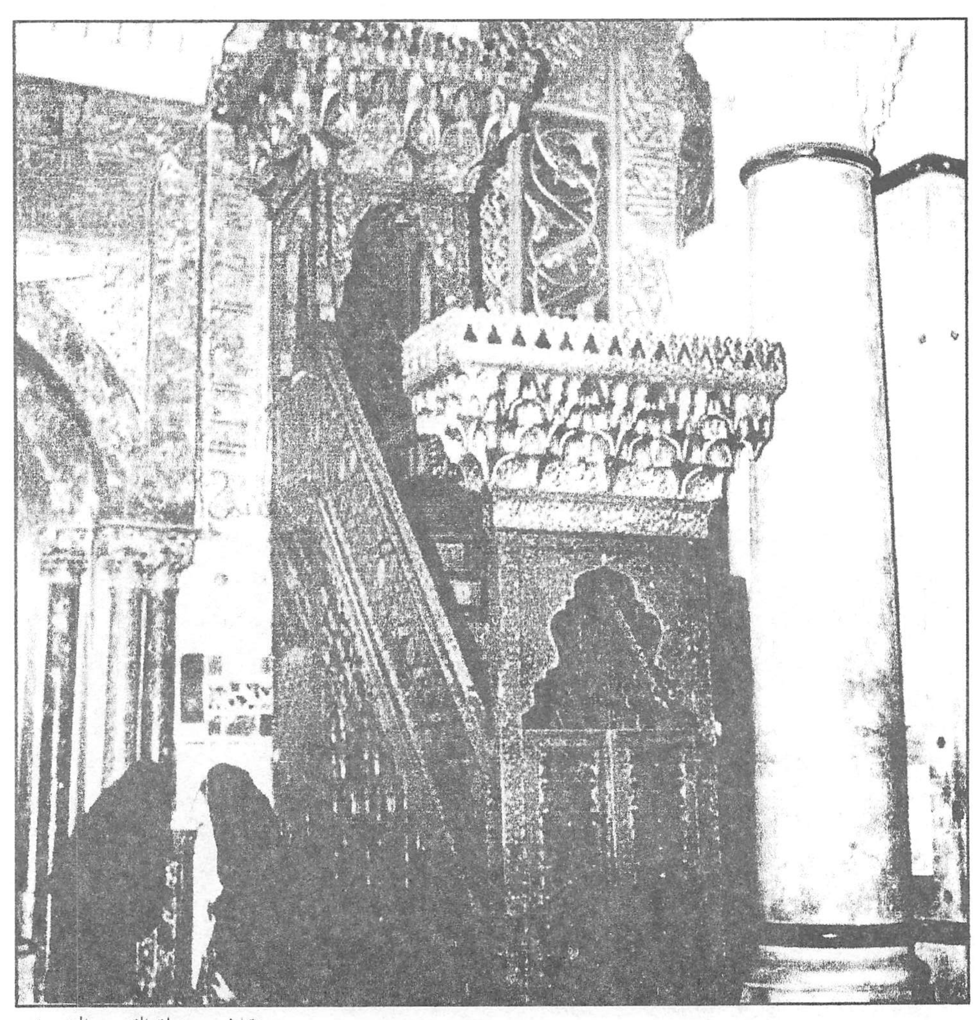
المسجد الأقصى الشريف:

كان الصليبيون قد منعوا المسلمين من أداء شعائرهم الدينية فيه، وغيروا الكثير من معالمه، واتخذوا جانباً منه كنيسة والجانب الآخر مسكنا لفرسان الداوية، وأضافوا إليه من الناحية الغربية بناءا جديدا جعلوه مستودعا لذخائرهم[١٠٠]، وأما السراديب القديمة التي كانت تحت المسجد فقد اتخذوها إسطبلا لخيولهم.[١٠١]

فلما تم لصلاح الدين تحرير الأقصى من الغزاة المحتلين، أمر بإصلاحه وترميمه وإعادة البناء إلى ما كان عليه قبل الاحتلال، وكسا قبة المسجد بالفسيفساء[١٠٢]، كما أمر بترخيم المحراب، وأتى بالمنبر الخشبي المرصع بالعاج والأبانوس الذي أمر نور الدين محمود بن زنكي بصنعه في حلب عام ٥٦٤هـ/١١٦٨م[١٠٣]، ووضعه في المسجد الأقصى رمزا للنصر، كما أزال ما كان أحدثه فرسان الداوية والإسبتارية من تغييرات في المسجد الأقصى، فعاد إلى ما كان عليه.[١٠٤]


نقلا عن كتاب القدس الشامخة عبر التاريخ

١٣ سراديب المسجد الأقصى



نقلا عن مجلة القدس الشريف

١٤ منبر صلاح الدين قبل حرقه

قبة الصخرة المشرفة:

كان الصليبيون قد حولوا قبة الصخرة إلى كنيسـة أسموها TEMPLUM DOMINI وانشئوا على الصخرة نفسها مذبحا، كما وضعوا حول الصخرة سياجا من الحديد المشبك، وكسوا الصخرة بالرخام ونصبوا فوقها صليبا كبيرا[105]، فسارع صلاح الدين بـعد الفتح مباشرة إلى إزالة الكنيسة بما فيها من المذبح والصور والتماثيل من داخلها، كما أمر بـإزالة البناء الذي أقامه الصليبيون فوق الصخرة، وأمر بقلع الصليب الكبير من فوقها[105]، ورتب لها إماما ووقف عليه داراً وأرضاً.[106]

هذا وقد بنى القائد صلاح الدين في ساحة الحرم القدسي الشريف القبة المعروفة بقبـة يوسف سنة ١١٩١م، كما أمر بنقل المصاحف الشريفة إلى قبة الصخرة والمسجد الأقصى، كما كان يشارك العلماء في مجالسهم فيهم.[107] وبذلك أعاد إلى هاتين المؤسستين الدينيتين العريقتين نشاطهما القديم في خدمة الدين والعلم.

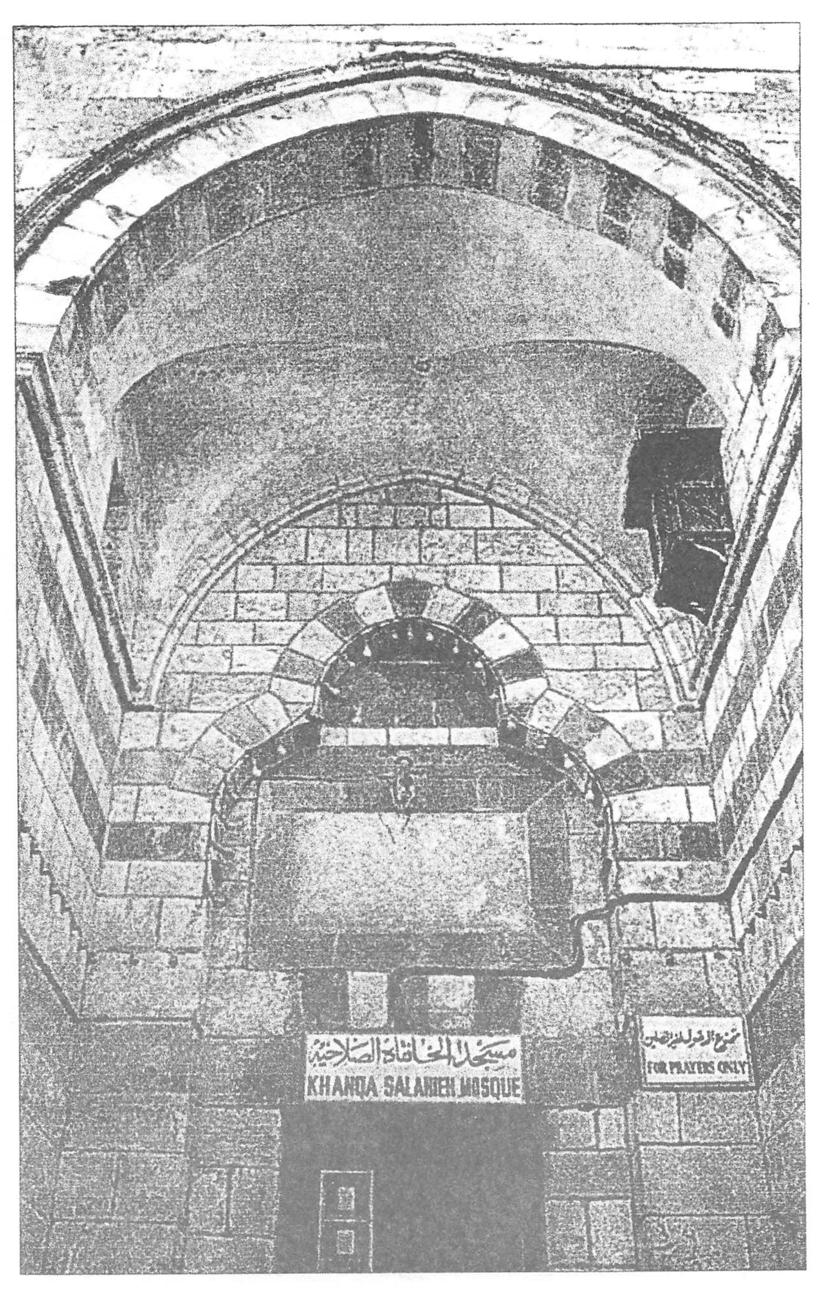
بعد ذلك مضى السلطان صلاح الدين قدماً في بناء مؤسسات جديدة في المدينة خلال السنوات الست التي بدأت مع فتح بيت المقدس سنة ١١٨٧م وانتهت بوفاته سنة ١١٩٣م. ومن أهم المؤسسات التي أقامها هي:

١ – الخانقاة الصلاحية:

(**الخانقاة**: كلمة فارسية تطلق على المباني التي كانت تقـام لإيواء أهل الصوفية الذين يحلّون بها للعبادة.)

والخانقاة الصلاحية هي أقدم خوانق القـدس المعروفة، وصلاح الدين الأيوبي هو أول من أحدث الخوانق في بلادنا فلسطين، حيث كانت الخانقاة الصلاحـية في الأصل تعرف بـ(دار البطرك) القريبة من كنيسة القيامة، لكن صلاح الدين أمر بتحويل هذا المبـنى إلى خانقاة سنة ١١٨٧م، إلا أن وقفية الخانقاة مؤرخة في سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م.[108]

وقد وقفها صلاح الدين على (السادة المشايخ الصوفية الشيوخ والكهول والشبـان



نقلا عن كتاب كنوز القدس

١٥ مسجد الخانقاة الصلاحية/ واجهة أمامية

البالغين المتأهلين والمجردين من العرب والعجم).[109] وكان من شروط السكن في الدار الاجتماع في أوقات محددة لقراءة القرآن الكريم وكلام الأئمة الصوفية، والدعاء للواقف المحبس المذكور (صلاح الدين) وللمسلمين أجمعين.[109] وفي مقابل ذلك كان أهل الصوفية يقيمون في الدار ويأكلون مجاناً من ريع وقف الخانقاة، وكان صلاح الدين قد وقف لها أوقافاً شاسعة للإنفاق عليها، تضم عدة عقارات في حارة البطرك (حارة النصارى اليوم) بما فيها طاحونة وفرن ودور وإسطبل والبركة المعروفة حتى يومنا هذا باسم بركة البطرك وحوانيت مجاورة لها، وبظاهر القدس أراضي البقعة وبركة ماملا.[110]

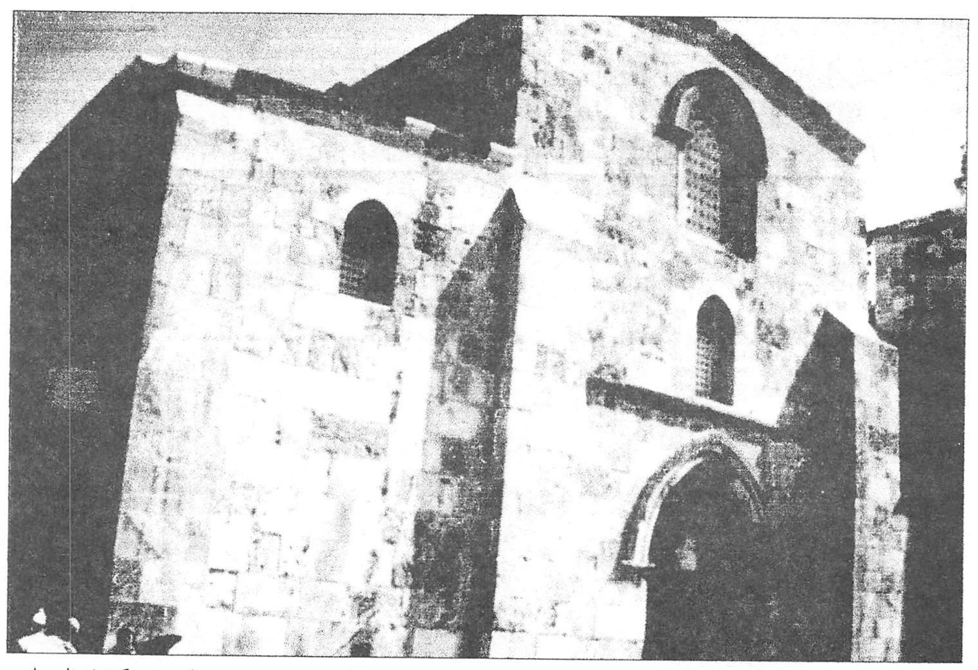
كانت الخانقاة الصلاحية من مراكز الصوفية الكبيرة في بيت المقدس، يقيمون فيها للصلاة والاذكار ويدرسون بها، وكانت مشيختها من المناصب الدينية الرفيعة بمدينة القدس، وكان شيخها يعين بمرسوم من السلطان يتلى في حفل يحضره ناظر الحرمين الشريفين ونائب السلطان والقضاة.[111] وكان أول من تولى مشيخة الخانقاة الصلاحية الشيخ غانم بن علي بن حسين الأنصاري الخزرجي[111]، وتوارث المشيخة من بعده كثيرون من بني غانم، أشهرهم الشيخ برهان الدين ابراهيم بن غانم الذي تولى مشيخة الخانقاة سنة ٧٩٨هـ فعمّرها وأقام نظامها وعمّر مئذنتها، وهي مئذنة جميلة مربعة الشكل على طراز المآذن المملوكية عامة، وكان تعميرها بين سنتي ٧٩٨ هـ و ٨٣٦ هـ وهي فترة تولي الشيخ برهان الدين للخانقاة الذي توفي سنة ٨٣٩ هـ بالقدس.[111] وفي خلال القرن التاسع الهجري الموافق للخامس عشر الميلادي ومن بعده تعاقب على الخانقاة شيوخ من أفراد بني جماعة (الخطيب حالياً).[112]

ولا يزال مبنى الخانقاة قائما حتى يومنا هذا على بعد أمتار قليلة من كنيسة القيامة، وبوابة الخانقاة التي تطل على طريق الخانقاة قبل التقائها بطريق حارة النصارى بقليل هي بوابة جميلة من أجمل البوابات في مدينة القدس، أما أجزاء الخانقاة فتتمثل في مسجد صغير بني حديثا في صدرها، وفي الطابق الثاني يوجد إيوان كبير، أما باقي الأجزاء فهي مساكن أكثرها خال الآن وبحاجة ماسة إلى التعمير والترميم، ويقوم على أمر الخانقاة حاليا آل العلمي كما كانوا يفعلون منذ مئات السنين.[112]

٢- المدرسة الصلاحية:

وهي أشهر مدارس القدس الإسلامية وأطولها عمراً، وقد ظلت مدرسة زهاء ستة قرون من سنة ٥٨٨هـ/١١٩٢م حتى أواخر القرن الثاني عشر الهجري الموافق للثامن عشر الميلادي.[١١٢]

كان صلاح الدين قد قرر إنشاء هذه المدرسة والخانقاة سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م[١١٣]، وقد أسسها صلاح الدين الأيوبي في كنيسة تعرف باسم كنيسة القديسة حنة.[١١٤]



من وثائق د. كامل العسلي

١٦ المدرسة الصلاحية

وتقع هذه المدرسة داخل سور القدس وعلى بعد قليل من باب الأسباط شمال الطريق التي تعرف باسم طريق المجاهدين. لكن المدرسة لم يتم افتتاحها فعلاً إلا بعد مضي خمس سنوات، وذلك كما يدل النقش الماثل على بابها الرئيسي، وقد بدأ التدريس فيها في تلك السنة أيضاً.[١١٤]

أما مشيخة الصلاحية فقد كانت من الوظائف السنية بمملكة الإسلام، وشـرطها أن تكون لأعلم علماء الشافعية في بـلاد العرب وعلوفتها كل يوم مثقـال من الذهب[١١٥]، وكان شيخ الصلاحية يعين بتفويض من السلطان، كما كان أحد ثلاثة أشـخاص يتولون السلطة الفعلية بالقدس إلى جانب نائب السلطان وناظر الحرمين الشريفين. وكثيراً ما كان يعهد إلى قاضي الشافعية بتولي هذا المنصب الكبير، كما كان شيخ الصلاحية كثيراً ما يجمع بين وظائف القضاء وتدريس الصلاحية وخطابة المسجد الأقصى.[١١٦]

كان مدرسو الصلاحية من العلماء الكبار في زمانهم وذوي التأليف، فكان منهم علماء من أهل القدس وآخرون قدموا إليها من مختلف البلدان الإسلامية. وهكذا تعاقـب على مشيختها أجلاء الشيوخ وكان أول من تولى مشيختها القاضي بهاء الدين أبو المحاسن بـن تميم.[١١٦] أما الدروس التي كانت تلقى فيها كانت تشـمل علوم الدين، اللغة العربـية، التاريخ والرياضيات.

وضع صلاح الدين الأساس المادي لنمو المدرسة وازدهارها بالأوقاف السـخية التي وقفها عليها، واشترط في وقفيته أن تكون أوقاف المدرسة على الفقهاء المشتغلين بالفقـه الشافعي. ومن جملة الأوقاف التي وقفها على المدرسة قرية سلوان وقرية القسطل، وقرية صوبا، وأرض الجسمانية، وبستان بير أيوب، و٨١ دكاناً في سوق العطارين، و١٢ دكاناً بباب حطة، ودكاناً بباب السلسلة، وحمام بـاب الأسبـاط، وفرناً ببـاب حطة وغير ذلك.[١١٦]

وفي خلال ٦٠٠ عام التي ظلت فيها مدرسة الصلاحية بيد الإسلام جرت على مبناها تصليحات وتعميرات في فترات مختلفة بإذن من الحاكم الشرعي في القدس.[١١٧] لكن يبدو أن المبنى قد هُجر في القرن الثامن عشر[١١٨]، وفي أوائل القرن التاسع عشر كان بناء المدرسة قد آل إلى الخراب والانهيار خصوصا بـعد الزلزال الذي حـدث بـين عامي ١٨٢١م و ١٨٢٢م وأدى إلى هدم كثير من جدرانه، وبعد احتلال ابراهيم باشا لمدينة القدس سـنة ١٨٣١م أراد هدم البناء لاستخدام حجارته في بناء ثكنة عسكرية لجنده وبـدأت أعمال الهدم فعلا لولا احتجاج الرهبان الفرنسيسكان جعله يوقف الهدم.

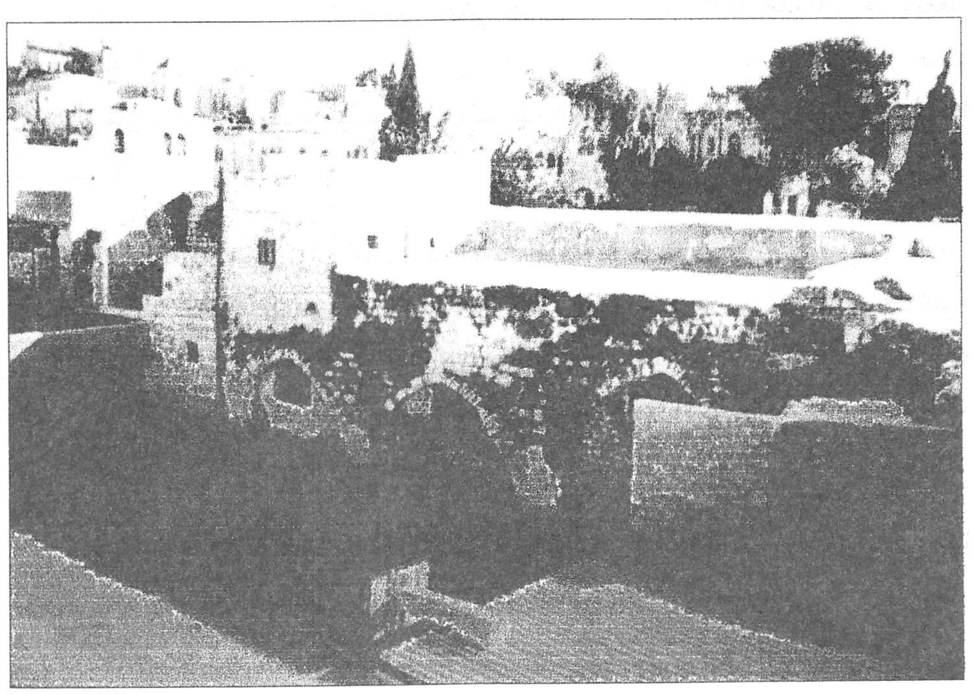
وفي سنة ١٨٥٥م طلبت الحكومة الفرنسية من السلطان عبد المجيد العثماني أن يسلمها الصلاحية، فوافق السلطان وأصبحت الصلاحية بعد ذلك بأيدي الرهبان البيض للروم الكاثوليك، حيث سلم متصرف القدس كامل باشا المكان إلى الفرنسيين بالفعل سنة ١٨٥٦م، وبعد ذلك بست سنوات أي في سنة ١٨٦٢م شرع الفرنسيون في تعمير المبنى تعميراً شاملاً، ودامت أعمال التعمير ستة عشرة سنة، وفي سنة ١٨٧٨ دخلها أول أربعة رهبان من الروم، وفي سنة ١٨٨٢م أسست فيها مدرسة القديسة حنة، وفي شباط سنة١٩١٥ كانت بداية الحرب العالمية الأولى فأعاد جمال باشا الصلاحية كلية إسلامية أسماها كلية صلاح الدين الأيوبي واستمرت كمدرسة حتى التاسع من كانون ثاني سنة ١٩١٧م.(١١٨) وهو أول يوم لاحتلال الإنجليز لمدينة القدس، فأعاد الإنجليز المكان إلى الأباء البيض، وأعاد هؤلاء فتح المدرسة الاكليركية وانشئوا فيها مكتبة ومتحف.(١١٨)

وهكذا ظلت الصلاحية منارة علم وحضارة في بيت المقدس زهاء ستة قرون من الزمن، فكانت ذو أثر بارز كمعهد من معاهد العلم الكبيرة في العالم الإسلامي، أما اليوم فهي دير يعرف باسم دير الصلاحية.

٣- البيمارستان الصلاحي (المستشفى):

قرر صلاح الدين الأيوبي إنشاء هذا المستشفى الكبير في السنة نفسها التي قرر فيها إنشاء كل من الخانقاة والمدرسة الصلاحية وهي سنة الفتح ٥٨٣هـ/١١٨٧م، وعهد بإدارته لبهاء الدين بن شداد الذي كان قد أسند إليه أيضا مشيخة المدرسة الصلاحية.(١١٩)

قال العماد الأصفهاني في شأن تأسيس البيمارستان: (وأمر بأن تجعل الكنيسة المجاورة لدار الإسبتار بقرب القيامة بيمارستانا للمرضى واتخذ فيه بيوتا فيها حاجات أصحاب الأمراض على اختلافها تقضى، ووقف مواضع عليها وسير أدوية وعقاقير عزيزة الوجود إليها).(١٢٠) وبالنسبة لقول العماد فإن الكنيسة المجاورة لدار الإسبتار التي كان يقيم بها الفرسان الصليبيون المعروفون بالإسبتارية كانت تقع في الحي المعروف اليوم بحي الدباغة. لذا يكون البيمارستان قد تم إنشاءه في المنطقة الواقعة إلى الجهة الجنوبية الشرقية من كنيسة



من وثائق د. كامل العسلي

١٧ البيمارستان الصلاحي (المستشفى)

القيامة، وهي المنطقة الممتدة بين سوق البازار وسوق أفتيموس للروم الأرثوذكس وكنيسة الدباغة[١٢١]، وكان البناء يغطي مساحة واسعة من الأرض وفيه العديد من البيوت أو ما يسمى الآن بالأجنحة والأقسام، والتي كانت تشمل فيما تشمله قاعة للجراحين فيما كان يسمى بدار الشفاء ويشرف عليها جراح أو جراحون، وقاعة الكحالين أي أطباء العيون ومرضاهم وقاعة للمجانين وغيره من الأقسام.[١٢٢]

أما فيما يتعلق بالأوقاف، فقد وقف صلاح الدين أوقافا عديدة على البيمارستان وزاد من أتى بعده على هذه الأوقاف، وكانت تشمل ٣٩ بيتا في أحياء مختلفة في القدس، و ٥١ دكان ومخزن، ومعصرة وأرض كرم قرب باب العامود ومزرعة في حارة بني سعد ومجموعة من الأقبية.[١٢٣]

يبدو أن البيمارستان بقي في مبناه الأصلي حوالي ٣٠٠ سنة، إلا أن هذا المبنى تهدم بفعل زلزال سنة ٨٦٢ هـ/١٤٨٥م[١٣٢]، ولكن يبدو أن المؤسسة ظلت تعمل في مبنى آخر حيث كان البيمارستان مؤسسة طبية كبرى تقدم العلاج والأدوية مجانا، كما كان مركزا لتدريب الأطباء.

وفي سنة ١٨٦٩ وهب السلطان عبد العزيز العثماني أرض المستشفى وخراباته إلى الدولة الألمانية بمناسبة زيارة ولي عهدها لمدينة القدس، فبنى عليها الألمان كنيسة تعرف اليوم (كنيسة المخلص الإنجيلية أو اللوثرية) وافتتحها الإمبراطور الألماني غليوم الثاني لدى زيارته القدس سنة ١٨٩٨م وقد اكتشف الألمان حجارة نقش عليها اسم صلاح الدين وخلفائه، وهم يحفرون أساسات هذه الكنيسة.[١٢٤]

ويظهر أن هذه المنطقة من القدس كانت منذ القدم مركزا طبيا للمدينة، فقد بنى فيها الصليبيون أيضا مترلا كبيرا لفرساهم وكان يضم مستشفى (دار الاسبتار).

٤- دار الكتّاب:

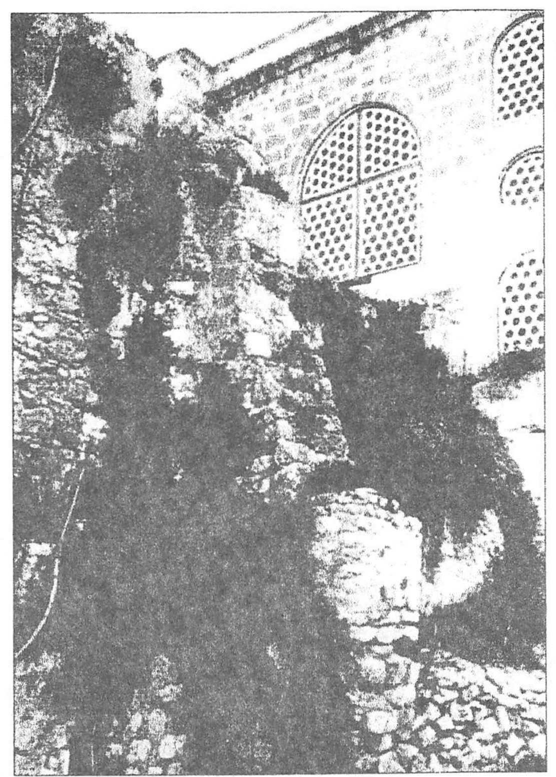
إضافة إلى المؤسسات الثلاثة الكبيرة التي أنشاءها صلاح الدين، فقد أنشأ (كتّابا) لتعليم القرآن الكريم مقابل المسجد الأقصى، ووقف عليه دارا للإنفاق عليه.

٥- الزاوية الختنية:

هي مدرسة وزاوية أسسها صلاح الدين الأيوبي خارج السور الجنوبي للمسجد الأقصى ولها باب بجوار المنبر، ووقفها على رجل من أهل الصلاح هو الشيخ الزاهد العابد محمد بن أحمد الشاشي[١٢٥] ثم من بعده على من يحذو حذوه، وكان تاريخ وقفها سنة ٥٨٧هـ/١١٩٢م.[١٢٦] وإن اسم الزاوية والمدرسة كما سماها مجير الدين الحنبلي (الختنية) غير أن الاسم الصحيح للمدرسة هو (الختنية) نسبةً إلى الشيخ الختني الذي كان شيخا لهذه الزاوية في القرن الثامن الهجري.[١٢٧]

أما بناؤها فهو قـديم منذ زمن الرومان كما يقـول مجير الدين الحنبلي، وقـد طرأت عليه تغييرات وإضافات كثيرة كان من بينها غرف مستجدة وأخيرا دورة مياه.(١٢٨)

وقد استمرت الزاوية (المدرسـة الختنية) في تأدية عملها العلمـي في القرن الثاني عشـر الهجري الموافق للثامن عشـر الميلادي(١٢٨)، ولا تزال أجزاء من هذه الزاوية ماثلة حتى اليوم من عقود و شبابيك.(١٢٩)

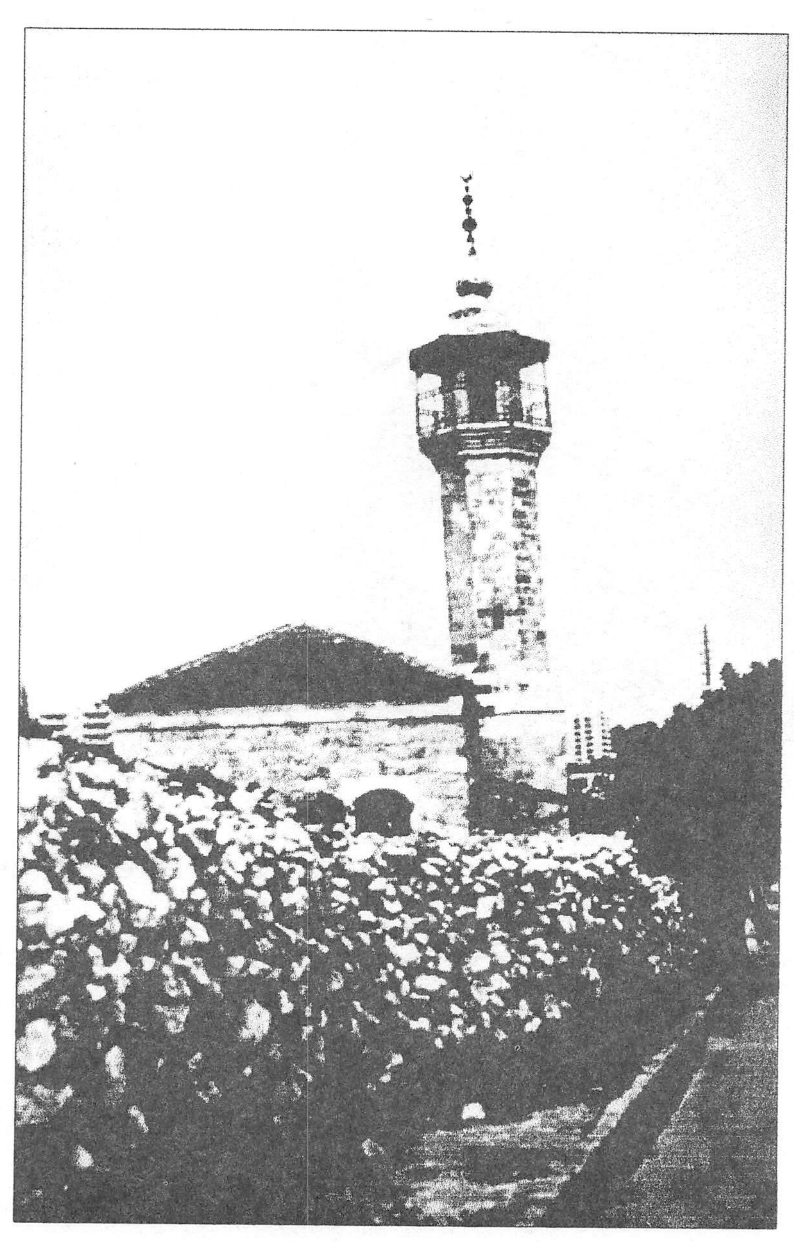


نقلا عن كتاب كنوز القدس

١٨ الزاوية الختنية

٦- الزاوية الجراحية:

وهي من المؤسسات التي أقيمت في مدينة بيت المقدس زمن صلاح الدين الأيوبي بظاهر القدس القديمة من جهة الشمال وتعرف بزاوية الشـيخ جراح، وتقـع على جانب طريق نابلس، ومنشئها الأمير حسام الدين بن شرف الدين الجراحـي وهو أحـد أمراء صلاح الدين، وتوفي سنة ٥٩٥ هـ/١١٩٨م.(١٣٠)



من وثائق د. كامل الغسلي

١٩ الزاوية الجراحية

(٢)

القدس في عهد ورثة صلاح الدين

امتازت الدولة الأيوبية في عهد صلاح الدين الأيوبي بأنه كان هو الرجل القـــوي على رأس الدولة، فخافه الأعداء واحترمه الأصدقاء، وكان من حوله أبناؤه واخوته وأبناء اخوته وأهل بيته، كل منهم التزم حدوده التي رسمها له كبـــيرهم صلاح الدين مما أضفى جوا من الانضباط على الدولة الأيوبية.

وبالرغم من الصعاب التي واجهت صلاح الدين في أواخر ســـني عمره مما اضطره إلى عقد صلح الرملة مع الصليبيين والاعتراف لهم بدولة على ساحل فلسطين، إلا أن وحـــدة الدولة الأيوبية ظلت قائمة ماثلة تفرض نفسها بزعامته.

ومن المعروف أن صلاح الدين اعتمد في إرساء دعائم دولته في المراحل الأولى من حياته على اخوته وأبناء اخوته وأبناء عمومته واختصهم بالمناصب الكبرى والولايات الرئيســـة، لكنه لم يلبث بعد ذلك أن بدّل سياسته فجعل لأبـــنائه المكانة الأولى ووزع عليهم المناصب الكبرى، ثم استبقى لاخوته وأقاربه المراكز الثانوية.

فقد جعل فلسطين وبيت المقدس بالإضافة إلى بعلبـــك وصلخد وبـــصرى وبـــانياس وهونين وتبنين إلى الداروم قرب حدود مصر من نصيب ابنه الأكبر الأفضل نور الدين علي.

وجعل مصر من نصيب ابنه الثاني العزيز عماد الدين عثمان، أما حلب وشمالي الشام من نصيب ابنه الثالث الظاهر غازي، أما أخوه العادل محمد بن أيوب فقد منحه الكرك والأردن فضلاً عن الجزيرة وديار بكر وكلها إقطاعات ثانوية متفرقة لا تتناسب مع أهمية العادل التي ستزداد ظهورا مع مضي الوقت.[١٣١]

وبوفاة السلطان صلاح الدين في ٢٧صفر سنة ٥٨٩هـــ/ آذار ١١٩٣م[١٣٢] ترك دولة كبيرة مترامية الأطراف امتدت من النيل إلى الفرات، و لم تلبث أن نشبت حرب الوراثة بين

أبناء البيت الأيوبي، فلاح في الأفق شبح الانقسام مما شجع الفرنجة ثانية على مهاجمة المسلمين ومحاولاتهم الجديدة الرامية لدخول بيت المقدس مرة أخرى.

١- القدس في عهد الأفضل نور الدين علي:

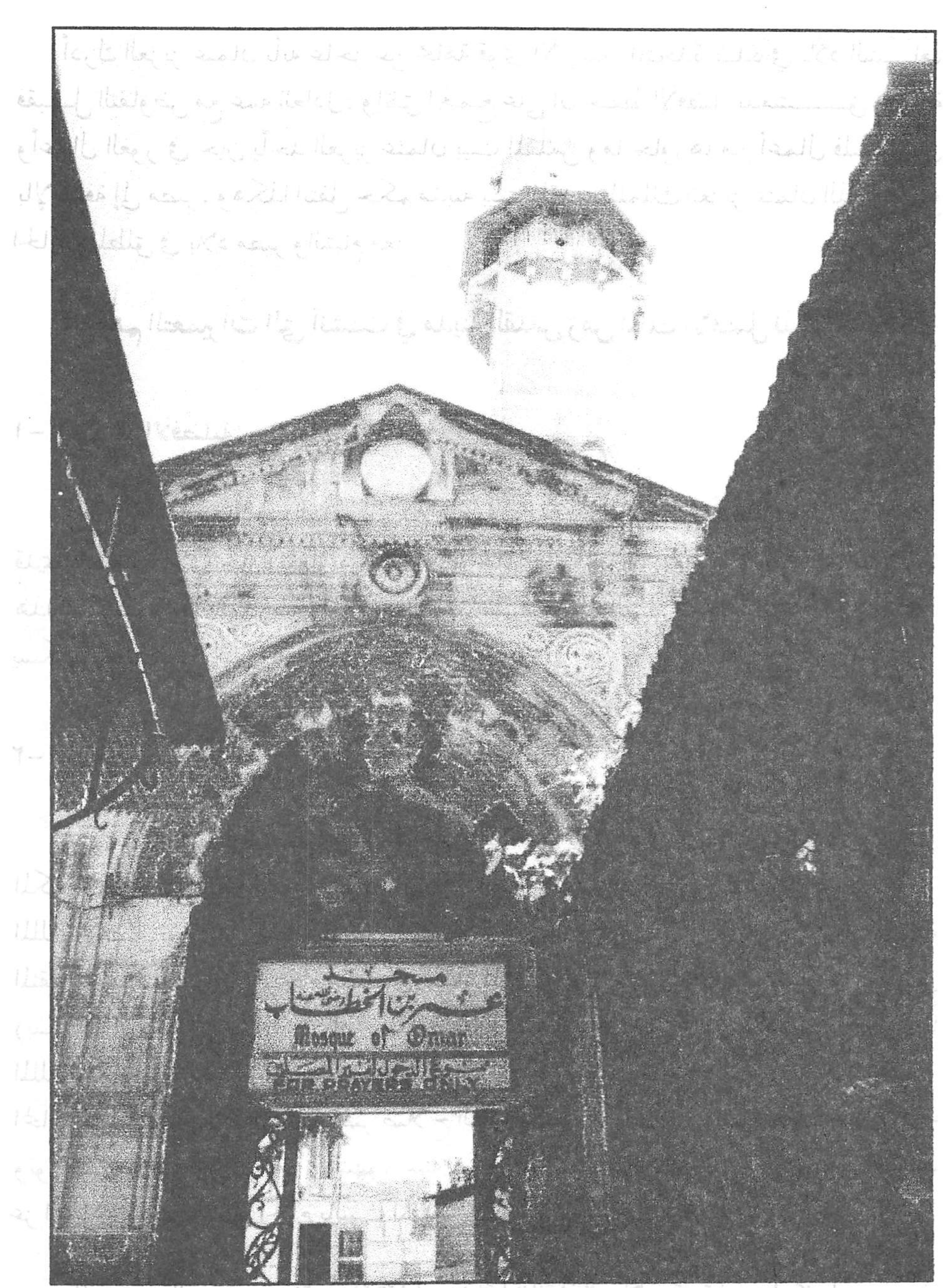
بعد وفاة السلطان صلاح الدين، تولى السلطنة من بعده ابنه الأفضل نور الدين صاحب دمشق وفلسطين وذلك كما أوصى له والده وأن تكون له السلطة العليا في بقية أنحاء الدولة الأيوبية.

كانت مدينة القدس تابعة للأفضل فاعتنى فيها كثيرا وعمّرها، كما أولى عناية خاصة بمقدساتها وأحوالها، ويذكر المؤرخون أن الملك الأفضل أنفق الكثير من الأموال على المدينة المقدسة التي ازدهرت في فترة حكمه القصيرة والتي لم تتعدى الثلاث سنوات.[١٣٣]

لكن مدينة القدس خرجت من حوزة الملك الأفضل بعد أن أرسل كتابا لأخيه الملك العزيز عثمان تنازل له فيه عن القدس، ووافق على إلحاقها بمصر سنة ٥٩٠هـ/١١٩٤م، وذلك بعد أن شعر الملك الأفضل أن بقاءها في حوزته يستوجب الدفاع عنها، وهذا بدوره يحتاج إلى كلفة مادية وعسكرية وقد ظن أن ليس بمقدوره ذلك.[١٣٤]

سر الملك العزيز عثمان بذلك وأرسل مع متولي القدس آنذاك (عز الدين جرديك النوري) عشرة آلاف دينار لينفقها على عسكر القدس، فخطب له بها ، ثم أرسل إليها جندا آخرين خشية أن ينقض الفرنجة الهدنة.[١٣٥] إلا أن الملك الأفضل أراد التراجع عن فعلته هذه وأن يعيد القدس إليه وأعادها فعلا.[١٣٦]

تنافر الأخوان، وخرج العزيز من مصر على رأس قواته في صيف سنة ٥٩٠هـ/١١٩٤م[١٣٧] عازما على أخذ بلاد الشام من أخيه الأفضل، فاستنجد الأفضل بعمه العادل لمساعدته في التخلص من الحصار[١٣٨]، فوجد العادل في ذلك فرصة سانحة له، فاستجاب لنداء ابن أخيه ونهض طالبا مساعدة الأمراء الأيوبيين في أرجاء الشام وحلب وحمص وحماه وأوغر صدورهم ضد العزيز عثمان.



نقلا عن مجلة القدس الشريف

٢٠ المسجد العمري

أدرك العزيز عثمان بأنه عاجز عن مجابهة قوى الأيوبيين المتحدة ضده في بلاد الشام، فقبل التفاوض مع عمه العادل، واتفق الجميع على أن يحتفظ الأفضل بدمشق وطبرية وأعمال الغور في حين يأخذ العزيز عثمان بيت المقدس وما جاورها من أعمال فلسطين بالإضافة إلى مصر، وهكذا انتقل حكم مدينة بيت المقدس للملك العزيز عثمان الذي أصبح الحاكم المطلق في بلاد مصر والشام معا.

من أهم التعميرات التي أنشئت في مدينة القدس زمن الملك الأفضل نذكر منها:

١- المدرسة الأفضلية:

وهي من أقدم مدارس القدس الإسلامية وبنيت في عهد الملك الأفضل، وكانت تعرف قديما بالقبة وتقع في حارة المغاربة[١٣٩]، ولا يوجد في المراجع ما يشير إلى الفترة التي بقي فيها هذا البناء يستعمل كمدرسة، أما في سنوات الستينات من القرن العشرين فكانت دارا يسكنها بعض فقراء المغاربة.

٢- المسجد العمري:

وهو من المساجد القديمة في المدينة، ومن المرجح أنه بني في الفترة الإسلامية الأولى وفي المكان الذي صلّى فيه الخليفة عمر بن الخطاب أمام كنيسة القيامة وفي باحتها، وقد أمر الملك الأفضل نور الدين علي بتعميره سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م.[١٤٠] وقد بيّن هذا الكتابة المنقوشة على حجر من الرخام مثبت في جدار المسجد وقد كتبت بالخط النسخي الأيوبي (بسم الله الرحمن الرحيم..... أمر بعمارة هذا المسجد الشريف والدرجة المباركة مولانا الملك الأفضل نور الدنيا والدين خادم بيت الله المقدس وحافظه من المردة الكافرين أبو المحاسن علي بن مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين يوسف بن أيوب، قدس الله روحه ونور ضريحه ابتغاء رضوانه، في شهور سنة تسع وثمانين وخمسمائة بتولي الفقير إلى رحمة الله عز الدين جرديك متولي الحرم بالبيت المقدس).[١٤٠]

وللمسجد العمري مئذنة جميلة تقابل مئذنة الخانقاة الصلاحية وتشبهها كثيرا من حيث خطة البناء، وكلا المئذنتين تحيطان بكنيسة القيامة من الشمال والجنوب.

٢- القدس في عهد العزيز عثمان:

بعد أن استتب الحكم للملك العزيز عثمان في بلاد مصر وفلسطين معا، نزل الى بيت القدس في رمضان سنة ٥٩١هـ/١١٩٤م[١٤١] وأقام على ولايتها الأمير شمس الدين سنقر الكبير[١٤٢] وكان الملك العزيز كريما وعادلا، فأبطل بعض الضرائب والرسوم التي كانت تجبى من الناس في عهده ومنع استخدام أهل الذمة في شئ من الخدم السلطانية.

بقيت مدينة القدس في حوزة العزيز عثمان إلى أن توفي سنه ٥٩٥هـ/١١٩٨م، فانتقل ملكه إلى ولده محمد الملقب بالسلطان المنصور ناصر الدين وكان صغيرا لم يتجاوز عمره التسع سنين وبضعة أشهر[١٤٣]، فأقيم الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدي أتابكا أي وصياً على العرش وقائدا للجيش، وقد كان هذا مكروها بين الأمراء.

على أثر ذلك قامت في مدينة القدس مؤامرة بين عدد من الأمراء منهم الأمير فخر الدين جهاركس وهو من أمراء الدولة بمصر، والأمير زين الدين قراجا، والأمير أسد الدين سنقر، والأمير شجاع الدين طغرل السلحدار، والأمير عز الدين أسامه، واشترك فيها والي القدس آنذاك الأمير صارم الدين صالح[١٤٤]، وكاتب هؤلاء الملك العادل وكان يومئذ في دمشق يستدعونه لأتابكية الملك المنصور[١٤٥]، لكن الملك الأفضل سار إلى مصر واستولى على أمور الدولة ولم يبقى للمنصور غير الاسم.

باستيلاء الملك الأفضل على مصر انقسمت البلاد إلى قسمين، قسم بمصر يؤيد المنصور بوصاية الملك الأفضل، وقسم بدمشق يؤيد المنصور بوصاية الملك العادل في حين كانت مدينة القدس في هذا الصراع تميل إلى المعسكر الشامي وتسانده بصفة فعالة، فاستنجد الملك العادل بالمماليك الناصرية بالقدس أيام كان الأفضل فيها محاصرا لدمشق فأنجدوه ودخلوا دمشق في سنة ٥٩٥هـ/١١٩٨م[١٤٦]، الأمر الذي جعل الأفضل يتخلى عن حصار دمشق والعودة إلى مصر[١٤٧]، وكذلك آزروا العادل في سنة ٥٩٦هـ/١١٩٩م أثناء امتلاكه لمصر من يد الأفضل.[١٤٧]

بدخول الملك العادل الى مصر أقـــام على أتابـــكية (وصاية) الملك المنصور ثم خلعه في نفس السنة وتولي السلطنة بدلا منه، وقد برر خلعه للسلطان المنصور بقوله: (أنه قبيح بي أن أكون أتابك صبي مع الشيخوخة والتقدم، والملك ليس هو بالإرث، وإنما لمن غلب.)[١٤٨]

٣- القدس في عهد العادل أبو بكر محمد بن أيوب:

انتقل حكم بيت المقدس إلى السلطان العادل في سنة ٥٩٦هـ/١١٩٩م، و لم تنته تلك السنة إلا و كان العادل قد نجح في توحيد الدولة الأيوبية تحت زعامته، فصار سلطان البلاد جميعها و بيده ملك مصر و بيت المقدس ودمشق ، في حين اعترف الظاهر غياث الدين غازي في حلب بسيادة عمه العادل الأول[١٤٩]، وباتساع مملكة العادل عمل على إنابـــة أولاده في الحكم على المناطق التابعة له، فقسمها كما يلي:

حكم مصر لابنه الكامل ناصر الدين محمد علي ،
وحكم دمشق لابنه المعظم شرف الدين عيسى،
وحكم حران لابنه الأشرف مظفر الدين موسى،
وجعل ابنه الأوحد نجم الدين أيوب على ميافارقين.

أما السلطان العادل فقد ترك لنفسه الإشراف العام على جميع تلك الأنحاء وصار يتنقل في ممالك أولاده.[١٥٠] وبذلك تم إعادة توحيد الجبهة الإسلامية مرة ثانية في وجه الفرنجة بيد رجل من أقوى رجال عصره وأكثرهم خبرة بالفرنجة في حالتي الحرب والسلم.

ومن آثار الملك العادل في القـــدس سقـــاية الحرم القدســـي والمطهرة ســـــنة ٥٩٩ هـــ/١٢٠٢م، ويدل على ذلك النقش المحفور على حجر من رخام بالخط النسخي الأيوبي القديم وبأحرف صغيرة، الكلمات التالية : (بسم الله الرحمن الرحيم ... أمر بعمل هذه السقاية المباركة السعيدة مولانا السـّـيد الأجل الملك العادل المظفر الهمام ناصر الإســـلام غياث الأنام سيف الدنيا والدين ، سلطان جيوش المسلمين أبو بكر محمد بـــن أيوب خليل أمير المؤمنين، أدام الله قدرته وأعلا أبدا كلمته ونصر في الخافقين أعلامه وألويته بمحمد وآله

أمير المؤمنين، أدام الله قدرته وأعلا أبدا كلمته ونصر في الخافقين أعلامه وألويته بمحمد وآله وذريته، في شهر شوال سنة تسع وتسعين وخمسمائة. والحمد لله وصلواته على سيدنا محمد وسلم تسليما).[١٥١]

ولما توفي الملك العادل سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م ترك في خزائنه سبعمائة ألف دينار، استولى عليها ابنه الملك المعظم عيسى وكانت القدس من أعماله.

٤- القدس في عهد المعظم عيسى بن العادل:

لما توفي الملك العادل سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م استقل ابنه الملك المعظم عيسى بُملك بلاد الشام التي تمتد من حمص إلى العريش ومن ضمنها القدس، وكان يدير المدينة بالنيابة عنه الأمير عز الدين عمر بن يغمور المعظمي وكان يلقب بالمتولي، ثم أدارها الأمير بدر الدين الهكاري.[١٥١]

كان الملك المعظم عيسى يحب مدينة القدس، فأولاها عناية فائقة وأنشأ بها كثيرا من المعاهد والمدارس، كما وقف على العلم ووجوه البر فيها أوقافا كثيرة، وكثيرا ما نزلها متفقداً أحوالها، وقيل أن الملك المعظم عيسى عندما قاتل الفرنجة في الساحل وانتصر عليهم بعث بالأسرى إلى بيت المقدس منكسي الأعلام.[١٥٢]

وفي عام ٦١٥هـ/١٢١٨م كان الصليبيون يهاجمون أرض الدلتا بمصر، فرأى الملك المعظم عيسى في دمشق أن يواصل هجماته على الفرنجة ليخفف ضغطهم على مصر، وبالرغم من ذلك خشي الملك المعظم من عاقبة انتصار الصليبيين في مصر، فسارع في سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م إلى تدمير عدة حصون قوية في فلسطين خشية وقوعها في أيديهم[١٥٣]، حيث انتشرت في تلك الفترة عادة تخريب الحصون وأسوار المدن خشية استيلاء الأعداء عليها.

ولما بلغ الملك المعظم اعتزام الفرنجة على أخذ مدينة القدس، واستشار الأمراء في تخريبها، فأشاروا بتخريبها قائلين (قد خلا الشام من العساكر، لو أخذ الفرنجة القدس

وهكذا بعد أن كانت مدينة القدس موضع عناية وتعمير، أمر الملك المعظم بتخريب أسوارها وكثير من مبانيها خشية استيلاء الفرنجة عليها مرة ثانية وذلك لشعوره بالعجز في المحافظة على المدينة.[١٥٤] فشرعوا بتخريب سور المدينة أول يوم من محرم سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م، كما خرّب معه الكثير من معالم المدينة الأخرى، ونقل ما كان في القدس من أسلحة وآلات قتال، ويصف أبو الفدا الوضع قائلا: (خرج كثير من سكان القدس بعد خرابها وتركوا أموالهم وامتلأت بهم الطرقات، فتوجه بعضهم إلى مصر وبعضهم إلى الكرك وبعضهم إلى دمشق. ومات كثير من الناس جوعا وعطشا ..... وكانت كارثة كبيرة).[١٥٥]

ومنذ تلك السنة التي خرب فيها الملك المعظم سور مدينة القدس، بقي السور خرابا زهاء ٣٣٠ سنة ما عدا مواضع قليلة منه لا تذكر.[١٥٦]

والواقع أن الملك المعظم عيسى لم يكن مبالغا في مخاوفه، لأن أخاه الكامل محمد في مصر عرض على الفرنجة عندما أدرك سوء موقفه أمامهم الجلاء عن مصر مقابل إعطائهم القدس وعسقلان وطبرية وجبلة واللاذقية وسائر ما فتحه السلطان صلاح الدين من بلاد الساحل، أي أنه أراد إعادة مملكة بيت المقدس إلى ما كانت عليه في فلسطين قبل معركة حطين سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م باستثناء الكرك والشوبك.[١٥٧]

لكن الصليبيين رفضوا ذلك العرض وطمعوا في مصر كلها فضلا عن فلسطين، إلا أنهم وقعوا في عدة أخطاء استراتيجية، كما حدثت انقسامات بين زعمائهم مما أدى إلى فشلهم وجلائهم عن الدلتا سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م بعد أن عقدوا مع الأيوبيين هدنة مدتها ثمان سنوات تنتهي سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م.[١٥٧]

وما كادوا أبناء السلطان العادل يجتمعون في مواجهة الخطر الصليبي حتى عادوا إلى الفرقة واستحكم الخلاف بين الكامل محمد في مصر وأخيه المعظم عيسى في دمشق، وتمثلت الخطورة الناجمة عن ذلك الخلاف في أن كل طرف منهما استعان بقوة خارجية، فاستغاث الملك المعظم عيسى بالخوارزمية، في حين استنجد الملك الكامل محمد بإمبراطور الغرب

فريدريك الثاني في صقلية. وقبل أن يحدث الصدام الفعلي بين الأخوين مات الملك المعظم عيسى سنة ٦٢٣هـ/١٢٢٦م، فصار ملكه على بلاد الشام وفلسطين ومن ضمنها مدينة القدس لولده الملك الناصر صلاح الدين داود، فتولى المُلك الناصر داود وهو شاب لم يتجاوز الحادية والعشرين من عمره.[١٥٨] ولما كان هذا صغيراً وعاجزاً عن تدبير شؤون الدولة، عمد عمّاه إلى اقتسام أملاكه وإعطائه جزءا منها هي (الكرك والبلقاء والسلط والأغوار والشوبك). وبذلك آل حكم مدينة القدس للملك الكامل محمد سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٨م.[١٥٨]

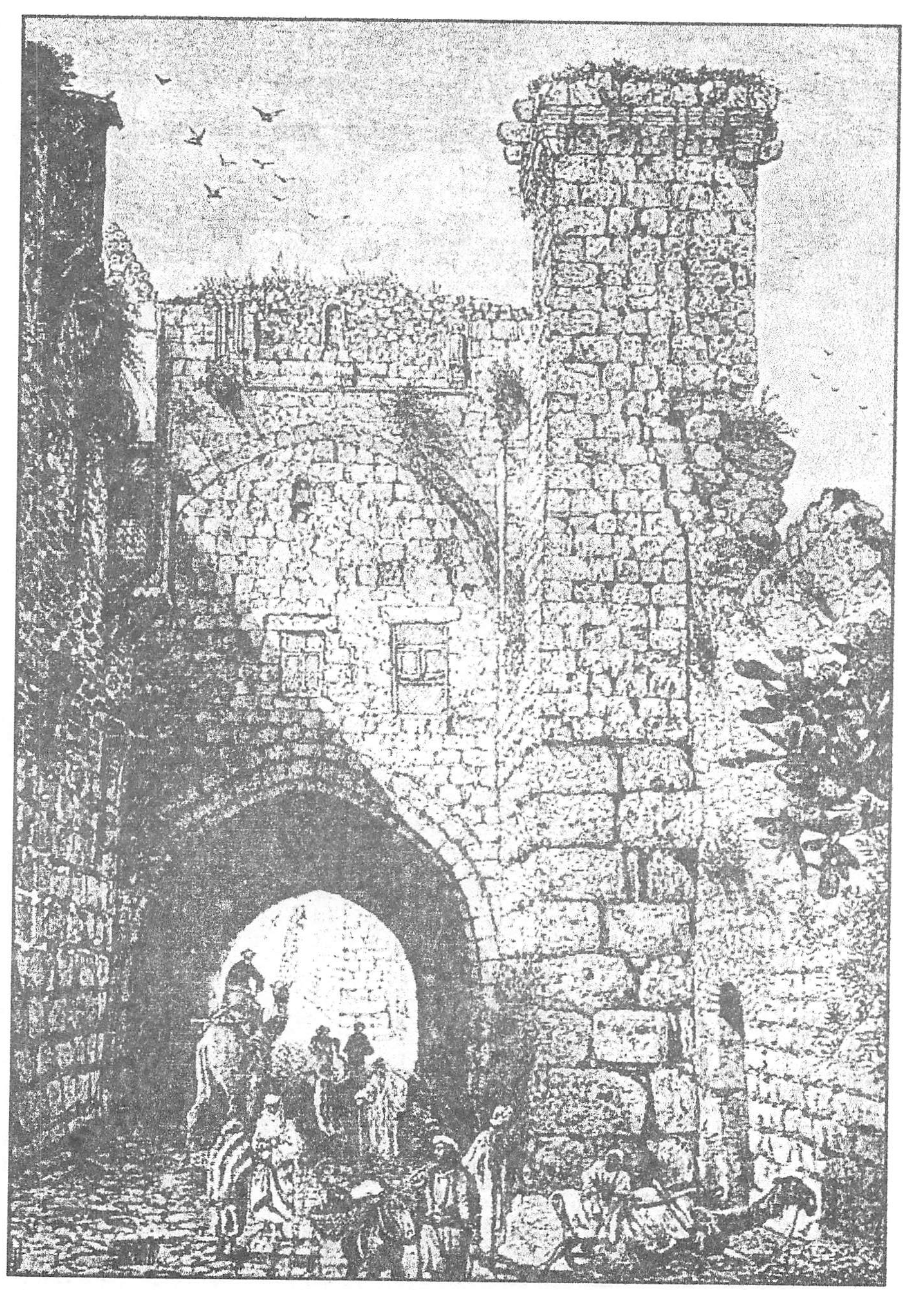
أهم آثار الملك المعظم عيسى في المدينة المقدسة:

كان الملك المعظم عيسى من الملوك العلماء وكان يهتم كثيرا بالفقه الحنفي واللغة والنحو، ولحبه الكبير للمدينة المقدسة خصها بعنايته وأنشأ بها كثيرا من المعاهد والمدارس نذكر منها:

١- المدرسة المعظمية (الحنفية):

كانت هذه المدرسة من المدارس الشهيرة ذات الأثر البارز والكبير في حياة القدس الثقافية خاصة في القرنين الثامن والتاسع الهجريين[١٥٩]، أوقفها الملك المعظم عيسى على الفقهاء الحنفية سنة ٦١٤هـ.[١٦٠]

تقع هذه المدرسة على الجانب الشمالي من طريق المجاهدين تجاه تقاطع الطريق مع طريق باب العتم أو شرف الأنبياء، ولا تزال أجزاء من مبنى المدرسة وأهمها إيوان المدرسة الشمالي قائم حتى يومنا هذا، وإن كان معظمه خرابا، وجانب آخر من المدرسة معمور تسكنه عائلة محمد دعسان العجلوني، وكان يسكنها قبل ذلك جماعة من آل جار الله . أما الجانب الأكبر من المدرسة فهو خرائب وأنقاض فيها حاكورة (ساحة) تضم قبور بعض المجاهدين الذين يقال أنهم من الأكراد الذين قدموا مع صلاح الدين وحضروا فتح بيت المقدس، كما تضم قبور بعض العلماء الذين علموا في المدرسة ومنهم شمس الدين بن رزين البعلبكي.[١٦١] وإلى هؤلاء المجاهدين تنسب المدرسة والمسجد حيث تسمى اليوم بمسجد المجاهدين.



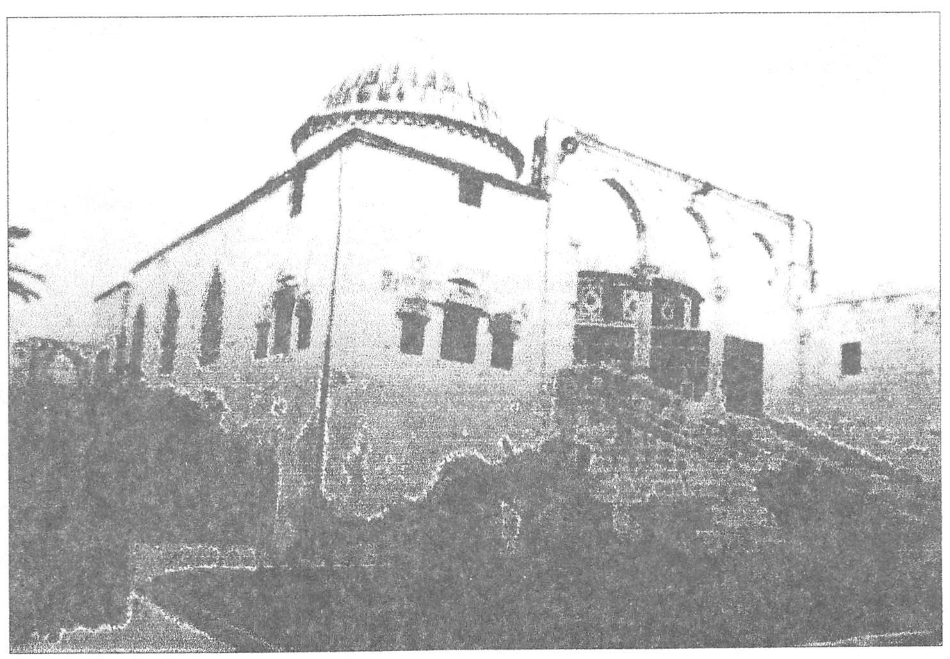
نقلا عن كتاب فلسطين تاريخ وحضارة

٢١ المدرسة المعظمية/ مسجد المجاهدين

٢-المدرسة النحوية:

تقع المدرسة النحوية أو القبة النحوية في أقصى الطرف الجنوبي الغربي من صحن الصخرة المشرفة، وقد أنشأها الملك المعظم عيسى سنة ٦٤٠هـ[١٦٢]، وتولى عمارتها الأمير حسام الدين أبو سعيد عثمان بن عبد الله المعظمي متولي القدس الشريف.[١٦٢]

كانت المدرسة النحوية كما يدل عليها اسمها مختصة بتعليم علوم العربية من أدب ونحو وغير ذلك، ويقول د. العسلي أن ابن فضل الله العمري وصف مبنى المدرسة كما كان في القرن الثامن وإن أسماها بالمعظمية نسبة الى المعظم إلا أنه كان يقصد المدرسة النحوية قائلا:



٢٢ القبة النحوية

من وثائق د. كامل العسلي

(ورتب الملك المعظم لها إماما مفردا يصلي الصلوات الخمس ورتب بها خمسة وعشرين نفرا من طلبة النحو وشيخا لهم، وشرط أن يكونوا حنفية من جملة طلبة مدرسته.)[١٦٣] ويقول ابن واصل أن الملك المعظم وقف على القبة النحوية وقفا جليلا وشرط أن لا يصرف من وقفها شيء إلا للحنفية فقط.[١٦٤]

٣- المدرسة النصرية:

هي على الأرجح أقدم مدارس القدس، وقد سميت بهذا الاسم نسبة إلى مؤسسها الشيخ نصر المقدسي ويسميها مجير الدين الحنبلي (الناصرية)، ومن المرجح أن المدرسة أسست حوالي سنة ٤٥٠هـ.[١٦٥] والمدرسة النصرية تعرف أيضا بالزاوية النصرية، وكان موقعها على برج باب الرحمة، وهو من أبراج سور الحرم الشرقي[١٦٦]، وقد اندثرت المدرسة تماما قبل عهد مجير الدين الحنبلي.[١٦٦] وعندما تولى الملك المعظم حُكم بيت المقدس أنشأ المدرسة من جديد وجعلها زاوية لقراءة القرآن والاشتغال بالنحو ووقف عليها كتبا من جملتها إصلاح المنطق، والوقف مؤرخ ٩ ذي الحجة سنة ٦١٠هـ/١٢١٣م.[١٦٦]

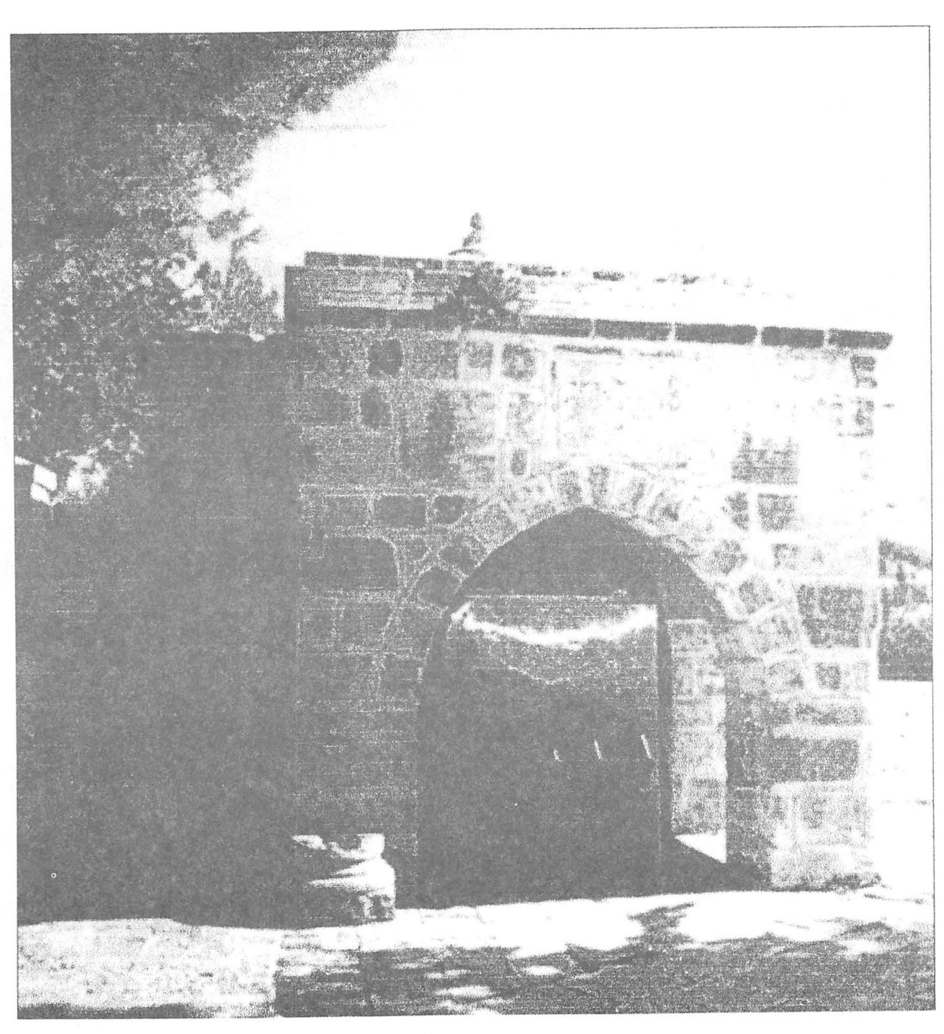
كما قام الملك المعظم عيسى بالتعميرات التالية في مدينة القدس:

١- برج القلعة:

أمر المعظم عيسى ببناء برج لقلعة القدس الواقعة بالقرب من باب الخليل، وعلى أحد جدرانه حجر كلسي، نقشت عليه بالخط النسخي الأيوبي الكلمات التالية: (بسم الله الرحمن الرحيم .... لا إله إلا الله محمد رسول الله ... عمل هذا البرج المبارك بأمر مولانا الملك المعظم شرف الدنيا والدين أبي المظفر عيسى ابن الملك العادل سيف أبي بكر محمد بن أيوب بن شاذي. وتولى عمارته عز الدين عمر بن يغمور المعظمي في شهور سنة عشر وستماية والحمد لله رب العالمين) ٦١٠هـ/١٢١٣م.[١٦٧]

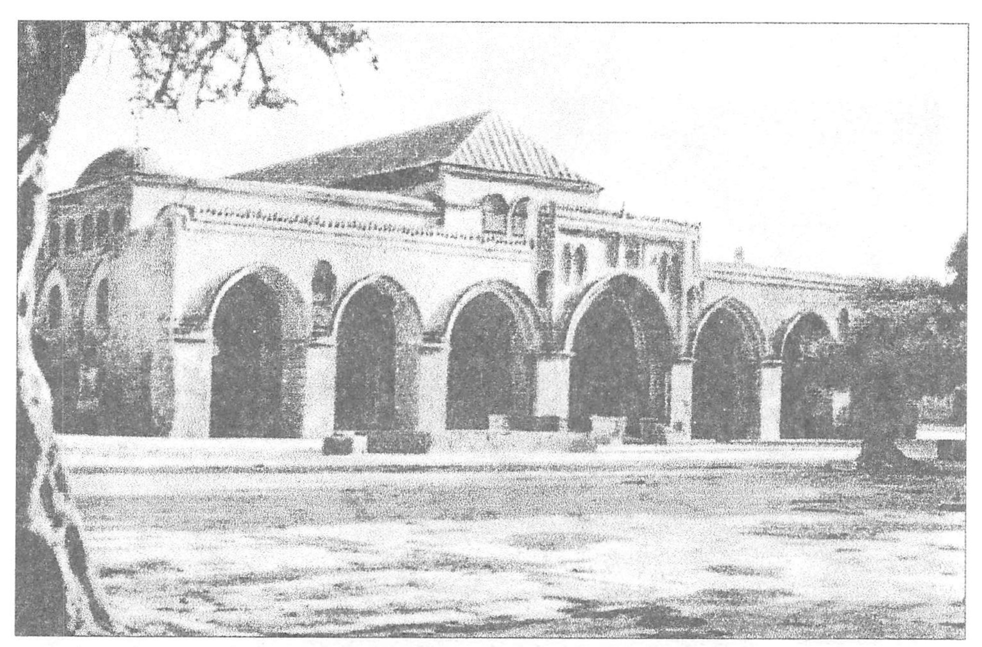
٢- سبيل شعلان:

وهو آخر الأسبلة التي بناها الأيوبيون في القدس، وهو يقع في ساحة الحرم القدسي الشريف في أسفل الدرج الشمالي من الجهة الغربية لصحن الصخرة المشرفة، وقد تم إنشاؤه سنة ٦١٣هـ/١٢١٦م.[١٦٨]



نقلا عن كتاب من اثارنا في بيت المقدس

٢٣ سبيل شعلان



نقلا عن مجلة القدس الشريف

[٢٤] المسجد الاقصى المبارك ويظهر الرواق الذي بناه الملك المعظم عيسى.

٣-تعمير أروقة الأقصى:

في سنة ٦١٤ هـ/١٢١٧م أنشأ الملك المعظم عيسى الرواق الشمالي للمسجد، وهو يمثل سبعة أقواس تقابل أبواب المسجد السبعة.(١٦٩)

٥- القدس في عهد الكامل محمد:

بعد استيلاء الملك الكامل محمد صاحب مصر على معظم دولة الملك الناصر داود، أصبحت مدينة القدس تابعة له، إلا أن امتلاك الملك الكامل للمدينة المقدسة لم يطل كثيرا حيث وصل في ذات العام ٦٢٥هـ/ ١٢٢٨م إلى عكا الإمبراطور فريدريك الثاني وهو على أمل أن يحصل على بيت المقدس حسب وعد الكامل له مقابل مساعدته[١٧٠]، وكان أن نحير الملك الكامل فلم يمكنه رده ولا محاربته بسبب ما كان بينهما من اتفاق، فجرت مفاوضات بين الطرفين، ولما غلبت صفة التسامح على الملك الكامل والتي بلغت درجة التفريط، تخلى الملك الكامل عن المدينة المقدسة للإمبراطور فريدريك الثاني بموجب صلح يافا الذي تم سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م ومدته عشر سنوات.[١٧١]

وبموجب هذا الصلح منح الكامل الفرنجة بيت المقدس وبيت لحم والناصرة وتبنين وصيدا بأكملها. كما اشترط الصلح أن تبقى مدينة القدس على ما هي عليه من الخراب ولا يجدد سورها، وأن الحرم القدسي بما حواه من الصخرة والمسجد الأقصى يكون بأيدي المسلمين، وأن تكون سائر قرى القدس للمسلمين لا حكم فيها للفرنجة.[١٧١]

وهكذا استطاع الفرنجة أن يستعيدوا بيت المقدس دون حرب ولا قتال، الأمر الذي أثار شعور الاستياء العام عند المسلمين، ويصف الحنبلي واقعة تسليم القدس للإمبراطور فريدريك بقوله: (تسلم الإمبراطور القدس ..... على القاعدة المذكورة، وعظم ذلك على المسلمين وحصل به وهن شديد وإرجاف في الناس..... وارتفع بكاء الناس وضجيجهم لذلك، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.)[١٧٢]

دخل الإمبراطور فريدريك الثاني المدينة المقدسة وفيها توج نفسه ملكا على مملكة بيت المقدس في كنيسة القيامة، ولم يكتف بذلك بل زار المسجد الأقصى بعد أن استأذن الملك الكامل بذلك.[١٧٣]

لكن الفرنجة لم يفوا بالعهد الذي وقعوا عليه مع الملك الكامل، بل اغتنموا فرصة انشغال الملوك الأيوبيين في قتال بعضهم بعضا عند تسلمهم المدينة المقدسة، فعملوا على تعمير

القلاع فيها خلافا لما نصت عليه شروط الصلح، وبنوا قلعة عسكرية في غربي المدينة.(١٧٣)

توجه الملك الناصر داود صاحب الأردن والكرك بقواته إلى القدس، ونازل القلعة الجديدة حتى سلمت إليه فهدمها، ثم استولى على القدس وأخرج منها الفرنجة سنة ٦٣٧هـ/١٢٣٩م.(١٧٣) ولكن الملك الكامل كان قد توفي قبل ذلك سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٧م فتولى الحكم من بعده ابنه الملك الصالح نجم الدين.

حدث خلاف كبير بين الزعماء الأيوبيين، فقد اتفق الناصر داود صاحب الأردن والكرك والقدس مع الصالح إسماعيل صاحب دمشق على محاربة الملك الصالح نجم الدين أيوب بعد أن طلبا من الفرنجة مساعدتهما ضد الملك نجم الدين مقابل أن يسلما إليهم القدس وطبرية وعسقلان.(١٧٤) فتم للفرنجة ما أرادوا عندما تمكن الناصر داود وحليفه من أسر الملك الصالح نجم الدين وحبسه في سجن الكرك. وهكذا عادت بيت المقدس مرة أخرى إلى الفرنجة سنة ٦٣٧هـ/١٢٣٩م(١٧٥)، ومن ثم انقشعت سحب الخلاف بين الأيوبيين لفترة قصيرة حين أفرج الناصر داود عن الملك الصالح نجم الدين من حبسه في الكرك، ثم توجها معا إلى مصر حيث تسلمها الملك الصالح نجم الدين بمقتضى اتفاق سابق بين الملكين، غير أن هذا الوفاق بينهما لم يطل أمده، إذ تجدد الخلاف بينهما وانتهى بالقتال من جديد، واستطاع الملك الصالح نجم الدين بمساعدة القبائل الخوارزمية من الاستيلاء على مناطق من بلاد الشام وأن يهزم الفرنجة ويخرجهم من بيت المقدس سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٥م(١٧٥) وبذلك عادت مدينة بيت المقدس نهائيا إلى المسلمين.

٦- القدس في عهد الصالح نجم الدين أيوب:

بعد أن تمكن الملك الصالح نجم الدين أيوب من استرجاع مدينة القدس وإيقاع الهزيمة الساحقة بالفرنجة ومعاقبة الصالح إسماعيل وحليفه الناصر داود، قام في سنة ٦٤٥هـ/١٢٤٧م بزيارة إلى المدينة المقدسة وأمر بإعادة عمارتها، وقبل أن يرحل عنها وزّع على أهل المدينة أموالا كثيرة.(١٧٥)



نقلا عن مجلة القدس الشريف

٢٥ المكتبة الخالدية (تربة الأمير بركة خان)

ومن أهم الآثار الباقية في المدينة منذ عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب، البناء الأثري القديم تربة الأمير بركة خان[١٧٦] وولديه وقد سميت فيما بعد (المكتبة الخالدية):

وهي تقع في حي السلسلة عند ملتقى شارع باب السلسلة بعقبة أبو مدين التي تتجه إلى حارة المغاربة، واستخدم البناء فيما بعد مكتبة عامة وعليه لوحة كتب عليها اسم (المكتبة الخالدية) وقد تم تأسيسها سنة ١٣١٧هـ/١٩٠٠م على يد الشيخ راغب الخالدي الذي كان من أعيان القدس ورئيسا لمحكمة الاستئناف الشرعية فيها، وقد أصدرت المكتبة عقب تأسيسها دليلا لقرائها أسمته (برنامج المكتبة الخالدية العمومية) وقد نص برنامج المكتبة (أن تكون دارا عمومية لمن يرغب في المطالعة من أي فرد كان .... وهي مفتوحة الأبواب لجميع الطلاب كل يوم من الصباح إلى المساء ....) كما اشترط مؤسسها كما جاء في هذا البرنامج (أن لا يخرج منها كتابا حرصا على المنفعة العامة ....) وتعتبر هذه المكتبة من أشهر المكتبات الإسلامية في القدس، والمبنى الآن هو وقف لآل الخالدي.[١٧٧]

بقـــيت مدينة القـــدس في يد الملك الصالح نجم الدين أيوب إلى حـــين وفاته ســـــنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م[١٧٨]، ومن بعده انتقل الحكم إلى ولده غياث الدين توران شاه الملقـــب بـــالملك المعظم الذي دام حـــكمه سبـــعين يوما فقـــط، حـــيث قـــتل في محرم ســـنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م على يد مماليك أبيه الملك الصالح نجم الدين أيوب.

وبتنصيب المملوك عز الدين أيبك التركماني سلطانا على مصر، انفصلت بلاد الشـــام عن مصر واستقل بحكمها الأمراء الأيوبيين[١٧٩]، لكن الحرب استمرت سجالا بـــين مماليك مصر من ناحية والأمراء الأيوبيين من ناحية أخرى، إلى أن تم الصلح بين الفريقـــين ســـنة ٦٥١هـ/١٢٥٣م[١٧٩]، وبموجب هذا الصلح تم الاتفاق على ســـيادة المماليك على مصر وبلاد الشام حتى نهر الأردن، كما اعترف المماليك بسيادة الأيوبيين على بقية بلاد الشام، وأن يدخل في حوزة المماليك غزة والقدس ونابلس والساحـــل كله، وبهذا الاتفاق دخلت مدينة القدس تحت حكم المماليك.[١٨٠]

هوامش الفصل الخامس

١- ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ١١، ص ٣٤١.

٢- ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٦ ، ص ١٤٠

٣- الروادية : وهي بطن من الأكراد الهذبانية ، انتشرت حول منطقة جنزة الواقعة بين شروان وأذربيجان. للمزيد أنظر: ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج٣، ص ١٥١.

٤- ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ١١، ص ٣٤١.

٥- ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٤.

٦- أبو شامة ، تاريخ الروضتين ، ج١ ، ص ٢١٠. وانظر : ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٦، ص ٣.

٧- ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ١١ ، ص ٣٤١،. وانظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٢، ص ٢١٣.

٨- ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج٦ ، ص ١٤٠.

٩- ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص٦.

١٠- النيسابوري : هو أبو المعالي مسعود بن محمد الفقيه الشافعي ، قدم الى دمشق سنة ٥٤٠هـ بعد أن كان قد درس القرآن في نيسابور، وكان عالما صالحا وتوفي سنة ٥٧٨هـ في دمشق . للمزيد أنظر: ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٨ ، ص ١٩٦-١٩٧.

١١- المقريزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج١ ، ص ٤٢-٤٣.

١٢- الأمراء النوريين : هم الأمراء الشاميون الذين قدموا الى مصر ، وقد سموا بالنوريين نسبة الى محمود نور الدين زنكي

١٣- أبو شامة ، تاريخ الروضتين في تاريخ الدولتين ، ج١،ص١٧٣.

١٤- يقول أبو شامة ((وكانت خلعة الوزارة عمامة بيضاء نيسي بطراز ذهب ، وثوب دبيقي بطراز ذهب ، وجبة تحتها سقلاطون بطراز ذهب ، وطيلسان دبيقي بطراز دقيق ذهب ، وعقد جوهر قيمته عشرة آلاف دينار ، وسيف محلى بجوهر قيمته خمسة آلاف دينار ، وفرس حجر صفراء من مراكب العاضد قيمتها ثمانية آلاف دينار ، لم يكن بالديار المصرية أسبق منها ، وطوق وتخت وسرفسار ذهب بجوهر .... ومع الخلعة عدة بقج وعدة من الخيل وأشياء أخر ، ومنشور من الوزارة ملفوف بثوب أطلس أبيض ، وكان ذلك يوم الاثنين الخامس والعشرين من جمادى الأخر سنة أربع وستين وخمسمائة)) للمزيد أنظر : أبو شامة ، تاريخ الروضتين ، ج١، ص١٧٣.وانظر: ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٢، ص٢٢٧.

١٥ - دريد نوري ، سياسة صلاح الدين في مصر والشام ، ص٩٧.

١٦- أبو شامة ، تاريخ الروضتين ، ج١ ، ص١٨٤ .

١٧- ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج١ ، ص٢٠٠.

١٨- المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، ج٣ ، ص٣١٩.

١٩- أبو شامة ، تاريخ الروضتين ، ج١ ، ص٢٠٢.

٢٠- المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، ج٣ ، ص٣٢١،٣٢٩-٣٣٠.

٢١- ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج١ ، ص٢٠١.

٢٢- ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٦٤. وانظر: المقريزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج١ ، ص ٤٤.

٢٣- ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص٦٤.

٢٤- ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٦٩.

٢٥- البنداري ، سنا البرق الشامي ، ج١ ، ص١٥٦-١٥٩

٢٦- STEVENSON,*THE CRUSADERS IN THE EAST*, P213.

٢٧- ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص٥٠. وانظر : أبو شامة ، تاريخ الروضتين ، ج١ ، ص٢٤١-٢٤٢.

٢٨- البنداري ، سنا البرق الشامي ، ج١ ، ص١٧٧.

٢٩- ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج١١ ، ص٤١٧.

٣٠- ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٢ ، ص١٩-٢٠ .

٣١- البنداري ، سنا البرق الشامي ، ج١ ، ص١٩٢- ١٩٣.

٣٢- د. أمينة البيطار، تاريخ العصر الأيوبي ، ص١٣٢.

٣٣- اجتمع أمراء الإمارات الصليبية في مملكة بيت المقدس ، وأقروا عقد هدنة مع صلاح الدين مدتها أربع سنوات تبدأ من تاريخ ابرامها ، وقد أتاحت هذه الهدنة للصليبيين فرصة لتصفية كثير من مشاكلهم الداخلية التي نشبت بينهم بعد وفاة الملك بلدوين الرابع. للمزيد انظر: د.سعيد عاشور ، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ، ص٥٠.

٣٤- أبوشامة ، تاريخ الروضتين ، ج٢ ، ص٧٥. وانظر : ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج١١ ،ص ٥٢٧.

٣٥- ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٢ ، ص١٨٥.

٣٦- أبو شامة ، تاريخ الروضتين ، ج٢ ، ص٧٥ . وانظر : ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص٧٤-٧٥.

٣٧- ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٢ ، ص١٨٦-١٨٧.

٣٨- ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص٧٥-٧٦.

٣٩- د. أمينة البيطار ، تاريخ العصر الأيوبي ، ص ١٣٩.

٤٠- STEVENSON, *THE CRUSADERS IN THE EAST*, PP 244-245.

٤١- ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج١١ ، ص٥٣٣.

٤٢- المقريزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج١ ، ص٩٢.

٤٣- صليب الصلبوت : هو صليب من الخشب يعتقد الصليبيون أن المسيح عليه السلام كان قد صلب عليه ، ولذلك أصبح مقدسا عندهم .

٤٤-دريد النوري ، سياسة صلاح الدين في بلاد مصر والشام ، ص٢٩٠ . نقلا عن
CROUSSET, op cit. 11. P787.

٤٥- أبو شامة ، تاريخ الروضتين ، ج٢ ، ص٧٦.

٤٦- ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص٧٥.

٤٧- ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٢ ، ص١٨٩. وانظر : ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص٧٦-٧٩.

٤٨- ابن شداد ، النوادر السلطانية ،ص٧٧. وانظر : العماد الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص٢٣.

٤٩- ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٢ ،ص ١٩٤ .

٥٠- ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص٧٨-٧٩. وانظر : ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج١١ ،ص ٥٣٧-٥٣٨ .

٥١- أبو شامة ، تاريخ الروضتين ، ج٢ ، ص٨٢-٨٣.

٥٢- عكا : مدينة واسعة كثيرة الضياع ، ولها مرسى مأمون حيث كانت ترسو عنده السفن المسافرة الى أطراف القدس ، وعن طريقها كان يرد الحجاج الغربيون الى بيت المقدس.

٥٣- ينفرد ابن شداد بالقول أن صلاح الدين دخل عكا بعد أن قاتلها ، أنظر : النوادر السلطانية ، ص٧٩.

٥٤- ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ٢٠٢.

٥٥- أبو شامة ، تاريخ الروضتين ، ج٢ ، ص٨٩-٩٠.

٥٦- ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص٨٠-٨١.

٥٧- ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٢ ، ص٢٠٨-٢٠٩.

٥٨- ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص٨١.

٥٩- ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ١١، ص ٥٤٧ .

٦٠- ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٨١.

٦١- ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ١١، ص٥٤٨-٥٤٩.

٦٢- RUNCIMAN, *A HISTORY OF THE CRUSADES*, P 109.

٦٣- ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج١١، ص ٥٤٩-٥٥١ . وأنظر : ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٨٢.

٦٤- ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٨٢.

٦٥- ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ١١ ، ص ٥٥١.

٦٦- أبو شامة ، تاريخ الروضتين ، ج ٢ ، ص ١١٠.

٦٧- للتعرف على النص الكامل للخطبة ، انظر : أبو شـامة ، تاريخ الروضتين ، ج٢ ،ص١١٠-١٢٠. وانظر : ابـن واصل ، مفرج الكروب، ج٢ ، ص٢١٨-٢٢٨.

٦٨-عارف العارف ، المفصل في تاريخ القدس ، ص ١٧٧.

٦٩- د. عبد الحميد زايد ، القدس الخالدة ، ص ٢٢٦.

٧٠- ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ١١ ، ص ٥٥٨.

٧١- عارف العارف ، المفصل في تاريخ القدس ، ص ١٧٧ .

٧٢- مجير الدين الحنبلي ، الأنس الجليل ، ج ١، ص ٣١٦.
٧٣- د. سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص ٨٣٤.
٧٤- ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ٣٥٩-٣٦٠.
٧٥- المقريزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، ص ١٠٥.
٧٦- أبو شامة ، تاريخ الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩١.
٧٧- ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٢٩٦.
٧٨- د. سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص ٨٤١.
٧٩- ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٢، ص ٣٧٠-٣٧١.
٨٠- د. سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص٨٤٤.
٨١- المقريزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج١، ص ١٠٧.
٨٢- أبو شامة ، تاريخ الروضتين ، ج٢، ص ١٩٨. وانظر: ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٢، ص ٣٨٥.
٨٣- د. سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص ٨٤٥.
٨٤- ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٩٢-١٩٣.
٨٥- د. سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص ٨٤٦.
٨٦- ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ٣٧٢-٣٧٣.
٨٧- ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج١٢ ، ص ٧٨-٧٩.
٨٨- ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٢١٧،٢٠٣.
٨٩- العماد الأصفهاني ، الفتح القسي في الفتح القدسي ، ص ٣٤٣.
٩٠- ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٤٠٣.
٩١- المقريزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج١ ، ص ١١٠.
٩٢- أبو شامة ، تاريخ الروضتين ، ج٢ ، ص ٢٩٣.
٩٣- د. سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج٢، ص ٨٦٤.
٩٤- الموسوعة الفلسطينية ، ج٣ ، ص ٢٤٦.
٩٥- عارف العارف ، المفصل في تاريخ القدس ، ص ١٧٧.
٩٦- ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٢٤١.
٩٧- عن مقال للدكتور كامل العسلي في ندوة (يوم القدس) سنة ١٩٨٩ ، ص ٧١.
٩٨- عارف العارف ، المفصل في تاريخ القدس ، ص١٧٦.
٩٩- العماد الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص٥٦٥، ٥٨١-٥٨٢، ٦١٠.
١٠٠- الموسوعة الفلسطينية ، ج ٤ ، ص ٢٠٤.

١٠١ - عارف العارف ، المفصل في تاريخ القدس ، ص ١٥٨ .

١٠٢ - م. رائف نجم ، كنوز القدس ، ص ٢٨.

١٠٣ - الموسوعة الفلسطينية ، ج٣ ، ص ٥٣٤.

١٠٤ - الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص ١٣٧-١٤١ .

١٠٥ - عارف العارف ، المفصل في تاريخ القدس ، ص ١٥٧-١٧٥ .

١٠٦ - عن مقال للدكتور كامل العسلي في ندوة (يوم القدس) سنة ١٩٨٩ ، ص٧٥.

١٠٧ - عبد اللطيف البغدادي ، عيون الأنباء في طبقات الأعيان ، ص ٦٨٧-٦٨٨.

١٠٨ - الوقفية المسجلة في سجلات المحكمة الشرعية ، السجل ٩٥، ص ٤٢٣ .

١٠٩ - د. كامل العسلي ، معاهد العلم في بيت المقدس ، ص ٣٣٢.

١١٠ - من الوقفية المسجلة في سجلات المحكمة الشرعية بالقدس ، السجل ٩٥ ، ص ٤٢٤ .

١١١ - مجير الدين الحنبلي ، الأنس الجليل ، ج ٢، ص ٣٠٣، ١٤٦، ١٧١ .

١١٢ - د. كامل العسلي ، معاهد العلم ، ص ٣٣٧، ٣٣٥، ٥٤ .

١١٣ - العماد الاصفهاني ، الفتح القسي ، ص ١٤٥ .   وانظر : مجير الدين الحنبلي ، الأنس الجليل ، ج٢، ص ٣٤.

١١٤ - د. كامل العسلي ، معاهد العلم ، ص ٥٥-٥٦ .

١١٥ - مجير الدين الحنبلي ، الأنس الجليل ، ج٢ ، ص ٤١ .

١١٦ - د. كامل العسلي ، معاهد العلم ، ص ٦٦-٦٧ . عن دفتر تحرير الأراضي العثماني ، رقم ٥٢٢ ، ص ٢١.

١١٧ - عارف العارف ، المفصل في تاريخ القدس ، ص ٢٣٦.

١١٨ - د. كامل العسلي ، معاهد العلم ، ص ٥٧-٥٩ .

١١٩ - ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٢٣٩.

١٢٠ - العماد الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص ٦١٢.

١٢١ - عارف العارف ، المفصل في تاريخ القدس ، ص ١٧٨ .

١٢٢ - عن مقال للدكتور كامل العسلي في ندوة (يوم القدس) عام ١٩٨٩ ، ص ٧٩-٨٠.

١٢٣ - أحمد عيسى ، تاريخ البيمارستانات ، ص ٢٣١.

١٢٤ - د. كامل العسلي ، معاهد العلم ، ص ٢٩٧.

١٢٥ - نسبة إلى شاش وهو الاسم القديم لمدينة طشقند.

١٢٦ - مجير الدين الحنبلي ، الأنس الجليل ، ج٢ ، ص ٣٤.

١٢٧ - مسالك الأبصار ، ج١ ، ص ١٦ .

١٢٩ - د. كامل العسلي ، معاهد العلم ، ص ١٠٠-١٠٣ .

١٢٩ - المكتب المعماري الهندسي لإصلاح واعمار الصخرة المشرفة (مباني الحرم القدسي الشريف) ، ص ٤١ .

١٣٠- مجير الدين الحنبلي ، الأنس الجليل ، ج٢ ، ص ٤٨ .

١٣١- الموسوعة الفلسطينية ، ج٣ ، ص ٢٤٧ .

١٣٢- ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٢٤٦ .

١٣٣- الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص ٤٨ .

١٣٤- ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٣، ص ١٤-١٥ .

١٣٥- عارف العارف ، المفصل في تاريخ القدس ، ص ١٨٣ .

١٣٦- المقريزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج١، ص ١١٥ .

١٣٧- أبو شامة ، تاريخ الروضتين ، ج٢، ص ٢٢٩ .

١٣٨- ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج١٢ ، ص ١٠٩-١١٠ .

١٣٩- حارة المغاربة : في خلال القرن الخامس الهجري كان في مدينة القدس عدد من أئمة المغاربة مثل أبي بكر الطرطوش وكان المغاربة يزورون القدس أثناء رحلة الحج ومنهم من كان يستقر بها ٠ وفي سنة ٥٨٩هـ وقف الملك الأفضل بن صلاح الدين البقعة (التي أعتاد المغاربة أن يجاوروا فيها) عليهم ذكورا وإناثا ومن بعده قام أثرياء المغاربة بإنشاء زوايا ومساجد وأوقاف في تلك البقعة لينفق ريعها على فقراء المغاربة المحاورين في القدس.

١٤٠- عارف العارف ، المفصل في تاريخ القدس ، ص ١٨٢ .

١٤١- ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٣ ، ص ٧٠ .

١٤٢- أقيم الأمير سنقر على ولاية القدس بدلا" من أبا الهيجاء السمين الذي تولى القدس بعد إقالة الأمير حرديك.

١٤٣- ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٣ ، ص ٨٧.

١٤٤- عارف العارف ، المفصل في تاريخ القدس ، ص ١٨٣ .

١٤٥- ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج١٢ ، ص ٢٤٣-٢٤٤ .

١٤٦- ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٣ ، ص ٩٩-١٠٠ .

١٤٧- ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج١٢ ، ص ٢٤٤-٢٤٥، ٢٤٩ .

١٤٨- د٠ أمينة البيطار ، تاريخ العصر الأيوبي ، ص ١٧٠ .

١٤٩- الموسوعة الفلسطينية ، ج٣، ص ٢٤٨ .

١٥٠- ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج٤، ص ١٦٨ .

١٥١- عارف العارف ، المفصل في تاريخ القدس ، ص ١٨٤ .

١٥٢- ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٦، ص ٢٢٣ .

١٥٣- الموسوعة الفلسطينية ، ج٣ ، ص ٢٤٩ .

١٥٤- ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة ، ج٦، ص ٢٤٤-٢٤٥ .

١٥٥- أبو الفدا ، المختصر في أخبار البشر ، ج٣، ص ١٢٢ .

١٥٦- عن مقال للدكتور كامل العسلي ، بمجلة القدس (العدد ٥) ، ص ٤٧ .

١٥٧- الموسوعة الفلسطينية ، ج٣ ، ص ٢٤٩.

١٥٨- ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج١٢ ، ص ٤٧٢ ، ٤٧٧ .

١٥٩- د. كامل العسلي ، معاهد العلم ، ص ٢٧٣ .

١٦٠- الموسوعة الفلسطينية ، ج٤ ، ص ١٧١-١٧٢ .

١٦١- د. كامل العسلي ، معاهد العلم ، ص ١١٠ .

١٦٢- مجير الدين الحنبلي ، الأنس الجليل ، ج٢ ، ص ٣٣ ، ٢٠٧ .

١٦٣- د. كامل العسلي ، معاهد العلم ، ص ١٠٦ .

١٦٤- ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٤ ، ص ٢١١ .

١٦٥- د. كامل العسلي ، معاهد العلم ، ص ٩٦ ، . وانظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص ٦٠-٦١ .

١٦٦- مجير الدين الحنبلي ، الأنس الجليل ، ج٢ ، ص ٣٤

١٦٧- عارف العارف ، المفصل في تاريخ القدس ، ص ١٨٥ ..

١٦٨- د. كامل العسلي ، من آثارنا في بيت المقدس ، ص ٢٣٦ .

١٦٩- الموسوعة الفلسطينية ، ج٤ ، ص٢٠٤

١٧٠- الموسوعة الفلسطينية ، ج٣ ، ص ٢٤٩ .

١٧١- ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج١٢ ، ص ٤٨٢-٤٨٣ .

١٧٢- مجير الدين الحنبلي ، الأنس الجليل ، ج٢ ، ص٣٥٨-٣٥٩ .

١٧٣- ابن الجوزي ، ذيل مرآة الزمان ، ج٨ ، ص ٦٥٦-٦٥٧ ، ٧٤١ .

١٧٤- المقريزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج٢ ، ص ٣١٥ .

١٧٥- ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ج٨ ، ص ٧٢٤-٧٢٧ ، ٧٦١-٧٦٤ .

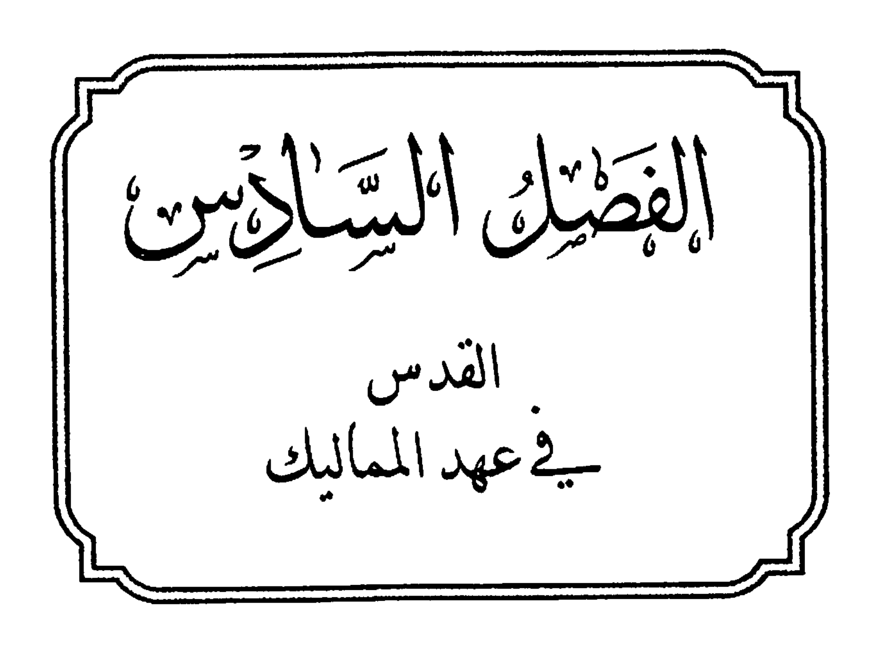
١٧٦- الأمير بركة خان من الأمراء الخوارزمية الذين ساعدوا الملك نجم الدين أيوب على استرداد القدس من الصليبيين حوالي عام ٦٤٠هـ/١٢٤٢م.

١٧٧- د. كامل العسلي ، معاهد العلم ، ص ٣٧٩ .

١٧٨- ابن الجوزي ، ذيل مرآة الزمان ، ج٨ ، ص ٧٧٥ .

١٧٩- ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص ١٧٩ ، ١٨٤ .

١٨٠- أبو الفدا ، المختصر في أخبار البشر ، ج٣ ، ص ١٨٦ .


الفصل السادس
القدس
في عهد المماليك

القدس

في عهد المماليك

نبذة تاريخية عن المماليك:

المماليك هم طائفة من الأرقاء أو ممن كانوا يؤسرون في الحروب أو يستدعون للخدمة في الجيش[1]، وكانوا خليطا من الأتراك والشراكسة وغيرهم من الأجناس.

يرجع ظهور المماليك في العالم الإسلامي الى ما قبل قيام دولتهم بمصر بأمد طويل، وكان أول من استخدمهم الخليفة المأمون العباسي خلال فترة حكمه الممتدة بين السنوات ١٩٨هـ/٨١٣م- ٢١٨هـ/٨٣٣م، إذ كان في بلاطه بعض المماليك المعتقين.[2] ثم الخليفة العباسي المعتصم بالله الذي استخدم فرقا من الشباب الأتراك في جيشه لتدعيم سلطانه وذلك لقلة ثقته بالعرب[2]، ومن ثم أخذ بمبدأ استخدام المماليك ولاة مصر من الطولونيين والإخشيديين والفاطميين ثم الأيوبيين الذين أكثروا من شراء المماليك الترك، وألفوا منهم فرقا عسكرية خاصة.[3]

ولعل اسمهم (المماليك) الذي ينبئ بالعبودية ويستخدم للتعريف بهم والإشارة الى عهدهم، لا يعطى صورة حقيقية لهم، ولا يدل على دورهم الكبير في القضاء على بقايا الفرنجة الصليبيين والوقوف في وجه التتار، ولا يعرّف بدورهم الحضاري الظاهر،حيث يعتبر قيام دولة سلاطين المماليك في منتصف القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي بداية مرحلة جديدة لها طابعها الخاص في تاريخ مصر والشام والذي يتصف بالأمن والاستقرار والثراء والازدهار، خصوصا بعد سيطرة التتار الوثنيين على بغداد وسقوط الخلافة العباسية فيها ، كما أخذت دولة المسلمين في الأندلس في ذلك الوقت بالانحسار سياسيا وحضاريا بعد أن اشتدت عليها وطأة الفرنجة.[4]

أحس المماليك منذ البداية أنهم محرجون بسبب أصلهم غير الحر، فضلا عن أنهم ظهروا

على المسرح السياسي في صورة من استولوا على الحكم من سادقم بني أيوب، لذلك سلك المماليك ثلاثة اتجاهات لمحو هذه الصورة عن الأذهان، والتي تركت كلها أثارا إيجابية ومباشرة في الأوضاع العامة لمدينة القدس بشكل خاص، وهذه الاتجاهات هي:

١- اتخذ المماليك الجهاد أداة لإثبات جدارقم بالحكم ولحماية المقدسات الإسلامية، مما أدى الى ثبات الأمن والاستقرار في ظل حكمهم.

٢- بإحياء المماليك للخلافة العباسية في القاهرة، أضفوا على الحكم صفة الشرعية، وذلك بوصفهم مفوضين بحكم المسلمين من قبل الخلافة العباسية وهي أعلى سلطة شرعية في البلاد.

٣- استغل المماليك جزءاً كبيراً من ثرواقم الضخمة في العناية بالمنشآت الدينية في الأماكن المقدسة وخصوصا في مدينة القدس، مما زاد من مكانة هذه المدينة المقدسة في عصرهم لدى المسلمين. ويقسم العهد المملوكي الى قسمين :

أولا- عهد المماليك الأتراك أو المماليك البحرية:

وهم من جند الملك الصالح نجم الدين الأيوبي، ويسمون المماليك البحرية لأن الصالح أسكنهم ثكنات في جزيرة الروضة في بحر النيل.[٥]

ثانيا- عهد المماليك الشراكسة أو المماليك البرجية:

وهم من جند السلطان المنصور قلاوون المملوكي التركي، وكانوا يسكنون في أبراج القلعة في القاهرة فعرفوا بالبرجية.[٥]

القدس
في عهد المماليك البحرية

١- السلطان عز الدين أيبك التركماني: حكم للفترة (٦٤٨هـ/١٢٥٠م- ٦٥٦هـ/١٢٥٨م).

هو أول سلاطين المماليك الأتراك، وكان في حرس الملك الصالح نجم الدين أيوب وتزوج بعد وفاته زوجته شجرة الدر، ونصّب نفسه سلطانا بعد أن خلع الوريث الأيوبي الأشرف وعرف بلقب المعز.

على أثر تولى الملك عز الدين أيبك عرش مصر، انفصلت الشام عن مصر واستقل بحكمها الأمراء الأيوبيون(٦)، فراح الفريقان يقتتلان الى أن تم الصلح بين الفريقين سنة ٦٥١هـ/١٢٥٣م، وبموجب هذا الصلح دخلت مدينة القدس تحت الحكم المملوكي(٧). لكن السلطان عز الدين أيبك قُتل بمكيدة دبرتها زوجته شجرة الدر، فخلفه ابنه الصغير نور الدين علي.

٢- السلطان قطز بن عبد الله المعزّي: حكم في الفترة (٦٥٧هـ/١٢٥٩م-٦٥٨هـ/١٢٦٠م).

وهو من مماليك السلطان عز الدين أيبك، وبعد وفاته نصّب نفسه وصيا على الملك الصغير نور الدين علي، وما لبث أن خلعه واستولى على العرش(٧).

في عهده اجتاحت جحافل التتار بلاد الشام من شمالها الى جنوبها، وشاء الله أن ينقذ بيت المقدس من همجيتهم، وكان واضحا أن حملتهم الأولى على بلاد الشام عبّرت في جوهرها عن هجمة صليبية شرسة خطط لها ملك أرمينية الصغرى المسيحي هيثوم الأول مع هولاكو، وطلب الأخير من حليفه أن يلتقي به عند الرها ليرافقه الى مدينة القدس ليخلص الأراضي المقدسة من قبضة المسلمين ويسلمها للمسيحيين.(٨)

بعد استيلاء التتار على دمشق وتدميرها سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م(٩)، قرروا التفرغ

لمواجهة خطر المماليك في مصر، فأرسل هولاكو الى السلطان قطز طالبـا منه التسـليم، قطز الأمراء واتفقوا جميعا على محاربة التتار وإعلان التعبئة العامة.

سيّر قـطز الجيوش المؤلفة من العرب والأتراك ونزل مدينة غزة[٩]، ثم سـار بمحـاذاة السـاحـل الى أن التقـى الجمعان عند عين جالوت في ٢٥ رمضان سـنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م.[١٠] وتولى السلطان قطز بنفسه قـيادة الجيش ومعه الأمير ركن الدين بـيبرس، وانتهت المعركة بنصر حاسم للمماليك على التتار الذين قتل قائدهم كتبغا وانهزم جيشهم شر هزيمة، فكانت تلك المعركة فاصلة في تاريخ الشرق مما أنقذ بيت المقدس والشام كلها من براثن التتار، كما ترتب على تلك المعركة امتداد سيطرة المماليك على بـلاد الشـام وانحسار النفوذ الأيوبي عنها، وهكذا عادت وحدة مصر والشام في ظل حـكومة مركزية قوية مما أشاع قدرا من الاستقرار لأول مرة في بلاد الشام بوجه عام، وفي بيت المقدس بوجه خاص.[١١]

بعد انتهاء المعركة الحاسمة وبينما كان قطز في طريق عودته الى مصر انحرف مع بـعض أصحابه للصيد فقتله بعض خواصه، وقيل أن الظاهر بيبرس البندقداري قتله بـيده ومن ثم استولى على الملك من بعده.[١٢]

٣-الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري: حكم للفترة (٦٥٨هـ/١٢٦٠م-٦٧٦هـ/١٢٧٧م)

كان الملك الظاهر ركن الدين بـيبرس في خاصة خدم الملك الصالح نجم الدين أيوب ثم أعتقه[١٣] وارتقى حتى أصبح (أتابك) أي قائد العساكر بمصر في أيام قطز، وتولى سـلطنة مصر والشام من بعده.

يعد الظاهر بيبرس أول المماليك العظماء، ومؤسس سلطانهم الحقيقي وتسـتند عظمته الى الحملات الموفقة التي جردها على الصليبيين ومهدت السبـيل للانتصارات التي جناها حلفاؤه من بعده. حيث قضى على مملكة إنطاكية الصليبية عام (٦٦٦هـ/ ١٢٦٨م)[١٤]، واستولى على كثير من مواقع الصليبيين وقلاعهم، وفتح قيسـارية وصفد وهونين وتبـنين

والرملة وقلعة شقيف، كما هاجم مدينتي صور وعكا أكثر من مرة، حتى سعى إليه الفرنجة ليعقدوا معه الصلح، فوافق على عقد هدنة معهم مدتها عشر سنين وعشرة أشهر وعشـــر ساعات تبدأ من ٢١ رمضان من عام ٦٧٠هـــ/ ١٢٧٢م).[١٤]

والى جانب المآثر الحربية، اهتم الظاهر بيبرس بتجديد الخلافة العباســـية في القـــاهرة لإعطاء الصفة الشرعية لسلطنتهم الوليدة، فكان بيبرس أول من تلقب بــــ (قســـيم أمير المؤمنين) من قبل الخليفة، وهذا اللقب أجّل الألقاب.

كما اهتم الظاهر بيبرس بتعمير البلاد التي دخلت في حوزته وبتدبير شؤونها، كما أولى مدينة القدس عناية كبيرة لما لها من مكانة خاصة ومقدسة لدى المسلمين جميعا، وتمثل ركيزة دينية هامة من الجانب الديني في سياسته.

ومن أهم التعميرات التي تمت في عهده في المدينة المقدسة نذكر منها:

١- عمارة قبة الصخرة المشرفة:

في سنة ٦٥٩هــ/١٢٦٠م جهز الظاهر بيبرس الأموال والآلات والصناع لعمارة قبة الصخرة التي كانت قد تداعت للسقوط.[١٤]

٢- تجديد قبة السلسلة وزخرفتها:

وهي القبـــــة الموجودة داخل الحرم القدســـــي الشــــريف وتم ذلك في ســــنة ٦٥٩هــ/١٢٦٠م.[١٥]

٣- رباط البصير:

وهو من العمائر ذات الصبغة الدينية المهمة التي أقيمت في عهد السلطان الظاهر بيبرس في مدينة القدس، وقد عمره الأمير علاء الدين ايدغيدي البصير[١٦] ووقف عليه أوقافا كثيرة سنة ٦٦٦هـــ/١٢٦٧م.[١٧] كما أقام الأمير علاء الدين أبـــنية أخرى منها المطهرة بجانب المسجد الأقصى، وكذلك بلّط صحن الصخرة المشرفة.[١٧]

وقد قام الظاهر بيبرس بزيارة مدينة القدس عدة مرات، كانت على التوالي:

الزيارة الأولى: تمت في عام ٦٦١هـ/١٢٦٢م وهو في طريق عودته من الشام الى مصر، فكان أول من زار المدينة من سلاطين المماليك، فاطلع على أحوالها ونظم أوقافها، ثم أمر بترميم المسجد الأقصى وخصص له في كل سنة خمسة آلاف درهم.[١٨]

الزيارة الثانية: وقد تمت في سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٣م، أمر خلالها بإنشاء خان السبيل [١٩]، ولما تم بناء الخان نقل إليه باب قصر من قصور الفاطميين معروف بالقاهرة باسم قصر باب العيد).[٢٠] وبنى بالخان مسجد وطاحونة وفرن[٢١]، ولما تم بناء هذا الخان أوقف عليه أوقافا عدة على أن يصرف ريع هذه الأوقاف على من يرد هذا الخان من المسافرين المشاة، للإنفاق عليهم في خبزهم وإصلاح نعالهم وغير ذلك.[٢٢]

الزيارة الثالثة: تمت في سنة ٦٦٤ هـ/١٢٦٥م.[٢٣]

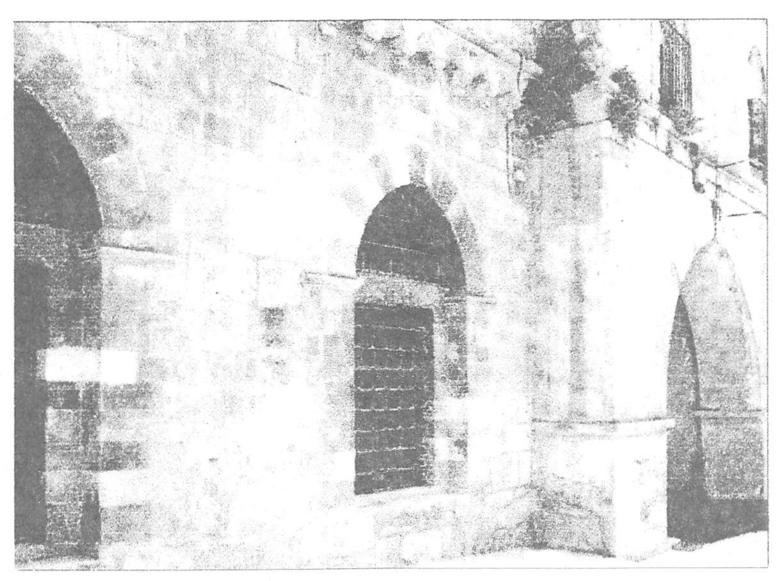
الزيارة الرابعة: وهي الزيارة الأخيرة التي قام بها الظاهر بيبرس للقدس، وتمت في عام ٦٦٨هـ/١٢٧٠م وجدد خلالها الفصوص التي على الرخام في مسجد الصخرة المشرفة.[٢٤] كما أمر في نفس السنة بوضع الدرابزين[٢٥] حول الصخرة المشرفة وعمل فيها منبرا وسقفه بالذهب.[٢٦]

وفي سنة ٦٧٦هـ/١٢٧٧م توفى الملك الظاهر بيبرس في دمشق[٢٧] بعد أن ملك مصر والشام سبع عشرة سنة وشهران.[٢٨] وتولى المُلك من بعده ابنه الملك السعيد ناصر الدين محمد ثم ابنه الثاني الملك العادل بدر الدين سلامش، و لم يذكر التاريخ أنهما قاما بعمل في القدس، وقد ترك المُلك كلاهما خلعا.[٢٨]

٤- السلطان قلاوون بن عبد الله: حكم في الفترة (٦٧٩ هـ/١٢٨٠م- ٦٨٩ هـ/١٢٩٠م)

هو السلطان المنصور سيف الدين قلاوون، وكان يلقب بالصالحي الألفي، وقد برز في أواخر عهد الأيوبيين وخلع ابن الظاهر بيبرس سلامش وبويع بالسلطنة.[٢٨] كان على ما وصفه المؤرخون فارسا شجاعا لا يحب سفك الدماء، واهتم بجمع المماليك من كل جنس، وفي أيامه عرفت جماعة المماليك البرجية.[٢٩]

اهتم الملك المنصور قلاوون بمدينة القدس كثيرا وأقام فيها أعمالا عمرانية تدل على اهتمامه بها، نذكر منها:



نقلا عن مجلة القدس الشريف

٢٦ الرباط المنصوري

١-الرباط المنصوري:

ويقع في الجهة الجنوبية من طريق باب الناظر المؤدي الى الحرم القدسي، قبالة رباط علاء الدين البصير، وقد أمر ببنائه السلطان قلاوون سنة ٦٨١هـ/١٢٨٨م وأوقفه على الفقراء وزوار بيت المقدس.[٣٠]

والرباط المنصوري من المؤسسات السلطانية القليلة التي بنيت خارج الحرم، لأن السلاطين كانوا يقيمون منشآهم داخل الحرم نفسه. وقد أشرف على بنائه علاء الدين ايدغدي بعد بناء رباطه.

٢- المسجد القلندري:

في عهد السلطان قلاوون وتحديدا في سنة ٦٨٦هـ/١٢٨٧م[٣١] جددت عمارة هذا المسجد، وهو واقع على طريق دير اللاتين في الناحية الجنوبية من المدينة المقدسة، و لم يبق منه اليوم إلا الاسم.

وقد زار السلطان قلاوون فلسطين أكثر من مرة ونزل في مدينة القدس سنة ٦٨٢هـ/١٢٨٣م[٣٢] وأقال نائبها عماد الدين ابن أبي القاسم وأقام مكانه نجم الدين السونجي.[٣٣]

وبعد أن توفي السلطان قلاوون تولى ابنه الملك الأشراف صلاح الدين خليل، ثم ابنه الثاني السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، ثم الملك المنصور حسام الدين لاجين المنصوري المعروف بالصغير، وبعد مقتل الملك المظفر المنصور لاجين تولى الملك للمرة الثانية الملك الناصر محمد بن قلاوون ثم تسلطن الملك المظفر ركن الدين بيبرس المنصوري، ثم عاود للمُلك الناصر محمد بن قلاوون للمرة الثالثة.

٥- الملك الناصر محمد بن قلاوون:

تولى الملك الناصر محمد حكم السلطنة ثلاث مرات :

الأولى : دامت حوالي ثلاث سنوات في الفترة (٦٩٣هـ/١٢٩٤م-٦٩٦هـ/١٢٩٦م).
الثانية : وكانت مدتها عشر سنوات في الفترة(٦٩٨هـ/١٢٩٨م - ٧٠٨هـ/١٣٠٨م).
الثالثة: وهي الأخيرة وقد دامت أكثر من ثلاثين سنةامتدت للفترة (٧٠٩هـ/١٣٠٩م - ٧٤١هـ/١٣٤١م).[٣٤]

وهكذا امتاز عهد الملك الناصر محمد بدوراته الثلاث، والذي دام قرابة خمسة وأربعين عاما والذي عرف بأنه أطول عهود السلاطين المماليك.

في عهده بلغت المناوشات بين المماليك والتتار أشدها، إذ استولت قوات غازان التتاري على دمشق، واجتاحت منطقة الأغوار ونهبت مدينتي القدس والكرك[٣٥]، ومن ثم انتهت بهزيمة التتار في مرج الصفر جنوب دمشق.[٣٦]

ولقد اشتهر عهد الناصر محمد بإنشاء الأبنية الكثيرة والمآثر الحضارية المختلفة، فشهدت المدينة المقدسة على يده ويد نائبه بالشام الأمير تنكز[٣٧] حركة عمرانية لا مثيل لها في كامل العهد المملوكي، ومن هذه المنشآت التي قامت في القدس في عهده:

١- رباط الكرد:

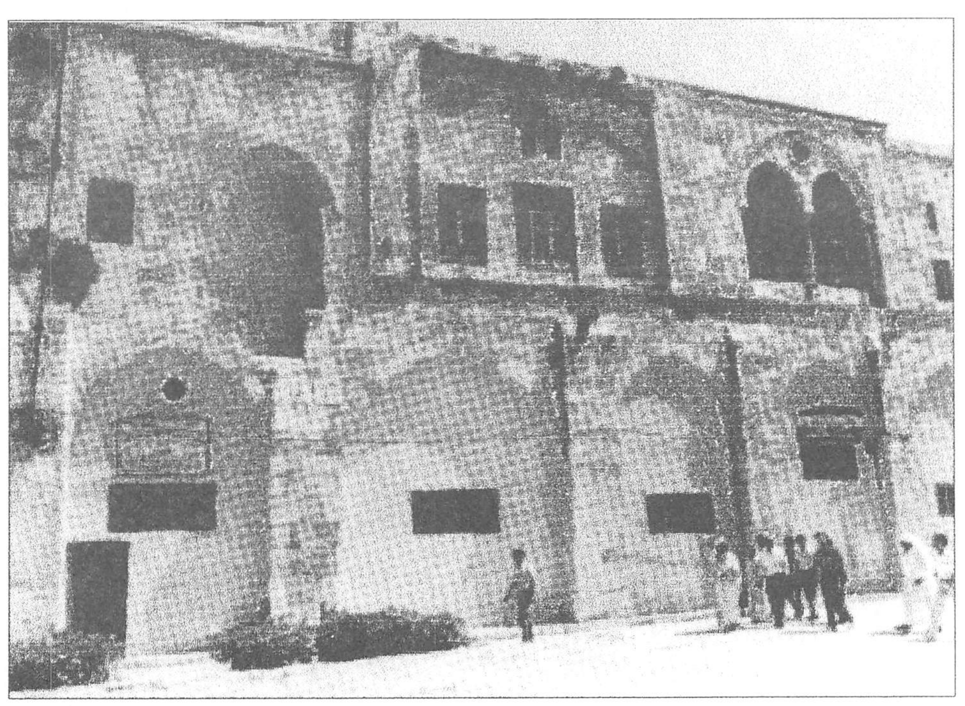
ويقع في الجانب الشمالي من طريق باب الحديد تجاه المدرسة الأرغوانية، وملاصقاً لسور الحرم وعلى يمين الخارج منه من هذا الباب، وقد أنشأه المقر[٣٨] السيفي كُرد صاحب الديار المصرية سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٣م.[٣٩] وكان السيفي كُرد من مماليك السلطان قلاوون، وقد أسس رباطه في القدس عندما كان ساقي السلطان. ويسكن رباط الكرد الآن جماعة من آل الشهابي وهو يعرف بهم.[٤٠]

٢- المدرسة الدويدارية (الدوادارية):

وتقع هذه المدرسة على يمين الخارج من الحرم القدسي الشريف من باب العتم أو كما كان يسمى قديما بباب شرف الأنبياء، والذي أطلق عليه أيضا اسم باب الدويدارية نسبة الى هذه المدرسة الكائنة شرقي هذا الباب.(٤٠)

أما تسميتها بالمدرسة الدوادارية فترجع الى منشئها وواقفها الأمير علم الدين أبو موسى سنجر الدوادار(٤١) الصالحي النجمي، الذي أوقف عليها أوقافا كثيرة في مناطق متعددة في فلسطين(٤١) وكانت عمارتها في سنة ٦٩٥هـ/١٢٩٥م.(٤٢)

المدرسة الدوادارية هي وقف إسلامي، كانت في السابق خانقاة للصوفية من العرب والعجم وكانت تدعى بدار الصالحي، وهي ما تزال مدرسة حتى يومنا هذا، ويشغلها حاليا المدرسة البكرية الابتدائية للذكور.



نقلا عن مجلة القدس الشريف

٢٧ المدرسة الدوادارية الواقعة ما بين باب حطة وباب فيصل

٣- التربة الأوحدية:

وتقع على ميسرة الخارج من الحرم من باب حطة، وواقفها هو الملك الأوحد نجم الدين يوسف بن الملك الناصر صلاح الدين داود بن الملك المعظم عيسى سنة ٦٩٧هـ/ ١٢٩٨م.[٤٠]

٤- المدرسة السلامية (الموصلية):

وتقع خارج الجهة الشمالية للحرم والى الشمال من المدرسة الدوادارية بباب العتم أو باب شرف الأنبياء، وواجهتها الرئيسة على الجانب الشرقي من طريق باب العتم المعروف بطريق المجاهدين والمؤدي الى باب سور القدس المعروف بباب الأسباط.[٤٣]

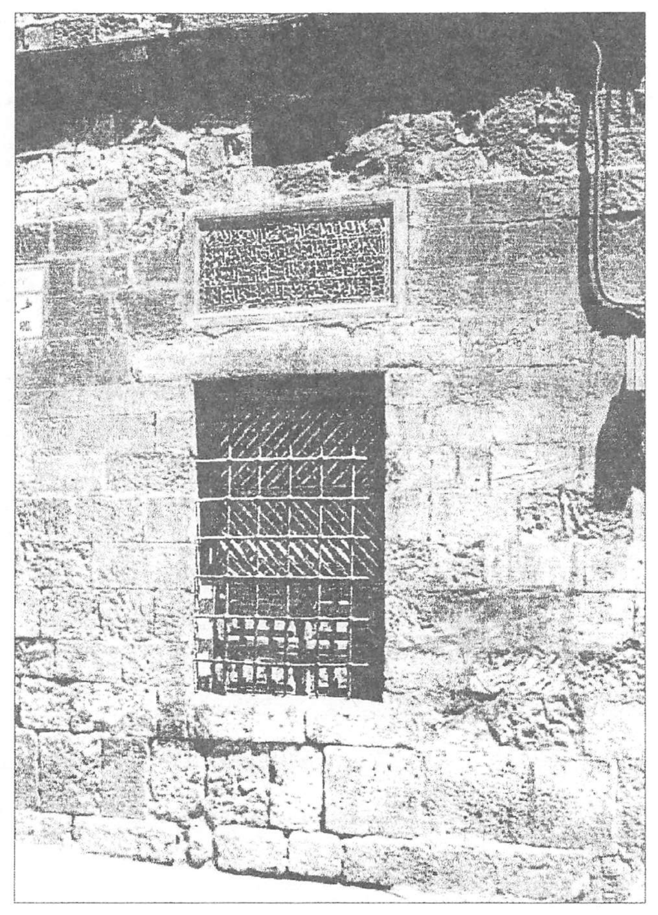
والمدرسة عبارة عن بناية ضخمة، وفيها بوابة تمتاز بروعة جمالها، وتعلوها المقرنصات وعلى جانبي قوس البوابة النقش التالي: لا اله الا الله محمد رسول الله

كلف بناء هذه المدرسة أموالا طائلة، وواقف المدرسة هو الخواجا مجد الدين أبو الفدا إسماعيل السلامي وكان تاجرا كبيرا في القاهرة، وتاريخ المبنى والوقف غير معروف بوجه الدقة، ويقول مجير الدين الحنبلي أنها وقفت بعد السبعمائة للهجرة.[٤٤]

٥- زاوية المغاربة :

وهي تقع بأعلى حارة المغاربة في الجهة الغربية خارج الحرم، وواقفها هو الشيخ عمر بن عبد الله بن عبد النبي المغربي المصمودي المجرد، وقد عمّر الزاوية وأنشأها من ماله ووقفها على الفقراء والمساكين في سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٣م.[٤٥] وأوقاف هذه الزاوية كانت تشمل على حوانيت في سوق القصاص وجسر الليمون وفرن موجود بحارة المغاربة وطاحونة قرب المنطقة ذاتها بالإضافة الى بيت في حارة الشرف .

وفي سنة ١٩٦٧ قامت سلطات الاحتلال الإسرائيلي باستملاك هذه الزاوية وهدمتها.[٤٦]



نقلا عن كتاب أجدادنا في ثرى بيت المقدس

٢٨ واجهة الجالقية

٦- التربة الجالقية:

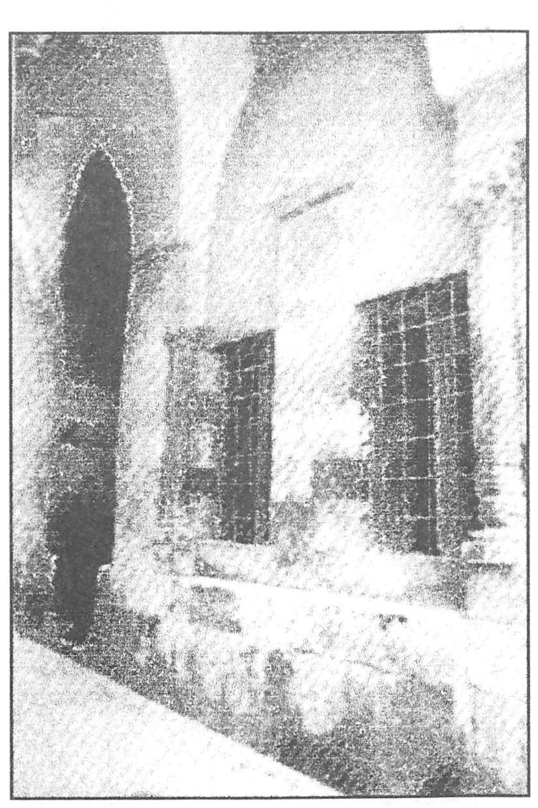
وتعرف اليوم بدار الخالدي. وموقعها بالزاوية الشمالية الغربية عند ملتقى طريق الواد بطريق باب السلسلة. وواقفها هو ركن الدين بيبرس بن عبد الله الصالحي النجمي المعروف بالجالق (ومعناه الحصان القوي الشديد المراس)، وكان من جملة الأمراء بالشام، وقد توفي في الرملة سنة ٧٠٧هـ/١٣٠٧م ودفن في تربته بالقدس.[٤٧]

٧- جامع قلعة القدس:

بني الجامع بداخل القلعة عند زاويتها القبلية الغربية، وقد كتب على عتبة بابه العليا أن الجامع أنشأه الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧١٠هـ/١٣١٠م.(٤٧)

٨- التربة السعدية:

وتقع بطريق باب السلسلة تجاه المدرسة التنكزية بالقرب من باب الحرم الرئيسي المعروف بباب السلسلة لجهة الغرب، وواقفها هو الأمير سعد الدين مسعود بن بدر سنقر عبد الله الروحي الحاجب بالشام في دولة الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧١١هـ/١٣١١م.(٤٧)

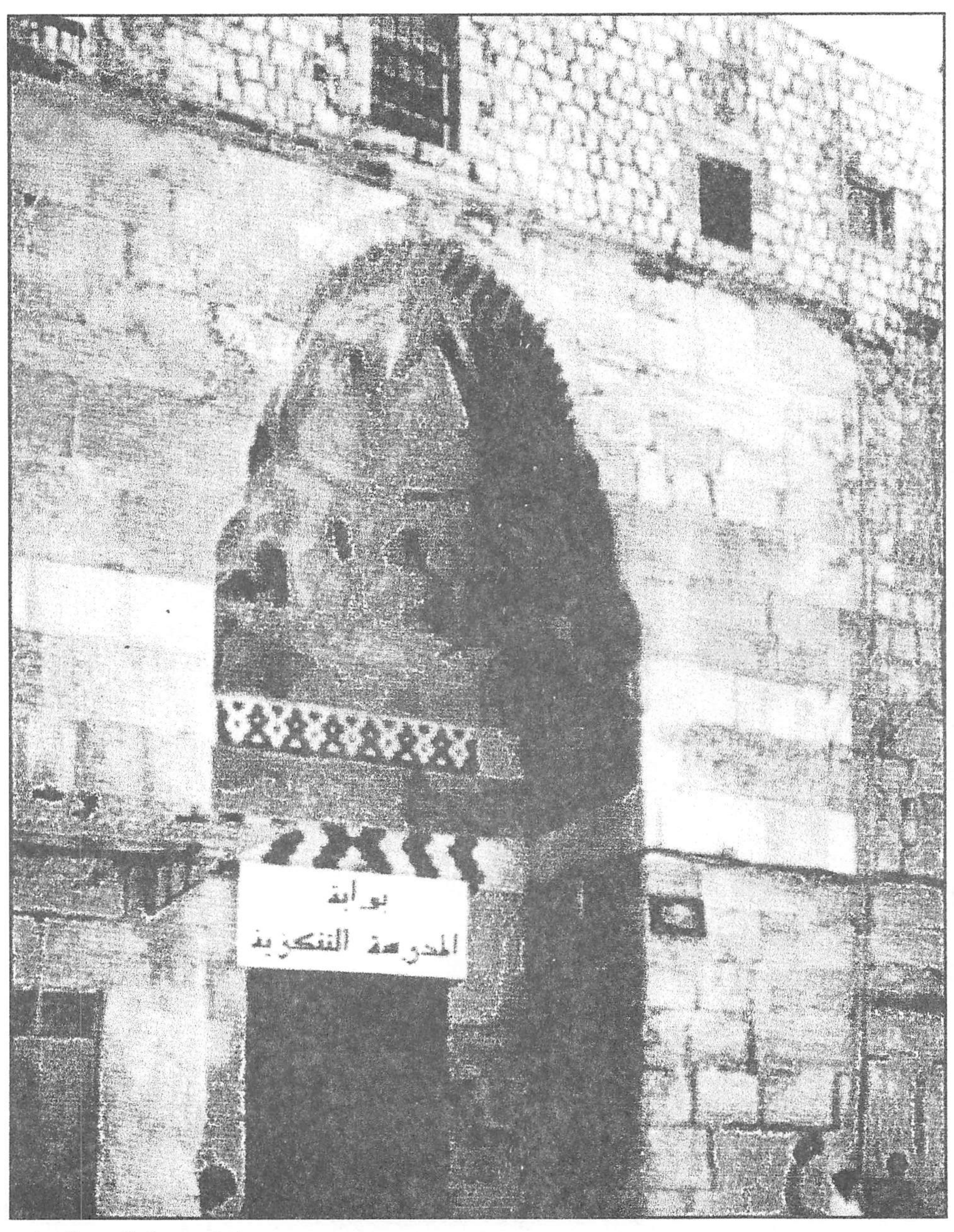


نقلا عن مجلة القدس الشريف

٢٩ التربة السعدية

٩- المدرسة الكريمية:

تقع في منطقة باب حطة شمالي الحرم، وعلى يمين الخارج من الحرم من الباب مباشرة، وواقفها هو كريم الدين عبد الكريم بن المعلم هبة الله بن مكانس ناظر الخواص الشريفة بالديار المصرية، أي أنه كان من أصحاب السلطة والنفوذ في دولة السلطان الناصر محمد(٤٨)، وكان ذلك في سنة ٧١٨هـ/١٣١٩م.(٤٩)



نقلا عن مجلة القدس الشريف

٣٠ بوابة المدرسة التنكزية

١٠- المدرسة التنكزية:

وهي من المدارس الشهيرة في القدس، وتقع على يمين الداخل الى الحرم الشريف من باب السلسلة وهو باب الحرم الرئيسي، ومبناها متقن البناء ولا يزال قائم حتى يومنا هذا، ولقد وصف مجير الدين الحنبلي هذه المدرسة قائلا: (هي مدرسة عظيمة ليس في المدارس أتقن من بنائها، وهي بخط باب السلسلة، ولها مجمع راكب على الأروقة الغربية للمسجد).[٤٩]

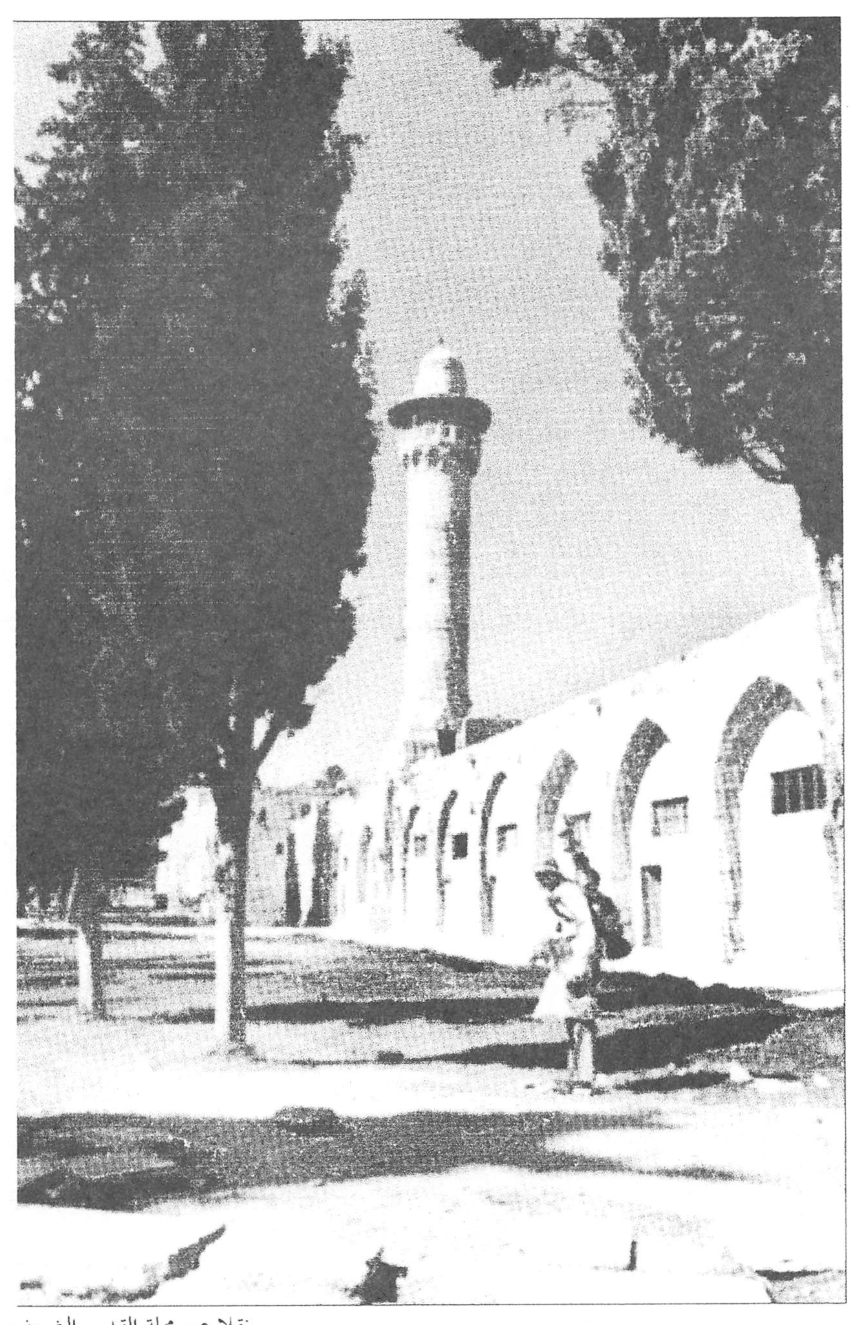
أما واجهة المدرسة الشمالية فهي تطل على ساحة صغيرة بباب السلسلة وواجهتها الشرقية تطل على رواق الحرم، والواجهة الجنوبية تشرف على حائط البراق، والواجهة الغربية تطل على المباني المجاورة لها.[٥٠]

عمّر هذه المدرسة سيف الدين تنكز نائب السلطنة بالشام، وكان من أشهر نواب السلاطين الذين حكموا الشام في عصر المماليك وكان ذلك سنة ٧٢٩ هـ/١٣٢٨م. ويقول د. كامل العسلي: (يتضح من الوقفية أن الصرح الذي شيده سيف الدين تنكز كان في الواقع مجمعاً مؤلفاً من عدة أجنحة، وكان البناء يشتمل على مدرسة وخانقاة للصوفية ودار حديث ورباط للعجائز من النساء، وكانت المدرسة تشغل الطابق الأرضي، أما الخانقاة فكانت كما هو ظاهر فوق رواق الحرم الملاصق لمبنى المدرسة وكان في علو المدرسة أحد عشر بيتاً للصوفية. وكان هناك فوق سطح المدرسة بيت كبير مخصص لرباط النساء في المدرسة).[٥٠]

١١- تعميرات في المسجد الأقصى:

من الآثار التي تمت على يد الأمير تنكز نائب السلطنة في الشام، الرخام المبني في الحائط الجنوبي للمسجد الأقصى عند المحراب لجهة الشرق، كما بنى أيضا الحائط الغربي للمسجد الأقصى.[٥١]

كما تم في عهده بناء أروقة في ساحة الحرم القدسي، وهي محكمة البناء وممتدة من جهة القبلة الى جهة الشمال، وأولها عند باب الحرم المعروف بباب المغاربة وآخرها عند باب



نقلا عن مجلة القدس الشريف

٣١ الأروقة الشمالية في ساحة الحرم الشريف

الغوانمة وكلها عمرت في عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون في فترات مختلفة، وعلى النحو التالي:

أ - الرواق الممتد من باب الناظر الى قرب باب الغوانمة، عمّر سنة ٧٠٧هـ/١٣٠٧م.

ب- الرواق الممتد من باب المغاربة الى باب السلسلة، عمّر سنة ٧١٣هـ/١٣١٣م.

ج- الرواق الممتد مما يلي منارة باب السلسلة الى قرب باب الناظر، وقد عمّر سنة ٧٣٧هـ/١٣٣٧م.[٥١]

١٢- قناة السبيل:

وهي القناة الواصلة من منطقة العروب الى مدينة القدس، وقد أمر بتجديدها الأمير تنكز، فابتدأ عمارتها سنة ٧٢٧هـ/١٣٢٦م، ووصلت الى القدس ودخلت الحرم الشريف سنة ٧٢٨هـ/١٣٢٧م.[٥٢]

١٣- المدرسة الأمينية:

وتقع على الجانب الغربي من الطريق المؤدي الى باب الحرم المعروف بباب شرف الأنبياء. ومبناها الذي ما يزال قائماً مؤلف من طابقين، وقد كانت المدرسة في الطابق الأرضي، أما الطابق العلوي فقد بني جزء منه فوق رواق الحرم وجزء آخر فوق باب العتم (الدوادارية).[٥٣]

كان شيخ هذه المدرسة يعين بتوقيع من نائب السلطنة في دمشق، وواقفها هو الصاحب أمين الدين عبد الله في سنة ٧٣٠هـ/١٣٢٩م.[٥٤]

والمدرسة الأمينية اليوم عامرة ومسكونة من قبل آل الامام، فقدكانت هذه المدرسة وقفا لهذه العائلة المقدسية منذ عدة قرون، وقد سكنها أفراد هذه العائلة لعدة أجيال متعاقبة.[٥٥]

١٤- الخانقاة الفخرية:

وهي بداخل سور الحرم في أقصى الجنوب الغربي منه، وبابها عند الباب الذي يخرج منه المارة الى حارة المغاربة، وواقفها هو القاضي فخر الدين أبو عبد الله محمد بن فضل الله ناظر الجيوش الإسلامية، وكانت وفاته سنة ٧٣٢هـ/١٣٣١م.[٥٦]

كانت في البداية مدرسة ثم أصبحت خانقاة للصوفية. وفيها مسجد وأماكن لإقامة الأذكار وأماكن أخرى خاصة لتهجد الصوفيين. وقد هدمتها السلطات الإسرائيلية سنة ١٩٦٩.[٥٧]

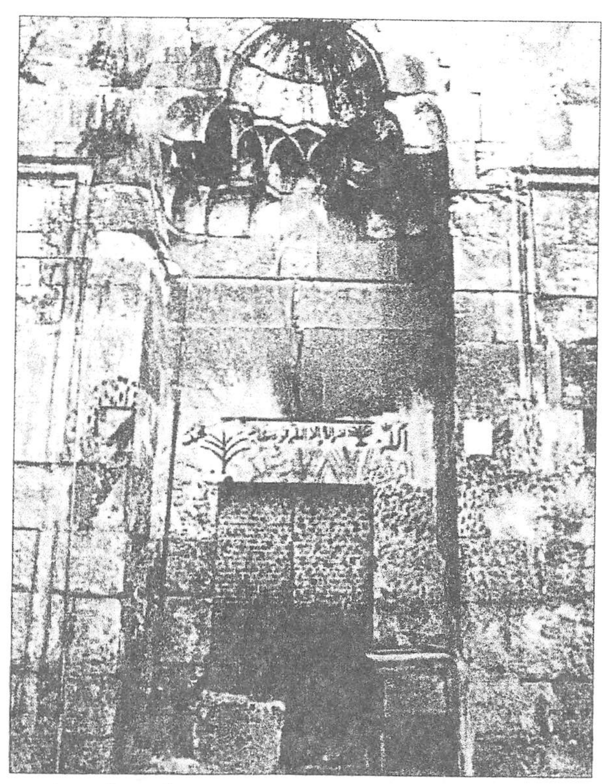
١٥- سوق القطانين :

يبلغ طول هذا السوق ١٠٠ متراً وعرضه ١٠ أمتار، وعلى جانبيه دكاكين، وكانت عند إنشائها سنة ٧٣٧هـ/١٣٣٦م[٥٨] معدة لبيع جميع أنواع الأقمشة والبضائع التي كانت تحملها القوافل التجارية من الهند الى القدس عن طريق بصرى وبغداد والموصل، ولكن أهمية هذا السوق تضاءلت عند اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٧م، ومن ثم أهمل هذا السوق تماما في أواخر العهد العثماني.[٥٨]

١٦- المدرسة الملكية (المالكية):

وهي تقع في الجهة الشمالية من الحرم ومجاورة للمدرسة الأسعردية من جهة الشرق، وقد ذكرها مجير الدين الحنبلي قائلا :(عمّرها الحاج الجوكندار.[٥٩] وكان بناؤها في سلطنة ا الناصر محمد بن قلاوون في مستهل محرم سنة إحدى وأربعين وسبعماية. وأما الوقف عليها فانه من زوجته ملك بنت السيفي قلطقتم الناصري. وتاريخ وقفها في السادس عشر من ربيع الآخر من سنة خمس وأربعين وسبعماية. والظاهر أن زوجها عمرها لها من مالها والله أعلم).[٦٠]

أما د. كامل العسلي فقد قال فيها: (يبدو أن المدرسة المالكية كانت تعرف قديما باسم



نقلا عن كتاب كنوز القدس

٣٢ المدرسة الملكية/ الجدار الخارجي والمدخل

القبة، فالسجل ٦٠٢ من سجلات الأراضي في استنبول يذكر وقف المدرسة المالكية المعروفة بالقبة، وتاريخ سجل محضر الوقف في سنة ٧٧٠هـ).[٦١] والمدرسة المالكية أصبحت في وقتنا الحاضر كمعظم المدارس دار للسكن، ويسكنها هذه الأيام جماعة من آل الخطيب، وفي المدرسة ضريح السيدة ملك السابق ذكرها.[٦١]

١٧- خان تنكز:

ويقع في الجهة الجنوبية من سوق القطانين، والمرجح أن الباني لهذا الخان هو الأمير تنكز نائب الشام وقام ببنائه عندما بنى سوق القطانين وفي نفس العام ٧٣٧هـ.[٦٢]

١٨- بناء حمام:

وهو واقع على يمين الداخل الى ســـوق القـــطانين من طريق الواد ويعرف اليوم بحمام العين.(٦٣)

هذا وقد قام الملك الناصر محمد بزيارة لمدينة القدس الشريف وقد ذكرها ابـــن تغرى بردى قائلا: (بدأ زيارته في يوم الخميس رابع جمادي الأولى ســـنة ٧١٧هــ/١٣١٧م، وقد سار معه خمسون أميرا و ناظر الخواص كريم الدين الكبـــير، وفخر الدين ناظر الجيش، و كتب الى الأمير تنكز نائب الشام أن يلقاه لزيارة القدس، فقام بـــزيارة معا لم المدينة ثم زار الكرك، وعاد الى الديار المصرية و كانت غيبته أربعين يوماً).(٦٣)

ويبدو أن مدينة القدس على الرغم من قدســـيتها، كانت تعتبر يومئذ منفى للذين يحل عليهم غضب السلطان، فقد حدثنا تغري بردى عن ذلك أيضا قائلا: (أن بـــعض الأمراء وشوا عند السلطان محمد بن قـــلاوون بمماليكه الذين يناوئنهم الســـلطة والنفوذ، فقـــام السلطان بنفيهم الى مدينة القدس.(٦٤)

بعد وفاة الملك الناصر محمد بن قلاوون تسلطن ثمانية من أولاده، و لم يأت واحدا منهم بأي عمل يذكر لا في مدينة القدس ولا في غيرها من البلدان، إذ ما كان يأتي الواحد منهم الى المُلك حتى يقوم أخوه عليه أو أحد أقاربه فيقتله أو يخلعه عن العرش وينتزع السلطة من يده، و كذلك كان الوضع على أيام المماليك الذين تسلطنوا من بـــعدهم، لم يحدث أي تغيير له صلة بمدينة القدس سوى أن حـــاكم القـــدس و كان يدعى الوالي أصبـــح بـــعد ســـنة ٧٧٧هــ/١٣٧٦م يدعى النائب(٦٥) أي نائب السلطان، و كان هذا يخابر السلطان رأساً. وبقى الحال هكذا الى أواخر عهد الملك الصالح حاجي بن شعبـــان (٧٨٣ هــ/١٣٨١م) وهو آخر من حكم من دولة المماليك البحرية أو التركمانية.

القدس
في عهد المماليك الشراكسة

المماليك الشراكسة أو الأبراج، وأصلهم من بلاد القفقاس وبلاد الشراكس وقد استقدمهم الملوك العرب وأكثر من استخدامهم العباسيون والأيوبيون والمماليك البحرية،وفي عهد السلطان المنصور قلاوون التركي كثر عددهم حتى وصل الى ٣٧٠٠ محارب، وكانوا يسكنون في أبراج قلعة القاهرة فعرفوا بالبرجية.(٦٦)

امتد نفوذ الدولة الشركسية ومقرها القاهرة الى جميع المناطق التي كانت بحوزة الدولة المملوكية السابقة، ومنها مصر وبلاد النوبة وسورية الطبيعية ومناطق كيليكيا وجبال طوروس الوسطى ومدائن صالح والحجاز حتى عسير من شبه الجزيرة العربية. وكان لفلسطين شأن خاص عند السلاطين الشراكسة لقدسيتها وموقعها الهام، وكانت نيابة القدس من المناصب التي يتنافس عليها كبار القادة والأمراء.

بلغ عدد السلاطين الشراكسة ٢٤ سلطانا، أولهم الملك الظاهر سيف الدين برقوق وأخرهم الملك الأشرف طومان باي، وقد حكم خمسة منهم ٨٩ سنة من أصل ١٣٥ سنة دامت فيها دولتهم(٦٦)، وهؤلاء هم : الظاهر برقوق، والأشرف برسباي، والظاهر جقمق، والأشراف قايتباي، والظاهر قانصوه الغوري.

كان تنصيب السلاطين يتم بانتخاب أكثر المرشحين كفاية، وكان يعاونهم في الحكم مجلس سلطنة يتألف من كبار القادة والأمراء ويسمى أعضاؤه أصحاب السيف وهم الذين ينتخبون السلطان ويبايعونه، ثم يبارك البيعة الخليفة العباسي وقضاة المذاهب الأربعة،وبذلك لم يكن هناك مكان للحكم الوراثي في عهدهم كما كان الحال عند المماليك الأتراك.

١- الملك الظاهر سيف الدين برقوق: حكم للفترة (٧٨٤هـ/١٣٨٢م- ٧٩١هـ/١٣٨٩م)

وحكم للمرة الثانية (٧٩٢هـ/ ١٣٨٩م- ٨٠١هـ/١٣٩٨م

يعد الملك الظاهر برقوق مؤسس دولة المماليك البرجية، وهو من موالي بني قلاوون وتمكن من القضاء على دولة المماليك البحرية وتولى الحكم عام (٧٨٤هـ/١٣٨٢م) وأقره الخليفة العباسي المتوكل على الله، ويذكر مجير الدين الحنبلي أنه تولى الحكم مرتين ودام حكمه سبعة عشر عاما.(٦٧)

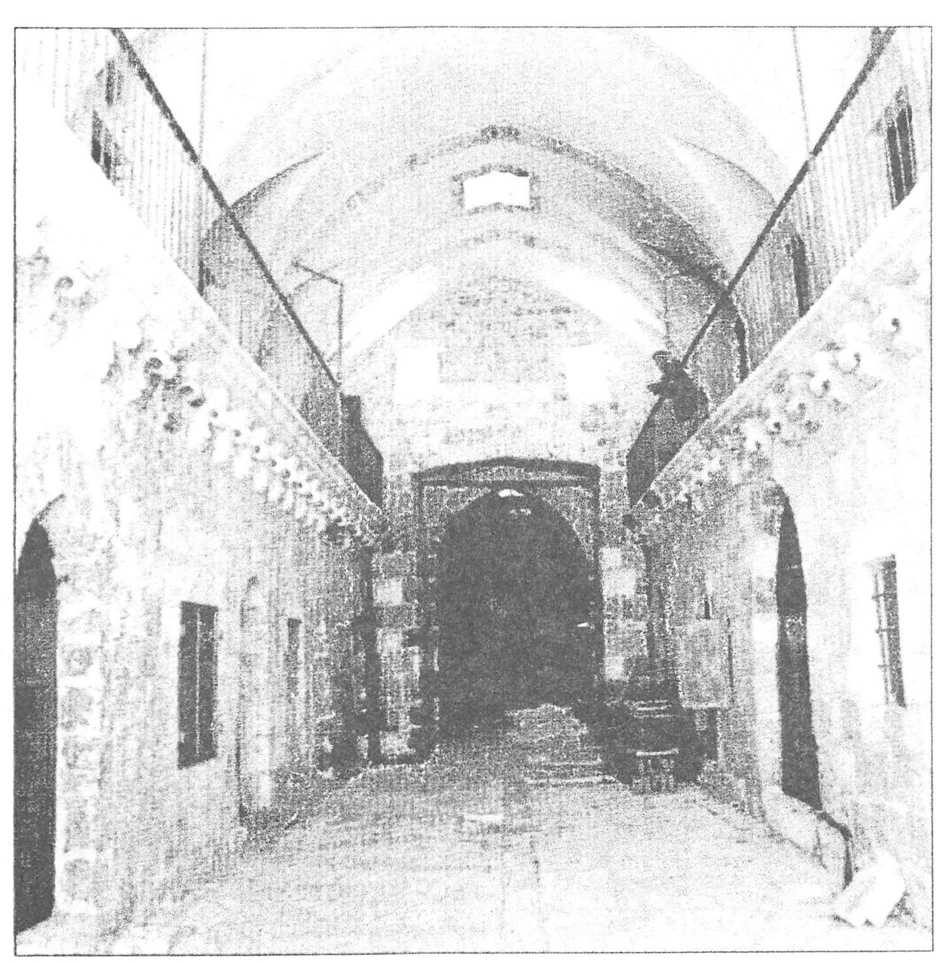
زار الملك الظاهر مدينة القدس وأبطل المكوس والمظالم والرسوم التي أحدثت من قبله في مدينة القدس(٦٧)، كما رد الأمير شهاب الدين أحمد اليغموري ناظر الحرمين الشريفين ونائب السلطنة بالقدس والخليل الى القدس الشريف.(٦٧) كما أقيمت في عهده بعض المنشآت الهامة نذكر منها :

١- خان السلطان:

وهو أشهر خانات القدس على الإطلاق، وقد عرف أيضا بدار الوكالة(٦٨)، ويقع الخان قرب طريق باب السلسلة، ويتوصل إليه من زقاق قصير يمتد من طريق باب السلسلة الى جهة الشمال، وهو قريب من سوق الخواجات (أي التجار) الذي يقع غربي الخان. والخان عبارة عن مبنى مؤلف من طابقين وله ساحة كبيرة نسبياً وهي محاطة بالحواصل والدكاكين والعنابر، وهذه كلها تقع في الطابق الأول.

أما في الطابق الأرضي للخان، فيوجد قاعات كبيرة تقوم على دعامات مربعة، وكان هذا الطابق يستعمل لتخزين البضائع ولإجراء المعاملات التجارية. الا أن مبنى هذا الخان حالياً في وضع مهمل بعد أن كان فخماً في قديم الزمان.(٦٩)

وفي الجهة الغربية من الزقاق المؤدي الى هذا الخان، يوجد لوحة من الرخام مكتوب عليها بالخط النسخي المملوكي (بسم الله الرحمن الرحيم، جدد هذه القيسارية(٧٠) المباركة وقف حرم القدس الشريف مولانا السلطان الملك الظاهر أبو سعيد برقوق خلد الله ملكه.



نقلا عن مجلة القدس الشريف

٣٣ مدخل خان السلطان

بنيابة مولانا ملك الأمراء كافل الممالك بالشام عزّ الله أنصاره، أنشاءه الفقـــير الى الله تعالى السيفي أصبغا بن بلاط ناظر الحرمين الشريفين في سنة ثمان وثمانين وسبعماية).[٧١]

٢- بركة السلطان:

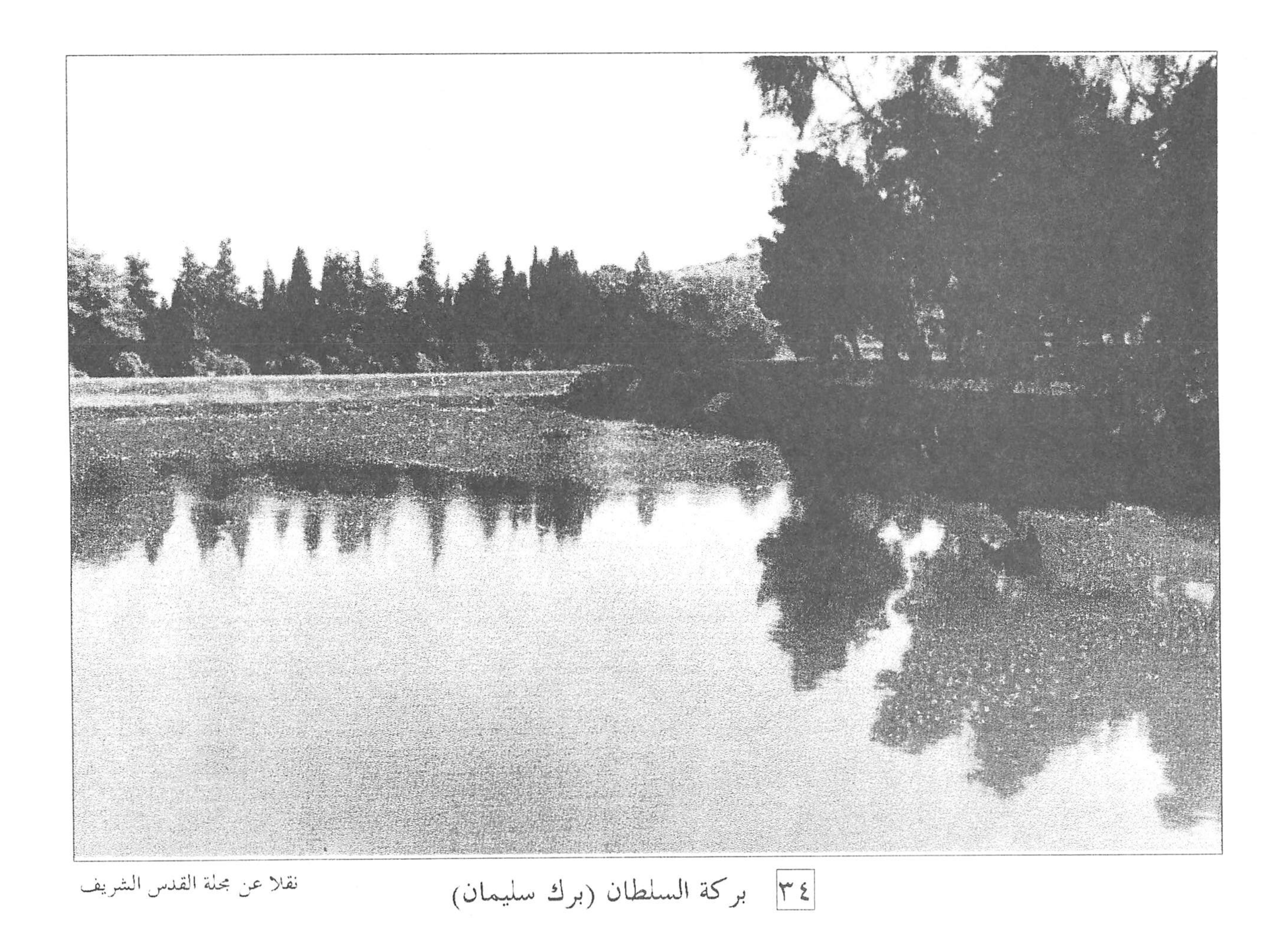
وهي تقع مقابل جبل صهيون الى جهة الغرب، وتعتبر أكبر برك القدس مساحة إذ يبلغ طولها ١٧٠ متراً وعرضها ٨٠ متراً ومساحتها حوالي ١٤ ألف متر مربع.[٧١]

من خلال الدراسات التي نشرت عن المواقع والأثارات المقدســية تدل على أن البركة قديمة جداً وأنها كانت موجودة منذ أن دمر تيطس الروماني المدينة سنة ٧٠ م، وقـــد جرى تعميرها عدة مرات إحـــداها كان في ســـنة ٨٠١ هــ/١٣٩٨م أي في عهد الملك الظاهر برقوق.

٣- دكة المؤذنين:

في عهده أيضا تم تجديد دكة المؤذنين الكائنة داخل قبة الصخرة تجاه المحراب، ويظهر أن هذه الدكة قديمة البناء وقد نقش عليها: بسم الله الرحمن الرحيم، جددت هذه الســـدّة المباركة بالصخرة الشريفة في أيام مولانا السلطان الملك الظاهر ابن سعيد برقوق ... تاريخ مستهل شوال ٧٨٩هــ/١٣٨٧م.[٧٢]

٤- مسطبة الظاهر: وهي الكائنة أمام باب الغوانمة وتم تعميرها سنة ٧٩٥هــ/١٣٩٣م.[٧٣] وبوفاة الملك الظاهر برقوق تسلطن ولده الملك الناصر فرج.



٣٤ بركة السلطان (برك سليمان)

نقلا عن مجلة القدس الشريف

٢- الملك الناصر فرج بن برقوق : حكم في الفترة (٨٠٣هـ/١٤٠٠م- ٨٠٨هـ/١٤٠٥م)
وحكم في الفترة (٨٠٨هـ/١٤٠٥م- ٨١٥هـ/١٤١٢م)

تولى الملك الناصر فرج والمعروف بأبي السعادات زين الدين الحكم مرتين، وعلى الرغم مما اشتهر به في التاريخ من سوء السيرة الا أنه في عام ٨١٥هـ/١٤١٢م قام بزيارة لمدينة القدس ونزل بالمدرسة التنكزية، ووزع على الناس خمسة آلاف دينار وعشرين ألف فضة[٧٤]، وهو مبلغ كبير بالنسبة لمقاييس ذلك العصر. ومن جملة الأمور التي نظمها في مدينة القدس أن لا يكون نائب القدس هو نفسه ناظر الحرمين الشريفين.[٧٥]

وبعد وفاة الملك الناصر فرج تسلطن العديد من المماليك البرجية الا أنه لم يحدث في القدس أية حوادث تستحق الذكر الى أن تسلطن الملك الأشراف برسباي.

٣- الملك الأشرف برسباي الظاهري: حكم في الفترة (٨٢٥هـ/١٤٢٢م- ٨٤١هـ/١٤٣٧م)

وهو من عتقاء الملك الظاهر برقوق، وكان يلقب بأبي النصر البرسباي الدقماقي، وقد بويع بالسلطنة عام ٨٢٥ هـ/ ١٤٢٢م ودام في الحكم ستة عشر سنة. وأقيم في عهده إنشاءات عديدة كانت أهمها على الإطلاق بناء وتشييد المدارس في المدينة المقدسة منها:

١- المدرسة الباسطية:

وهي تقع شمالي الحرم بالقرب من باب شرف الأنبياء (باب العتم). ويلاصق بعضها المدرسة الدوادارية من جهة الشمال الشرقي. وواقفها هو القاضي زين الدين عبد الباسط بن خليل الدمشقي ناظر الجيوش المنصورة وعزيز المملكة.

أول من اختط أساس المدرسة وقصد عمارتها شيخ الإسلام شمس الدين محمد الهروي شيخ المدرسة الصلاحية وناظر الحرمين الشريفين، الا أنه توفي قبل إتمام عمارتها، فعمّرها القاضي زين الدين عبد الباسط المذكور ووقفها على الصوفية سنة ٨٣٤ هـ/ ١٤٣١م[٧٥]، وهي ما تزال عامرة حتى يومنا هذا حيث يشغل جزءاً منها دار للسكن والجزء الآخر يؤلف مع المدرسة الدوادارية المدرسة البكرية للبنين.[٧٦]

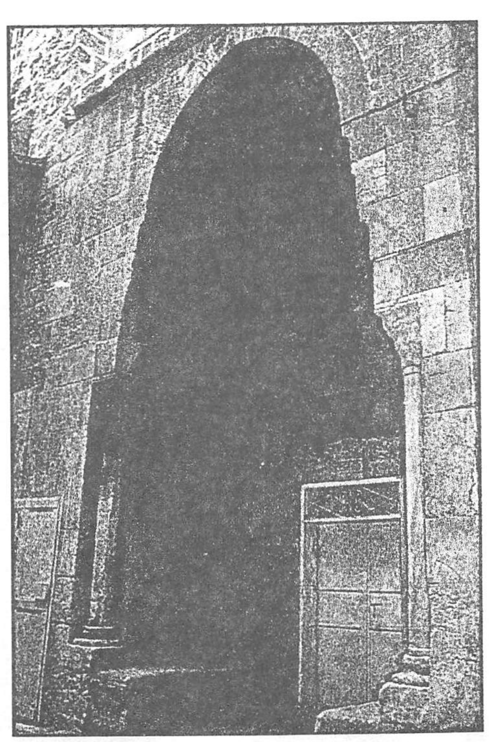
٢- المدرسة الغادرية :

وكانت تقع في الجهة الشمالية من ساحة الحرمين الشريفين بين باب حطة ومئذنة باب الأسباط. وواقفها هو الأمير ناصر الدين محمد بن دلغادر بعد أن عمرتها زوجته (مصر خاتوم) سنة ٨٣٦هـ/١٤٣٣م[٧٧]، وقد وصفها الشيخ عبد الغني النابلسي في أواخر القرن الحادي عشر قائلا: (ثم توجهنا ودخلنا المدرسة الغادرية فوجدناها عظيمة البنا واسعة الفنا مشتملة على أشجار الورد ولها الرونق واليها بين المدارس كالعلم الفرد....).[٧٨] أما اليوم فقد استحالت المدرسة الى خرابة.

٣- المدرسة الحسنية :

وهي آخر المدارس في الجهة الشمالية من ساحة الحرم، وتقع عند باب الأسباط بالضبط.[٧٨] وحدثنا مجير الدين الحنبلي عنها قائلا:(أنه لم يتحقق من أمرها ولكنه أخُبر أن واقفها هو شاهين الحسني الطوشي من دولة الملك الناصر حسن المتوفي سنة ٧٦٢هـ).[٧٩]

ويقول فيها د . كامل العسلي (الظاهر أن الإجراءات الخاصة بوقف هذه المدرسة لم تتم لأن الواقف توفي قبل ذلك ولهذا فإنها لم تصبح مدرسة بالفعل فصارت دار سكن، وأصبح ريعها يستوفى لجهة أوقاف المسجد الأقصى).[٨٠] وبذلك يكون بناؤها حوالي العام ٧٦٠هـ.

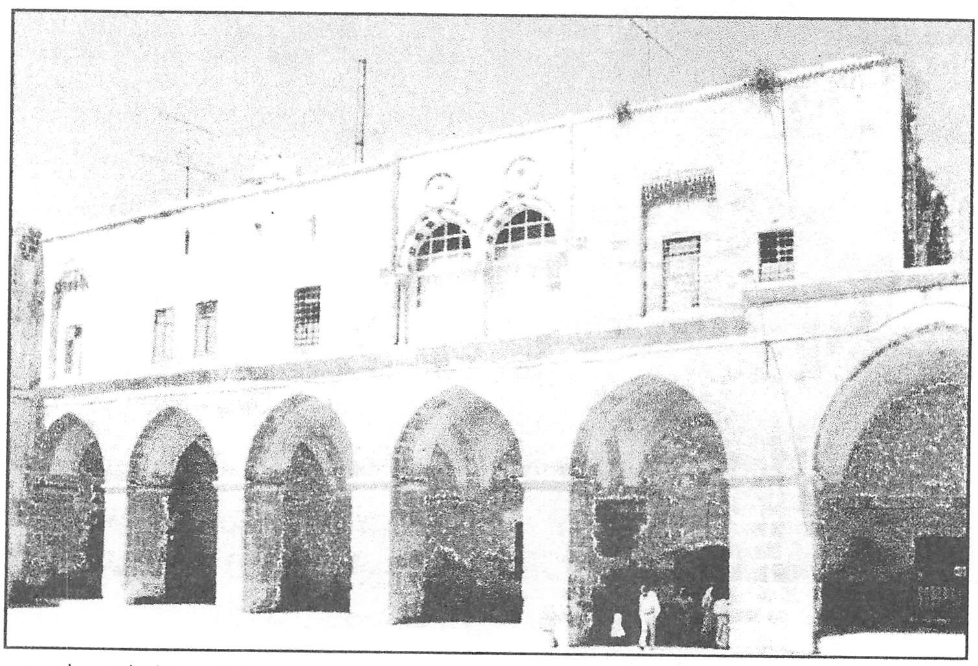


نقلا عن كتاب كنوز القدس

٣٥ المدرسة الحسنية (المدخل الرئيسي)

٤ - المدرسة العثمانية:

وهي واقعة على يسار الخارج من الحرم من باب المطهرة (باب المتوضأ قديما) وكانت المدرسة العثمانية من المدارس الهامة في القدس، ويظهر ذلك من أسماء الذين تولوا التدريس فيها، وأكثرهم من كبار علماء الحنفية في القدس منهم : الشيخ الامام سراج بن مسافر بن يحيى عالم الحنفية بالقدس الشريف، وهو رومي الأصل وقدم الى مدينة القدس سنة ٨٢٨ هـ.[٨١] والشيخ سراج الدين عمر بن أبي اللطف المفتي بالديار المقدسية سنة ٩٩٠ هـ والشيخ جار الله بن أبي بكر بن محمد المعروف بابن أبي اللطف مفتي الحنفية بالقدس، وقد توفي سنة ١٠٢٨ هـ.[٨٢]



نقلا عن مجلة القدس الشريف

٣٦ المدرسة العثمانية

واقف المدرسة العثمانية هي امرأة من أكابر الروم واسمها أصفهان شاه خاتون، وتدعى خانم، وقد عينت لها أوقافا كثيرة ببلاد الشام وغيرها من البلاد، وقد توفيت الخاتون بالقدس ودفنت بالتربة المجاورة لسور المسجد الأقصى الشريف. وعلى مدخل المدرسة نقش يفيد بأن بناء المدرسة كان سنة ٨٤٠هـ/١٤٣٧م[٨٣] والمدرسة اليوم هي دار للسكن وتعرف بدار الفتياني حيث يسكنها جماعة من آل الفتياني.

وفي عهد الملك الأشرف برسباي تم وضع مصحفاً كبيراً تجاه محراب المسجد الأقصى، ووقف على هذا المصحف مالا لمن يقوم بالقرأة فيه، ومالا لخادم يسهر على سلامته من التلف.[٨٤] كما اشترى الأمير أركاس الجلباني نائب السلطان بالقدس ضياعا للوقف على مصالح المسجد الأقصى والصخرة المشرفة، وقد نُقش بذلك على رخامة الصقت بحائط الصخرة.[٨٥] كما تم تجديد سبيل علاء الدين البصيري والكائن غربي الحرم سنة ٨٣٩هـ/ ١٤٣٥م.[٨٦]

٤ - الملك الظاهر جقمق : حكم في الفترة (٨٤٢ هـ/١٤٣٨م- ٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م)

كان الملك الظاهر على قدر عظيم من الديانة والعفة والشجاعة، وقد أنعم على أوقاف القدس والخليل في زمن الناظر شمس الدين الحموي الظاهري بمبلغ ٢٥٠٠ دينار ذهباً و١٢٠ قنطارا من الرصاص برسم العمارة.[٨٧] وفي أيامه كان القاضي عز الدين خليل السخاوي هو ناظر الحرمين الشريفين بالقدس الشريف والخليل، فأقام نظام الحرمين الشريفين ورتب فيهما الوظائف.[٨٧]

وفي عهده وبالتحديد في سنة ٨٥١ هـ/١٤٤٧م حُرق جانب من سقف الصخرة الشريفة، فأمر بتعمير السقف فكان تعميرها بأحسن مما كان.[٨٧] كما وقع الحادث الآتي في عهده :كان الملك جقمق قد أرسل خاصكيا اسمه اينال باي وزوده بأمر ملكي للشيخ محمد المشمر أحد جماعة الشيخ شهاب الدين بن أرسلان يطلب فيه الكشف على الأديرة، فهدم ما استجد بدير صهيون وغيره، وانتزع قبر داود من أيدي النصارى، كما قلع الدرابزين المستجد بكنيسة القيامة وكان ذلك في سنة ٨٥٦هـ/ ١٤٥٢م.[٨٧]

٥- الملك الأشرف اينال: حكم في الفترة (٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م- ٨٦٥هـ/ ١٤٦٠م)

تم في عهده في عام ٨٦٥هـ/ ١٤٦٠م تعمير المسجد الأقصى وكان ذلك على يد ناظر الحرمين الشريفين الأمير عبد العزيز العراقي المشهور بابن المعلاق.[٨٨]

٦- الملك الظاهر خوشقدم: حكم في الفترة (٨٦٥هـ/١٤٦٠م- ٨٧٢هـ/١٤٦٧م)

تم في عهده إبطال المظالم التي كانت في القدس، ونُقش بذلك رخامتين الصقـتا بحائط المسجد الأقصى من جهة الغرب[٨٩]، ووضع في مسجد الصخرة الشريفة مصحفاً كبيراً، كما شرع بتعمير قناة السبيل الواصلة من منطقة العروب الى القدس.[٨٩]

٧- الملك الأشرف قايتباي الظاهري: حكم في الفترة (٨٧٢هـ/١٤٦٧م- ٩٠٢هـ/١٤٩٧م)

وهو من مماليك السلطان الأشرف برسباي ثم انتقل الى خدمة السلطان الظاهر جقمق فأعتقه، وقد بويع بالسلطنة بحضرة أمير المؤمنين المستنجد بالله أبي المظفر العباسي وكان يلقب بخادم الحرمين الشريفين المسجد الأقصى ومسجد الخليل، وقد دام في الحكم قرابة ثلاثين عاما، وكان يحب مدينة القدس كثيراً وله فيها أصدقاء وذلك لقضائه فيها زهاء خمسة أعوام منفياً ومغضوباً عليه من السلطان قبل توليه السلطنة.[٩٠]

ولقد شهدت المدينة المقدسة في عهده عدة حوادث هامة كانت لها انعكسات واضحة وهامة على الحياة الاجتماعية والحضارية لسكان المدينة نذكر أهمها:

الحادثة الأولى: حدثنا مجير الدين الحنبلي في كتابه الأنس الجليل: أن الملك الأشرف قايتباي عندما تسلطن أمر بالإفراج عن الأمراء المقيمين بالقدس في زمن السلطان الظاهر خوشقدم، وهم بيبرس خال العزيز وبيبرس الطويل وجابي بك المشد وغيرهم، ثم عاد فاعتقلهم.[٩١]

الثانية: في سنة ٨٧٣ هـ/١٤٦٨م وقع خلاف بين برديك التاجي ناظر الحرمين

ودمرداش العثماني نائب السلطنة بالقدس، وسرى الخلاف الى السكان في المدينة فانشطروا الى قسمين، قسم يؤيد هذا وآخر يؤيد ذاك، ونتيجة لاختلاف رجال الحكم اختل الأمن في المدينة وكثرت السرقات وانتشر قطاع الطرق في مختلف المناطق.

الثالثة: في سنة ٨٧٤ هـ/١٤٦٩م نزل بالقدس بأمر من السلطان أحد الخزندارية بالخدمة الشريفة الأمير ناصر الدين محمد النشاشيبي لإصلاح ما اختل من نظام أوقاف الحرمين[٩١]، فنظر في صالح الأوقاف وعمّر المسجد الأقصى.

الرابعة: في سنة ٨٧٥ هـ استقر الأمير ناصر الدين محمد النشاشيبي في نظارة الحرمين بالقدس والخليل. وكان دخوله الى القدس الشريف في يوم الجمعة ١٨ محرم وكان يوما مشهودا فقريء توقيعه بعد صلاة الجمعة، وأوقد المسجد في تلك الليلة، وشرع في عمارة الأوقاف بعفة وشهامة، وكان يكثر من مجالسة العلماء والفقهاء ويحسن اليهم.[٩١]

وفي سنة ٨٧٧ هـ شرع الأمير ناصر الدين النشاشيبي في عمارة الدرجة المتوصل منها الى صحن الصخرة الشريفة تجاه باب السلسلة المجاورة للقبة النحوية، وكان قبلها درجة ضيقة عليها قبو معقود وكان يسمى زقاق البؤس، فسدّه وبنا فوقه درجة جديدة وعمل لها قناطر على عُمد كبقية الأدراج التي بالصخرة. وحصل بها ابتهاج لكونها تقابل باب السلسلة وهو عمدة أبواب الحرم.[٩١]

كما عمّر الأمير ناصر الدين المسجد الأقصى وصرف المعاليم وباشر تدبير الأمور حتى صلح منها ما فسد في زمن برديك التاجي، وتقدمت أحوال بيت المقدس الى الخير وتباشر الناس بالفرج بعد الشدة.[٩١]

الخامسة: في سنة ٨٧٨ هـ/١٤٧٣م حدثت فتنة في مدينة القدس بدأت بخلاف وقع بين جماعتين قاطنتين بالقدس، جماعة الدارية وجماعة الأكراد، ثم تطور هذا الخلاف الى قتال نتج عنه مقتل ثمانية عشر نفرا من الفريقين[٩١]، و لم ينته الخلاف عند هذا الحد بل استنفرت كل من الجماعتين من ينتصر لها من عشائر البدو، فأغاروا على المدينة وعملوا فيها نهبا وتخريبا، ويصف الحنبلي ما حصل من جراء هذه الغارة بقوله (فدخلوا الى المدينة ونهبوا ما

فيها عن آخره الا القليل منها وخربت أماكن .... وكانت حادثة فاحشة لم يسمع مثلها في هذه الأزمنة).[91]

السادسة: في سنة ٨٨٠ هـ/١٤٧٥م زار السلطان الأشرف قايتباي الظاهري مدينة القدس، وعلى الرغم من أن زيارته للمدينة لم تتجاوز الثلاثة أيام فقد أزال ما كان في مدينتي القدس والخليل من مظالم وتصدق فيها بستة آلاف دينار.[92]

السابعة: وفي العام ٨٨٥ هـ/١٤٨٠م حصلت بالقدس فتنة، كان سببها أنه في هذه السنة أراد نائب القدس ناصر الدين بن أيوب أن يضع حداً لغارات البدو والعشائر على المدينة، فقبض على جماعة من بني زيد وقتلهم[93]، غير أن هذا الأجراء من قبل نائب القدس لم يكن رادعا للبدو كما كان متوقعا، بل أدى الى ثورة بني زيد للانتقام، فهجم عدد كبير منهم على المدينة وراحوا يضيقون الخناق على النائب لقتله، ولما علم النائب ناصر الدين بن أيوب بما يجري في المدينة فرّ من مترله الا أنه وجد نفسه محاطا بالقوم ولم ينج الا بعد أن اجتاز المسجد الأقصى وهو راكب حصانه الى خارج المدينة[93]،ولما فشلوا في الانتقام منه توجهوا الى السجن وكسروا بابه وأخرجوا المسجونين منه، ثم تفرقوا في الشوارع والأسواق للنهب والسلب، ويقول مجير الدين الحنبلي واصفا الوضع على ما كان عليه (شرع العرب في قطع الطرق وايذاء الناس، وحصل الإرجاف في الناس وأغلقت الأسواق والمنازل خشية النهب وكانت فتنة فاحشة).[93]

ومن المنشآت الهامة التي أقيمت في المدينة المقدسة في عهده نذكر منها:

١- الرباط الزمني:

في سنة ٨٨١ هـ/١٤٧٦م أسس الخواجكي[94] شمس الدين محمد بن الزمن أحد خواص الملك الأشرف قايتباي هذا الرباط الكائن على يمين الخارج من الحرم من باب المطهرة (المتوضأ قديما) تجاه المدرسة العثمانية وهو فوق الإيوان الذي بباب القطانين وبابه من داخل الحرم[95]، ودار الرباط تابعة لدائرة الأوقاف الإسلامية في القدس، ويسكنها جماعة من آل العفيفي وهي تعرف بهم.[95]

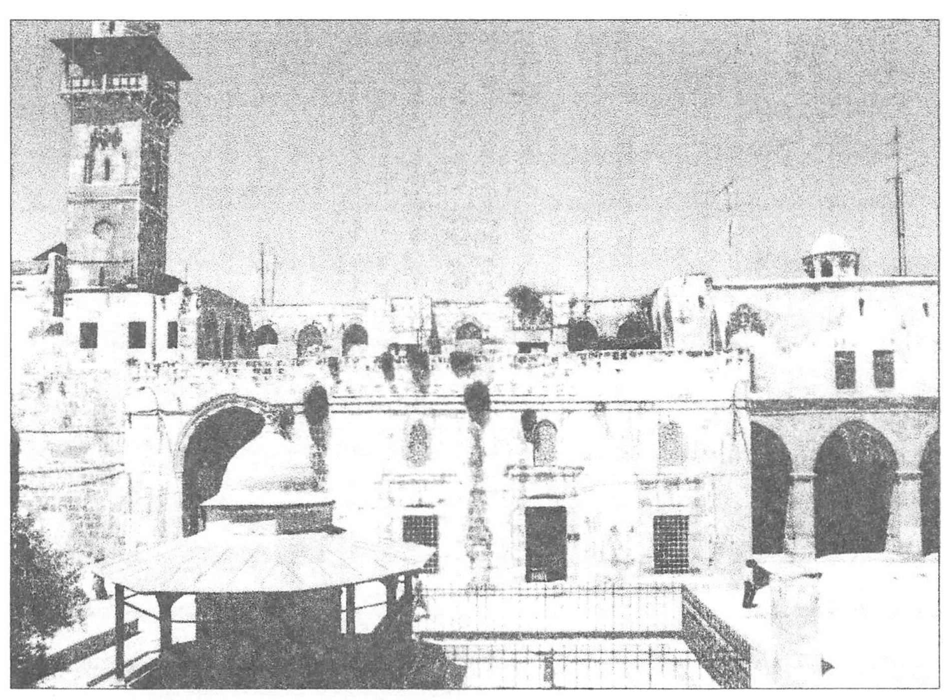
٢- مدرسة الأشرفية :

في سنة ٨٨٥ هـ/١٤٨٠م أمر الملك الأشرف قايتباي بتعمير المدرسة المعروفة باسمه (الأشرفية) والكائنة على ميسرة الداخل الى الحرم عند باب السلسلة، وقد بناها في الأصل الأمير حسن الظاهري باسم الملك الظاهر خوشقدم سنة ٨٧٥ هـ/١٤٧٠م، ولكنه لم يتم بناءها إذ توفي الملك الظاهر فقدمها الأمير حسن الى الملك الأشرف قايتباي فنسبت إليه وسماها الأشرفية.[٩٦]

ولهذه المدرسة شهرة خاصة بين مدارس القدس لكونها أفخم مدارس القدس بناءً، فقد وصفها مجير الدين الحنبلي بقوله (كانوا يقولون قديما مسجد بيت المقدس به جوهرتان هما قبة الجامع الأقصى وقبة الصخرة الشريفة. فقلت : وهذه المدرسة صارت جوهرة ثالثة فإنها من العجائب في حسن المنظر ولطف الهيئة).[٩٧]

والواقع أن هذه المدرسة بنيت ثم هدمت ثم بنيت مرة ثانية، فقد قيل أنها بنيت لأول مرة حوالي سنة ٨٧٠ هـ وبانيها هو الأمير حسن الظاهري ناظر الحرمين الشريفين ونسبها للملك الظاهر خوشقدم، وقد أنفق الأمير الظاهري على المدرسة من ماله الخاص وافتتحت للتدريس لأول مرة في سنة ٨٧٧ هـ، واستمر التدريس فيها لفترة ربما حتى عام ٨٨٠هـ، وفي تلك السنة زار السلطان قايتباي القدس و لم تعجبه المدرسة فأمر بهدمها وتوسيعها، وفي سنة ٨٨٥ هـ هُدم البناء القديم وبدأ العمل في حفر أساس المدرسة الجديدة.[٩٦] وفي سنة ٨٨٦ هـ) سيّر السلطان الى القدس الشريف من القاهرة جماعة من المعماريين والمهندسين والحجارين لعمارة مدرسته، وكان المتولي لذلك القاضي فخر الدين بن نسيبة الخزرجي.[٩٧] وفرغ من بناء المدرسة سنة ٨٨٧ هـ فجاء البناء الجديد للمدرسة آية في الفخامة والبهاء فاقت كل ما سبقه وما تلاه من مدارس القدس.

كانت المدرسة تتألف من طابقين، ولها مدخل جميل مصنوع من الأحجار الملونة يعقبه دركاة ... وكان التدريس في الطابق العلوي، حيث كان هناك أربعة أواوين متقابلة أكبرها الإيوان القبلي والذي كان بصدره محراب ... وكانت معظم أحجار المدرسة من الرخام



نقلا عن مجلة القدس الشريف

٣٧ الواجهة الأمامية للمدرسة الأشرفية بالقدس الشريف

ووضع على ظاهرها الرصاص المحكم كظاهر المسجد الأقصى، وفي أيامنا هذه لم يبقى من المدرسة الأشرفية الا بقايا قليلة فقد هدمت أجزاء كثيرة منها بسبب طول العهد والزلازل والإهمال.

٣- سبيل قايتباي:

في عام ٨٨٧ هـ/١٤٨٢م[٩٨] أمر السلطان الأشرف قايتباي ببناء السبيل المعروف بسبيل قايتباي، الذي يقع في الساحة الكائنة بين باب السلسلة وباب القطانين وعلى بعد خمسين متراً من جدار الحرم الغربي بين درج صحن الصخرة الغربي الأوسط والمدرسة العثمانية (دار الفتياني) وهو يقوم على مسطبة مكشوفة وفيها محراب في الزاوية الشمالية الغربية من المصطبة.[٩٩]

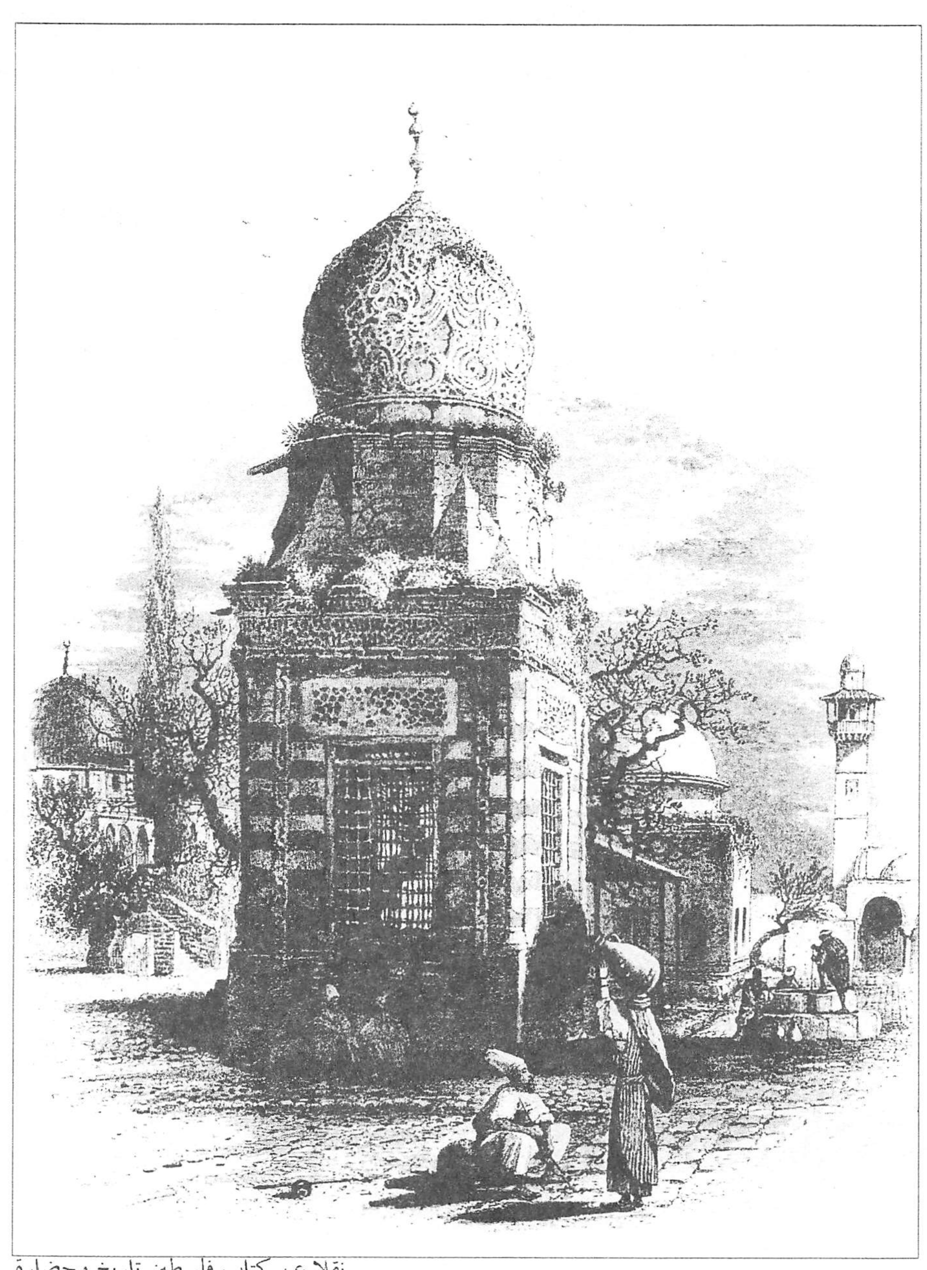
٤- مأذنة الجامع العمري:

أمر السلطان قايتباي في ذات العام ٨٨٧هـ/١٤٨٢م ببناء مأذنة الجامع العمري المعروف اليوم بجامع عمر بجوار كنيسة القيامة.[١٠٠]



نقلا عن مجلة القدس الشريف

٣٨ مأذنة الجامع العمري



نقلا عن كتاب فلسطين تاريخ وحضارة

٣٩ سبيل قايتباي

في عهد السلطان الأشرف قايتباي تقلب على نيابة بيت المقدس عدد من النواب الذين ساءت سيرتهم وكثر ظلمهم للناس، ومنهم النائب السيفي خضر بك الذي كان ظالما للناس ومصادراً لأموالهم وسفاكا لدمائهم، فساءت سيرته كثيراً وكثر المشتكون منه للسـلطنة، فأمر الأمير تغري ورمش دوادار المقر السيفي بالتحقق من أفعاله وجرى التحقـيق في عام ٨٩٢ هـ/١٤٨٦م عند المحراب في داخل المسجد الأقصى ثم بالمدرسة الأشرفية والمدرسة العثمانية ودام التحقيق عشرة أيام، ومن ثم رفع الدوادار تقريره الى السلطان الذي استحضره الى مصر وضربه وأمره برد كافة ما أخذه من الناس، ثم أقاله من عمله وسجنه.[١٠٠]

بعد أن أقيل خضر بك من نيابة السلطنة بالقـدس تولاها الأمير دقـماق سـنة ٨٩٣ هـ/١٤٨٧م و لم يكن هذا بأفضل من سابقه، فقد كان ظالما عسوفا وكثرت السرقـات وحوادث القتل في عهده، كما اختل نظام المسـجد الأقـصى فرفع الناس شـكواهم الى السلطان، فأرسل خاصكيا اسمه (أزبك) الى مدينة القدس بقصد التحقيق، وبعد التحقـيق أمر الخاصكي بكف يد النائب عن العمل ورفع تقريره الى السلطان، الا أن التقرير وقع في يد الدوادار الكبير وكان من أنصار النائب فلم يصل التقرير الى السـلطان، و لم يقـر الدوادار الخاصكي في عمله بل عنفه من أجل توقيفه النائب عن عمله، فعاد الأمير دقـماق الى عمله وراح ينتقم من الناس أشد انتقام، الا أن المقدسيين ثابروا على رفع شكواهم ضد النائب الى المقامات العليا حتى أقيل النائب من منصبه سنة ٨٩٦ هـ/١٤٩٠م.[١٠١]

نهاية الدولة المملوكية:

حدثتنا كتب التاريخ أن صلات المماليك بالدول المجاورة في مطلع القرن العاشر للهجرة الموافق للخامس عشر الميلادي كانت سيئة للغاية ولا سـيما مع الأتراك العثمانيين. ففي عهد السلطان قايتباي وبالتحديد في عام ٨٨٩ هـ/١٤٨٤م بدأ الخلاف بين دولة المماليك بزعامة السلطان قايتباي من جهة ودولة الأتراك العثمانيين بزعامة السلطان بايزيد خان من جهة أخرى، وأخذت كل دولة منهم بحشد جيوشها على الحدود لقـتال جارتها، الا أنه لم تجر أية مناوشات بين الفريقين.[١٠٢]

وفي عام ٨٩٥ هـ/١٤٨٩م اشتدت الأزمة بين البلدين حتى اضطر فيها السلطان قيتباي أن يصدر أوامره لقادة جيشه بأن يكونوا على أهبة الاستعداد للهجوم، لكن الأمور عادت وهدأت بينهما في سنة ٨٩٦ هـ/١٤٩٠م واصطلح الفريقان.

عاش السلطان قايتباي بعد مصالحة الدولة العثمانية خمس سنوات الى أن توفي عام ٩٠١هـ/١٤٩٥م ومن بعده سادت الفوضى في البلاد ودامت خمس سنوات، فلا يكاد يعتلي العرش سلطان حتى يثور ضده مماليكه وأعوانه فيخلعونه أو يقتلونه، حتى كان عام ٩٠٦هـ/١٥٠٠م وتولى المُلك السلطان الأشرف قانصوه الغوري وقد دامت سلطنته خمسة عشر عاما تقريبا.

الا أن السلطان قانصوه الغوري اقترف خطأ بأن رحب بـ (قورقود) شقيق السلطان سليم بن يزيد العثماني الذي اختلف مع أخاه من أجل الملك وفرّ منه والتجأ الى مصر، و لم يكتف قانصوه الغوري بالترحيب به بل جهزّه بعشرين بارجة بحرية لفتح القسطنطينية، الأمر الذي أغضب السلطان سليم وجعله يفكر في فتح مصر، فسار اليها ، وفي معركة مرج دابق (٩٢١هـ/١٥١٦م) قرب حلب تغلب على المماليك وقتل سلطانهم قانصوه الغوري، وبانتصاره هنا وضع السلطان سليم العثماني حداً لحكم المماليك في بلاد الشام، ثم تابع زحفه جنوبا نحو مصر وانتصر على المماليك ثانية خارج القاهرة في عام ٩٢٢هـ/١٥١٧م[١٠٣]، وعند دخوله مصر أمر بشنق السلطان طومان باي، وبموته انتهت دولة المماليك الشراكسة وبدأ عهد جديد في تاريخ بلاد الشام وفلسطين وغيرها من الدول العربية وهو العهد العثماني.

سكان القدس
في عهد المماليك

امتازت مدينة القدس عبر تاريخها الطويل بـــأهمية دينية وحـــضارية فريدة بحكم صلة الديانات السماوية الثلاث بها، الإسلامية والمسيحية واليهودية، لذا كانت مدينة القدس في زمن المماليك تضم أبناء الديانات السماوية الثلاث باعتبارها مقدسة عندهم جميعاً، وعلى هذا الأساس نستطيع تقسيم السكان الى ثلاث قطاعات دينية كبرى:

أولا: القطاع الإسلامي

لا نستطيع تقدير عدد المسلمين في مدينة القدس في تلك الفترة بشكل دقـــيق، الا أننا نستطيع القول أنهم كانوا يشكلون الأغلبية الساحقة للسكان، والقـــطاع الإســـلامي شمل العديد مما يمكن تسميتهم تجاوزا عناصر سكانية مختلفة حـــيث ضم المماليك وعرب الجزيرة العربية ومغاربة وأكراد وهنود.

١- المماليك:

يأتي المماليك على رأس القطاع الإسلامي في مدينة القدس باعتبارهم يشكلون الطبقة العسكرية الحاكمة ومعظمهم من الأتراك والشراكسة، وعلى الرغم من الرابط الديني الذي يجمع بينهم وبين العامة من الشعب، الا أن الشعب ظل بـــعيداً عنهم، وظل مجتمع المماليك منغلقا على نفسه تقريبا، وقد اعتمدت تلك الطبقة بشـــكل رئيســـي على تدعيم نظامها العسكري، وكان على أفراد هذه الطبقة عبء الدفاع عن البلاد ضد الأخطار الخارجية من جهة، وحماية عرش السلطان ضد الأخطار الداخلية من جهة ثانية.

وبما أن المماليك كانوا يمثلون الطبقة الحاكمة، فان الأرض كانت توزع عليهم ليجنوا منها نفقاتهم كل حسب مرتبته ومكانته وعدد مماليكه الذين يتبـــعونه، مما أدى الى هيمنتهم على الحياة الاقتصادية إضافة الى سيطرتهم على الحياة الدينية بتعيينهم لرجال الدين، وبذلك

امتد نفوذهم على كامل المجتمع الإسلامي في ذلك العصر

٢- القبائل العربية:

وهم الذين يرد اسمهم تحت اسم (العشيرة أو البـــدو أو العربـــان) ويرجع اســـتيطان جماعات القبائل العربية في مدينة القدس والمناطق التابعة لها الى بداية العهد الإسلامي حين تم الفتح العمري لمدينة القدس سنة ٦٣٦م وبدأت السيادة الفعلية للمسلمين العرب على هذه المدينة.

كانت هذه القبـــائل العربـــية الضاربـــة في المناطق المتاخمة لمدينة المقـــــدس مصدراً للاضطرابات ومنبعا للفتن، ويبدو أن تلك الاضطرابات التي كانوا يقومون بها كانت وسيلة لكسب الرزق يلجئون اليها، والدليل على ذلك ما يذكره المقريزي في حـــديثة عن ســـنة ٧٤٨هـــ/١٣٤٥م عندما انتشر الغلاء وارتفعت الأسعار في المناطق المجاورة للقدس، قـــام هؤلاء البدو بغارات شديدة على مدينة القدس ذاتها وأحدثوا فيها من النهب والسلب شيئا كثيرا.[١٠٣]

أما عن الالتزامات الحربية التي كانت مفروضة على هؤلاء البدو فيؤكدها لنا ابن شاهين بقـــوله بـــأن هؤلاء العرب كانوا يُســـجلون في ديوان الجيش لمعرفة قبـــائلهم وأعدادهم والخدمات الحربية التي يمكن أن يقدموها للدولة.[١٠٤]

وأما بالنسبة للالتزامات الغير حربية فيحدثنا عنها المقريزي قائلا أن الظاهر بيبرس ألزم أمراءهم القيام بالعداد، والعداد هي زكاة مفروضة سنويا للسلطان على قـــطعان القبـــائل العربية والتركمانية وتقدر بـــالآلاف، كما اشـــترط عليهم خدمة البريد وحـــصر الخيل برسمه.[١٠٥]

٣ - المغاربة:

ترجع هجرة المغاربة الى الشرق بـــوجه عام الى أيام الدولة الفاطمية، ومن المعلوم أن

الفاطميين قد اعتمدوا في تأسيس دولتهم في المغرب على قبائل البربر المستعربــة، وكان في جيشهم فرقا منها، وبما أن بيت المقدس قــد خضعت للفاطميين في مصر، فمن المرجح أن تكون هجرات المغاربـــة الى المدينة ترجع الى هذا العهد[١٠٦]، ومن المرجح أيضا أن عدد المغاربة في مدينة القدس قد ازداد بعد الفتح الصلاحي لها نظراً لما تمتع به هؤلاء المغاربـــة من امتيازات في عهده، فضلا عن رغبة الكثيرين منهم في الإقامة بها بعد قضائهم مناسك الحج.

وتؤكد بعض المراجع التاريخية أنه عقب وفاة صلاح الدين وفي أيام ابنه الأفضل كانت لهم في تلك المدينة حارة خاصة بهم، وهو الذي وقفها عليهم وتنسب اليهم ويسكنوها، كما كانت لهم زاوية تعرف باسمهم وكان لهم جامع ولا يزال يطلق عليه اسم جامع المغاربـــة، ولهم فيه إمام وهم ينتمون الى مذهب المالكية. وفي أيام المماليك ازداد تدفق أعداد المغاربة القادمين الى المدينة بسبب سوء الأحـــوال السياســية التي مرت بها بـــلدان المغرب العربي والأندلس في تلك الفترة.[١٠٧]

ونلاحظ مما سبق وكما تؤكد الكثير من المراجع أن المغاربة في بيت المقدس قد عاشوا في شبه عزلة عن غيرهم من الجماعات وكعنصر منفصل عن السكان.

٤- الأشراف :

يفهم مما رواه مجير الدين الحنبلي في حديثه عن الأشراف أنه كان بالقدس وبـــظاهرها بوادي النسور الذي يبعد قليلا عن القدس عدد من السادة الأشراف الذين ينتسبون الى نسل الرسول ﷺ من يلي نسل الحسين بن علي، وكانت لهم زاوية يقــيمون بها ويزورهم الناس للتبرك بهم، وكانوا يحظون برعاية سلاطين المماليك ونواهم.[١٠٨] كما حرص ســـلاطين المماليك على التقرب من هؤلاء السادة الأشراف بتقليدهم بعض المناصب الدينية الهامة في مدينة بيت المقدس.[١٠٩]

٥ – الهنود :

ورد الى مدينة بيت المقدس بعض الجماعات من الهنود بقصد الحج وزيارة المدينة، الا أن

البعض منهم كان يستقر في المدينة و كانوا يترلون في زاوية خاصة سميت باسمهم.

يرجع تأسيس هذه الزاوية الى القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، وهي تقع بداخل السور وتبعد قرابة مئة متر الى جنوب باب الساهرة(١١٠)، ويذكر مجير الدين الحنبلي أن هذه الزاوية كانت أولا مخصصة لفقراء الطريقة الرفاعية ثم نزل بها طائفة الهنود فعرفت بهم، ومن المرجح أنهم كانوا قليلي العدد في ذلك العصر(١١١)، ولهذه الزاوية أملاك موقوفة عليها بباب حطة.(١١٢)

٦- الأكراد:

يرجع وجود الأكراد في بيت المقدس الى عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي عند فتحه لها، حيث أقاموا بها كجنود للدفاع عنها.(١١٣)

وتؤكد بعض المراجع التاريخية على أن تدفق الأكراد على المدينة استمر طوال عهد سلاطين المماليك، وأنهم كانوا موجودين بالمدينة حتى أواخر حكم المماليك، وأنه كثيراً ما كانت تنشب الفتن بينهم وبين بعض القبائل العربية مما كان ينتج عنها قتل كثير من رجال الفريقين.(١١٤)

وكان للأكراد حي خاص بهم يسكنونه في المدينة، و لم يندمجوا مع غيرهم من السكان وظلوا محافظين على عاداتهم الموروثة في أحيائهم الخاصة بهم.(١١٥)

ثانيا: القطاع المسيحي

لم ترد في المصادر التاريخية أية إشارة دقيقة وواضحة لأعداد المسيحيين في مدينة القدس آنذاك، الا أنهم كانوا أقل عدداً من السكان المسلمين وتقدر أعدادهم بالآلاف. كما أن المسيحيين المحليين كانوا يشكلون أغلبية سكان بعض القرى المحيطة بالقدس مثل بيت لحم وبيت جالا وصهيون وغيرها.

ولما تم فتح المدينة المقدسة على يد صلاح الدين الأيوبي منح المسيحيين حق تولي شؤونهم الداخلية فيما بينهم، وكذلك حق تولي وإدارة كنائسهم وكافة شؤونهم الدينية، ويمكن تقسيم القطاع المسيحي في المدينة المقدسة على النحو التالي:

١-الطوائف المسيحية

كان السكان المسيحيون القاطنون في مدينة القدس في عهد المماليك ينقسمون الى طوائف ومذاهب مختلفة، الا أن طائفة الروم الأرثوذكس كانت تمثل أغلبية السكان المسيحيين بالمدينة.[١١٦] وكانت لكل طائفة من هذه الطوائف مؤسساتها الدينية والاجتماعية الا أنها تشترك جميعها في كنيسة القيامة وهي المقدسة عند الجميع.

لقد استأثرت طائفة الروم الأرثوذكس بأكبر عدد من المؤسسات الدينية في المدينة، كما كان أبناء هذه الطائفة يتبعون بطريرك بيت المقدس والذي يعرّفه القلقشندي بقوله ان البطرك لقب يطلق على القائم بأمور دين النصرانية.[١١٦]

أما مرسوم تولية البطرك فانه كان في أغلب الأحيان يصدر عن نائب السلطنة في المدينة، وأحيانا يصدر مرسوم التولية مباشرة من السلطان بالقاهرة[١١٧]، وكانت الألقاب التي تطلق على البطرك في العهد المملوكي تكتب على طريقتين:

الطريقة الأولى: (البطرك المحتشم، المبجل، فلان العالم بأمور دينه، المعلم أهل ملته، ذخر الملة المسحة، كبير الطائفة العيسوية المشكور بعقله عند الملوك والسلاطين وفقه الله تعالى....).[١١٨]

والطريقة الثانية: (مجلس القسيس، الجليل الروحاني، الخطير المتبتل، ابن المطران الناصب الخاشع، المبجل، قدوة دين النصرانية، فخر الملّة العيسوية، عماد بني المعمودية، جمال الطائفة الفلانية، صفوة الملوك والسلاطين، فلان أدام الله بهجتة....).[١١٨]

وكان بطاركة القدس يسكنون في بيت خاص يقع في أول أحد شوارع المدينة، ومن ثم عُرف هذا الشارع باسم شارع البطاركة.[١١٩]

٢- الأرمن

يبدو أن أعداد الأرمن كانت تأتي في المرتبة الثانية بعد الروم الأرثوذكس، والدليل على ذلك الكثرة النسبية لعدد المؤسسات الدينية التي امتلكوها في المدينة، الا أن أعدادهم كانت آخذة في النقصان في عهد المماليك، وذلك بسبب تشدد السلاطين في معاملتهم على اعتبار أنهم أصدقاء الفرنجه.(١٢٠)

٣- الأحباش

من المعروف أن الأحباش تنصروا خلال القرن الرابع الميلادي، ومنذ ذلك التاريخ جاؤا الى مدينة القدس حيث دفعهم الايمان الجديد الى زيارتها والعيش فيها.

أما عن أعدادهم في عهد المماليك فقد كانت قليلة ، ولهم دير خاص بهم يطلق عليه اسم دير الحبش وهو ملاصق لكنيسة القيامة فوق مغارة الصليب، وقيل أنه جزء من دير السلطان للأقباط.(١٢١)

٤- الفرنسيسكان

ان طائفة الرهبان الفرنسيسكان تنتسب الى مؤسسها فرانسيس الأسيزي (١١٨٢-١٢٢٦م) الذي نشأ في اقليم أسيسي ASSISI في شمال إيطاليا، وكان يدعو الناس لأن يحيوا حياة السيد المسيح عليه السلام بما فيها من بساطة وزهد وتقشف.

ويرجع وجود هؤلاء الرهبان في مدينة القدس الى عام ٦١٨هـ/١٢١٩م حينما طلب الملك الكامل محمد في مصر من أخيه الملك المعظم عيسى بن أحمد في دمشق أن يسمح لهم بالإقامة في مقر متواضع فوق جبل صهيون ينقطعون فيه للعبادة، ولحماية الأماكن المسيحية المقدسة القائمة فوق الجبل والمتعلقة بحياة السيد المسيح.(١٢٢)

وفي عام ٦٤٥هـ/١٢٤٥م تمكن الرهبان الفرنسيسكان من الحصول من قبل السلطات الأيوبية على حق توسيع مقرهم الأول وبناء دير صهيون الذي ضم علّية صهيون

وكنيستها، وكذلك حق توليهم رعاية الأماكن المسيحية الأخرى المجاورة لها فوق الجبل.(١٢٢)

ومن المرجح أن أعداد الرهبان آنذاك كانت قليلة جدا بالنسبة لغيرهم من الطوائف المسيحية الأخرى، الا أنهم كانوا يمثلون في نظر السلطات المملوكية أمم الفرنجة مجتمعة، فقد كان لطائفة الفرنسيسكان قنصل يمثلها لدى السلطات المملوكية، كما كانت هذه السلطات ترسل منهم الرسل والسفراء الى البابوية وملوك الفرنجة لتحقيق نوع من الضغط السياسي عليهم(١٢٣)، مما يدل كل ذلك على نشاطهم السياسي الذي طغى على غيره من الأنشطة الدينية المختلفة من تبشير وحماية لأبناء الطائفة والدفاع عن الحجاج القادمين الى المدينة.(١٢٤) ولقد حرص المماليك على حماية أولئك الرهبان وحماية من ينزل في ضيافتهم كما جرى العرف أن يقيم في ديرهم بجبل صهيون اثنا عشر مملوكا بصفة دائمة.(١٢٥)

ثالثا- القطاع اليهودي

وهم المجموعة الثالثة من سكان بيت المقدس، وقد قدموا اليها جميعهم مهاجرين إما بدافع الدين للتعبد والحج، في حين قدم الباقي من إسبانيا بعد طردهم منها في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي.(١٢٦) وعلى الرغم مما قيل عن كثرة المهاجرين اليهود الى مدينة القدس في العصر الأيوبي الا أن أعدادهم كانت قليلة جدا، وحسب تقديرات اليهود أنفسهم فإن أعدادهم في كامل فلسطين حتى أوائل القرن السادس عشر لا يتجاوز خمسة آلاف يهودي.(١٢٧)

وكان اليهود في مدينة القدس يقيمون في حي خاص بهم وسمي باسمهم (حارة اليهود) وإليها نسب أحد أبواب المدينة المسمى بباب حارة اليهود(١٢٨)، وتشير الكثير من المصادر ولقد عاشوا هؤلاء اليهود في حيّهم هذا حياة فقيرة تعسة. وأما عن الأعمال التي مارسوها، فقد اشتغلوا كمرشدين سياحيين للحجاج المسيحيين القادمين الى المدينة أو كتراجمة لهم، كما كان يشتغل البعض منهم بالتجارة والصرافة.(١٢٩)

الوظائف

في عهد المماليك

كانت تمتاز مدينة بيت المقدس في عهد المماليك بـــالعديد من الوظائف الخاصة بها، ويمكن أن نصنف القائمين عليها الى ثلاثة أنواع هي:

أولا: أرباب السيوف

١ -الوالي أو النائب

كان حكم مدينة القدس منذ العهد الأيوبي حتى بداية الحكم المملوكي يناط بعهدة أمير من أمراء السلطان يطلق عليه لقب(وآل)[١٣٠]، وظل الأمر كذلك حـــتى تحولت المدينة عام ٧٧٧هـــ/١٣٧٥م الى نيابة، فأصبح يطلق عليه لقب (نائب)[١٣١]، وفي الفترة التي سبقت تحولها الى نيابة كان هذا الوالي يتم تعيينه من قبل نائب السلطنة في دمشق.

كان النائب يمثل السلطان وينوب عنه في حـــكم المدينة، وكان يراجع في كل ما يتعلق بشؤون الجيش والمال، وهو المسؤول عن البريد والأخبار وهو رئيس الموظفين ومرجعهم.

٢-والي أو نائب القلعة

هذه الوظيفة تأتي بعد نائب السلطنة في الأهمية، و لم تشر المصادر الى رتبة متوليها وعدد المماليك الذين كانوا في خدمته، وانما يرجّح أنه كان من صغار أمراء الطبلخاناة حيث كان يدق عل بابه الطبول ومن المرجّح أنه أطلق عليه لقب نائب القلعة.

ويفهم من المرسوم الصادر لتولي هذه الوظيفة بـــعض المهام التي كان يكلف بها نائب القلعة بالقدس في ذلك العصر، وهي حفظ القلعة وتفقد أسوارها ورجالها وعددها وبذلك تكون مهام منصبه عسكرية.

٣- والي المدينة:

وهي من الوظائف العسكرية أيضا. ويشير القلقشندي أن واليها جندي، وكانت توليته من قبل نائب السلطنة[١٣١]، وكانت المهمة الرئيسة لهذا الوالي الإشراف على شــؤون مدينة بيت المقدس، وحماية أهلها من الأشرار والعابــثين أي الحفاظ على الأمن. وكان له أعوان يتنقلون في أنحاء المدينة لينقلوا إليه الأخبار، وكذلك كان مسؤولا عن الحجاج الذين يفدون الى المدينة وسلامتهم طوال مدة إقامتهم. وكان يفضل لتولي هذه الوظيفة من أبناء القدس، أي الذين عاشوا فيها وربما تربوا فيها من المماليك، حيث يقول القلقشندي أنه كان يشترط فيه أن يكون عارفا بوجوه المصالح حتى يكون أعرف بشمس بلده.[١٣١]

٤-الحاجب:

وكان يتولى الحجابة أحد أمراء المماليك، وكانت مهمة الحاجب متشعبة منها ما يختص بالمماليك أنفسهم، حــيث كان ينصف بــين الأمراء والجند تارة بنفســه وتارة بمراجعة النائب.[١٣١] ومن ضمن اختصاصه بعض الأمور التي تتعلق بأهل المدينة أنفسهم من ذلك أنه كان يحكم بين الناس، وترفع إليه الأمور المتعلقة بأرباب الجرائم وغيرها[١٣٢]، وكان في مدينة القدس أربعة حجاب وعلى رأسهم أمير الحجاب.

٥-كاشف بيت المقدس:

وهي الوظيفة التي كان يختص بها أحد أمراء الطبلخاناة من المماليك. وكان يتم تعيينه عن طريق نائب القدس ومهمته في أساسها التحدث في جسورها وأراضيها وسائر متعلقاتها وأحوالها.[١٣٣]

٦ -ترجمان القدس:

كان في بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك ترجمان وذلك لكثرة أعداد الحجاج المسيحيين الذين يفدون من الغرب الأوروبي اليها، وكان هذا الترجمان هو أحــد المماليك الذين اعتنقوا الاسلام، وكانت مهمته استقبال الحجاج والرحــالة الأجانب في مدينتي يافا

والقدس، واثبات شخصية كل منهم في بطاقة خاصة، ثم ترسل نسخة منها الى كبير التراجمة في القاهرة لعرضها على السلطان.[١٣٤]

ثانيا: أرباب الأقلام

١-المحتسب:

ويقصد به الموظف الذي ارتبط اسمه بالإشـــراف على الأســـواق، وكانت وظيفته من الوظائف الجليلة التي يتولاها المتعممون باعتبـــارها خدمة دينية في المقـــام الأول، و لم يكن يتولاها في بداية عصر المماليك الا وجوه الناس وأعيانهم من المتعممين، الا أن هذا المنصب انحط بسبب فساد أحوال المماليك نظراً للأموال التي فرضوها على هذا المنصب.

كان المحتسب من أوسع موظفي الدولة نفوذاً لأنه كان يناط به كثير من المســـؤوليات المتعددة والمتشعبـــة الجوانب، ونســـتطيع أن نلخصها من خلال نســـخة توقـــيع أوردها القلقشندي عن المحتسب في بلاد الشام في ذلك العصر، حيث عهد إليه بحماية الجمهور من الغش والظلم والتأكد من توفر السلع الأساسية وبمنع حـــالات الغش أو الاحـــتكار فيها، ومفاجأة الأســـواق والتأكد من نظافتها، الى جانب العمل على حماية المار فيها، فضلا عن تفقد المساجد للتأكد من المشرفين عليها وحسن استخدامها، وحماية الأطفال من الضرب على أيدي معلميهم، فضلا عن إشرافه على الأطباء والكحالين بالإضافة الى أرباب الحرف الأخرى.[١٣٥]

٢-وكيل بيت المال:

تحدث القلقشندي عن هذه الوظيفة في بلاد الشام بوجه عام قائلا: (هي وظيفة عظيمة الشأن رفيعة القدر، وموضوعها التحدث فيما يتعلق بمبيعات بيت المال ومشترياته من أرض ودار وغير ذلك، والمعاقـــــدة على ذلك وما يجري هذا المجرى ... ولا يليها الا أهل العلم والديانة، ومجلسه بدار العدل وتارة يكون دون المحتسب وتارة فوقه بحسب رفعة قـــدر كل منهما لنفسه.)[١٣٥]

كان يقوم بمساعدة وكيل بيت المال بعض الموظفين مثل (العامل) الذي كان ينظم الحسابات، و (الصيرفي) الذي كان يتولى قبض المال وصرفه بمعاونة الصيارفة، وكذلك بعض الموظفين الذين كانوا يقومون بعمل ما نطلق عليه في عصرنا الحاضر الأرشيف وهم (كتاب الدرج).[١٣٦]

٣- نقابة الأشراف:

كانت ولايتها من قبل نائب بيت المقدس، وكانت مهمة نقيب الأشراف هو الإشراف على طبقة الأشراف ورعاية مصالحهم الاقتصادية أيضا.[١٣٧]

٤- ناظر كنيسة القيامة:

وهي من الوظائف التي عرفت في عهد السلاطين المماليك، وكان ناظر الكنيسة يشرف على الحجاج المسيحيين والزوار الواصلين الى الكنيسة، وهو الذي يقوم بتحصيل ما يسمى (موجب السلطان) بعد أن يدون كل منهم بعض المعلومات الشخصية عن نفسه من ذكره لاسمه واسم عائلته ونسبه وجنسيته وطوله والعلامات المميزة له، كلون العينين ولون الشعر وغير ذلك في نسختين ثم يبصم عليها، وتحفظ واحدة منها في القدس والأخرى ترسل الى القاهرة.[١٣٨]

وكان الناظر يتبعه عدد من الحراس يبلغ عددهم خمسة عشر حارسا، وتؤكد المصادر على أن متولي هذه الوظيفة كان من المسلمين.

ثالثا: الوظائف الدينية

١-القضاء

كانت مدينة القدس قبل قدوم الصليبيين اليها خاضعة للدولة الفاطمية الشيعية في مصر ولذلك كان المذهب الشيعي هو السائد، وحينما تم الفتح الصلاحي للمدينة سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م وكان صلاح الدين شافعي المذهب، أقام المدرسة الصلاحية ووقفها

على الشافعية ، وأغلب الظن أنه كان يهدف من اقامة المدرسة الى نشر المذهب الشافعي في القدس.

ومن المرجح أن أتباع المذهب الحنفي في القدس كانوا أقلية بالنسبةلأتباع المذهب الشافعي، لذا لم يكن لأتباع هذا المذهب قاض، حيث تجمع المصادر كلها على أن أول قاضي حنفي وجد بالقدس هو خير الدين العجمي من صوفية خانكاة شيخو بالقاهرة، وكان ذلك عام ٧٨٤هـ/١٣٨٢م في عهد السلطان الظاهر برقوق.[١٤٠] فكان ذلك أول منصب استحدث في مدينة القدس لقضاء الحنفية على عهد سلاطين المماليك، وتلاه منصب قاضي المالكية في سنة ٨٠٢ هـ/١٣٩٩م، ثم تلاه منصب الحنابلة عام ٨٨٤هـ/١٤٧٩م.[١٤١]

كان تولية قضاة المذاهب الأربعة في مدينة القدس من اختصاص السلطان في القاهرة. ويؤكد لنا القلقشندي ذلك في حديثه عن الوظائف الدينية بأن تولية قضاة القضاة كانت تعتبر من الوظائف الجليلة وأن توليتها يختص بها السلطان وحده، أما فيما عدا ذلك من وظائف كقضاة العسكر وافتاء دار العدل والحسبة ووكالة بيت المال ومشيخة الشيوخ وغير ذلك، فتارة يولي فيها السلطان وتارة يولي فيها النواب.[١٤٢] وكان القضاة يباشرون مهام مناصبهم بهمة ونشاط وشهامة، وكانت لهم هيبة عند الناس والحكام، وكان أمرهم نافذا في كثير من الأمور الدنيوية ولدى أرباب الحرف، ومنهم من كان عفيفا في مباشرته لا يتناول غير معلومه المرتب على أحد الأوقاف والذي قد يصل الى عشرة دراهم فضة كل يوم، مما كان له أكبر الأثر في نفوس الأهلين ومهابة لدى الحكام.[١٤٣]

أما القضاء بين الطوائف المسيحية المختلفة التي عاشت في القدس زمن المماليك فكان بأيدي أبناء هذه الطوائف أنفسهم، الا فيما يتعلق بما كان يوجد من خلاف بين هذه الطوائف بعضها مع بعض، وخصوصا فيما يتعلق بالأماكن المقدسة المسيحية فانهم في هذه الحالة كانوا يلجأون الىقاضي القدس المسلم للفصل فيما ينشب من منازعات، وتشهد بذلك سجلات المحكمة الشرعية بالقدس.[١٤٤] وأما ما كان يحدث من خلافات بين المسلمين والمسيحيين على اختلافهم فكان الفصل فيه يتم على يد القضاة المسلمين.

٢-ناظر الحرمين:

يسمى متولي هذه الوظيفة أيضا بناظر القدس والخليل، ومن مهامه النظر في كل ما يحتاج إليه الحرم الشريف بالقدس وحرم الخليل من إصلاح وترميم فضلا عن رواتب القائمين عليهما، والإشراف والتصرف في الأموال المخصصة للأوقاف الخاصة بهذين الحرمين، وكذلك كان من اختصاصه الإشراف على موارد المياه التي تمد الحرمين الشريفين بالقدس والخليل بالمياه اللازمة للمصلين، مثل قناة السبيل التي كثيرا ما قرأنا عن خروج هذا الناظر ومعه العمال والصناع والآلات لعمارتها وكذلك كان من اختصاصه ترتيب الوظائف فيهما.[١٤٥]

ومن الجدير بالذكر أن هذه المهام كانت من اختصاص نائب القدس أو واليها منذ سنة ٧٧٧هـ/١٣٧٥م غير أنها انفردت عنها ككثير من الوظائف الهامة الأخرى في سنة ٨٤٣هـ/١٤٣٩م وذلك عندما ولى السلطان الظاهر جقمق القاضي عز الدين خليل بن أحمد السخاوي نظارة الحرمين كوظيفة مستقلة عن النيابة.[١٤٦]

كانت ولاية هذه الوظيفة تصدر عن الأبواب السلطانية بالقاهرة[١٤٦]، الا أنه يبدو أن التعيين في هذا المنصب وبخاصة في عصر السلاطين المماليك الشراكسة كان يتم بعد دفع مبلغ من المال، ويؤكد لنا ذلك ابن تغري بردى في حديثه عن سنة ٨٤٧ هـ/١٤٤٧م أيام السلطان جقمق من أنه (استقر الأمين عبد الرحمن في نظر الحرمين بالقدس والخليل بمال وعد به خليل السخاوي...).[١٤٧]

٣-خطيب بيت المقدس:

كانت هذه الوظيفة تسند الى من يقوم بالخطبة في مسجد الأقصى، وكانوا القائمين عليها أحيانا يجمعون بينها وبين وظيفة القضاء، أو بينها وبين التدريس في المدرسة الصلاحية ببيت المقدس. وكان تولي منصب الخطابة منذ بداية القرن التاسع للهجرة أي الخامس عشر الميلادي يتم عن طريق بذل المال للسلطان.

ويصور لنا المقريزي في حديثه عن سنة ٨١٣ هـ/١٤١٠م أيام السلطان فرج بن برقوق كثرة التعيين والعزل في ذلك المنصب مما يعكس لنا سوء الأحوال التي آلت اليها الدولة في تلك الفترة، كما قد يكون السبب فيما وصلت إليه حال السلاطين من شره في المال فضلا عن تكالب رجال الدين على هذا المنصب وتنافسهم فيما بينهم في دفع الأموال للحصول عليه، فيقول المقريزي (فكان في مدة تسعة أشهر قد ولي خطابة القدس خمسة أحدهم وليها مرتين...).(١٤٨)

٤-مشيخة الصلاحية:

وهي من الوظائف الدينية الهامة في مدينة القدس، وكان يشترط في القائم بها أن يكون من أبرز علماء عصره، كما كان شيخ هذه المدرسة يعين من قبل السلطان بالقاهرة.(١٤٩) وكان التنافس شديداً بين رجال الدين على تولي هذه الوظيفة، وكانت مهمة شيخ الصلاحية الإشراف على المدرسين والطلبة والخدم، كما كان يعمل على تنفيذ وصية الواقفين على هذه المدرسة، فضلا عن رعايته للأوقاف المحبوسة عليها.

٥-مشيخة الخانقاة الصلاحية:

كانت هذه الخانقاة محلا لرجال التصوف والمجاورين ببيت المقدس، وهي التي أوقفها السلطان صلاح الدين الأيوبي على الصوفية عقب الفتح، وبناء هذه الخانقاة لا زال موجودا بالمدينة حتى وقتنا الحاضر.

ومما لا شك فيه أن وظيفة شيخ الخانقاة الصلاحية كانت من الوظائف الهامة في القدس في عصر سلاطين المماليك، والدليل على ذلك أن شيخ الخانقاة كان يعين بتوقيع من السلطان المملوكي بالقاهرة.(١٥٠) ويذكر لنا مجير الدين الحنبلي في كتابه عن تناوب بعض الأشخاص في تولي مشيخة الخانقاة أو أن تكون مناصفة بين شخصين(١٥١)، كما يؤكد على أن المنصب كان يتوارثه الأبناء عن الأباء.(١٥١)

٦-أئمة المساجد:

كانت إمامة المصلين من الوظائف الدينية التي لها ترتيب خاص في الحرم القدسي، فقد كان هناك أربعة من الأئمة داخل المسجد الأقصى على النحو التالي: إمام الصخرة أي مسجد الصخرة على مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان، وإمام للمالكية بجامع المغاربة (وهو المكان المخصص لهم) بالمسجد الأقصى وإمام بالمسجد الأقصى على مذهب أحمد ابن حنبل، وكذلك إمام بالمسجد الأقصى على مذهب الإمام الشافعي.[١٥٢] وقد اشترط في الامام أن يكون من أهل العلم والصلاح، حافظاً لكتاب الله الكريم، مشهورا بالخير والدين، وحسن الصوت، يحسن التلاوة، عالما بأحكام العبادات الشرعية وأن يحضر الى المسجد أول الوقت، وألا يجمع بين امامة مسجدين وأن ينصح المؤتمين بالإخلاص في صلاتهم وأن يجأر في دعوته.[١٥٢]

٧-المؤذنون:

من الوظائف الدينية المرتبة بمساجدها، ويبدو أن عدد المؤذنين كان كبيراً في مدينة القدس وذلك لوجود وظيفة رئيس المؤذنين بالمسجد الأقصى الشريف ومسجد الصخرة، ويبدو أنه كان يشترط في من يتولى هذه الوظيفة أن يكون حسن الصوت والأداء وأن تكون لديه حشمة ووقار.[١٥٣]

٨-المرقي (المكبر):

اشترطت وثيقة وقف السلطان قايتباي وجود وظيفة المكبّر وهو المرقي الذي يتولى وظيفة الترقية للخطيب، وعليه أن يذكر الآية الكريمة (**ان الله وملائكته يصلون على النبي، يا أيها الذين آمنوا ....**) (من سورة الأحزاب- ٥٦) عند ظهور الخطيب من خلوة الخطابة، ويكبّر عند صعوده المنبر واشترط في متولي هذه الوظيفة أن يكون جهوري الصوت.[١٥٤]

٩- الموقت:

وهي من الوظائف الدينية التي عرفت ببيت المقدس في عصر ســـلاطين المماليك، وهي وظيفة مرتبطة بالآذان، وعلى صاحبها أن يحدد مواعيد الصلاة بدقة تامة، ويبـــدو أنه كان يشترط في من يتولى هذه الوظيفة أن يكون حاذقاً في هذا الفن، وأن يكون عارفا بالمواقيت والفلك وعلم الهيئة[١٥٥]، وقد يقـــوم بهذه الوظيفة المؤذن نفســـه اذا توفرت فيه الشـــروط السابقة، ولا شك أن (الميقاتي) أو الموقت كان يستخدم بعض الآلات في تحديد أوقـــات الصلاة، منها المزولة والساعات الرملية وكانت هذه الآلات موجودة في المساجد ويباشرها الميقاتي بنفسه.[١٥٦]

١٠- المقريء:

وكان متوليها يشترط فيه أن يكون على دراية بعلم القـــراءات، ولا بـــد لمتولي هذه الوظيفة أن يكون حسن الصوت والأداء والترتيل حـــافظاً لكتاب الله، ومن المؤكد أنه كان ببيت المقدس عدد كبير من القراء بدليل وجود وظيفة رئيس القراء بالقدس الشريف.[١٥٧]

المؤسسات الاجتماعية

في عهد المماليك

عاشت مدينة القدس عصرها الذهبي خلال الحكم المملوكي لبلاد الشام ومصر، حيث اتسم العصر المملوكي بعصر القوة السياسية والاقتصادية، ووصلت البلاد الى درجة من الرخاء والثراء تيسر معها قيام العديد من المنشآت الحضارية والاجتماعية التي شيدت لها بنايات فخمة تميزت بروعة وجمال فنها المعماري، والتي لا تزال المئات منها ماثلة للعيان.

أما مدينة القدس، فبالإضافة الى تميزها الديني كانت مركزاً لنشر الحضارة والعلم والفكر، إذ أمها الناس من جميع أنحاء العالم للزيارة وأداء مناسك الحج، أو امتهنوا التعليم في مدارسها الشهيرة والعديدة كما قصدها الطلاب للتعلم في مدارسها، واختارها العديد من رجال الدين النصارى من قسس ورهبان للإقامة والتعبد فيها.

ولكل تلك الاعتبارات والامتيازات التي تمتعت بها مدينة بيت المقدس، تسابق السلاطين والأمراء والأثرياء الى بناء المؤسسات الاجتماعية فيها، ووقفوا عليها الأوقاف العديدة في بلاد مصر والشام كي تواصل مهمتها في تقديم الخدمات اللازمة لقاصديها كالبيمارستانات (المستشفيات) كما أقيمت المؤسسات التي كانت تقدم خدماتها للمواطنين بأجور معينة (كالحمامات) والتي هي في حقيقة الأمر كانت أشبه ما يكون بالمنتديات والصالونات الاجتماعية، يلتقي فيها الرجال والنساء كل على حدا للتعارف والتداول ولتجاذب أطراف الحديث. وكذلك (الربط) التي كانت تخصص للحجاج الوافدين الى المدينة من الفقراء والمساكين والمحتاجين للسكن، وكانت تصرف لهم وجبات الطعام على ما كانت تحدده وقفية كل منها.

وهنا سنتحدث عن أهم المؤسسات الاجتماعية التي أولاها سلاطين المماليك جلّ اهتمامهم وعنايتهم:

أولا: البيمارستانات (المستشفيات)

بدء بإنشاء البيمارستانات في فلســطين منذ العهد الأموي وزاد الاهتمام بها في العهد العباسي، لكن الأيوبيين وعلى رأسهم صلاح الدين والمماليك من بعده أكثروا منها لوقاية أهل البلاد من الأوبئة وموجات الجفاف والمجاعة والزلازل التي كانت تجتاح البلاد عامة وفي فترات متكررة، ولكن أكثرها فتكاً كان بلاء الطاعون الذي اجتاح القدس وفلسطين وبلاد الشام العديد من المرات.

ومن الأمثلة على ذلك ما حدث في سنة ٨٨١ هـــ/١٤٧٦م وكما حدثنا عن ذلك مجير الدين الحنبلي قائلا (دخل الوباء بالطاعون حــتى عمّ جميع المملكة. وكان دخوله بــيت المقدس في أوائل رجب ..... ولم يزل الطاعون بالقدس الى مستهل ٨٨٢ هـــ/.وأفنى خلقا من الشباب والنساء وأهل الذمة.).[١٥٧]

وفي سنة ٨٩٧ هـــ/١٤٩١م دخل وباء الطاعون مدينة القدس مبــتدئا بها، حــتى عمّ البلاد. وبلغ عدد الأموات بالقدس من ثلاثين الى أربعين شخصاً يومياً، وبلغ أحــيانا المائة وأكثر. وقد بدأ في جمادى الأولى وأفنى خلقــا من الأطفال والشبـــاب وأفنى طائفة الهنود (بالقدس) عن آخرها، وكذلك الحبش، ومات الكثيرون من خاصة العلماء والأخيار.[١٥٧]

ونتيجة لهذه الأوضاع والظروف الصحية الصعبة التي كانت تجتاح البلاد، فقد ســعى أمراء المماليك الى اتخاذ كافة الوســائل والإجراءات لتحســين الظروف الصحــية العامة والكفيلة بمكافحة الأوبئة ومعالجة الأمراض، وذلك من خلال بناء البيمارستانات في مختلف المناطق في فلسطين ودعم القائم منها. وفيما يلي نذكر أهم البيمارستانات التي كانت تعمل في المدينة المقدسة زمن المماليك:

١-بيمارستان القدس الشريف / مستشفى صلاح الدين:

واصل بيمارستان صلاح الدين القيام بخدماته العلاجية طيلة العصر المملوكي، وهناك وثائق مختلفة تدل على أن البيمارســتان كان يؤدي خدمات جليلة مما دفع كثير من الأثرياء

الى إنشاء أوقاف جديدة على البيمارستان زيادة على الأعيان الموقوفة التي وقفها صلاح الدين في وقفيته الأصلية.[158]

فالوثيقة رقم ٢٠ من وثائق المتحف الإسلامي في القدس وتاريخها ٧٦٨هـ، تنص على أن جعفر بن محمد أبي بكر السفّار من القدس، وقف الدار الكائنة بخط باب العامود على مصالح البيمارستان الصلاحي (يسلك بذلك مسلك أوقاف البيمارستان المذكور وقفاً صحيحاً شرعياً مؤبداً، وحسباً دايما محللا، لا يباع ولا يوهب ولا يملك بوجه من وجوه الملكان).[159]

و لم تكن مهمة هذا البيمارستان قاصرة على العلاج، بل لعب دورا تعليمياً فقد كان أشبه بكليات الطب، فالطلبة كانوا يقسمون الى فرق ، كل فرقة تتخصص بعلم معين، فمنهم طبائعية (باطنية) وطائفة مجبرين (عظام) وفريق كحالين (العيون).[160] كما كان يوجد في البيمارستان قسم للصيدلة، يتعلم فيه الطلاب كيفية تحضير العقاقير وطبخها وعمل المعاجين والمراهم وغيرها.

وكان يوجد في البيمارستان سجلات يدون فيها أسماء المرضى والنفقات التي يحتاجونها من أدوية وأغذية. ووجد لكل بيمارستان وقف خاص ينفق ريعه على شؤون البيمارستان التي بلغت في إحداها خمسة عشر دينارا يومياً.[161] وكان للبيمارستان ناظر يشرف على إدارته ويراقب المرضى والأطباء. أما اليوم فان البيمارستان الصلاحي اندثرت معظم معالمه فقد أقيمت مكانه الكنيسة اللوثرية وغيرها من المنشآت الأخرى منذ القرن التاسع عشر.

٢- دار الإسبتار / مستشفى القديس يوحنا:

وهي إحدى المستشفيات الهامة التي أنشئت في مدينة القدس قبالة كنيسة القيامة إبان العهد الصليبي، واستمرت بعد الفتح الصلاحي بتأدية دورها المعتاد في إيواء الزوار والحجاج المسيحيين القادمين الى المدينة وتقديم الخدمات العلاجية لمرضاهم.

وتجمع المصادر التاريخية على أن دار الإسبتار ظلت قائمة بعملها طيلة القرن الرابع عشر

وحتى نهاية القرن الخامس عشر، ففي سنة ٧٧٢هـ/١٣٢٢م قال سيرجون ماندفيل MANDVILLE (أمام كنيسة القيامة، وعلى بعد ٢٠٠ خطوة الى الجنوب، وفي دار إسبتار القديس يوحنا العظيمة التي يرجع الإسبتارية بنشأتهم اليها، وبداخل قصر المرضى كان هنالك ١٢٤ عمودا من الحجارة، وفي جدران الدار ٥٤ عمودا أخرى تسند السقف. وإذا اتجهت من ذلك المستشفى نحو الشرق وجدت كنيسة فائقة الجمال، اسمها كنيسة سيدتنا مريم الكبرى، وبعدها كنيسة أخرى هي كنيسة مريم اللاتينية الصغرى).[١٦٢]

وفي سنة ٨٨٨ هـ/١٤٨٣م زار المكان الرحالة الألماني وهو الراهب فيلكس فابري FELIX FABRI فوصفه بأنه مبنى ضخم عليه قبة في حالة خراب. وهذا المبنى هو جزء فقط من المستشفى القديم، وأضاف فابري قائلا: ان هذه الدار ومستشفى القديس يوحنا كانت واسعة كثيرة الغرف تتسع لألف شخص. ولكن الجزء الأكبر منها خراب. والجزء العامر منها يتسع لأربعمائة شخص.[١٦٢]

وفي نهاية القرن الخامس عشر تدهورت حالة البناء وتجمعت فيه الأقذار والروائح الكريهة حتى أصبح غير صالح للاستعمال. ومع بدايات القرن السادس عشر هُجر المكان تماما.[١٦٣] ويبدو أن حجارة المبنى استعملت لبناء سور القدس في عهد السلطان سليمان القانوني في أواسط القرن السادس عشر.[١٦٣]

ثانيا: الحمامات

تعتبر الحمامات من أهم المؤسسات الاجتماعية في الاسلام، وكانت ظاهرة تعددها واضحة في العصور الإسلامية الأولى، كما كان اهتمام المسلمين بها راجعا لأسباب صحية ودينية، حيث كانت تستعمل كمنشآت صحية للعلاج من الأمراض المختلفة، وفيها موظفون مختصون بالمعالجة، وعلى رأسهم المدلّكون والحلاقون والحجّامون وعدد كبير من الخبراء بالشؤون الصحية.[١٦٤]

أما من الناحية الدينية فقد كان هناك اعتقاد شعبي سائد أن مياه زمزم كانت تفيض يوم عاشوراء (١٠ محرم) وهو يوم ذكرى مصرع الحسين بن علي، وأن مياه زمزم كانت تمزج

في هذا اليوم مع جميع العيون في البلدان الإسلامية وبذلك تعطي كل مسلم فرصة للشـــرب منها والتطهر بها.

هذا وقد روعي في تخطيط تلك الحمامات أن تحتوي على ثلاثة بيوت أو قاعات، فالبيت الأول مبرد مرطب تخلع فيه الملابـــس، والثاني مســـخن مرّخ، والبـــيت الثالث مســـخن مجفف.[١٦٥] والمقــصود من هذا التقســيم التدرج في درجات الحرارة حـــتى لا يتعرض المستحم للمرض من انتقاله فجأة من الجو البارد الى الحار.

وكان يوجد في كل حمام قدر كبيرة من النحاس يسخن فيها الماء، وينقـــل في أنابـــيب فخارية الى الأحواض، وتبلط أرضه ببلاط خاص، وزينت جدران قاعاته بالنقوش الجميلة، وكان يزود الحمام بالمياه البـــاردة من بـــرك خاصة أو بواسطة(السقـــا) الذي يجلب الماء بالقِرب، وكان في كال حمام موظفون يقومون على خدمة المستحمين وتنظيف الحمام كل يوم.

وكان المحتسب يشرف على هذه الحمامات فيراقـــب ما يجري فيها من حماية للأخلاق والفضيلة ومحافظة على نظافة الحمام وطهارته.[١٦٥]

وكانوا يستخدمون البخور في الحمامات في اليوم مرتين كي تبقى رائحتها طيبة، كما يراعى عدم دخول المرضى لهذه الحمامات، وعلى كل مستحـــــــم أن يغطى عورته بمئزر خاص. ولقد خصصت حمامات للرجال وأخرى للنساء ولكن بعضها كانت تحدد أوقـــاتا معينة للرجال وأخرى خاصة بالنساء.

ومن أهم حمامات القدس في زمن المماليك، حمام الشفا، وحمام العين، وحمام الســـيدة مريم أو حمام الأسباط، وحمام علاء الدين البصير، وحمام العامود، وحمام داود وحمام البطرك في حارة النصارى وهو وقف على الخانقاة الصلاحية.

هوامش الفصل السادس

١-الموسوعة الفلسطينية ، ج٤ ، ص٢٩٠.

٢-علي ابراهيم حسن ، تاريخ المماليك البحرية ، ص٢٣.

٣-الموسوعة الفلسطينية ، ج٤ ، ص٢٩٠.

٤-سعيد عبد الفتاح عاشور ، المؤتمر الدولي الثالث لبلاد الشام ، المجلد الأول ، ص٨٠.

٥-الموسوعة الفلسطينية ، ج٤ ، ص٢٩٠ ، ٢٩٢.

٦-ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٩١.

٧-المقريزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج١ ، ق٢ ، ص٣٨٥ ، ٤١٧.

٨-د. سعيد عبد الفتاح عاشور ، المؤتمر الدولي الثالث لبلاد الشام ، ص٨٣.

٩-المقريزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج١ ، ق٢ ، ص٤٢٦ ، ٤٣٠.

١٠- عين جالوت: بلدة صغيرة تقع بين بيسان ونابلس في فلسطين. أنظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ص٢٣٣-٢٣٤.

١١-د. سعيد عبد الفتاح عاشور ، المؤتمر الدولي الثالث لبلاد الشام ، المجلد الأول ، ص٨٤.

١٢-المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص٤٣٥.

١٣-الموسوعة الفلسطينية ، ج١ ، ص٤٤٠.

١٤-المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص٥٦٧ ، ٦١٠ ، ٤٤٥.

١٥-ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص١٩٤.

١٦- كان الأمير علاء الدين ايدغيدي البصير من أكابر الأمراء ، أقام بالقدس الشريف وكان ناظراً لأوقاف القدس والحرم الشريف في أيام الظاهر بيبرس حتى أيام المنصور قلاوون ، وكان مهيبا لا تخالف مراسيمه.

١٧-عارف العارف ، المفصل في تاريخ القدس ، ص١٩٩

١٨-المقريزي ، السلوك ، ج١، ق٢، ص٤٩١.

١٩-ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٣، ص٢٥٦.

٢٠-قيل له باب العيد لأن الخليفة الفاطمي كان يخرج منه في يوم العيدين للصلاة . انظر : المقريزي ، السلوك ، ج١، ق٢، ص٤٩١.

٢١-ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٧، ص١٩٤.

٢٢-ابن كثير ، البدية والنهاية ، ج١٣، ص٢٥٦.

٢٣-القاضي محي الدين ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ، تحقيق فاطمة صديق ، ص١٣٢.

٢٤-أبو الفداء ، المختصر في أخبار بني البشر ، ج٤ ، ص٥-٦.

٢٥-الدرابزين: وتعني حاجز السقف أو الشرفة أو الجسر.

٢٦-مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص٨٨.

٢٧-ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٨٩.

٢٨-المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٦٣٦، ٦٥٨.

٢٩-الموسوعة الفلسطينية، ج٣، ص٥٨٦.

٣٠-محمد كرد علي، خطط الشام، ج٦، ص١٥٣.

٣١-عارف العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص٢٠٠.

٣٢-معجم البلدان، ج٣، ص١٩٧.

٣٣-المقريزي، السلوك، ج١، ق٣، ص٧١٥.

٣٤-رشاد الامام، مدينة القدس في العصر الوسيط، ص٦٧.

٣٥-عارف العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص٢٠٦.

٣٦-الموسوعة الفلسطينية، ج٤، ص٢٩١.

٣٧-الأمير تنكز: هو الأمير سيف الدين تنكز، أصله من مماليك المنصور حسام الدين لاجين ثم صار في حرس الملك الناصر الخاص وارتقى حتى أصبح نائب السلطان بالشام، وظل تنكز في نيابة دمشق ثمانية وعشرين سنة ولقب بالعادل، الا أنه دأب على جمع الأموال والنفائس وامتلاك العقارات في مختلف المدن، فأوقع الحساد بينه وبين الملك الناصر الذي قتله في الاسكندرية سنة ٧٤١هـ/١٣٤٠م.

٣٨-المُقر: هو لقب ملكي في الأصل وأصبح مع الوقت أقل شأنا فصار يطلق على الأمراء منذ أواخر القرن السابع، أما صاحب الديار المصرية فهو لقب ملكي وظل كذلك دائماً. أنظر: د. كامل العسلي، معاهد العلم في بيت المقدس ص٣٢٠.

٣٩-الموسوعة الفلسطينية، ج٣، ص٥٣٦. وانظر مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص٣٧.

٤٠-د. كامل العسلي، معاهد العلم في بيت المقدس، ص٢٣٢، ٢٣٨.

٤١-الدوادار: هو صاحب وظيفة الدوادار الذي يحمل أدوات السلطان أو الأمير ويقوم بابلاغ الرسائل اليه، أي أنه كان بمثابة السكرتير. أنظر: د. كامل العسلي، معاهد العلم، ص٢٣٩.

٤٢-الموسوعة الفلسطينية، ج٣، ص٥٣٦. وأنظر: الأنس الجليل، ج٢، ص٣٩.

٤٣-د. كامل العسلي، معاهد العلم، ص٢٤٣.

٤٤-الأنس الجليل، ج٢، ص٤٢.

٤٥-ذات المرجع، ج١، ص٤٥-٤٦.

٤٦-د. كامل العسلي، معاهد العلم، ص٣٤٨.

٤٧-الموسوعة الفلسطينية ، ج٣، ص٥٣٧

٤٨-د. كامل العسلي ، معاهد العلم ، ص٢٥٥ .

٤٩-الأنس الجليل ، ج٢، ص١٧٥ ، ٣٥ .

٥٠-د. كامل العسلي ، معاهد العلم ، ص١١٩ ، ١٢١ .

٥١-الموسوعة الفلسطينية ، ج٣، ص٥٣٧ .

٥٢-د. كامل العسلي ، من أثارنا في بيت المقدس ، ص١٤٧ .

٥٣-د. كامل العسلي ، معاهد العلم ، ص٢٣٥ .

٥٤-الموسوعة الفلسطينية ، ج٣، ص٥٣٧ . وانظر : الأنس الجليل ، ج٢، ص٣٩ .

٥٥-د. كامل العسلي ، معاهد العلم ، ص٢٣٧ .

٥٦-الموسوعة الفلسطينية ، ج٣، ص٥٣٧ .

٥٧-د. كامل العسلي ، معاهد العلم ، ص٣٣٩ .

٥٨-عارف العارف ، المفصل في تاريخ القدس ، ص٢٠٤ .

٥٩-الجوكندار :هو الذي يحمل جوكان السلطان أثناء لعبة الكرة (الجوكندار POLO MASTER أنظر : القلقشندي، صبح الأعشى ، ج٥ ، ص٤٥٨ .

٦٠-الأنس الجليل ، ج٢ ، ص٣٨ .

٦١-د. كامل العسلي، معاهد العلم ، ص٢٣١ .

٦٢-د. كامل العسلي ، من أثارنا في بيت المقدس، ص٦٣ .

٦٣-ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٩، ص١٥٨ ،٥٥ ،٧٥ .

٦٤-ذات المرجع ، ج٨ ، ص١٧٣-١٧٤ .

٦٥-القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج٤ ، ص١٩٩ .

٦٦-الموسوعة الفلسطينية ، ج٤ ، ص٢٩٢ .

٦٧-الأنس الجليل ، ج٢ ، ص٩٤-٩٥ .

٦٨-المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق١ ، ص٢٤ .

٦٩-د. كامل العسلي، من أثارنا في بيت المقدس ، ص٤٤-٤٥ .

٧٠-كلمة قيسارية تعني مركزاً تجارياً فيه عدة دكاكين ، وعلى هذا فان خان السلطان كان قيسارية ثم أصبح خان.

٧١-د. كامل العسلي ، من أثارنا ، ص٤٤-٤٥،١٣٤ .

٧٢-عارف العارف ، المفصل في تاريخ القدس ، ص٢٠٨ . وأنظر : الأنس الجليل ، ج٢، ص٩٤ .

٧٣-د. العسلي ، من أثارنا ، ص٤٦ .

٧٤-المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ص١٨ . (حوادث سنة ٨١٢ هـ).

٧٥-الأنس الجليل ، ج٢، ص٩٥ ، ٣٩.

٧٦-د. كامل العسلي ، معاهد العلم ، ص٢٥٠.

٧٧-الموسوعة الفلسطينية ، ج٣، ص٥٤٠.

٧٨-د. كامل العسلي ، معاهد العلم ، ص٢٦١ ، ٢٧١.

٧٩-الأنس الجليل ، ج٢، ص٤٠-٤١.

٨٠-د. كامل العسلي ، معاهد العلم ، ص٢٧١.

٨١-الأنس الجليل ، ج٢، ص٢٢٨.

٨٢-د. كامل العسلي ، معاهد العلم ، ص١٧٦.

٨٣-الموسوعة الفلسطينية ، ج٣، ص٥٤١.

٨٤-الأنس الجليل ، ج٢، ص٩٦.

٨٥-عارف العارف ، المفصل في تاريخ القدس ، ص٢٠٩.

٨٦-د. كامل العسلي ، من أثارنا ، ص٢٣٩.

٨٧-الأنس الجليل ، ج٢، ص٩٦-٩٨.

٨٨-عارف العارف ، المفصل في تاريخ القدس ، ص٩٨.

٨٩-الأنس الجليل ، ج٢ ، ص٩٩-١٠٠.

٩٠-عارف العارف ، المفصل في تاريخ القدس ، ص٢١٠.

٩١-الأنس الجليل ، ج٢ ، ص٢٨٣، ٢٨٧-٢٨٨، ٢٩٢، ٢٩٨-٢٩٩.

٩٢-ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج٣، ص١١٢.

٩٣-الخواجكي : بزيادة الكاف على الخواجا ، وهو لقب يأتي ضمن سلسلة ألقاب التجار . أنظر : حسن باشا ، الألقاب الاسلامية ، ص٢٨٠.

٩٤-د. كامل العسلي ، معاهد العلم ، ص٣٢٢، ٣٢٤.

٩٥-الموسوعة الفلسطينية ، ج٤، ص١٦٩.

٩٦-د. كامل العسلي ، معاهد العلم ، ص١٥٨، ١٦٣.

٩٧-الأنس الجليل ، ج٢، ص٣٢٦ ، ٣٢٤.

٩٨-الموسوعة الفلسطينية ، ج٣، ص٥٤١.

٩٩-د. كامل العسلي ، من أثارنا ، ص٢٤٨.

١٠٠-الموسوعة الفلسطينية ، ج٣، ص٥٤١.

١٠١-عارف العارف ، المفصل في تاريخ القدس ، ص٢١٤-٢١٦.

١٠٢-الموسوعة الفلسطينية ، ج٤، ص٢٩٢.

١٠٣-المقريزي، السلوك، ج٢، ق٣، ص٧٤٠.

١٠٤-ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص١٠٣-١٣٦.

١٠٥-المقريزي، السلوك، ج١، ق٢ (حوادث سنة ٦٦١هـ).

١٠٦-المقريزي، البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب، تحقيق عبد المجيد عابدين، ص١٣٢-١٣٣.

١٠٧-د.علي السيد علي، القدس في العصر المملوكي، ص٧٨.

١٠٨-الأنس الجليل، ج٢، ص٤٨٩-٤٩٢.

١٠٩-د .علي السيد علي، القدس في العصر المملوكي، ص٧٩.

١١٠-الموسوعة الفلسطينية، ج٣، ص٥٣٦.

١١١-الأنس الجليل، ج٢، ص٤٩٠.

١١٢-عارف العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص٢٨١.

١١٣-د. علي السيد علي، القدس في العصر المملوكي، ص٨٠.

١١٤-عمر صالح البرغوثي، تاريخ فلسطين، ص٢٢٥.

١١٥-د. علي السيد علي، القدس في العصر المملوكي، ص٨٠.

١١٦-القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص٤٧١-٤٧٢.

١١٧-ذات المرجع، ج٤، ص١٩٤.

١١٨-ذات المرجع، ج١٢، ص٢٩٤.

١١٩-رشاد الامام، مدينة القدس في العصر الوسيط، ص١٢٣.

١٢٠-رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية (مترجم)، ج٣، ص٧٥٢.

١٢١-عارف العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص٢٥٤.

١٢٢-أحمد دراج، وثائق دير صهيون، ص٢٢-٢٥.

١٢٣-د. علي السيد علي، القدس في العصر المملوكي، ص٩٩.

١٢٤- FRESCOBALDI , *A VISIT TO THE PLACES,P16*

١٢٥-د. علي السيد علي، القدس في العصر المملوكي، ص٩٥.

١٢٦-الموسوعة الفلسطينية، ج٤، ص٥١٦.

١٢٧- *THE JEWISH ENCYCLOPEDIA* ,VOL VII, P 132.

١٢٨- رشادالامام، مدينة القدس في العصر الوسيط، ص١٣١

١٢٩- د. علي السيد علي، القدس في العصر المملوكي، ص١٠٥.

١٣٠ - الأنس الجليل، ج٢، ص٦٠٤-٦٠٥.

١٣١- القلقشندي، صبح الاعشى، ج٤، ص١٩٧، ١١٩ و ج١٢، ص١٠٤، ٣٣٠-٣٣١.

١٣٢- الأنس الجليل ، ج٢، ص٦١٦.

١٣٣- القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج٤، ص٢٥ و ج١٠ ، ص١٩٧.

١٣٤- أحمد دراج ، المماليك والفرنج ، ص٣٨.

١٣٥- القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج١٢، ص٦٠-٦١، ٧٠.

١٣٦- ذات المرجع ، ج٥، ص٤٦٦.

١٣٧- ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة ، ج١٢، ص١٥٣.

١٣٨- وهو ما حدثنا به الرحالة كازولا الذي زار بيت المقـــدس عام ١٤٩٤ م ، ويذكر لنا ناظر الكنيســة تحت اسم ABRAYANO. أنظر : NEWETT, *CASOLA 'S PILGRIMS*, P 249.

١٣٩- الأنس الجليل ، ج٢، ص٤٤٧.

١٤٠- المقريزي ، السلوك ، ج٣، ق٢، ص٤٨٠.

١٤١- الأنس لجليل ، ج٢، ص٤٦٣.

١٤٢- القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج١٢، ص٧.

١٤٣- الأنس الجليل ، ج٢، ص٥٦٢-٥٨٨.

١٤٤- عارف العارف ، المفصل في تاريخ القدس ، ص٢٦٨-٢٦٩.

١٤٥- الأنس الجليل ، ج٢، ص٦٠٥-٦٤٠ .

١٤٦- السخاوي ، التبر المسبوك ، ص٢٠٨-٣٥١. وأنظر : الأنس الجليل ، ج٢، ص٦١١.

١٤٧- ابن تغري بردى ، منتخبات من حوادث الدهور ، حوادث سنة ٨٤٧هـ ، ص١٠.

١٤٨- المقريزي ، السلوك ، ج٤، ق١، ص١٤١.

١٤٩- الأنس الجليل ، ج٢، ص٥٧٦.

١٥٠- القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج١٢، ص١٠٥-١٠٦.

١٥١- الأنس الجليل ، ج٢، ص٤٨٥-٤٨٦، ٦٦٦.

١٥٢- د.علي السيد علي ، القدس في العصر المملوكي ، ص٥٤.

١٥٣- لأنس الجليل ، ج٢، ص٥٢٦-٥٣٣.

١٥٤- د. علي السيد علي ، القدس في العصر المملوكي ، ص٥٥.

١٥٥- الأنس الجليل ، ج٢، ص٥٢٤.

١٥٦- د.علي السيد علي ، القدس في العصر المملوكي ، ص٥٥.

١٥٧- الأنس الجليل ، ج٢، ص٥٣٣، ٢١٨، ٣٦٠-٣٦٣.

١٥٨- د.كامل العسلي ، مقدمة في تاريخ الطب في القدس ، ص١٤٤.

١٥٩- د. يوسف غوانمة ، نيابة بيت المقدس ، في العصر المملوكي ، عن وثية رقم ٢٠ من وثائق المتحف الاســلامي في القدس، ص١٣٥.

١٦٠- ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص٤٥.

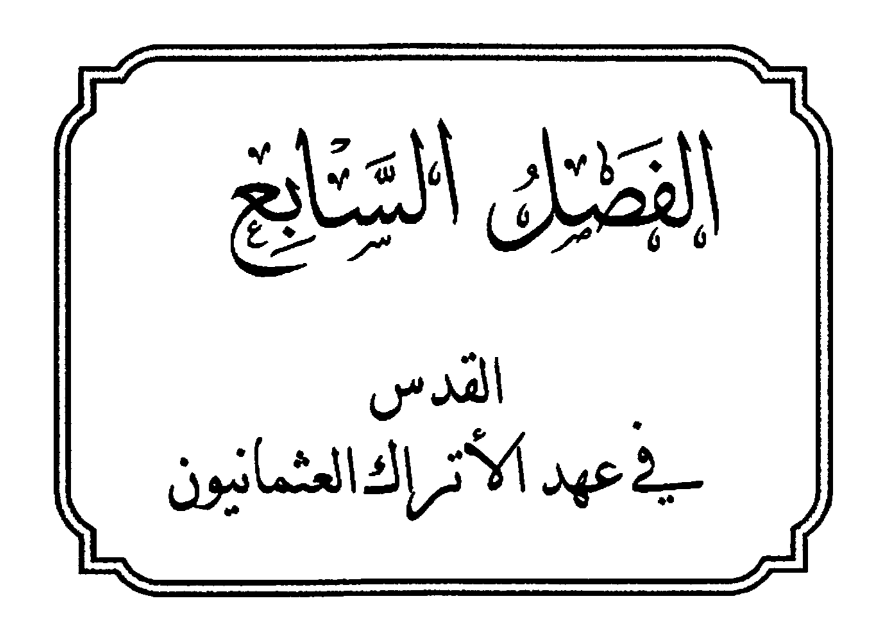
١٦١- ابن جبير، الرحالة، ص٢٥٥.

١٦٢- د. كامل العسلي، مقدمة في تاريخ الطب في القدس، ص١٥٢-١٥٣.

١٦٣- د. علي السيد علي، القدس في العصر المملوكي، ص٢٤٧.

١٦٤- د. كامل العسلي، مقدمة في تاريخ الطب في القدس، ص١٤٧.

١٦٥- ابن الأخوة، معالم القربة في أحكام الحسبة، ص٢٤٠-٢٤١.


الفصل السابع
القدس
في عهد الأتراك العثمانيون

القدس
في عهد الأتراك العثمانيون

نشوء الدولة التركية وتوسعها :

عرفت لأول مرة في التاريخ لفظة (ترك) في حدود سنة خمسمائة ميلادية وذلك اسماً لأقوام بدو من آسيا الوسطى. وخلال القرن السادس الميلادي تمكنت هذه الأقوام البدوية التركية من إنشاء دويلات لها انتشرت في منغوليا وحدود الصين الشمالية حتى البحر الأسود.[1]

وكما اعتمد العرب على الجمال في ترحالهم وتنقلهم، كذلك اعتمد الأتراك على الخيل، فكانت الميزة التي تفوقوا بها على خصومهم هي سرعة الانتقال.

في أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن الميلادي، كان أول اتصال لهم بالعالم من حولهم هو مع الشعوب الهندية الأوروبية في تركستان، وفي هذا البلد واجههم الفاتحون العرب لأول مرة، وعندما بلغت جماعة منهم الى آسيا الصغرى وجدوا البلاد قد أخذت الطابع التركي على يد أنسبائهم السلاجقة، ويعود السلاجقة والأتراك بالنسب الى قبيلة الغز أو الاتحاد القبلي المعروف بهذا الاسم.[1]

أما مؤسس الدولة العثمانية والتي تسمت الدولة والسلالة باسمه والتي عرفت بالعثمانية، فهو زعيم شبه تاريخي اسمه عثمان عاش في الفترة (١٢٩٩-١٣٢٦م)[1]، ويستدل من اسمه هذا أن عشيرته كانت آخذة في اعتناق الدين الإسلامي أو قد اعتنقته نهائيا، وعلى اثر اتباعهم للدين الإسلامي تسربت الى لغتهم التركية آلاف التعابير الدينية والعلمية والأدبية العربية الإسلامية، ولما لم يكن للغة التركية الا القليل من الأدب المدون، عمدوا الى اقتباس الحرف العربي واستمروا عليه في مدوناتهم حتى كان عهد التريك الذي قاده مصطفى كمال سنة ١٩٢٨م.[1]

نشأت الدولة التركية في غربي آسيا الصغرى نشأة متواضعة في أوائل القرن الرابع عشر أي حوالي عام ١٣٠٠م، وبقيت نحو ستة وستين عاماً مجرد إمارة قائمة على الحدود، واتخذت بعد عام ١٣٢٦م مدينة بروسا قاعدة لها[١]، ثم أخذت في التوسع والانتشار حيث غدت بين عامي (١٣٦٦ - ١٤٥٣) مملكة عاصمتها أدرنة. وفي عام ١٤٥٣م تم لمحمد الثاني الفاتح الاستيلاء على القسطنطينية[٢] فغدت هذه الدولة الإسلامية التركية وريثة للإمبراطورية البيزنطية، وبذلك بدأ عهدها الإمبراطوري، فقد تمكنت فيما بعد بضم العديد من الدول العربية التي تمكنت من سلخها عن الخلافة العباسية.

بلغت الإمبراطورية التركية أوج عزها في عهد السلطان سليمان الأول الملقب بالقانوني، وهو ابن الملك سليم الأول فاتح سورية ومصر، ففي عهده تم الاستيلاء على الجانب الأكبر من هنغاريا وإلقاء الحصار على فيينا، واحتلال جزيرة رودوس وأقرت شمالي إفريقيا باستثناء مراكش السيادة السياسية عليها للباب العالي في القسطنطينية.[٣] وبذلك امتدت الإمبراطورية العثمانية في عهد السلطان سليمان الأول من بودابست على نهر الدانوب الى بغداد على نهر دجلة، ومن بلاد القرم الى شلال النيل الأول.[٣]

وهكذا نجد أن توسع وانتشار الدولة العثمانية الى أوسع مداها تم خلال قرنين متتاليين فكان قيامها على هذا النحو من أبرز الأحداث في التاريخ الحديث، و لم ينشئ المسلمون في العصر الحديث دولة بهذا المدى، وكانت بالإضافة الى ذلك من أطول الدول الإسلامية عمراً. وتولى على عرشها منذ قيامها سنة ١٣٠٠م الى عام ١٩٢٢م عندما انحلّت الإمبراطورية العثمانية ستة وثلاثون سلطاناً، كلهم متحدرون عصباً من عثمان المؤسس الأول للدولة.[٣]

القدس

في عهد السلطان سليم الأول

السلطان سليم الأول هو التاسع من آل عثمان والملقب بياورز[٤]، ولقد اختلف المؤرخون في وصفه، فمنهم من قال أنه كان كثير البطش ومحبا لسفك الدماء وشغوفا بلذاته وسكره، ومن قائل أنه نابغة بني عثمان ورجلا نافعاً وقديراً، لكن أكثر الروايات التاريخية تشير بمعظمها الى قوته وبطشه.

في حياة والده كان السلطان سليم الأول على خلاف شديد مع أخويه قورقود وأحمد من أجل ولاية العهد. فقاتل أخويه وقتلهما، وبفضل مساعدة الإنكشارية[٥] تمكن من خلع أبيه والاستيلاء على كرسي السلطنة وكان ذلك في شهر صفر سنة ٩١٨هـ/١٥١٢م.[٦]

تمكن السلطان سليم الأول من ضم العالم العربي الى الدولة العثمانية على أثر انتصاره على المماليك في معركة (مرج دابق) في ٢٣ آب سنة ١٥١٦م وقتل سلطانهم قانصوه الغوري، واثر انتصاره ذلك تمكن من احتلال مدينة حلب ومن ثم استسلمت له مدن حماه وحمص و لم تلبث طرابلس وصفد ونابلس والقدس وغزة أن ألقت سلاحها و لم تعد الى أية مقاومة.[٧]

حدد يوم دخول العثمانيين الى مدينة القدس في ١٥١٦/١٢/٢٨م أي في الرابع من ذي الحجة سنة ٩٢٢هـ.[٨] وبعد هذا التاريخ بيومين قام السلطان سليم الأول بزيارة خاصة لمدينة القدس، حيث عرج عليها خصيصا وهو في طريقه الى مصر.[٩]

في مدينة القدس (خرج العلماء والأتقياء عن بكرة أبيهم لملاقاة سليم شاه ... وسلموه مفاتيح المسجد الأقصى وقبة الصخرة، ثم قدم السلطان الهدايا لأعيان البلد جميعاً وأعفاهم من الضرائب الباهظة وثبتهم في وظائفهم).[١٠] وقد دامت زيارة السلطان سليم الأول للمدينة المقدسة يومين، وفي ١/ ١ /١٥١٧م الموافق الثامن من ذي الحجة سنة ٩٢٢هـ

غادرها مستأنفاً رحلته الى مصر.(١١)

وفي طريق عودته من مصر بعد أن تمكن من فتحها وإقامته بها عشرة أسابيع دبر خلالها شؤون البلاد، توقف قليلا في سورية لكي يثبت فيها مركزه ويعمل على تنظيم شؤونها.(١٢) فعمل على تقسيم بلاد الشام الى ولايات وأصبحت مدينة القدس تشكل سنجقاً من سناجق ولاية دمشق التي كانت تشمل سناجق دمشق والقدس وغزة وصفد ونابلس وعجلون واللجون وتدمر وصيدا وغيرها.(١٣) وأقام على ولاية دمشق جان بردى الغزالي نائباً للسلطنة كما استمر على التدابير التي اعتمدها المماليك في تلزيم الضرائب، وجعل المذهب الحنفي المذهب الرسمي في البلاد.(١٤)

وفي سنة ١٥١٨م وأثناء إقامة السلطان سليم الأول بمدينة أدرنة عاصمة ملكه، وصل إليه سفير من قبل ملك إسبانيا يسأله أن يبيح للنصارى الحج للقدس الشريف كما كان الحال أيام المماليك وذلك في مقابل دفع المبلغ الذي كان يدفع سنوياً للمماليك، فأحسن السلطان مقابلته وصرح بقبوله ذلك اذا أرسل ملكه رسولا آخر مخولاً بحق إبرام معاهدة مع الباب العالي.(١٥)

وفي ٩ شوال سنة ٩٢٦هـ/١٥٢٠م توفي السلطان سليم الأول عن عمر يناهز الحادي والخمسين عاما وقد دام حكمه تسع سنين، وأخفي خبر وفاته حتى حضر ولده سليمان من إقليم صاروخان وتبوأ عرش أبيه، وذلك تخوفاً من ثورة الانكشارية.(١٦)

القدس

في عهد السلطان سليمان القانوني

تولى السلطان سليمان الحكم بعد وفاة والده السلطان سليم الأول، وقد اشتهر بلقب القانوني وذلك لما وضعه من الأنظمة الداخلية في كافة فروع الدولة، فأدخل بعض التغييرات في نظام العلماء والمدرسين الذي وضعه السلطان محمد الفاتح وجعل أكبر الوظائف العلمية وظيفة المفتي.[١٧]

تقدمت الفتوحات العثمانية في عهده تقدماً عظيما، ففي الوقت الذي قامت فيه الدولة العثمانية كان الأسبان والبرتغاليون يتلقون الدعم من مختلف دول أوروبا لمقاتلة المسلمين في الأندلس بغية إخراجهم منها تحت الراية الصليبية، فعمد العثمانيون الأتراك الى محاربة الأوروبيين من جهة الشرق لتخفيف الضغط عن المسلمين في الأندلس ولردع الصليبيين وإضعاف هجمتهم على البلاد الإسلامية[١٨]، فأسفرت تلك الفتوحات على توسع الدولة العثمانية وبلوغها أوج عزها وازدهارها في عهده.

وبما أن مدينة القدس كانت لها مكانة دينية هامة عند المسلمين عامة وعند بني عثمان بصفة خاصة، فقد أقيمت في المدينة المقدسة خلال سنوات حكم السلطان سليمان القانوني تعميرات ومنشآت كثيرة وعديدة، تعد من أهم وأبرز مخلفات العهد العثماني، نذكر أهمها:

١- الحرم القدسي الشريف

لقد اهتم السلطان سليمان بالحرم القدسي الشريف اهتماماً بالغاً وبناء على أوامره تمت التعميرات التالية:

أ- قبة الصخرة المشرفة:

بدأ التعمير في المدينة المقدسة بترميم شامل لقبة الصخرة المشرفة، حيث استبدلت الزخرفة الفسيفسائية التي كانت تكسو الأجزاء العلوية من الجدران الخارجية للقبة بالخزف

المزخرف بينما كسيت الأجزاء السفلية بالرخام الجيد، وقــد أوجب هذا العمل ما حــل بالكسوة الفسيفسائية من تلف وخراب بسبب العوامل الطبيعية وأصبــح استبــدالها أمراً ضروريا لوقاية البناء من نفاذ الرطوبة الى الجدران(١٩) كما جددت نوافذ قبة الصخرة وثلاثة من أبوابها الأربعة.(٢٠)

ب- قبة السلسلة:

وهي تقع شرقي قبة الصخرة المشرفة وعلى بعد بضعة أمتار من بابها المعروف بباب داود وتسمى أيضا (محكمة داود)، وفيها صفان من الأعمدة، الصف الخارجي فيه أحد عشــر عموداً، والصف الداخلي فيه ستة أعمدة.

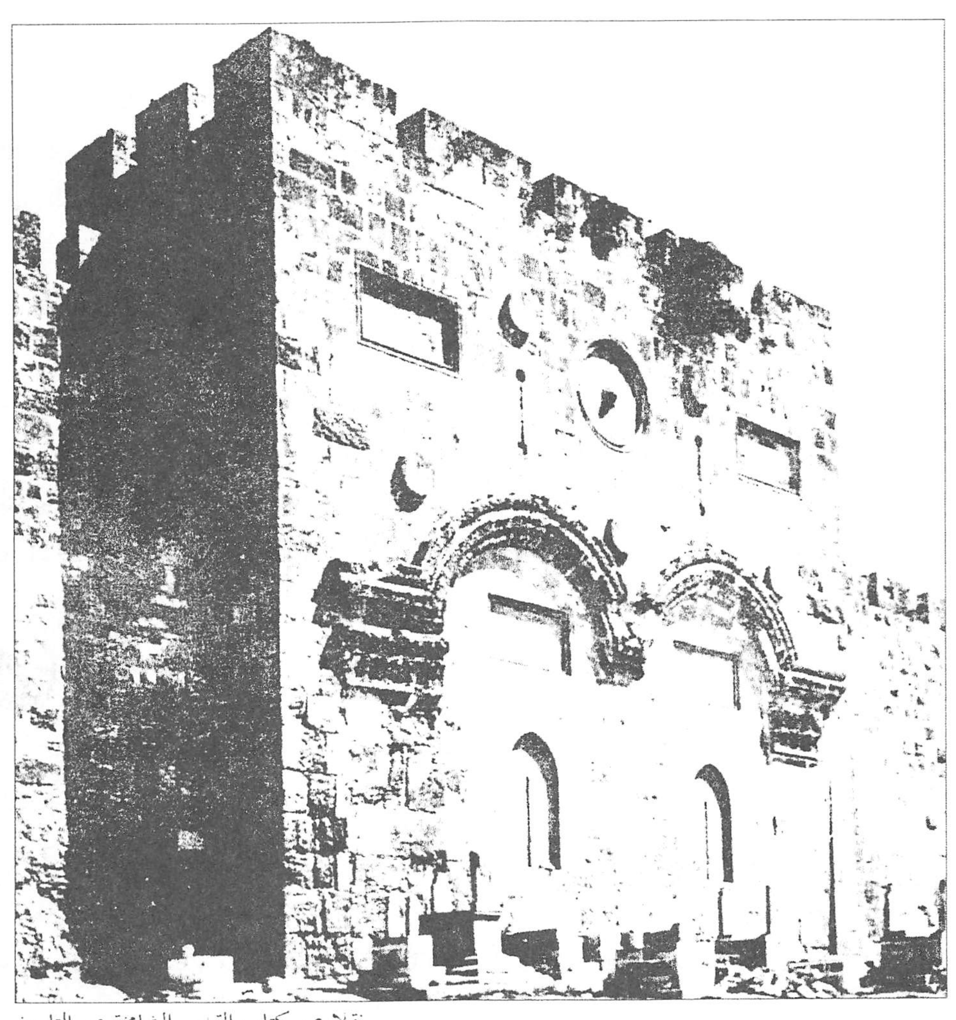
وقد أجمع المؤرخون أن بانيها هو الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، وأهميتها ليست من الناحية الدينية وإنما من الناحية الأثرية حيث لها شكل سداســي ولذلك فهي ليســت نموذجاً لقبة الصخرة كما يعتقد البعض لأن قبة الصخرة ثمانية الشــكل.(٢١) وقــد جرى ترميمها عدة مرات كان آخرها في عهد السلطان سليمان حينما أمر بــأن تُكســى أيضاً بالخزف المزخرف الجميل.(٢٢)

ج- باب الرحمة:

وهو من أجمل أبواب المدينة المؤدية مباشــرة الى داخل الحرم القدســي، ويعرف أيضاً بالباب الذهبي لجماله ورونقه، وقد أمر السلطان سليمان القانوني بسد هذا الباب في عهده بسبب خرافة سرت بين الناس آنذاك مفادها أن الفرنجة سيعودون ويحتلون مدينة القدس عن طريق هذا الباب.(٢٣)

د- قبة النبي:

وتسمى أيضاً محراب النبي وتقع غربي الصخرة المشرفة الى الشمال بينها وبــين قبــة المعراج. وقد تم بناء محراب قبة النبي في سنة ٩٤٥هــ/١٥٣٨-١٥٣٩م(٢٤)، وهو محراب مستطيل وجميل الشكل والتكوين وينحصر داخل أعمدة القبة، واسم منشئها محمد بــك



نقلا عن كتاب القدس الشامخة عبر التاريخ

٤٠ باب الرحمة (الباب الذهبي)

أحد ولاة القدس.[٢٥]

أما القبة ذاتها فقد تم بناؤها فيما بعد وبالتحديد في سنة ١٢٦١هـ/١٨٤٥م أي في عهد السلطان عبد المجيد بن محمود الثاني. وهي تتكون من ثمانية أعمدة رخامية لطيفة الشكل، يعلوها ثمانية عقود مدببة تشكل رقبة مثمنة لإقامة القبة عليها، وقد وضع نقشان حجريان كتب أحدهما بالعربية والآخر بالتركية فوق العقدين في الجهة الجنوبية داخل القبة، ويبين النقشان اسم المنشئ وسنة الإنشاء.[٢٦]

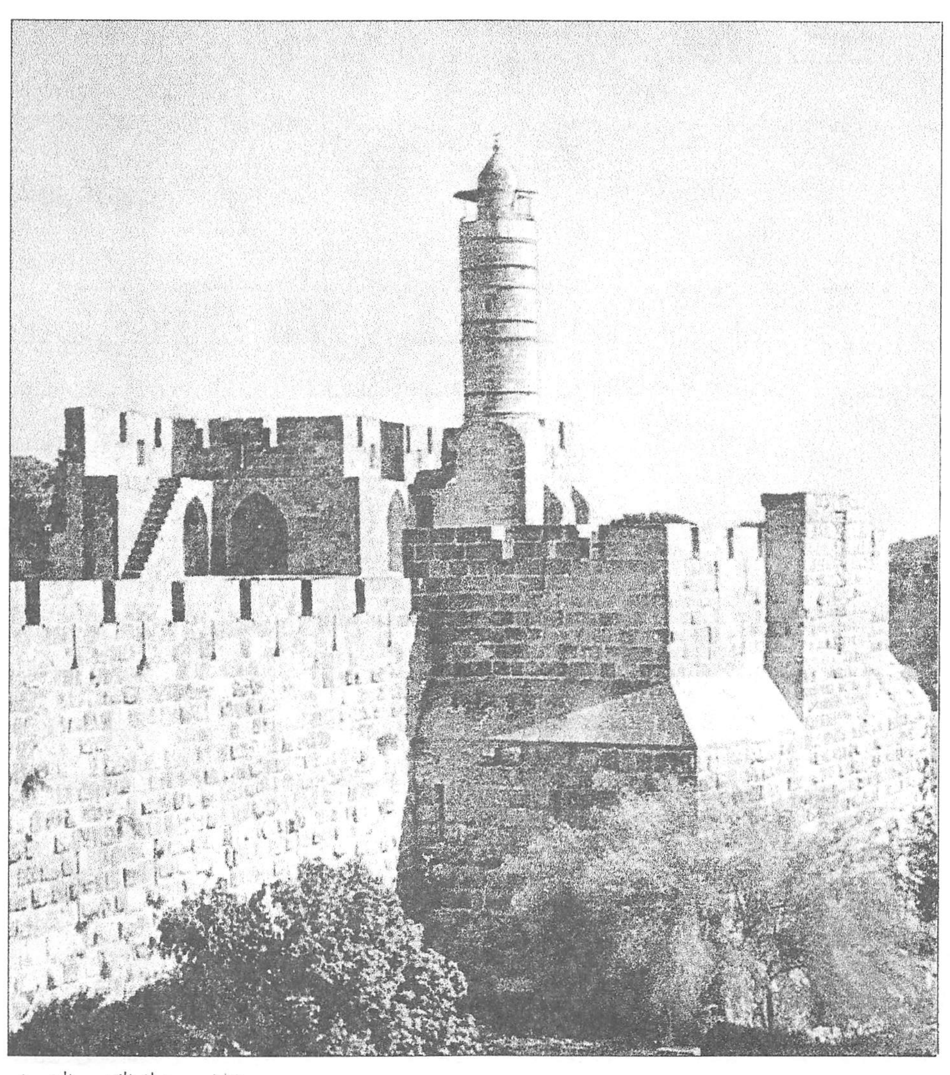
٢- مأذنة جامع القلعة:

تم بناء هذه المأذنة في الجهة الجنوبية الغربية من القلعة الكائنة عند باب الخليل وذلك في عام ٩٣٨هـ/ ١٥٣١م.[٢٧] وهي تتكون من ثلاثة طوابق حجرية، يشكل أولها قاعدة المئذنة المربعة، ويليه الطابق الثاني وهو أسطواني الشكل، ويعلوه الثالث أسطواني الشكل أيضاً لكنه أصغر حجماً من الطابق الثاني، وفي منتصفه بناء صغير يشكل طاقية المئذنة.[٢٨]

٣- سور المدينة وأبوابها:

منذ أن دمر الملك المعظم عيسى الأيوبي أسوار مدينة القدس سنة ١٢١٩م[٢٩]، ظلت المدينة عملياً بلا أسوار لمدة تتجاوز الثلاثمائة عام، فأراد السلطان سليمان إعادة بناء سور المدينة لتحقيق هدف مزدوج منه، أحدهما لحماية المدينة من الغزاة الأجانب من جهة، ولحمايتها من غارات العربان من جهة ثانية، فتم بناء السور حول مدينة القدس القديمة، وهو يجري على خط سور مدينة ايليا كبيتولينا (القدس) التي أعاد بناءها الإمبراطور الروماني هدريانوس سنة ١٣٥م بعد خرابها الثاني وأطلق عليها هذا الاسم.

استمر بناء السور خمس سنوات (٩٤٣هـ/ ١٥٣٦م-٩٤٧هـ/ ١٥٤٠م)[٣٠]، واقتضى نفقات طائلة وتبين سجلات المحكمة الشرعية في القدس أنه كانت تنظم حملات لتمويل المشروع في مختلف أنحاء فلسطين وذلك لإكمال المخصصات التي كانت ترصدها الحكومة المركزية لهذا المشروع.[٣١]



نقلا عن مجلة القدس الشريف

٤١ قلعة القدس وتظهر مأذنتها.

والسور الضخم الذي بناه السلطان سليمان القانوني لا يزال قـــائماً حـــتى يومنا هذا، ويبلغ حوالي الميلين ومعدل ارتفاعه أربعين قدما، ويبلغ عدد أبراج السور في الوقت الحاضر ٣٤ برجا وله سبعة أبواب[٣١]، وتم بناء وتعمير ستة منها في عهد السلطان ســـليمان وهذه الأبواب هي:

أ- باب العامود:

ويسمى باب دمشق وباب النصر أيضا، وهو باب رئيسي مشهور من أبـــواب المدينة المقدسة والمنفذ الرئيسي لها، ويقع في منتصف الحائط الشمالي لسور القدس تقريباً. وقـــد أعيد بناؤه في عهد السلطان سليمان في سنة ٩٤٤هـــ/١٥٣٧-١٥٣٨م.[٣٢] ويشير طراز بنائه الى أثر العمارة العسكرية في تصميمه.[٣٣]

ب- باب الساهرة:

ذكره المقدسي في كتابه (أحسن التقاسيم) باســـم جب أرميا[٣٣]، وهو المعروف عند الغربيين باسم باب هيرودس، ويقع الى الجانب الشمالي من سور القدس على بـــعد نصف كيلومتر شرقي باب العامود، وقد أعيد بناء هذا الباب في سنة ٩٤٤هـــ/١٥٣٧-١٥٣٨م حيث يوجد نقش حجري يبين اسم السلطان وألقابه وتاريخ تجديده.[٣٤]

ج-باب الأسباط:

يعرف أيضاً هذا الباب باسم باب ستنا مريم وباب الأســـود، ويقـــع شمالي الحرم الى الشرق. وهو باب قـــديم العهد رمم وأصلح عدة مرات كان آخرها في عهد الســـلطان سليمان سنة ٩٤٥هـــ/١٥٣٨-١٥٣٩م.[٣٥] وله سقاطة لصب الزيت المغلي على الأعداء ومزغل لرمي السهام.[٣٦]

د- باب المغاربة:

ويسمى باب سلوان أو باب الدباغة أيضاويقـــع في الحائط الجنوبي لســـور القـــدس،



نقلا عن مجلة القدس الشريف

٤٢ باب الأسباط (باب ستنا مريم)

ويختلف هذا الباب عن بقية أبواب القدس الأخرى بأنه أصغرهم حجما ومن حيث البساطة في التكوين المعماري وقد جدد هذا الباب في سنة ٩٤٧هـ/١٥٤٠م. (٣٦)

هـ-باب النبي داود:

ويعرفه الغربيون باسم باب صهيون، وقد جددت عمارته في سنة ٩٤٧هـ/١٥٤٠-١٥٤١م.(٣٦)

و- باب الخليل:

ذكره المقدسي في كتابه (أحسن التقاسيم) باسم باب محراب داود، ويسمى أيضا باب يافا، وقد جددت عمارته في سنة ٩٤٥هـ/١٣٥٨-١٣٥٩م.(٣٦)

٤-المنشآت المائية:

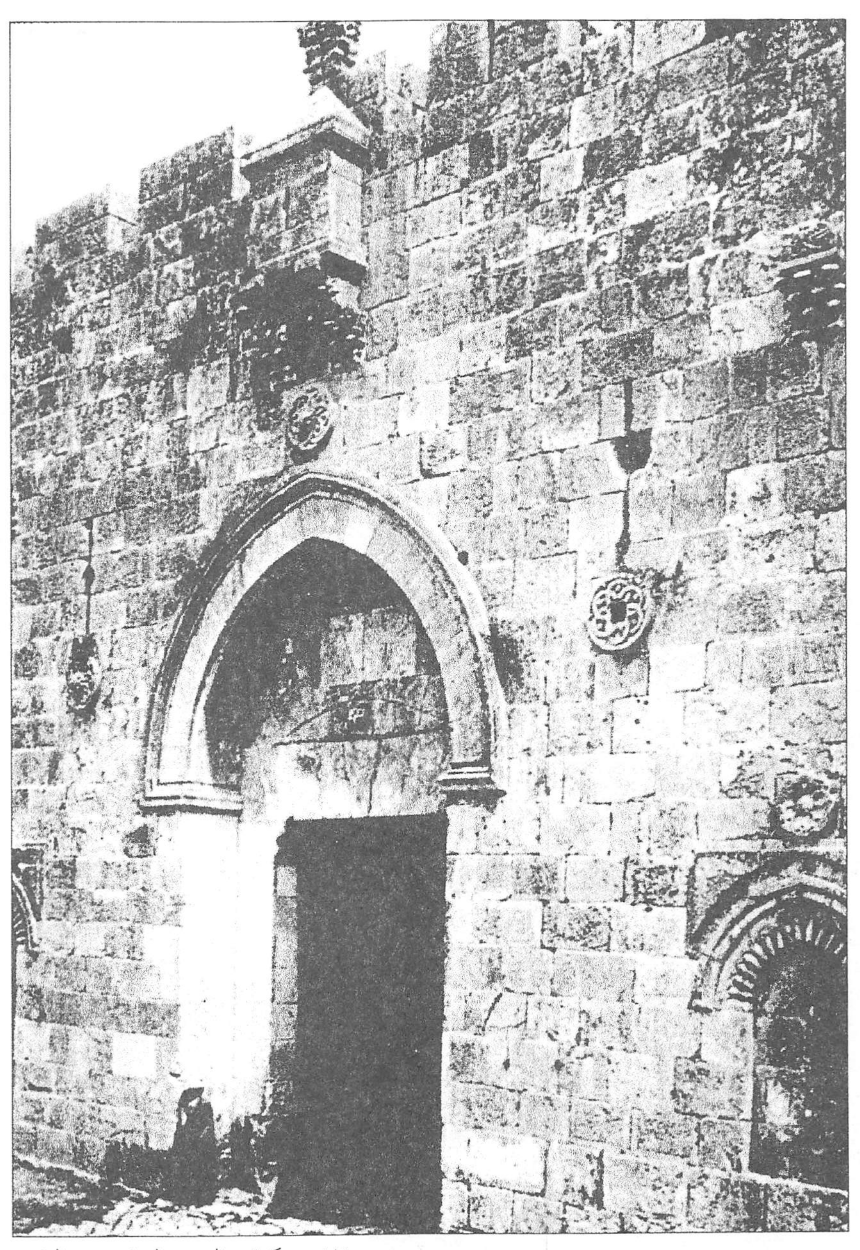
أولى السلطان سليمان مشكلة المياه المزمنة في مدينة القدس عنايته الفائقة حيث خصصت مبالغ طائلة من الأموال لبناء المنشآت المائية ولإصلاحها وصيانتها.

أ- قناة السبيل:

تم تعمير هذه القناة التي كانت تزود مدينة القدس بالماء من البرك والينابيع الكائنة بين مدينتي الخليل وبيت لحم.(٣٧) والتي سميت فيما بعد باسم السلطان(٣٨) أي برك سليمان.

ب- بركة السلطان:

تم في عهده أيضا ترميم البركة الموجودة في داخل المدينة والواقعة خارج باب الخليل، والمعروفة بهذا الاسم.(٣٩)



نقلا عن كتاب القدس الشامخة عبر التاريخ

٤٣ باب النبي داود

ج-تم بناء ستة أسبلة جميلة هي :

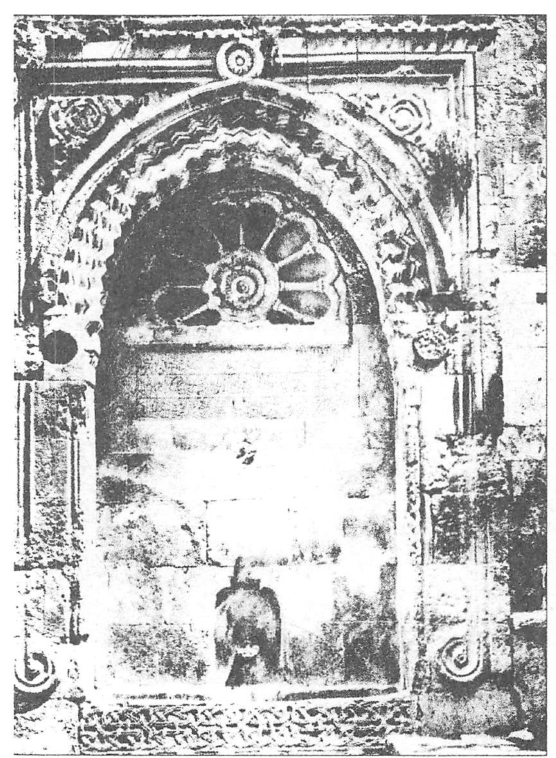
١-السبيل الواقعة قبالة بركة السلطان في جانبها الجنوبي.

٢- السبيل الواقعة في طريق الواد قرب سوق القطانين.

٣-السبيل الواقعة بالقرب من الحرم الى الشمال من باب شرف الأنبياء.

٤-السبيل الواقعة عند ملتقى الطرق المؤدية الى طلعة التكية وباب الناظر وهو من أبواب الحرم.

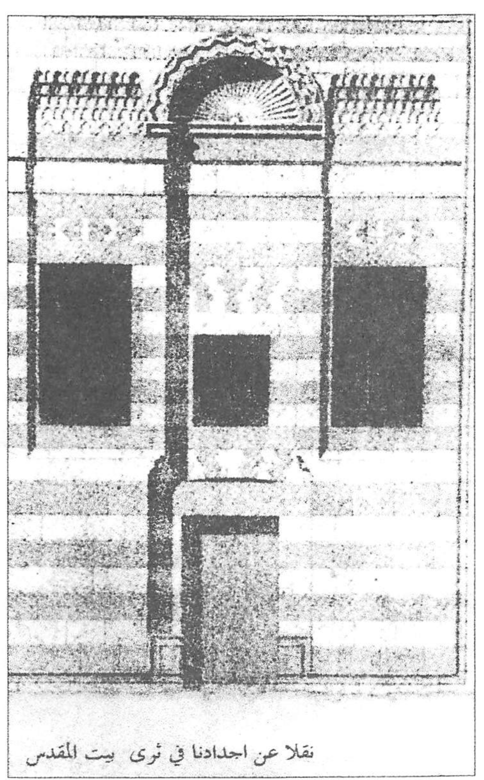
٥- السبيل الواقعة بالقرب من باب الأسباط وعند باب السلسلة أمام المدرسة التنكزية، وتظهر على هذه الأسبلة نقوش تدل على سنة بنائها وهي سنة ٩٤٣ هـ/١٥٣٦م.[٤٠]



٤٤ سبيل باب السلسلة

نقلا عن مجلة القدس الشريف

٥- رباط بيرام جاويش (المدرسة الرصاصية):



٤٥ واجهة رباط بيرم

تم بناء هذا الرباط على يد الأمير بيرام جاويش بن مصطفى سنة ٩٤٧هـ/١٥٤٠-١٥٤١م في عهد السلطان سليمان ويبدو ذلك من نقش مكتوب بأعلى مدخل الرباط .

يقع هذا الرباط عند ملتقى طريق الواد بطريق باب الناظر وعقبة التكية، ويتكون من طابقين يتم الوصول إليهما عبر مدخل شمالي جميل الشكل، ويعلو بارتفاع طابقي البناء وهو مزخرف بالأحجار الملونة، ويؤدي المدخل الى دركاة تفتح على ساحة مكشوفة في الطابق الأول من الجهة الشرقية. وفي الجهة الغربية درج يسير باتجاه الجنوب ثم ينعطف غرباً للوصول الى مختلف أجزاء الطابق الثاني وملحقاته ويضم الطابق الثاني عدداً من الساحات المكشوفة وأكبرها الساحة المركزية، كما يضم مسجداً جميل الشكل والتكوين وغرفاً وقاعات.(٤١)

لقد تم ترميم هذا البناء الذي يعتبر من النماذج الجميلة للفن المعماري الإسلامي في القدس عدة مرات، فهو مجمع معماري متميز من حيث المساحة والإبداع،وكان يضم مكتباً لتعليم الأولاد القراءة والكتابة مجاناً أي (كُتاب) وأصبح يطلق عليه فيما بعد أي في العصر العثماني المتأخر باسم المدرسة الرصاصية، ولعل هذه التسمية جاءت من استعمال ألواح الرصاص في ربط مداميك الحجارة بعضها ببعض نظراً لقلة وجود مادة الجير عند إقامة البناء.(٤١) والمدرسة اليوم هي جزء من أبنية مدرسة دار الأيتام الإسلامية داخل السور.

٦-مكتب بيرام جاويش[٤٢]:

وهو من الملحقات المنشأة للرباط ويقع في الجهة الشمالية لعقبة التكية عند التقـــائها مع طريق الواد وقد بناه الأمير بيرام جاويش بن مصطفى سنة ٩٤٧هـــ/١٥٤٠-١٥٤١ م في عهد السلطان سليمان القانوني. ويتكون هذا المكتب من بناء مربع الشـــكل تغطيه أقبـــية متقاطعة، وفي وسطه ضريح منشئه.

٧- تكية خاصكي سلطان :

أنشئت على يد زوجة السلطان ســـليمان وهي روســـية الأصل واسمها روكســـلانه والمعروفة باسم خاصكي سلطان (أوخرم)وكان ذلك في سنة ٩٥٩هـــ/١٥٥١-١٥٥٢م وسرعان ما أصبحت هذه التكية أهم مؤسسة خيرية في فلسطين.[٤٣]

كانت التكية مجمعا بنائياً ضخماً يضم مسجد وخان ورباط ومدرسة ومطبخ[٤٣]، وتقع اليوم خلف دار الأيتام الإسلامية وعلى بعد أمتار قليلة من رباط بيرام. كان المطبـــخ وهو قائم الآن بشكل دكة باتت على وشك الزوال يقـــدم يومياً مئات الوجبـــات الى ضيوف الرباط من أهل الصوفية والطلبة والفقراء بشكل عام[٤٣]، وهو لا يزال الى يومنا هذا يقـــدم الوجبات مجاناً الى الفقراء والمحتاجين.

ولقد أوقفت خاصكي سلطان وقفاً ضخماً للإنفاق على التكية، وقد ضم الوقف عدة قرى ومزارع في أربعة سناجق وألوية في سورية وفلسطين ومعظمها بجوار مدينة الرملة.[٤٣] كما أوقف السلطان سليمان عليها بعد وفاة زوجته أربع قرى ومزارع في ناحية صيدا.[٤٣]

في عهد السلطان سليمان القانوني صكت نقود جديدة سميت باسمه (الفضة السليمانية) كما تم فرض رسوم على زوار كنيسة القيامة (القبر المقدس)، وفي سنة ٩٢٦هـــ/١٥٢٠م عهد الى آل أبو غوش حراســـة طريق القـــدس - يافا، وأجيز لهم أن يحصلوا من الســـياح والسالكين لتلك الطريق بعض العوائد المقررة.[٤٤] وفي عام ١٥٦٦م وبينما كان السلطان سليمان في طريقه لصد هجمات النمسا عن بلاد المجر التابعة لسيادته أصيب بمرض النقرس، واشتد عليه المرض حتى وافته المنية في ٢٠ صفر سنة ٩٤٧هـــ/١٥٦٦م.[٤٥]

القدس

خلال القرن السادس عشر

أثبتت الدراسات التي أجريت على دفاتر التحـــرير العثمانية، أن عدد ســـكان مدينة القدس طيلة القرن السادس عشر الميلادي لم يتجاوز أربـــعة عشـــر ألفاً.[٤٦] وأن الغالبـــية العظمى من السكان كانت تتألف من أهالي المدينة المسلمين العرب، بـــالإضافة الى نسبـــة صغيرة من المسلمين الوافدين من الدول العربـــية الأخرى مثل المغرب وســـورية والعراق وتركيا والبوسنة (البشانقة) والهند وفارس وغيرها من الدول اختاروا الإقامة في المدينة.[٤٧]

أما الفئة المسيحية من السكان، فلم تكن تنتمي الى طائفة أو مذهب واحد، وانما كانوا منقسمين الى عدد من الطوائف والقـــوميات، فمنهم اللاتين والروم الأرثوذكس والأرمن والأقباط والأحباش والسريان والكرج، الا أن الغالبـــية العظمى من المسيحـــيين كانوا من الروم الأرثوذكس العرب[٤٧]، وكان مقـــر بـــطريركهم في استنبـــــول وكانت له كلمة مسموعة.[٤٧] أما اللاتين فكانوا أقلية ضئيلة لا في مدينة القدس وحدها بـــل في كافة أنحاء الدولة العثمانية لكنهم تمتعوا بتأييد دول أوروبـــا الكاثوليكية وخاصة فرنســـا والنمســـا واسبانيا.[٤٨]

في عهد السلطان سليمان القانوني جرى أهم حدث في العلاقـــات العثمانية بـــالدول الأوروبية، وكان له تأثير على وضع المسيحـــية في المدينة المقدســـة، وهو عقـــد اتفاقـــية الامتيازات الأجنبية CAPITULATIONS بين الدولة العثمانية وفرنسا سنة ١٥٣٥م.[٤٩] والتي بموجبها ضمنت الدولة العثمانية لرعايا فرنســـا حقـــهم في الحرية الدينية ومنحـــت الاكليروس اللاتيني والذي أنشأه البطريرك جرمانوس (١٥٣٤-١٥٧٩)حـــق حراســـة الأماكن المقدسة بدلاً من المسيحية الأرثوذكسية.[٥٠]

وعلى ضوء هذه الامتيازات نشبت خلافات ومنازعات في أواسط القرن السادس عشر بين اللاتين ممثلين بالآباء الفرنسيين والروم الأرثوذكس حـــول حقـــوق كلا الطرفين في الأماكن المسيحية المقدسة وخصوصاً في كنيسة القيامة (القبر المقدس).

ومن أهم آثار هذه الاتفاقية أنها أصبحت أداة للتدخل في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية.

أما بالنسبة لليهود، فقد كانوا عبارة عن فئة قليلة جداً من اللاجئين الذين تمكنوا من دخول فلسطين بعد أن تم تشريدهم وإقصاءهم من إسبانيا والبرتغال سنة ١٤٩٢م. ولكن مع خضوع فلسطين للحكم العثماني سنة ١٥١٧م أصبحوا يتمتعون فيها بقسط وافر من الحرية الدينية، إذ لم تتخذ ضدهم أية إجراءات رسمية تميز بينهم وبين باقي السكان، ونتيجة لهذا التساهل والتسامح من قبل السلطات العثمانية ما أن حلّ عام ١٥٢٢م حتى أصبح في القدس جالية يهودية سفاردية تزايد عدد أفرادها خلال القرن السادس عشر في حين لم يكن هناك أية دولة أوروبية تقف وراءهم في ذلك الوقت.

وقد وصف دافيد دي روسي DAVID DEI ROSSI وهو يهودي إيطالي زار مدينة القدس في القرن السادس عشر حياة اليهود في المدينة قائلاً (نحن هنا لسنا في المنفى كما نحن في بلادنا ذاتها (إيطاليا)...وليست هناك ضرائب خاصة مفروضة على اليهود).[٥٠]

وفي عام ١٥٧٢م تقدم عدد من اليهود بشكوى الى السلطات العثمانية مفادها بأن أعداد اليهود المحصيين في دفاتر التحرير العثمانية مغالى فيها، مما دفع بالسلطات لإجراء إحصاء جديد تبين على أثره أن عدد الذكور اليهود في المدينة (١١٥) شخصاً، مما يعني أن إجمالي عدد اليهود كان يتراوح بين ٥٠٠ الى ٦٠٠ شخص فقط.[٥١]

نظام إدارة الحكم في المدينة المقدسة:

منذ أن فتح السلطان سليم الأول مدن فلسطين والشام جعل مدينة القدس سنجقاً تابعاً لولاية دمشق، وكان سنجق القدس يضم الخليل والقرى المجاورة.[٥٢]

كان على رأس إدارة الحكم، حاكم اللواء ويدعى (سنجق بك أو أمير لواء) وكان هذا المنصب مقصوراً على الأتراك العثمانيين تقريباً. وكان الحاكم رجلاً عسكرياً تتمثل واجباته الرئيسة في قيادة القوات المسلحة في السنجق أثناء الحرب، والمحافظة على النظام

العام والإشراف على القطاعات العسكرية وجباية الضرائب، وكان الحاكم يبقى في منصبه عادة سنة واحدة قابلة للتجديد.(٥٢)

كان للحاكم نائب يدعى (الكخيا) وكاتب يدعى (بازجي) ويتبعه عدد من التراجمة، وكان الفرسان الإقطاعيون (السباهية) تحت إمرة (الميرلاي)، أما قوات الشرطة فكان يرأسها (السوباشي).

أما القلعة فقد كان لها قائد خاص يدعى (دزدار) يرتبط مباشرة بالحكومة المركزية، وكانت حامية القلعة تتألف من السباهين وغيرهم من الجنود، الا أن قوامها الرئيسي هم الانكشارية وكان يرأسهم (آغا).(٥٣)

نظام الإدارة المدنية:

كان على رأس هذه الإدارة (القاضي) وغالباً ما كان تركيا ويعين من استنبول لمدة سنة واحدة، وكان يعتبر من كبار قضاة الدولة العثمانية.(٥٤) وكان منصب القاضي مقصوراً على الأحناف خصوصاً وأن المذهب الحنفي هو المذهب الرسمي للدولة(٥٥)، وكانت منطقة اختصاصه تشمل عدة مدن في فلسطين.

كان يُعيّن للقاضي نائب له وهو (نائب الشرع) ليقوم بمهام القضاء، وكان للقاضي مهام أخرى بالإضافة للمهام القضائية والقانونية، وهي وظائف إدارية واسعة تغطي تقريباً جميع حقول الإدارة.

والى جانب القاضي كان هناك شخصيات دينية واجتماعية بارزة في القدس وهي: المفتي - نقيب الأشراف - وشيخ الحرم. وكان هؤلاء الثلاثة من المقدسيين ويعينهم السلطان.(٥٦)

كان من شأن المفتي إصدار الفتاوى الشرعية بشأن تفسير الأحكام الشرعية، أما نقيب الأشراف فكان مسؤولاً عن حماية الأشراف من نسل الرسول، في حين كان شيخ الحرم

مسؤولا عن ادارة الحرم القدسي الشريف.

ومن بين رجال الإدارة المدنية البارزين أيضاً (المحتسب) وكان يعنى بشـؤون الطوائف المهنية ويجمع الرسوم التي تفرض على البـضائع والمعاملات التجارية، وكان راتبـه يدفعه التجار من أصحاب الدكاكين الذين كان له الحق بفرض عقوبات عاجلة عليهم.[٥٦]

الوضع الاقتصادي العام للمدينة المقدسة:

دلت دراسة جديدة[٥٧] لحياة القدس الاقتصادية في القرن السادس عشر أنه كانت هناك خمسة أقسام رئيسة من الصناعات في المدينة[٥٧] وهي :

١ - الصناعات الغذائية وهي استخراج الزيوت وطحن الحبوب وعصر الفواكه ...الخ

٢ - صناعة النسيج والصباغة. ٣ - الصناعات الجلدية.

٤ - صناعة الصابون. ٥ - الصناعات المعدنية ومنها النحاسية والحديدية.

وكان العاملون في جميع أوجه النشاطات الاقـتصادية من صناعية وتجارية منظمين في طوائف، وكانت كل طائفة تضع الأنظمة الخاصة بالحرفة التي تمارسها وبشـروط العاملين فيها، وكان يرأس الطائفة (شيخ) وله نائب يسـاعده في مهامه. أما العمال فكانوا على ثلاثة مستويات هي المعلم - والصانع - والأجير.[٥٧]

هذا وقد بلغ عدد الطوائف في مدينة القدس في القرن السادس عشر زهاء أربعين طائفة تضم الأطباء والجراحين والمعماريين والكيالين والطحانين والحلوانية والوسطاء والصرافين وصنّاع الصابون والعطارين.

وفيما يتعلق بتجارة التصدير والاستيراد، فقد كان هناك تصدير للحبوب الى بلاد مصر ورودس ويوغسلافيا، كما كان هناك تصدير للصابون الى بـلاد مصر عبر ميناء غزة.[٥٧] أما المستوردات من البضائع فقد كانت مادتي الأرز والمنسـوجات من مصر، والملابـس

والقهوة من دمشق، والمنسوجات والبسط من استنبول والصين والحجاز والعراق.[٥٧]

أما مصادر الدخل للمال العام في المدينة فكانت تعتمد في أساسها على عدد من أوجه الإيرادات والجباية، ومن أهمها نورد ما يلي:

١-إيرادات الأوقاف:

ورثت مدينة القدس من عهود الأيوبيين والمماليك عدداً كبيراً من الأوقاف التي كان لها أثر هام في الوضع الاقتصادي للمدينة.

فقد أوجدت هذه الأوقاف وظائف لمئات الأشخاص، وزودت مئات المنتفعين بدخل ثابت[٥٨]، كما كانت إيرادات هذه الأوقاف تعتبر الشكل العادي والرئيسي للإنفاق على المؤسسات الاجتماعية والتعليمية والدينية، وكذلك على المرافق العامة بوجه عام. في حين كانت الوظيفة الأساسية للحكومة تتمثل في الدفاع عن البلاد وصيانة الأمن العام وجمع الضرائب.[٥٨]

٢-جباية الضرائب:

كانت تفرض الضرائب على جميع النشاطات القائمة في المدينة، ومنها الضرائب المفروضة على الأراضي الزراعية، وعلى الصناعات القائمة، وضرائب السوق، وعلى الدكاكين وغيرها من العقارات كالخانات والحمامات والكثير غيرها من الضرائب. لكن كثيراً ما كان يعفى سكان مدينتي القدس والخليل من بعض أنواع الضرائب لما كانتا تتمتعان به من قداسة عند المسلمين عامة.[٥٩]

٣-الجزية: وكانت تفرض على الذكور من المسيحيين واليهود الأصحاء.[٦٠]

٤-رسوم الخفارة: وكانت تجبى في محطات المراقبة على الطرقات.[٦٠]

٥-رسوم تُجبى من الحجاج الوافدين الى المدينة المقدسة، ورسوم أخرى مفروضة على زوار كنيسة القيامة (القبر المقدس).[٦٠]

القدس

خلال القرن السابع عشر

كان سلاطين بني عثمان يرون أن واجبـــهم الديني يحتم عليهم مدّ كل العون والرعاية والمساعدة الى جميع المراكز ودور العبادة الإسلامية المنتشرة في مختلف أرجاء البلاد التابـــعة لهم وخصوصاً الموجود منها في المدينة المقدسة. وبناء على ذلك بعد وفاة السلطان سليمان القانوني استمرت أعمال التعميرات والترميمات في مدينة القدس عامة، وفي الحرم القدسي الشريف بشكل خاص. ومن أهم التعميرات والترميمات التي تمت خلال القرن السابـــع عشر هي:

١- في عهد السلطان أحمد الأول تم ترميم قبة الصخرة المشـــرفة، كما تم بـــناء جامع الحنابلة في ساحة الحرم القدسي سنة ١٦١١م.[٦١]

٢ -في عهد السلطان مصطفى الأول تم ترميم قبة الصخرة المشـــرفة في حـــدود عام ١٦١٧م.

٣-أما في عهد السلطان مراد الرابع والذي حكم في الفترة (١٦٢٢-١٦٣٩م) فقـــد شهدت المدينة المقدسة بعض التعميرات نذكر منها :

١- بناء القلعة:

عندما ولى الإنكشاريون مراد الرابـــع ســـلطانا على البـــلاد على الرغم من حـــداثة سنّه[٦٢] بـــعد عزلهم لعمه الســـــلطان مصطفى الأول[٦٣]، كانوا يهدفون الى ضمان عدم معارضته لهم في أعمالهم الاستبدادية ولا مضعفاً لنفوذهم، فعمّت الفوضى في البلاد وخلا الأمن فيها، وكذلك كانت الأحوال أيضا في مدينة القدس حيث اختل الأمن فيها بدرجة كبيرة، فكان الأشقياء وقطاع الطرق يوقفون المارة في الشوارع وينهبون ما لديهم من أمتعة ونقود، كما كانوا يخربون ينابيع المياه والبرك التي تزود مدينة القدس بالماء، الأمر الذي حدا بالسلطان مراد الرابع الى إقامة قلعته الشهيرة والكائنة عند بـــرك ســـليمان، وأقـــام على

حراستها دزداراً وأربعين جندياً بمدافعهم وأسلحتهم المختلفة، كما بني في داخل هذه القلعة مسجداً وخمسين منزلاً لسكنى الجند.(٦٤)

٢- تم في عهده أيضاً ترميم السبيل الأيوبي المعروف بسبيل شعلان سنة ١٦٢٧م.(٦٥)

٣-وفي عامي ١٦٥٦م و١٦٦٦ عمّرت قناة السبيل.(٦٥) وفي عام ١٦٨٥م بنى الحاج عبد الكريم الشوربجي سبيلاً آخر في المدينة المقدسة.(٦٥)

غير أن كل الآثار الكبيرة سواء أكانت مدارس أو بيمارستانات أو أربطة أو زوايا أو غيرها من المؤسسات والتي كانت قائمة في ذلك القرن فقد كانت موروثة عن العهود السابقة.

وان أدق وصف لمدينة القدس خلال ذلك القرن، ما سجله الرحالة التركي (أوليا جلبي) في كتاب رحلته المسمى (سياحتنامه سي) والذي زار المدينة المقدسة سنة ١٦٧٢م(٦٦)، وصف المدينة قائلاً:

(القدس بلد عظيمة، كائنة على هضبة مرتفعة هواؤها عليل، ماؤها عذب، وسكانها نضار الوجوه. إنها مهوى أفئدة الكثيرين من الناس، لا من حيث قدسيتها فحسب، بل من حيث اقتصادياتها ووفرة حاصلاتها أيضاً). ثم مدح مأكولاتها ومشروباتها فوصف خبزها، وعنبها المتنوع الأشكال، وصابونها، وعطورها، وبخورها، وجبالها المغطاة بشجر الزيتون، وأضاف قائلاً: في القدس ٤٣ ألف كرم، وكل مقدسي يعيش في كرم من هذه الكروم شهرين أو ثلاثة أشهر في السنة.(٦٧) ثم أضاف قائلاً: فيها عدد كبير من الأعيان والعلماء والأشراف والفضلاء والرجال الذين ينتمون الى الطريقة المولوية، كما أن فيها عدداً كبيراً من التجار وأرباب الحرف .... عد جاويش زاده محمد باشا وهو حاكم المدينة، سكان القدس فبلغوا ٤٦٠٠٠ نسمة، ينتسبون الى مختلف الأمم والطوائف، الا أن أكثرهم عرب مسلمون بينهم عدد من أهل الوظائف في الحرم، لا يقلون عن الألف ويحصلون على رواتبهم من الذهب الذي يأتي به (أمين الصرة) من الآستانة في كل سنة.

وفي المدينة ٦ حمامات و١٨ سبيلاً يشرب منها المار والعطشان ...... وفيها كنيستان للأرمن وثلاث كنائس للروم وكنيسان لليهود........[٦٧] وفيها ٢٤٠ محراباً (مصلى) و٧ دور للحديث و١٠ دور للقرآن و٤٠ مدرسة، وتكايا لسبعين طريقة من طرق الصوفية، أكبرها طرق عبد القادر الكيلاني وأحمد البدوي والرفاعي والمولوي ...... وفيها ٦ خانات عظيمة و٢٠٤٥ دكاناً، كلها مبنية بالحجارة والعقود المقنطرة، وعدة أسواق منها سوق السلطان والسوق الطويل وسوق الحلاجين وسوق الغلال وسوق الحرير.

وفي القدس عدد غير قليل من الصياغ وتجار الحلي والمجوهرات. وجميع هذه الأسواق مسقوفة بالعقود المقنطرة ومرصوفة بالبلاط النقي ...... وليست هنالك مبان من أي نوع حول قلعة القدس باستثناء ضاحية داود التي تتألف من ٤٠ بيتا، وهناك بوجه الإجمال ألف قصر من القصور العالية التي تشبه القلاع. ولو استثنينا البساتين والكروم وحدائق الأزهار، فإن جميع المباني تقع داخل الحصن (السور) وكذلك جميع الأحياء الإسلامية[٦٨]).[٦٩]

هذا وقد ورد في مصادر مختلفة أن أبواب القدس كانت تقفل من غروب الشمس حتى شروقها لأسباب أمنية. وكان على السياح والزوار أن يحصلوا على اذن مسبق لدخولهم المدينة، ويقول هنري موندريل HENRY MAUNDRELL أنه حصل على الإذن واصفاً اياه (الذي لا يجرؤ أي إفرنجي على الدخول ضمن الأسوار بدونه).[٧٠] لكن هذا الأمر لم يكن مقصورا على الفرنجة فقط، وانما كان يسري على المسلمين كذلك، كما يخبرنا عدة رحالة مسلمين[٧١] بذلك.

ويظهر من وصف الجلبي للمدينة وأحوالها، أنه لم يكن مرتاحاً لمسألة الأمن فيها، فقد قال: أنه (أي الأمن) كان مفقوداً تماما ..... حتى أنه عندما أبدى رغبته في زيارة مدينة الخليل أمام أمير اللواء، أرفقه هذا بعشرين خيالا كانوا في حراسته منذ أن غادر مدينة القدس الى أن وصل الخليل ورجع منها.

نظام الحكم والإدارة في المدينة:

من قراءة لقائمة حكام القدس في القرن السابع عشر نجد أن حكام نابلس أو غزة كان يُعهد اليهم أحياناً بحكم مدينة القدس أيضا، فان محمد بن فروخ حاكم نابلس الشركسي حكم القدس سنة ١٦٢٥/١٦٢٦م، كما تولى حسين بن حسن الغزاوي حاكم غزة العربي حكم مدينة القدس أيضا سنة ١٦٦٠م لكنه فوض ابنه ابراهيم صلاحياته بهذا الشأن.[٧٢]

ومن الشخصيات المهمة في الحياة العامة في مدينة القدس- باشا القدس (أمير الحاج الشامي)، وكانت مهمته الرئيسة تأمين سلامة الحجاج والإشراف على شؤون قافلة الحجاج.[٧٣] وكان تحت إمرته ٥٠٠ جندي، وبلغ عدد أرباب الإقطاعات ٦٠٠ رجل، وكانت مهمتهم مرافقة الحجاج بالأعلام وإرشادهم في حين لم يكلفوا بالخدمة العسكرية في الميدان.[٧٤]

أما قاضي القدس فقد كان يأتي عادة من استنبول، وكانت منطقة اختصاصه تشمل بالإضافة الى القدس مدن الخليل ونابلس والرملة والكرك واللجون وجنين[٧٥]، أي أنها أكبر بكثير من منطقة اختصاص حاكم لواء القدس. وكان يتقاضى مرتبا يساوي مرتب باشا القدس (٤٠٠٠٠قرش سنويا) لأن لواءها كان يعد بوجه الإجمال ١٦٠ قرية[٧٥] وكان تحت إمرته ٢٠ ضابطا (آغا) وكانوا يعينون بفرمان سلطاني ويشمل هؤلاء حراس أبواب المدينة الليليين وصاحب الشرطة والخازن والمحتسب.[٧٥]

أما أصحاب المقامات الدينية الرفيعة فكانوا غالبا من القدس، وكانت العائلات القديمة تزود المناصب الدينية عادة بالموظفين وخاصة لأغراض التدريس، ولما كانت هذه المناصب وراثية عادة، فان ذلك قد ساعد على هبوط مستوى التعليم، كما كان معظم أرباب المناصب الدينية والتعليمية في القرن السابع عشر على مستوى ضئيل من التعليم.[٧٦]

ويقول الرحالة الخياري أنه في عام ١٦٧٠ م بحث عن عالم متمكن في المسجد الأقصى فلم يجد، وأن خطيب الجمعة في المسجد الأقصى كان ضعيفا في اللغة العربية.[٧٧] الا أنه في بعض الأحيان كان يؤم المسجد الأقصى بعض العلماء البارزين للتدريس فيه.[٧٨]

أما بالنسبة للمدارس في مدينة القدس خلال القرن السابع عشر فقد تناقصت كماً ونوعاً، فبعد أن كان يوجد فيها ما يقرب من ٥٦ مدرسة في الفترة المملوكية كانت هناك حوالي ٤٠ مدرسة فقط سنة ١٦٧٢م[٧٩]، وكان يوجد حوالي ٢٠٠ غرفة للمدارس المحيطة بالحرم.[٨٠] وكانت الدولة تتولى دفع المرتبات الى عدد كبير من المعلمين وأرباب المناصب الدينية الأخرى وفي المسجد الأقصى وحده كان هنالك ٨٠٠ موظف يتقاضون مرتباتهم من جيب السلطان الخاص.[٨٠]

أما واردات الأوقاف فكانت تصرف بشكل رئيسي على صيانة الأماكن المقدسة وعلى المستخدمين فيها سواء في الحرم القدسي الشريف أو في الأماكن والمؤسسات الأخرى.[٨١] كما كانت واردات الأوقاف ومؤسساته تقوم بأَوَد مئات الدراويش والفقراء من (الهند والسند وبلخ وفرس وأكراد وتتار ومغول وأتراك) وكانوا يعيشون في أروقة الحرم.[٨٢]

وتظهر السجلات الخاصة بالأوقاف المقدسية أن نفقات الأوقاف ازدادت في وقت كانت فيه أحوال العقارات الوقفية تتدهور نتيجة لإهمال القائمين عليها أو لانعدام أمانتهم، وفي بعض الأحيان كانت الأموال المخصصة لمشاريع الأوقاف عرضة لاختلاس الحكام.[٨٣]

الوضع الدولي للدولة العثمانية في القرن السابع عشر وأثره على مدينة القدس

في بداية القرن السابع عشر بـــدأت تظهر تصدعات خطيرة في كيان الدولة العثمانية، وذلك نتيجة لعدم قدرة الحكومة المركزية على فرض سيطرتها على القوات الانكشـــارية، وخصوصاً بعد حالات التمرد والعصيان من قبلهم في عامي ١٦٢٤و ١٦٤٨م(٨٣) وقتلهم أحـــد الســـلاطين وعزلهم لآخر، فكان له أكبر الأثر في تدهور الوضع الأمني في الأقـــاليم والولايات وخصوصاً في مدينة القـــدس وعلى الطرق المؤدية اليها، حـــيث صعّد البـــدو هجماتهم على قوافل الحجاج المتجهين الى المقامات المقدسة في الخليل والنبي موسى، ومنعوا الخطباء من القاء خطبهم في المساجد، وفرضوا إتاوات على الحجاج.(٨٤)

وعلى الرغم من اتخاذ الحكومة المركزية لإجراءات وتدابير مختلفة لكبح جماح البـــدو بتعيين شيوخهم أمراء سناجق أو أرباب إقطاعيات وتكليفهم بحماية القوافل(٨٥)، وكذلك بإنشاء عدة قلاع في مواقع مختلفة، الا أنها فشلت في فرض النظام العام وصيانة الأمن وذلك لعدم قدرتها على تخصيص الأموال والقـــوات الكافية لتطبـــيق هذه الإجراءات بالشـــكل الصحيح، وذلك لتورطها في الحروب الخارجية على الجبهتين الشرقية والغربية منها.

ومن جهة أخرى لاقى العثمانيون صعوبات كبـــيرة وكثيرة في محاولاتهم لحل النزاعات بين الطوائف المسيحـــية المختلفة الموجودة في مدينة القـــدس، والمدعومة من قبـــل الدول الأوروبية حول الأماكن المقدسة المسيحية في المدينة. فقد ارتبـــط تاريخ هذه الطوائف في مدينة القدس أوثق ارتباط بالتقلبات التي كانت تطرأ على العلاقات بين العثمانيين والدول الأوروبية، وتنافس هذه الدول فيما بينها وحرص كل منها على زيادة نفوذها في الأراضي المقدسة.

ففي سنة ١٦٢١م جرت محاولة تعيين أول قنصل لفرنسا في مدينة القـــدس هو م.جان لامبرور M. JEAN LEMPEREUR ، ولكن تعيين هذا القنصل اصطدم بمعارضة قوية من قبل أهل القدس وقضاتها وحكامها ووجهائها، فما لبث أن صدر الأمر السلطاني بترحـــيل

السيد لامبرور عن المدينة المقدسة.

جددت فرنسا محاولاتها لتعيين قنصل آخر مكانه، فأصدر السلطان مصطفى الأول وفي ذات العام ١٦٢١م فرماناً سلطانياً جديداً يقضي بتعين السيد دارامون DARAMON قنصلاً فرنسياً مقيما في القدس، وقوبل هذا الفرمان أيضا بالسخط الشديد من أهل المدينة لتخوفهم من المطامع الأوروبية في المدينة، فعقد ممثلو المدينة اجتماعا في المسجد الأقصى، وكتبوا عريضة أكدوا فيها أن تعيين السيد دارامون كان بدعة خطيرة تتعارض مع ما جرت عليه العادة في القدس، ولذلك فلا بد من إلغائه.

قال واضعو العريضة (إن بلدنا محل أنظار الكافرين ...... إذ حل سعيهم وعملهم عليها ومع ذلك قرب الأسكلة (أي ميناء يافا) على ثماني ساعات ...... ونحن نخشى من جلب أناس آخرين غيره بدسائس يعملها المذكور مع ما عندنا منهم الآن. ونخاف من الاستيلاء علينا بسبب ذلك كما حصل في الزمن السابق مراراً).[٨٦]

استجاب السلطان الى مطالب السكان ووجهاء المدينة، وما لبث التعيين أن الغي وطرد القنصل. وفيما يلي النص الكامل للوثيقة المرفوعة الى السلطان:

(نص الوثيقة)

الحمد لله الذي وفق لسلوك منهاج العدالة من اختاره من العباد والصلاة والسلام على النبي الهادي المبين لسبيل الرشاد وآله وصحبه أولي العزم والسداد. وبعد فان قطان البيت المقدس الشريف والمعبد الأسني المنيف أول القبلتين وثالث الحرمين الشريفين من العلماء والأشراف والخطبا والأيمة الصلحا والفقراء المجاورين وساير أهالي البيت المقدس من العامة والخاصة قايمين على اقدام الابتهال رافعين أكف الضراعة والسؤال بدوام أيام سلطان العالم ملك الملوك على خليقته من بني آدم خاقان البحرين وخادم الحرمين الشريفين وحامي البيت المقدس جامع كلمة الايمان واسطة عقد الخلافة بالنص والبرهان مولانا السلطان مصطفى خان بن السلطان محمد خان خلد الله ملكه وسلطانه وأيد أركان دولته الشريفة بالنصر المبين الى يوم الدين ينهون أنه لما ورد اليهم ديرمون القنصل ببرأة خاقانية من مضمونها أننا رفعنا

القنصل لامبرور ووضعنا مكانه ديرمون والحال أن المرفوع لم يعد له مكوث ولا لأحد من القناصل قبله عندنا من زمن الفتح العمري والصلاحي والى الآن، ومن مضمونها أنه يعامل معاملة بيكاوات المسلمين وأن مراده الركوب ويتقلد بالسلاح، فقوبلت البرأة بالقيد بالسجل المحفوظ إطاعة لأمر مبديها نصره الله تعالى، فاجتمع العلما والصلحا والأيلك[87] السباهية[88] والزعما[89] وأرباب التيمار[90] ودزدار[91] القلعة المحفوظة والنيكرجية[92] الخاصة والعامة بالمسجد الأقصى الشريف بقبة السلسلة المعروفة بمحكمة داود على نبينا وعليه السلام وأعرضوا حالهم على قاضي الشرع الشريف المولى شريف أفندي وحاكم الولاية عوض باشا بأن مكوث هذا القنصل على هذه الهيئة والصنعة التي يباشرها مخالفة لما نصت عليه المذاهب الأربعة ولما شرطه الامام عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين فتح بلادنا عنوة المبين ذلك في كتب التاريخ والعلما الأبرار والمحققين الأخيار مع بغية الشروط عليهم، فانه لم يعهد من زمن سيدنا الامام عمر ومن بعده الخلفاء الراشدين ومن بعده من الخلفا ومن جاء بعدهم من دولة آل عثمان أجدادك الماضين تغمد الله الجميع بالرحمة والرضوان وأسكنهم فراديس الجنان الا رهبان معينين في القدس الشريف وخارجها كما شرط الامام عليهم فيما عهد اليهم. فان أقام عندنا هذا القنصل المزبور وركب الخيل وتقلد بالسلاح يلزم منه مفسدة عظيمة لا سيما أن بلدتنا محل أنظار الكافرين دمرهم الله أجمعين إذ حل سعيهم وعملهم عليها كما لا يخفى سدة سعادتكم العلية، ومع ذلك قرب الاسكلة المينا على ثماني ساعات. ونحن نختشي من جلب أناس آخرين غيره بدسائس يعلمها المذكور مع ما عندنا منهم الآن ونخاف من الاستيلاء علينا بسبب ذلك كما حصل في الزمن السابق مراراً. فجناب المولى[93] بالقدس الشريف والوالي أنعما علينا بعرضين مضمونهما ما سبق وأمراه بالخروج من بين أظهرنا طبقاً للشريعة المطهرة ولعدم التنصيص[94] بسكناه عندنا واحتراماً لهذه البقاع الشريفة من حلول الأدناس بها الى مدينة صيدا مكان القنصل الأول المقام مكانه لكون أن قبله من القناصل من قدم الأيام ومرور الشهور والأعوام اقامتهم بصيدا. فالمترجا من الصدقات السلطانية والمراحم العليا الخاقانيه رحمة منكم وشفقة على سكان هذا البيت المقدس وتطهيراً لمراقد الأنبياء العظام أمرا شريفاً سلطانياً يدفعه عن المكوث في هذه الديار ليتضاعف لحضرتكم الأجر من رب البرية والأمر أمركم أيد الله دولتكم العلية مدا الدوام بجاه خير الأنام وآله وصحبه الكرام.)[95]

أما على صعيد العلاقات الدولية للدولة العثمانية، ففي إبان حكم السلطان مراد الرابع في الفترة (١٦٢٢-١٦٣٩) ترددت العلاقات بين الدولة العثمانية وفرنسا على أثر طرده لليسوعيين من استنبول بتحريض من السفيرين البريطاني والهولندي سنة ١٦٢٨[٩٦]، ثم أصدر السلطان مراد الرابع سنة ١٦٣٤ ثلاثة فرمانات سلطانية منحت الروم حق التصدر والتقدم على اللاتين في الاحتفالات الدينية في القبر المقدس (كنيسة القيامة) وأماكن الزيارة[٩٧] في المدينة المقدسة. لكن هذه الفرمانات أثارت ثائرة اللاتين، فطلبوا وساطة ملك فرنسا والبابا أوربانوس الثامن حتى صدر فرمان جديد سنة ١٦٣٦ يؤيد حقوق اللاتين.[٩٧]

وفي عام ١٦٧٠ تقدم سفير فرنسا لدى الباب العالي يطلب تجديد الامتيازات على أساس مشروع فرمان ينص في مطلعه على الاعتراف بملك فرنسا حاميا للمسيحية في بلاد الدولة العثمانية على أن تشمل الحماية الفرنسية أبناء الدولة العثمانية من المسيحيين الكاثوليك، وأن يعترف بما تخططه فرنسا من حقوق للاتين والروم الأرثوذكس وغيرهم من الطوائف المسيحية في بيت المقدس وبيت لحم. ودارت في هذا الصدد مفاوضات طويلة بين الصدر الأعظم وسفير فرنسا مسيو نوينتلM.DE.NOINTEL، انتهت برفض الباب العالي التوسع في امتيازات الحماية الفرنسية وقصرها على الكاثوليك اللاتين.[٩٧]

وفي عام ١٦٧٣ تمكنت فرنسا من استغلال الصعوبات التي كانت تعترض الدولة العثمانية بفرض نسخة جديدة من الامتيازات الأجنبية وتأكيد دورها (كحامية للكاثوليك).[٩٧]

وفي عام ١٦٧٦ أرغمت بولندا الحكومة العثمانية على اثر معاهدة عقدتها مع الباب العالي على إعادة الفرنسيسكان الى القبر المقدس.[٩٨]

أما في السنوات الأخيرة من القرن السابع عشر، كانت الدولة العثمانية في حالة حرب مع كل من النمسا وبلاد فارس، وأسفرت الحروب مع النمسا عن خسائر فادحة مُني بها الجيش العثماني أمام أسوار فينيا VIENNA سنة ١٦٨٣، كما اشتركت روسيا والنمسا وبولندا والبندقية في حربها ضد الدولة العثمانية في الفترة (١٦٨٣-١٦٨٩)، والتي أسفرت

بعد الهزائم العسكرية للدولة العثمانية على عقد صلح أطلق عليه اسم كارلوفيتز KARLOWITZ سنة ١٦٨٩، والذي نتج عنه خسائر فادحة وكبيرة في مواقع الدولة العثمانية سواء في البلقان أو جنوبي روسيا، كما حصلت النمسا بموجبه على حق تمثيل المصالح المسيحية فيما يتعلق بالأماكن المقدسة في القدس.[٩٨]

وفي سنة ١٦٩٠ صدر فرمان سلطاني بتمكين رهبان اللاتين الكاثوليك في القدس من الاستيلاء على الأماكن المقدسة، والذي أعتبر وثيقة لها أهميتها ومرجعا لجميع الاتفاقيات والمؤتمرات التي تناولت موضوع الأماكن المقدسة وحقوق الطوائف فيها بالبحث.[٩٩]

ويتبين من هذا كله كيف كانت للتطورات الدولية أثرها المباشر في المدينة المقدسة، وكيف أن الأمور كانت كثيرا ما تتعقد وتشتد الخلافات بين الطوائف المختلفة من الروم واللاتين والأرمن وتتحول الى مصادمات عنيفة، وحدث هذا عدة مرات في القرن السابع عشر، وعلى سبيل المثال ما حدث سنة ١٦٦١و١٦٦٩و١٦٧٤م.[١٠٠]

وقد كتب هنري موندريل القسيس الإنجليزي الذي زار القدس سنة ١٦٩٧م في هذا الشأن (والشيء الذي كان على الدوام الجائزة الكبرى التي تتنافس عليها طوائف عدة، إنما هو السيطرة على القبر المقدس والاستيلاء عليه، وهو امتياز يتقاتلون عليه بكثير من الضراوة والعداء المنافيين للمسيحية، وخصوصا اليونان واللاتين حتى أنهم في نزاعهم حول أي فريق منهم يدخل للاحتفال بالقداس يلجئون أحيانا الى تسديد الضربات والجروح، حتى عند باب القبر المقدس ذاته......).[١٠١]

القـدس

خلال القرن الثامن عشر

كشفت الدراسات والأبحاث العلمية الحديثة عن بعض الجوانب الخاصة والمميزة بالمدينة المقدسة خلال القرن الثامن عشر نذكر أهم جوانبها:

١-الأوضاع الثقافية:

دلت المصادر التاريخية على زيادة عدد العلماء في القدس عنهم في القرن السابع عشر، فقد ذكر حسن بن عبد اللطيف الحسيني في تراجم أهل القدس في القرن الثاني عشر للهجرة، أسماء ٧٤ عالماً في المدينة، منهم العالم محمد الخليلي الذي توفي عام ١٧٣٤، والعالم محمد بن بدير الذي عاش في الفترة (١٧٤٧- ١٨٠٥)، وكلاهما من رجال التصوف المشهورين. وقد دلت الدراسات على أن معظم علماء القدس وفلسطين في القرن الثامن عشر تلقوا تعليمهم العالي في مصر وخصوصاً في جامع الأزهر أو في دمشق واستنبول[١٠٢]، وكان هناك عدد كبير من المكتبات الخاصة العائدة لعلماء المدينة.[١٠٣]

وفي تلك الحقبة الزمنية كانت مدينة القدس لا تزال تجتذب العلماء من الأقطار المختلفة، ومن بين زوارها أو من أقاموا فيها العالم عبد الغني النابلسي ومصطفى البكري من دمشق ومصطفي أسعد اللقيمي من دمياط وعلي الخلفاوي من القاهرة.[١٠٤]

وعلى الرغم من زيادة عدد العلماء في المدينة في تلك الفترة، الا أن المدارس كانت في حالة تدهور وانهيار، والطلاب الذين كانوا يطلبون التعليم العالي كان يتحتم عليهم السفر الى خارج البلاد، وبعد أن كان ما يقرب من ٥٦ مدرسة قائمة في العصر الأيوبي، لم يبق منها في أواسط القرن الثامن عشر الا ٣٥ مدرسة لا غير، وفي نهاية القرن تناقص العدد كثيراً .

٢-الأوضاع الاقتصادية:

كان سكان مدينة القدس خلال القرن الثامن عشر يعتمدون على موارد خاصة ومميزة بمدينتهم لوضعها القدسي المميز، ومن أهم هذه الموارد:

أ- إيرادات الأوقاف:

على الرغم من أن إيرادات الأوقاف كانت تعتبر أهم مورد اقتصادي للمدينة وأهلها، الا أن أهم ما تميز به القرن الثامن عشر هو تسارع عملية انقراض الأوقاف في المدينة على الرغم من فرضية دوام الأوقاف أبد الدهر.

أما سبب انقراضها فهو يرجع إما لانعدام الصيانة لمباني الأوقاف، أو بفعل عوامل الفساد واللجوء الى أساليب قانونية مختلفة أدت الى تجزئة الأوقاف أو انتقال ملكيتها الى الآخرين وذلك إما عن طريق الإجارة الطويلة لعقارات الوقف أو استبدال هذه العقارات بالمال النقدي أو بيعها.[١٠٥]

وكانت أكثر التدابير شيوعا لإنشاء حقوق خاصة في أموال الوقف هو الإجراء المعروف بالخلو الذي يسمح بموجبه للمستأجر أن يعمر الوقف ليصبح ما أنفقه عليه حقاً مكتسبا له اتجاه هذا الوقف.[١٠٥] كما كانت عملية الإجارة الطويلة للأوقاف تؤدي في الواقع الى اغتصابها أو انتقالها الى غير المسلمين.

وقد أعرب الشيخ محمد الخليلي في وقفيته المؤرخة سنة ١٧٢٦ عن صدمته وألمه لانتقال أموال الأوقاف الى الغرباء، مؤكداً ما يحمله هذا الانتقال من علامات الخطر لمدينة القدس.[١٠٦]

ب- المنح الحكومية والخاصة:

نظرا لقداسة المدينة اعتمد سكانها في معيشتهم بالإضافة الى واردات الأوقاف على الإيرادات التي تولدها الدوافع الدينية الى حد كبير، فقد كان أهل القدس يتلقون منحاً مالية

من جهات مختلفة. فالحكومتان العثمانية والمصرية كانتا ترسلان منحاً سنوية تعرف باسم (الصرة) ليتم توزيعها وفق قوائم خاصة على عدد كبير من الفقراء وغيرهم.(١٠٧)

أما بالنسبة للاجئين اليهود وقد ازدادت أعدادهم في القدس خلال القرن الثامن عشر خاصة بعد وصول بضع مئات من اليهود الحسيديم القادمين من بولونيا سنة ١٧٧٧م(١٠٨)، الأمر الذي دفع بالجاليات اليهودية في أوروبا ومصر وغيرها الى جمع وإرسال المساعدات الخيرية الى أبناء دينها في القدس وتعرف باسم خالوكا HALUKA وكذلك أرسل ملوك أوروبا وخاصة ملك إسبانيا مبالغ كبيرة من الأموال الى الفرنسيسكان في القدس.(١٠٩)

ج-الدخل من الحجاج:

وكان هذا مصدراً هاماً وآخر لدخل أهل المدينة، فقد كان من عادة الحجاج المسيحيين أن يمكثوا في مدينة القدس خمسة أو ستة أشهر كل عام، وبالتالي كانوا ينفقون مبالغ كبيرة في المدينة، ومع أن عدد الحجاج الأوروبيين تناقص بشكل كبير في القرن الثامن عشر ويرجع السبب في ذلك جزئيا الى ازدياد أنصار العلمانية في أوروبا، الا أن الأمر كان مختلفاً بالنسبة للمسيحيين الشرقيين الذين بلغ عددهم سنة ١٧٨٤ ألفي حاج.(١٠٩)

د- الدخل الوارد من صناعة أدوات التعبد وتصديرها:

اشتهر أهل القدس بصناعة أدوات التعبد من المسابح والصلبان وغيرها من الأدوات، فكان لهذا المصدر من الدخل أهمية كبرى للمسلمين والمسيحيين على حد سواء، كما كان يصدّر من هذه الأدوات كالمسابح والصلبان وذخائر القديسيين ٣٠٠ صندوق سنوياً الى تركيا وايطاليا والبرتغال واسبانيا بشكل خاص.(١٠٩)

٣-الأوضاع العمرانية للمدينة:

إن القارئ لوقفية الشيخ محمد الخليلي يتعرف منها على معلومات هامة وقيمة عن مدينة

القدس في تلك الفترة، ومن بـــينها أنه كان يوجد فيها كثير من الكروم وأشـــجار الفاكهة كالتين والزيتون والعنب والتفاح والرمان والتوت والأجاص واللوز .... الخ، ســـــواء في المدينة أو خارجها.[110]

في حين أننا نجد هذا يتعارض مع أقوال الزوار الأوروبيين الذين سعوا الى تأكيد النواحي السلبية في المدينة، فعلى سبيل المثال تحدث داريفوا عن الخراب الشـــامل والأراضي المهملة وقطاع الطرق الهائمين في البلاد، وعن منطقة اليهود الجبـــلية المجدبـــة.[111] وكذلك فعل السائح الفرنسي فولني VOLNEY الذي زار مدينة القـــدس ســـنة ١٧٨٤ وتحدث عن أسوارها المساواة بالأرض، وفنادقها الممتلئة وجميع مبانيها المثقلة بالأنقاض.[112]

ولكن على الرغم من وجود بعض المناطق المهملة في مدينة القـــدس في تلك الفترة وهو أمر طبيعي، كانت هناك أيضاً عدة دارات وقصور منها قصور جار الله بن أبي اللطف، ونور الدين الجماعي (الخطيب)، وصالح العسلي.[113] كما كان هناك قصران بناهما الشيخ محمد الخليلي خارج أسوار المدينة.[114] وقد أكد الخليلي في وقـــفيته على أهمية عمارة القـــدس وشحنها بالسكان قائلاً: (إرهاباً للعدو وإغاظة له وقطعاً لأطماعه).[114]

لكن ما هو مؤكد منه أنه لم توجد أية وثائق عن مشروعات عمرانية عامة وكبـــيرة في القدس خلال هذه الفترة باستثناء أعمال الترميم الدائمة في منطقة الحرم الشـــريف حـــيث جرت أعمال الترميم في قبة الصخرة في السنوات١٧٠٥و١٧٣٥و١٧٥٢و١٧٨٠.[115]

الوضع الخاص والدولي للدولة العثمانية

خلال القرن الثامن عشر وأثره على مدينة القـدس

خلال القرن الثامن عشر أخذت الدولة العثمانية تسير نحو تراجع وتدهور سريع سواء على الصعيد الداخلي المحلي أو الخارجي الدولي وذلك للأسباب التي سنبينها فيمايلي:

أولا :على الصعيد الداخلي

فقد تزايد عجز أجهزة الدولة المركزية من بسط نفوذها وسيطرتها على الولايات التابعة لها في مشارق الأرض ومغاربها بشكل ظاهر وجلي عما كانت عليه الحال خلال القرن الذي سبقه، مما أدى الى ظهور النزعات الاستقلالية في بعض الأقـــاليم، وغياب الأمن وشـــيوع الفوضى فيها بشكل عام.

وكان لهذا التفكك الداخلي أسباب منها:

١-توارث السلاطين للحكم جيلاً بعد جيل دون أهلية أو حنكة في أصول الحكم.

٢-الإنفاق الضخم من قبل السلاطين على رفاهيتهم الشخصية والحريم.

٣-نتيجة لحاجة السلاطين للمال الوفير، أدى بهم الأمر الى الاعتراف بالرشوة وبـــيع المناصب العامة ومنها مناصب حـــكام الولايات.[١١٦] ولما كانت وظيفة الحاكم تنتهي عادة بعد عام وكثيراً ما كان ينتهي الأمر بمصادرة أمواله أو حـــتى إعدامه، كل هذا جعل الحكام يتبعون سياسة جمع أكبر قدر من المال في أسرع وقت واستهلاكه بالسرعة ذاتها.[١١٦]

٤-فرض الضرائب والرسوم غير المشروعة، مما أدى الى قيام ثورات شعبية مسلحـــة في المناطق المختلفة ومناوئة للحكم العثماني.

ومثل هذا ما حدث في مدينة القدس في بداية القرن الثامن عشـــر من ثورة شعبـــية عام ١٧٠٣، كان سببها سياسة التسلط التي انتهجها حاكم القدس جورجي محمد باشـــا[١١٧]

وذلك بفرضه الضرائب الباهظة على سكان المدن والفلاحين على حد سـواء، ولجوئه الى اجراءات قاسية لتحصيلها. حمل أهالي القدس السلاح وكان على رأسهم نقيب الأشراف المقدسي محمد بن مصطفى الحسيني وهاجموا القلعة، وأطلقوا سراح المساجين وهرب الحاكم من المدينة، وعُين نقيب الأشراف محمد الحسيني حاكماً مؤقتاً للمدينة لمدة سنتين، وفي هذه الأثناء عُين حاكم القدس المطرود جورجي محمد باشا والياً على دمشق.

في سنة ١٧٠٥ أرسل جورجي باشا إنذار الى أهل القدس لتسليم أسلحتهم، وبعد ذلك أرسل لهم حوالي ٢٠٠٠ من قوات الانكشارية والجنود الآخرين لاحتلال مدينتهم، وبعد مقاومة كبيرة في شهر تشرين الثاني سنة ١٧٠٥ تمكن الانكشاريون والجند من احتلال المدينة، وفر النقيب واختبأ بعض الوقت في قلعة طرطوس ثم أعتقل وأرسل الى استنبول حيث نفذ فيه حكم الإعدام سنة ١٧٠٧.[١١٧]

وبمرور الأيام ونتيجة لعجز حكام ولاية دمشق من إخماد الثورات الشعبية بسرعة وبسط سيطرتهم على القدس، اعتمدت الحكومة المركزية في تعيين حكام القدس من الأعيان وأصحاب النفوذ في المدينة، مما أدى ذلك الى ازدياد مكانة عائلات أعيان القدس وتوسع سلطاتها. ففي سنة ١٧١٧ كان أحد أعضاء عائلة طوقان وهو صالح باشا طوقان حاكما على القدس، وشغل فرد آخر من عائلة طوقان أسعد بك طوقان هذا المنصب لمدة ثلاث سنوات في الفترة (١٧٨٨-١٧٩٠).[١١٨]

ولكن على الرغم من تعيين شخصيات محلية حكاماً للقدس، الا أنهم لم يتمكنوا من القضاء على أسباب الفوضى ونشر الأمن وكبح غزوات البدو، والدليل على ذلك ما ورد في كتب السير للرحالة والعلماء، كيف أنهم سُلبوا وقُتل البعض منهم في أثناء الهجمات التي شنت على قوافلهم.[١١٩]

ومن إحدى المؤشرات على عجز حكام القدس في جمع الضرائب من القرويين وسكان المدن، قيام والي دمشق ويرافقه الجند بجولة سنوية لهذه المهمة، أو كما كان يقال عنها دورة سنوية.[١٢٠]

ومما يجدر الإشارة إليه، أن اعتماد الحكومة المركزية على العناصر المحلية لدعم النظام القائم أدى الى زيادة سلطة بعض العائلات المقدسية الرئيسة مثل الحسيني والخالدي وأبي اللطف بالحصول على نصيب متزايد من الإدارة، فقد تمكن وجهاء الأعيان في القدس من تولي المناصب الدينية المجزية، وإدارة الأوقاف، والتزام جمع الضرائب، كما قاموا بدور حماة القرى الأمر الذي مكنهم من الاستيلاء على مساحات واسعة من الأراضي.[١٢١]

ولما كانت هذه العائلات تتمتع بعلاقات جيدة مع أصحاب النفوذ في كل من استنبول ودمشق وكانت هي الممثل الوحيد المتاح للشعب إزاء الدوائر الحاكمة، فقد كانت تقوم بدور الوسيط بين الشعب وتلك الدوائر.[١٢٢]

ثانيا: على الصعيد الدولي

منيت الدولة العثمانية بسلسلة من النكسات السياسية والعسكرية طوال القرن الثامن عشر. ففي العقد الثاني من هذا القرن دخلت الدولة العثمانية في حروب مع روسيا والبندقية والنمسا، وفي العقدين الثالث والرابع منه دخلت في حرب مع الفرس ثم مع النمساويين والروس مرة ثانية، ولكنها انتهت نتيجة لتوسط فرنسا بينهما بعقد صلح بلغراد سنة ١٧٣٩ الذي أعاد للباب العالي ما خسره في صلح بساروفتش مع النمسا سنة ١٧١٨.[١٢٣]

وفي سنة ١٧٤٠ عقدت فرنسا مع الدولة العثمانية أول معاهدة بالمعنى الصحيح للامتيازات الأجنبية، وفي هذه المعاهدة اعترف الباب العالي بحماية فرنسا لجميع من يدينون بدينها في بلاد الدولة العثمانية أي جميع اللاتين من الأجانب ورعايا الدولة العثمانية، ومع ذلك درج العرف والعمل على أن تشمل الحماية الفرنسية لغير اللاتين كأبناء طائفة الروم الكاثوليك.[١٢٣]

كانت من نتائج مواقف الدول الأوروبية زيادة لا سابق لها في المشاحنات بين الطوائف المسيحية، وكثيراً ما كانت هذه المشاحنات تتطور الى مصادمات عنيفة ودموية أحياناً، وقد

حـــدث أعنف هذه المصادمات في ســـنة ١٧٥٧ بـــين اللاتين والروم في داخل كنيســـة القيامة[١٢٤]، على أثر ذلك أصدر السلطان عثمان الثالث فرماناً مشهوراً أعاد فيه تأكيد حق الروم الأرثوذكس في جميع الأماكن المقدسة ومنها كنيسة القيامة التي أخذت منهم ســـنة ١٦٩٠م، و لم يترك للاتين الا حق الزيارة[١٢٥]، ويشكل الترتيب الذي تم التوصل إليه ســـنة ١٧٥٧ أساس الوضع الراهن STATUS QUO الذي ينظم العلاقات بين المسيحيين كافة في هذا الشأن حتى يومنا هذا.

وبسبب الخلافات بين الطوائف المسيحية، حاول رؤساء هذه الطوائف تنمية علاقاتهم وتحسينها مع الحكام ووجهاء القدس المســـلمين وعامة الشـــعب بقـــصد تعزيز وضعهم ونفوذهم في البلاد، كما كان من عادة رؤساء الأديرة سواء من اللاتين أو الروم أو الأرمن تقديم الهدايا الى الأشخاص المتنفذين، وتقديم المساعدات الخيرية الى الفقراء[١٢٦]، وبـــذلك استمرت العلاقات بين المسيحيين والمسلمين سليمة وحسنة.

أما في النصف الثاني من القرن، كانت روسيا العدو الأكبر والرئيســـي للدولة العثمانية حيث تم عقد معاهدة (كوتشوك كاينرجه) بينهما بتاريخ ١٠ /٤ / ١٧٧٤ [١٢٧]، اضطرت فيه الدولة العثمانية الى التنازل لروسيا عن مساحات واسعة من الأراضي في منطقة البحـــر الأسود، كما أصبحـــت روســـيا بموجب المعاهدة حـــامية لمصالح وحقـــوق الكنيســـة الأرثوذكسية بالأماكن المقدسة، كما أكدت حـــق رجال الدين والحجاج الروس في زيارة القدس دون دفع الضرائب أو إتاوات، وذلك في مواجهة الحماية الفرنسية لمصالح وحقوق اللاتين والكاثوليك.[١٢٧]

وهكذا لم تعد مشكلة الأماكن المقدسة في مدينة القدس خلافاً كنائسياً وطائفياً داخلياً بين المسيحيين فقط، وانما أصبحت مشكلة الأماكن المقدسة وما يدور حولها من خلافات، غطاء للتدخل السياسي والأطماع الاستعمارية من قبل الدول الأوروبـــية التي ترغب في أن تنال حصة من التفسخ العثماني.

وفي نهاية القرن الثامن عشر وبالتحديد في عهد السلطان سليم الثالث والذي حكم في

الفترة (١٧٨٨-١٨٠٧)، حاول الفرنسيون بقيادة نابليون بونابرت من اســتغلال ضعف الدولة العثمانية بشن حملة استعمارية على مصر وسورية وفلســطين بــين عامي ١٧٩٨-١٧٩٩[١٢٨]، وذلك لدعم وجودهم في مصر ولجعل الشاطيء السوري منطقة صديقة سواء بالدبلوماسية أو الحرب، وذلك بعد تقديرهم بأن الإنجليز تمكنوا من توحيد قوى الشام تحت قيادة أحمد باشا الجزار في عكا الذي اجتمع عنده باشوات الشام للهجوم على مصر.[١٢٨]

قوبلت أنباء الحملة الفرنسية لدى أهل القدس بقلق وترقب شديدين، وفي شهر تموز عام ١٧٩٨ وهو أول شهور الغزو الفرنسي على مصر، استجاب والي الشــام الى طلب وجهاء القدس بتزويدهم بالسلاح للدفاع عن المدينة المقدسة[١٢٩]، لكنه بعد ذلك بأسبوعين أبلغهم الوالي أن أحمد باشا الجزار والي صيدا عيّن قائداً عاما للقوات التركية في برّ الشام وحشــد الجيوش اللازمة، وأن جميع القضايا المتعلقة بالدفاع ينبغي أن تحال اليه[١٢٩]، وفي شهر أيلول أمر والي دمشق جميع الرجال القادرين في سنجق القدس بالالتحاق بجيش السلطان.[١٢٩]

عند وصول أنباء نزول الجيش الفرنسي في الاسكندرية ثارت مشــاعر الذعر والغضب في القدس، وأدت الى مهاجمة الأديرة وأخذ الرهبان كرهائن، الا أن الوالي نصح بــالتروّي وأمر بحماية الأديرة (طالما انهم يدفعون الجزية ولا يظهرون علامات علــى الخيانــة).[١٢٩] وعندما وصل الى علم الوالي أنباء عن قيام الفرنسيين بارسال بعض الرســائل الى ســكان القدس أمر بأن تسلم هذه الرسائل الى السلطان على الفور.[١٢٩]

على أثر هذه الهجمة الاستعمارية التف أهل القدس وجميع المدن الفلســطينية حــول الحكومة العثمانية، كما أرسل الشيخ موسى الخالدي قاضي عسكر الأناضول منشــوراً الى أهل فلسطين دعاهم فيه الى القتال ضد نابليون.[١٣٠]

بعد أن تم لنابليون الاستيلاء على مصر خرج على رأس جيشه سالكاً طريق صحــراء سيناء ومن ثم اتخذ الطريق الساحلي القديم الى فلسطين، واســتولى على مدن العريش وخان يونس وغزة واللد والرملة ويافا، ثم واصل تقدمه الى الشمال على طول سهل مرج بن عامر للوصول الى هدفه الرئيســـــي وهو الاســـــتيلاء على عكا عاصمة الحكم العثماني في فلسطين[١٣١]، في حين ظن الناس أنه بعد فتحه الرملة ويافا سيتجه نحو مدينة القدس، الا أنه لم

يفعل ذلك لأن القدس كما قيل كانت خارج خطته، كما لم يكن لمدينة القـــدس أية أهمية استراتيجية في عهده.(١٣٢) وبعد حصار حول عكا دام ستين يوماً، انتشر بين جند نابـــليون مرض الطاعون فمات منهم أعداد كبيرة مما اضطر نابـــليون الى التراجع الى مصر خاســـراً وخائباً في حملته على فلسطين، ومن ثم تبعه الخروج من مصر أيضاً.

هذا وقد أكدت حملة نابليون على فلسطين الأهمية الاستراتيجية لفلسطين بجانب مصر في المخططات الاســتعمارية، مما أدى الى ازدياد الاهتمام الأوروبي بفلســطين منذ ذلك التاريخ، هذا بالإضافة الى قيام نابليون بونابرت أثناء غزوته العابرة للمنطقة بوضع البــذرة الأولى للمشكلة الصهيونية قبل تحرك الحملة الاستعمارية الفرنسية نحو الشرق حيث تلقـــى بول باراباس عضو حـــكومة الإدارة في بـــاريس من صديقـــه توماس كوربيت الرأسمالي اليهودي الايرلندي رسالة ينصحه فيها بالاستفادة من اليهود وذلك بقوله: (لأنهم يقدمون لكم عنصراً يمكن الاعتماد عليه في الشرق).(١٣٣)

ويبدو أن نابليون حاول الإفادة من الاقتراح أثناء تجهيز حملته حيث اجتمع بـــعدد من الشخصيات اليهودية الفرنسية، التي صدر عنها بعد ذلك بيان يدعو يهود العالم الى استخدام نفوذهم وثرواتهم لاستعادة بلادهم القديمة، والى إقامة مجلس ينتخبه اليهود في خمسة عشـــر بلدا من أوروبا وتركيا واسيا وافريقيا ليقـــرر ما يجب عمله. فجاء قـــرارهم الى الحكومة الفرنسية بقولهم: (أما البلاد التي ننوى قبولها بالاتفاق مع فرنسا فهي إقليم الوجه البحـــري من مصر، مع حفظ منطقة واسعة المدى يمتد خطها من مدينة عكا الى البحر الميت ومنه الى البحر الأحمر).(١٣٣)

وبتاريخ ٢٠/٤/ ١٧٩٩ وأثناء الحصار الفرنســـي على مدينة عكا نُشـــر في الجريدة الرسمية الفرنسية بيان من نابليون، يدعو فيه اليهود لمؤازرة فرنســـا وانتهاز فرصة وجوده في فلسطين لتحقيق آمالهم في التوضع ما بين عكا والاسكندرية.(١٣٣)

وهكذا يبدو أن المشروع اليهودي الذي طرحه نابليون في بيانه، كان يقصد به التماس الدعم لفرنسا ضد الأطماع الإنجليزية والمنافسة لها في المنطقة، لكن المشـــروع ســـرعان ما انتهى بهزيمة نابليون أمام أسوار عكا، في حين أخذت بريطانيا تعمل على تحقيقه فيما بعد.

القدس والدولة العثمانية

في أوائل القرن التاسع عشر

القدس في عهد السلطان محمود الثاني: حكم في الفترة (١٨٠٨-١٨٣٩)

في بداية القرن التاسع عشر كان على رأس سدة الحكم في الدولة العثمانية السلطان محمود الثاني، الذي حاول إحداث بعض الإصلاحات في أجهزة الدولة فكان من أهمها القضاء على الانكشارية وإصلاح الجندية[١٣٤]، الا أن هذه الإصلاحات لم تحدث سوى تغيير بسيط وجزئي في أحوال البلاد التي استمرت في الانحدار والتراجع الكبير أمام تقدم وازدهار الدول الأوروبية في تلك الآونة. أما بالنسبة للمدينة المقدسة فقد كان حكمها خلال الجزء الأعظم من الثلث الأول في القرن التاسع عشر في يد والي صيدا على الرغم أنه كان عادة يتبع والي دمشق.

بعد وفاة والي صيدا أحمد باشا الجزار[١٣٥] سنة ١٨٠٤، تلاه سليمان باشا (١٨٠٤-١٨١٨) الذي تلاه بدوره عبد الله باشا (١٨١٨-١٨٣١)، وخلال هذه الفترة تولى حكم القدس عدد من الحكام المحليين الذين كان يدعى الواحد منهم ب (المتسلم)، وقد تولى متسلم يافا محمد أبو المرق حكم القدس في خلال السنوات (١٨٠٢-١٨٠٣) و (١٨٠٥-١٨٠٧)[١٣٦]، لكنه كان مكروهاً من قبل العامة من الناس لكثرة استبداده وتسلطه على أهل يافا والقدس والخليل والرملة وغزة، وقد ضايق أبو المرق الحجاج المسيحيين أيضا وفرض عليهم الإتاوات الباهظة[١٣٦].

أما عن واقع المدينة، فمن خلال مشاهدات الزوار والسواح الأجانب للمدينة في أوائل القرن التاسع عشر، فقد قال أحدهم أنه لم ير أثرا للمدارس التي كانت تحيط بالحرم فقد اختفت[١٣٦]، وهي تلك المدارس التي رآها السائح (أوليا جلبي) في الأروقة المحيطة بالحرم في القرن السابع عشر، وسبب اختفائها في الغالب هو انقراض أوقافها كما سبق الحديث عنه في الفصل السابق.

ويذكر السائح والعالم الألماني زيتسن SEETZEN الذي زار المدينة عام ١٨٠٦م أن هناك مصنعا كبيرا للجلود قرب كنيسة القبر المقدس (كنيسة القيامة) وكذلك عددا من المشاغل بينها ٥ طواحين و٢٥ فرنا ويبدو من وصفه للمهن المحلية أنه كان في مدينة القدس ٧٠٠ من أصحاب الصنائع والتجار كحد أدنى.[١٣٦]

أما عن الجانب السكاني للمدينة، فقد قدر السائح SEETZEN سكان المدينة سنة ١٨٠٦ بحوالي ١٢ الف نسمة[١٣٦]، في حين قدر السائح فولني VOLNEY الذي زار المدينة في فترة سابقة أي سنة ١٧٨٤ في أواخر القرن الثامن عشر بأن عدد سكانها حوالي ١٢ ألفا أو ١٤ ألف نسمة.[١٣٧] ولأنه من غير الممكن إعطاء أرقام دقيقة لغياب الإحصاءات الرسمية للسكان، فان العدد حسب هذه التقديرات وغيرها لم يتجاوز ١٤ ألف نسمة والمسلمون كانوا يشكلون الكثرة الساحقة.

ومن أشهر علماء القدس في تلك الفترة موسى الخالدي (١٧٦٧-١٨٣٢) وكان عالماً بارزاً ومؤلفاً في الفقه، وقد تمتع باحترام كبير لدى السلطان محمود الثاني وفي الدوائر العلمية في استنبول[١٣٨]، وقد شغل في وقت متأخر من حياته منصباً هاماً هو قاضي عسكر الأناضول[١٣٩]، وهو أحد أعلى ثلاثة مناصب قضائية في الدولة العثمانية.

أما أهم التعميرات والترميمات التي تمت في مدينة القدس خلال السنوات الأولى من القرن التاسع عشر وبأمر من السلطان محمود الثاني فهي :

١- في سنة ١٨١٢ عمّر متسلم القدس كنج آغا قناة السبيل التي تجري فيها مياه برك سليمان الى القدس.[١٤٠]

٢- في سنة ١٨١٦ قام سليمان باشا والي صيدا بترميم المسجد الأقصى على نفقته الخاصة[١٤٠] وأنشئ معمل خاص للقيشاني في مدينة القدس كي يسد احتياجات المسجد الأقصى منه في عمليات الترميم.[١٤١]

٣- في عامي ١٨١٧-١٨١٨ قام الوالي سليمان باشا بتنفيذ أعمال ترميم كبيرة في قبة

الصخرة المشرفة كان السلطان محمود الثاني أمر بها، واستمرت هذه الترميمات إحدى وعشرين شهرا وبلغت تكاليفها ٤٠٠٠ كيس.(١٤٢)

ومن الحوادث الهامة التي شهدتها المدينة المقدسة في عهد السلطان محمود الثاني نذكر منها ما يلي:

الحادثة الأولى:

في سنة ١٨٠٨ دمرّ حريق الجزء الغربي من كنيسة القيامة، وأتهم الأرمن بإشعال النار في الجزء المخصص لهم من الكنيسة في محاولة لتغيير الوضع الراهن STATU S QUO وقدمت الطوائف جميعها عروضاً لإعادة التعمير في الكنيسة وبعد كثير من البيانات والاحتجاجات، نجح الروم في الحصول على إذن لمباشرة العمل.(١٤٣)

في تلك الأوقات كان السلطان محمود الثاني قد تأكد من حالة الفوضى والفساد التي حلّت بقوات الانكشارية، وأنها من اكبر أسباب تأخر الدولة العثمانية إزاء تقدم الدول الأوروبية المستمر والتي كانت تعتمد الأنظمة العسكرية في إدارة جيوشها، فأصدر أوامره السلطانية بضرورة انضمامهم الى الجيش، وعلى أثر إسناد مهمة حماية قلعة القدس الى جنود آخرين محلهم قام الانكشاريون بثورة ضد الدولة، وأخذوا يعيثون فساداً بالمدينة، حتى أنهم حرّضوا السكان المسلمين على عرقلة أعمال التعمير في كنيسة القيامة.(١٤٤) وتلا ذلك ثورة عارمة وطرد الثائرون متسلم المدينة واعتصموا بالقلعة.(١٤٥)

ولما علمت دمشق بما جرى استنجد واليها بسليمان باشا والى صيدا الذي أصدر أوامره بتجريد حملة لتأديب العصاة بقيادة ضابط مغربي يدعى أبو زريعة وأمره بفتح القدس وقطع دابر الفتنة.

بعد وصول الحملة الى القدس أخذ العفيفي رئيس الانكشارية وأبو زريعة والمتسلم ينصحون المتمردين بالانصياع للأوامر والانضباط، لكنهم لم يستجيبوا للدعوة مما اضطر قائد الحملة للتنكيل بهم وإرغامهم على الاستسلام، ويقال أن أبا زريعة قطّع بيديه أعناق

٦٤ ثائراً، وأرسل رؤوسهم الى سليمان باشا.[١٤٦] وفي عام ١٨٢٦ تمكن السلطان محمود الثاني من القضاء نهائياً على الانكشارية، فأمر بإبطال فئاتها وملابسها واسمها في جميع الممالك المحروسة.[١٤٧]

الحادثة الثانية:

أنه في عام ١٨٢٣ قدم الى مدينة القدس أول جماعة من المبشرين الإنجليز أملا بالعمل على هداية اليهود الى النصرانية.[١٤٨]

الحادثة الثالثة:

في عام ١٨٢٤ شهدت مدينة القدس ثورة شعبية سببها زيادة عبء الضرائب، وقد روى وقائعها بالتفصيل الراهب اليوناني نيوفيتوس NEOPHYTES قائلاً: طلب والي دمشق الجديد مصطفى باشا أن يدفع الفلاحون أعشاراً أكبر، تبلغ عشرة أضعاف الأعشار المعتادة.[١٤٩] وعندما ثار فلاحو المنطقة المحيطة بمدينة القدس، قام الباشا بارسال ١٠٠ جندي الى قلعة المدينة، ثم سار بنفسه من دمشق على رأس خمسة آلاف رجل لمعاقبة الثائرين، ولدى اقتراب الباشا من المنطقة، هجر الفلاحون قراهم ولجأ بعضهم الى الأديرة التي قام الجنود بتفتيشها، ولما خشي المسيحيون أن تُدمر المدفعية الأديرة، قاموا بدور الوساطة بين الباشا والفلاحين، وبعد أن دفع الفلاحون والمسيحيون غرامة كبيرة تم التوصل الى اتفاق، ولكن فور مغادرة الباشا الى دمشق استؤنفت الثورة، لكن هذه المرة داخل المدينة نفسها، ففي الخامس من حزيران سنة ١٨٢٥ احتل أهل القدس القلعة وحرسوا أبواب المدينة حراسة دقيقة، وعندما عاد المتسلم وقد كان خارج المدينة من بيت لحم والقرى المجاورة لم يسمح له بدخول المدينة، وانتخب أهالي القدس شخصين من بينهم ليكونا زعيمين لهم وهما يوسف عرب جبجي الجاعوني، وأحمد أغا الدزدار العسلي، وكان من أوائل الإجراءات التي اتخذها الحكام الجدد تخفيض الضرائب وتحرير سكان بيت لحم والقرويين من مسلمين ومسيحيين من معظم الأعشار.[١٤٩] ولما علم السلطان بذلك، أمر عبد الله باشا والي صيدا بإخضاع الخونة، فأرسل الباشا على الفور نائبه الكيخيا الى القدس

على رأس ألفي جندي، في البداية رفض زعماء القدس الاستسلام، لكنهم بعد أن أخذت نيران المدفعية تتساقط على المدينة من جبل الطور دون تمييز استسلموا وأعطوا الأمان للخروج من المدينة، وبذلك انتهت هذه الثورة دون سفك دماء.(١٥٠)

الحادثة الرابعة:

وهي من أهم الحوادث التي جرت في عهد السلطان محمود الثاني والتي لم تؤثر فقط في مدينة القدس وحدها وإنما على بلاد فلسطين والشام كلها، وهي إعلان والي مصر محمد علي باشا الحرب على عبد الله باشا والي صيدا وعكا، وإرساله جيشا بقيادة ابنه ابراهيم الذي تمكن من احتلال مدينة القدس ومعظم مدن فلسطين في عام ١٨٣١.(١٥١)

وبهذا الاحتلال المصري للمدينة المقدسة انتهت الفترة الأولى من حكم العثمانيين لمدينة القدس خلال القرن التاسع عشر.

الحملة المصرية
على فلسطين وبلاد الشام

دخلت فلسطين وبلاد الشام كلها في حـــكم محمد علي[١٥٢] والي مصر قرابـــة عشـــر سنوات (١٨٣١-١٨٤١) وذلك نتيجة لحملة عسكرية قامت بها قواته بقيادة ابنه ابراهيم باشا. والسبب الظاهر لهذه الحملة هروب بـــعض الفلاحـــين المصريين من الجندية وكان عددهم ستة آلاف، ولجوئهم الى عبد الله باشا والي عكا، فطالب محمد علي بإرجاعهم إليه لكن عبد الله باشا رفض تسليمهم[١٥٣]، فأرسل محمد علي باشا في شهر تشـــرين الأول من عام ١٨٣١م جيشاً من حوالي ٢٨ ألف رجل تساندهم مدفعية الميدان وقـــطع الأســـطول البحري بقيادة ولده ابراهيم الى فلسطين ليحارب عبد الله باشا ويؤدبه.

الا أن أطماع محمد علي في فلسطين وبلاد الشام قديمة وعرفت منذ عام ١٨١١ حينما ساندت قواته جيوش السلطان محمود الثاني في نجد واليونان، وكان يطمع أن ينال مقابـــلها حكم الشام الا أنه لم يفز بهذا.[١٥٤]

وبقي الحلم يراود محمد علي باشا الى أن واتته الظروف المناسبة لتحقيق ذلك، فالدول الأوروبية كانت منشغلة بأزماتها الخاصة وضعف الســـلطنة العثمانية وتراجعها من جانب آخر، في حين كانت القوات المصرية قد اكتملت بإعادة بناء أســـطولها الكبـــير، كل هذه العوامل ساعدت محمد علي على تحركه العسكري وبالتالي تحقيق أحلامه.

اخترقت قوات ابراهيم باشا ســـيناء متجهة الى العريش - خان يونس-غزة- ومن ثم تابعت سيرها على الساحل الى يافا وحيفا، وعند وصولهم الى حيفا اتخذها ابـــراهيم باشـــا قاعدة لتحركه العسكري ولتأمين الذخائر والمؤن.

وفي حيفا وفد عليه شيوخ القدس ونابلس وطبرية وقدموا ولاءهم وأبدوا خضوعهم له لأنهم كانوا شديدي الاستياء من حكم عبد الله باشـــا ومتســـلميه، فكان لخضوعهم أهمية كبرى لأنه مكّن ابراهيم باشا من بسط حكم والده محمد علي على بلادهم دون قتال[١٥٥]،

ونصّب ابراهيم باشا على كل مدينة متسلما يتولى إدارة الأعمال فيها نيابة عنه.(١٥٦)

ولما كان شن الحملات العسكرية بين ولاة الأقاليم في الدولة العثمانية أمرا مألوفا لم يقلق الباب العالي من حملة محمد علي على فلسطين في بادئ الأمر، وانما اعتبره مجرد تحرك عسكري مؤقت ومحدود وأنه لن ينتهي بأكثر من التخلص من عبد الله باشا.

في بادئ الأمر أرسل الباب العالي موفدا الى محمد علي يطلب منه الكف عن القتال الا أنه لم يجبه الى طلبه، وعندما أدرك الباب العالي أبعاد الموقف أعلن عصيان محمد علي ضد ولي النعم في ٢٣/ ٤/ ١٨٣٢ وأصدر في حقه الفتاوى الدينية وجرّده وابنه من رتبة الولاية وأباح دماءهما.(١٥٧)

في تلك الأثناء كانت القوات المصرية قد توجهت الى عكا وحاصرتها مدة ستة أشهر كانت نتيجتها سقوط عكا في أيديهم بتاريخ ٢٧/ ٥/ ١٨٣٢(١٥٨)، ثم واصلت القوات المصرية تقدمها نحو الشمال، فاحتلت المدن السورية كلها ثم عبرت جبال طوروس ونزلت في إقليم أضنه وتحصنت بالقرب من قونيه وهناك هاجمها الجيش العثماني بقيادة رشيد باشا، الا أن ابراهيم باشا تمكن من إلحاق الهزيمة بهم في موقعة قونية يوم ٢١/ ١١/ ١٨٣٢(١٥٩) وأسر قائدهم رشيد باشا وهكذا أصبح الطريق الى الآستانة مفتوحا أمامه.

على اثر هذه الواقعة ثارت أزمة دولية خطيرة، ففي بادئ الأمر استنجد السلطان محمود الثاني بالدول الأوروبية لكنها كانت منشغلة بمشاكلها الخاصة، فتحول الى روسيا التي كانت تتحين الفرص للتدخل في صف السلطان العثماني، فأرسلت مندوبا الى الاسكندرية لتهديد محمد علي بإعلان الحرب عليه بينما كانت ترسل القوات البرية والبحرية الروسية تباعا الى البسفور.(١٦٠)

ونتيجة لتدخل روسيا والذي هو أشد خطرا على المصالح الأوروبية من محمد علي باشا، أسرعت الدول الأوروبية بتوحيد كلمتها بضرورة حماية الدولة العثمانية وإعلان الحرب على ابراهيم باشا في البر والبحر إن لم يوقف زحف قواته وإخلاء سوريا وفنيقية وفلسطين وإرجاعها الى السلطان محمود الثاني.(١٦١)

ومن جهة أخرى عملت الدول الأوروبية على الضغط على الباب العالي لقبول طلبات محمد علي، وبعد تردد طويل قبل السلطان إبرام اتفاقية كوتاهيه في (٨/٤ثم ٦/ ٥/ ١٨٣٢) أعطي فيها محمد علي ولاية الشام وفلسطين مدى الحياة دون أن يتوارث أبناؤه حكمها من بعده[١٦٢] بالإضافة الى ما كان في يده من نجد والحجاز ومصر والسودان وكريت، وأعطيت ولاية أضنه لابنه ابراهيم باشا.

وعلى أثر تلك المعاهدة انجلت القـوات الروســـية من تركيا وانتهت الأزمة الدولية بدخول بلاد الشام وفلسطين تحت الحكم المصري.[١٦٣]

القـدس

تحت الحكم المصري

حين تولى محمد علي باشا ولاية بلاد الشام، عمل هو وولده ابراهيم باشـــا على إلغاء التقسيمات الإدارية العثمانية السابقـــة، وأقـــاموا نظاماً إداريا جديداً لحكم الولاية يديره حاكم عام (الحكمدار) ومقره دمشق.[١٦٤]

الا أن النظام الإداري الجديد تميز عن النظام السابق تميزا إصلاحيا ملحـــوظا في معظم الجوانب الأساسية لتنظيم الحكم، مثل إنشـــاء مجالس للشــورى في المدن المختلفة مهمتها التعاون مع المديرين والنظر في الأمور الجزئية والفصل في المشاكل العمومية المختلفة.[١٦٥]

ولما كانت الزعامات المحلية والتي تقتسم السلطة في البلاد تستند الى كتل أسرية أو قبليه واسعة، كآل الحسيني والخالدي وأبي اللطف في مدينة القـــدس أو الى مصالح مادية ليس من السهل التخلي عنها كالتزام الضرائب وإتاوات الطرق كآل أبو غوش بين القدس ويافا، فقد عمل ابراهيم باشا على استخدام معظمهم في إدارة البلاد ضمن حدوده وقـــيوده في النظام الإداري العام الجديد، وبذلك حاول القضاء عملياً على نفوذهم.

في مدينة القدس عهد ابراهيم باشا الى أحمد أغا الدزدار بمتسلمية المدينة[١٦٦] كما أقـــام محمد أبو السعود رئيسا لمجلس الشورى المقدسي والمؤلف من السادة الأعضاء : محمد علي الحسيني نقيب الأشراف - خليل الخالدي - عثمان ابو السعود - محمد درويش علي أفندي زاده - شاكر المؤقت - نجم الدين الجماعي - ابراهيم المهتدي - محمد الرملي - جار الله كاتب المجلس - وفا معين كاتب الخواجه - ورونه وكيل طائفة اليهود - ويوســـف وكيل طائفة الفرنجة وياقوت جاســـر من طائفة الأرمن.[١٦٦] كما عهد الى أحمد أغا مراد قـــيادة حامية القلعة بالقدس والمؤلفة من أربعة وخمسين جنديا وستة أنفار أسطوات.[١٦٦]

ومن ناحية أخرى عمل النظام الجديد على حماية القانون والأمن العام وضمان الأرواح والممتلكات، كما اعتمد على المساواة في الحقوق الدينية والمدنية بـــين المواطنين مما أدى الى

تضييق الفجوة بين الأكثرية الساحقة من المسلمين والطوائف غير المسلمة كالمسيحيين واليهود، وهو أمر لم تعرفه بلاد الشام منذ أيام الحكم العربي في دمشق.[١٦٧]

في شهر كانون الأول سنة ١٨٣١ م أرسل ابراهيم باشا حامية من جيشه الى مدينة القدس لحماية الأمن فيها، وشفعها بمرسوم الى شيخ الحرم القدسي والمفتي ونقيب الأشراف والى كافة العلماء والخطباء يأمرهم بالتسامح في معاملة المسيحيين واليهود ورفع جميع الضرائب التي كانت تؤخذ منهم جوراً وظلماً سواء أكان هؤلاء المسيحيون واليهود من المواطنين أو الفرنجة الذين يزورون بيت المقدس[١٦٨]، وبمقتضى هذا المرسوم ألغيت رسوم الخفر التي كانت تجبى من المسيحيين عند زيارة كنيسة القيامة وعند نهر الأردن وكل رسم غير قانوني.

فيما يلي النص الكامل للمرسوم الموجه من ابراهيم باشا الى أرباب الأمر والنهي في القدس:[١٦٩]

(جناب صدر الموالي العظام وبدر أهل المعالي الفخام مولانا أفندي القدس الشريف زيد مجده وافتخار المدرسين العظام شيخ الحرم الشريف وفخر العلما (الاعلام) مفتي الاسلام زيد علومهم وفرع الشجرة الزكية وطراز العصابة الهاشمية نقيب الأشراف أفندي زيد شرفه وعمدة أهل العلم والتقوى خدام المسجد الاقصى وكافة العلما والخطبا والوجوه زيد قدرهم يحيطون علما أنه ليس خافيكم أن القدس الشريف محتوى على معابد وأديرة ترد لأجل زيارتها جميع أملال العيسوية والموسوية وفرقهم من كل فج ويقصدونها من ساير الأقطار والديار فبحسب تواردهم كان يحصل عليهم المشقات الباهظة لسبب الاغفار الموضوعة بالطرقات ولاجل اجراء الوفق بين الناس صدرت أوامرنا الى جميع المتسلمين الذين في ايالة الوية صيدا والوية القدس الشريف ونابلس وجنين برفع هذه الأغفار من جميع الطرقات والمنازل بوجه العموم ومن حيث أن الأديرة والكنائس الكاينة بمدينة القدس الشريف هي مقر الرهبان والقسس وبها يتلون الإنجيل الشريف ويجرون طرايق اعتقادهم وطقوسهم فينبغي حمايتهم وصيانتهم من كل التكليفات التي ترتبت عليهم بواسطة طمع السالفين فلذلك قد صدرت ارادتنا الان برفع الترتيبات التي على جميع المعابد والاديرة

وجميع طوايف النصارى الكاينة بالقدس الشريف افرنج وروم وارمن وقبط وكذلك العوايد المرتبة على الملة الموسوية قديما وحديثا (وتلك) المرتبات ان كانت من فرايض وعبـــوديات ومعتادات عايدة الى خزينة الولاه الوزراء العظام او للقـــضا او للمتســـلمين او لاربـــاب الوظايف وذوى التكلم او للكتاب والمباشرين فجميعها أمرنا بـــرفعها وابـــطالها ومنعها وصدرت أوامرنا أيضا برفع الغفر المجعول على الملة العيسوية عند دخولهم الى القيامة والغفر الذي عند (مورده) الشريف الذي على نهر الأردن وأصدرنا لكم أمرنا بهذا الخصوص لكي يوقوفكم على مضمونة حالا تقابلوه بـــالاطاعة والامتثال بـــرفع جميع هذه العبـــوديات والمرتبات والمشتقات عن جميع الأديرة والمعابد الكاينة بالقدس الشـــريف المتعلقـــة بجميع طوايف الملة العيسوية والموسوية ورفع الغفرين المذكورين أيضا لان هذه المرتبات جميعها لا توافق وجها شرعيا وبـــعد صدور امرنا هذا كل من بـــدى منه خلاف أو كل من اخذ من المذكورين درهم الفرد يقع تحت الملام فبـــناء على ذلك أصدرنا لكم مرســـومنا هذا لكي تعتمدوه من ديوان عســـكر عكا فبـــوصوله واطلاعكم على مضمونه تعملوا بموجبـــه وتتحاشـــــــوا مخالفته واعتمدوه غاية الاعتماد والحذر من الخلاف تحريرا في ١٠ رجب سنة ١٢٤٧).

الحاج ابراهيم باشا
والي جدة وساري معسكرعكاحالا

ولما كانت البلاد تعاني من التدهور الاقتصادي في المجالين الزراعي والاقتصادي الناجم عن الرسوم الضريبية الفادحـــة، وعدوان البـــدو على الأرياف، وتحديد التجارة في مرافئ معينة[١٧٠] عمل ابراهيم باشا على إصلاح نظام الضرائب بتحـــديد كمية وأنواع الضرائب بدقة ومنع تجاوزها، كما ألغى ضريبة حراسة كنيسة القيامة التي كان يجبـــيها آل نسيبـــة وجوده[١٧٠] ،كما أمر بإلغاء ضريبة الخمس من الحاصلات الزراعية[١٧١] ووزع البـــذار على الفلاحين مجانا كما حددت الجمارك وألغى الالتزام فيها.[١٧٢]

اهتم ابراهيم باشا كذلك بقمع البدو وأنزلهم في المناطق المهجورة للاستقرار، مما شجع الفلاحين على العودة الى أراضيهم وبالتالي ازدهار الأراضي الزراعية واتساعها. كما أتاح

باشا للتجار الأجانب البيع والشراء في داخل البلاد[١٧٣] مما أدى الى ازدياد النشاط التجاري في الداخل ومع الدول الأخرى.

ولكن ما كاد ابراهيم باشا يبدأ العمل على إرساء النظام الجديد في البلاد، وإذ بـــه في شهر نيسان من عام ١٨٣٤ وبينما كان مع أركان حربه في يافا تلقى أوامر من والده محمد علي باشا[١٧٤] تقضي بما يلي:

١ – فرض ضرائب جديده على المواطنين باختلاف مذاهبهم.

٢ –نزع السلاح من الأهالي.

٣ –التجنيد الإجباري.

بادر ابراهيم باشا الى إذاعة ونشر هذه الأوامر الى الحكام في بـــلاد الشـــام، وعلى أثر تلقيهم هذه الأوامر اتفق زعماء جبال نابلس من آل طوقان وقاسم وجرار مع آل أبي غوش من القدس وآل عمرو من الخليل على توحيد كلمتهم في رفض مطالب الحكومة.[١٧٥]

ولما بلغ ابراهيم باشا خبر تآمرهم أسرع في الذهاب الى مدينة القـــدس، ودعا زعماء وأعيان البلاد وشيوخ القبائل المجاورة للاجتماع وحتم عليهم تنفيذ الأوامر، فوعدوا بإبلاغ قومهم بذلك وانصرفوا، لكنهم بدلا من إبلاغ قومهم بأوامر ابراهيم باشا ووالده انصرفوا لإضرام نار الفتنة بين الناس[١٧٥] مما أدى الى سخط الناس وقيام ثورات وقلاقل في البلاد.

لكن فرض الضرائب لم يكن هو السبب في هذه القلاقل وان أوجد ابراهيم باشا ضريبة جديدة هي ضريبة (الفردة) أي فرض مبلغ سنوي يتراوح بـــين ١٥-٥٠ قرشـــا على كل فرد[١٧٦] لأن الضرائب الأخرى كانت مألوفة بين الناس. ولكن ما أثار اســـتياء وســـخط الناس ثم ثورتهم هي التدابير والإجراءات القاسية التي اتبعها ابراهيم باشا لتأمين الاحتياجات العسكرية والتي لم يكن أهل فلسطين والشام على اســـتعداد لتقبـــلها ومنها مصادرة المؤن لتموين الجيش، ومصادرة الحيوانات وهي وسيلة النقل الوحيدة للفلاحين، وســـوق الناس لإقامة التحصينات العسكرية بالسخرة أو بالأجور المتدنية، هذا بـــالإضافة الى المطلبـــين

الآخرين، أولهما نزع السلاح من الأهالي الذين اعتادوا لعدة قرون خلت وبسبب غياب الأمن الحكومي أن ينظروا الى السلاح في أيديهم على أنه الضمان الوحيد لأمنهم، وثانيهما التجنيد الإجباري وهو الأمر الذي رفضه الأهالي بشدة.

الا أن هذه الثورات لم تأخذ الشكل العفوي وحسب، بل اتخذت الشكل التنظيمي بتسلم الزعامات والوجهاء المحليين قيادتها، فقد عقد رجال القدس اجتماعا حضره عدد كبير من مشايخ القرى المجاورة في ٢٨/ ٤/ ١٨٣٤ وقرروا إعلان الثورة ضد الحكومة[١٧٧]، وعقد زعماء نابلس اجتماعا مماثلا واتخذوا القرار نفسه وانتشرت الثورة في البلاد حتى وصلت الى صفد في الشمال وغزة في الجنوب.[١٧٨]

وفي ٩/ ٥/ ١٨٣٤ حاصر ثوار القدس قلعة مدينتهم، وبوصول نجدات من نابلس والخليل تمكنوا من السيطرة على المدينة لعدة أيام، نهبت خلالها منازل الأتراك واليهود ومخازن الحكومة وسادت الفوضى في المدينة.[١٧٩]

في تلك الأثناء وصلت أخبار الثورة الى ابراهيم باشا وهو في يافا، فطلب في الحال نجدة من بيروت وعكا وطرابلس الشام ومصر، وقرر العودة على الفور بما لديه من قوات الى القدس.[١٨٠] فلما وصل خبر قدوم ابراهيم باشا الى المدينة أخذ الثوار يرسمون الخطط لمقاومة هذه الحملة الجديدة فتحصن أهل القدس في المدينة، وكمن الفلاحون في الكهوف والجبال المطلة على الأودية التي سيمر بها ابراهيم باشا ووضعوا في الطريق الحواجز ليحولوا دون مرور الخيل والفرسان ، الا أن ابراهيم باشا رغم الحوائل التي وضعت أمامه وبعد ثلاثة اصطدامات عنيفة مع الثوار تمكن من الوصول الى القدس[١٨١]، غير أنه لم يدخل المدينة و لم يسمح لجنده بدخولها بل أمر نصب الخيام أمام أسوارها عند باب النبي داود.[١٨٢]

وفي اليوم التالي لوصوله دخل ابراهيم باشا المدينة وتوجه رأسا الى المسجد الأقصى لأداء صلاة الجمعة فيه، وبعد الصلاة أعلن العفو عن الثوار ان هم استسلموا وطلب من الجميع العودة الى أعمالهم وأشغالهم، الا أن أحدا من الثوار لم يأت الى معسكره واستمرت الثورة مشتعلة في البلاد، فأدرك ابراهيم باشا أن القوة التي معه لن تكفي لإخماد هذه الثورة العارمة، فتحصن في قلعة القدس في انتظار وصول نجدات من أبيه.[١٨٣]

وبعد أيام وصلت عن طريق البر نجدة كبيرة من مصر مؤلفة من عدد كبير من المشاة والفرسان والبدو يقودهم اثنين من أبرز قادة محمد علي هم أحمد منكلي بك ومحمد سالم باشا.(١٨٢) في حين وصل محمد علي في ٢٩/ ٦/ ١٨٣٤(١٨٣) على رأس أسطوله الى يافا قادماً من الاسكندرية، فهرع ابراهيم باشا للقاء أبيه مصطحباً معه عددا من وجهاء القدس، الا أن محمد علي لم يحسن استقبالهم بل أمر بإرسالهم الى عكا ومن هناك اقتيدوا الى مصر للإقامة الجبرية فيها.(١٨٤)

بعد أن تشاور محمد علي باشا وولده ابراهيم باشا في كيفية إخماد الثورة، وتم تكليف الأمير بشير الشهابي بإخماد ثورة صفد، تمكن ابراهيم باشا من التغلب على ثورة المقدسيين بالوسائل السياسية، حيث استمال آل أبي غوش بإطلاق سراح زعيمهم ابراهيم أبي غوش من السجن وتعيين ابنه متسلما لمدينة القدس.(١٨٥) ثم تابع ابراهيم باشا سيره الى جبال نابلس حيث تمكن من هزيمة الثوار هناك وألقى القبض على الكثيرين منهم، فخرج أهلها يطلبون الأمان، الا أنه واصل تعقبه للثوار في باقي المدن مثل الكرك والسلط في شرقي الأردن حتى تمكن من إخماد الفتنة نهائيا.(١٨٦) وفي ٢٩/ ٩/ ١٨٣٤(١٨٧) عاد محمد علي الى مصر بعد أن استتب النظام والأمن في فلسطين.

أما عن أهم الأحداث التي جرت في مدينة القدس في عهد حكم محمد علي وولده إبراهيم باشا نذكر منها:

الحادثة الأولى: في عام ١٨٣٥ زار الثرّي اليهودي البريطاني السير موشيه منتفيوري فلسطين لدراسة أوضاعها وثرواتها، وفي نفس العام عمل على تأسيس أول مدرسة لليهود في مدينة القدس.(١٨٨)

الحادثة الثانية: في عام ١٨٣٧ تقدم وكيل طائفة السكناج (اليهود الغربيين) الى مجلس الشورى المحلي في القدس طالباً الترخيص لهم بشراء الأملاك والأراضي للزراعة وتعاطي الحرث والزرع وتعاطي بيع الأغنام والأبقار وتعاطي مصابن ومعاصر مقابل دفع مبالغ معينة من المال للحكومة مثل باقي الرعايا والمواطنين، الا أن المجلس المحلي رفض هذا الطلب، وأيد هذا الرفض محمد علي باشا في كتابه هذا نصّه:

(افتخار الاماجد الكرام ذوى الاحترام ولدنا العزيز مصطفى آغا السعيد متسلم القـــدس الشريف حالاً. أنه بهذه الأثناء ورد لنا تحرير من جناب محبنا مير اللوى بحرى بـــيك وفي طيه جورنال وارد من مجلس القدس الشريف والجورنال المرقوم من معروض متقدم للمجلس من وكيل طائفة السكناج بالقدس الشريف بقصد الاستعلام بـــأنه هل يترخص لهم بمشـــترى الأملاك والأراضي للزراعة وتعاطي الحرث والزرع وتعاطي البيع والشـــراء وبـــيع الأغنام والأبقار وتعاطي مصابن ومعاصر - بناء يدفعوا المرتب للميري مثل الرعايا. هذا مضمون استعلامنا وفهمنا كيفية جواب المجلس بأن هذه ما سبق لها أمثال. وبالوجه الشـــرعي أيضاً غير مساعد للمستأمنين المذكورين في جميع ما يستدعون، حيث أراضي تلك الديار بـــرية ووقفية، فالتماسهم بذلك لا يوافق حكم الشريعة - ما عدا تعاطي البيع والشراء بـــالتجارة التي يجلبونها من بلادهم من أنواع التجارة، حكم أمثالهم من الذميين في السوق بـــأن هذه أعمال يتعاطونها الآن، فلا أحد يمانعهم بها. هذه ملخص مجاوبة المجلس المبســـوط بـــصورة المذكرة المرقومة وهذه المجاوبة من المجلس فهي بالحق والطريقة، والمجاوبـــة لهم بـــذلك فهي بمحلها .اذ ذلك أن الذي ملتمســـينه غير موافق من الوجه الشـــرعي. وأما تعاطيهم البـــيع والشراء بالسوق قـــياس أمثالهم الذميين فهذا ليس لهم معارضة بـــه لكي يكون معلوما عند حضرات أرباب المجلس أن جوابهم بـــذلك بمحـــله. مصر في ٢٤ محرم ســـنة ١٢٥٣ هـــ الموافق ١٨٣٧م.).[١١٩]

الحادثة الثالثة: حاول محمد علي وإبراهيم باشا كسب تأييد الدول الأوروبـــية لحكمهم لبلاد الشام عن طريق اتباع سياسة التسامح في فتح البـــلاد أمام الإرســـاليات والبـــعثات التبشيرية المختلفة وفتح القناصل الغربية في القدس، فكانت أول قنصلية غربية تؤســـس في المدينة هي القنصلية البريطانية عام ١٨٣٨م.[١٩٠] وجعلت بريطانيا من عمل قـــنصلها يونغ (١٨٣٨-١٨٤٥) المقيم في القدس رعاية المصالح البريطانية والأمريكية واليهودية، وهكذا بدأت بريطانيا تربط مصالحها مع اليهود وتستخدمهم للاستيطان في فلسطين وذلك ضمن المخطط الذي وضعته لتمزيق المنطقة الشامية بإيجاد مجموعة سكانية غريبة عنها، تســـتطيع بريطانيا الاعتماد على ولائها في هذه المنطقة الاستراتيجية لتأكيد ســـيطرتها على خطوط المواصلات الى الهند، بالإضافة الى مساندة الدولة العثمانية ضد أطماع محمد علي وأفكاره التوسعية وخصوصاً بعد تقديم الدعم الفرنسي الكامل له.[١٩٠]

الحادثة الرابعة: في عام ١٨٣٩ زار السير منتفيوري فلسطين وتقدم الى ابراهيم باشا بطلب مشروع قائلاً فيه: (انه سوف يتمنى على محمد علي ويتوسل إليه أن يؤجر لنا مائة أو مائتي قرية لمدة خمسين سنة، وحين أعود لإنكلترا لن أتردد في إنشاء شركة لتحسين تلك الأراضي وتشجيع إخواننا في أوروبا على العودة الى فلسطين).[١٩١]

الا أن منتفيوري قصد بمشروعه هذا كما كتب في مذكراته بتاريخ ٢٤/ ٥/ ١٨٣٧ أنه ينوي دعوة اليهود المقيمين في أوروبا وأميركا وجنوب إفريقيا للإقامة في تلك القرى واستغلال موارد الثروة في هذه البلاد المليئة بالخيرات.[١٩٢] لكن هذا المشروع رفض من قبل ابراهيم باشا وأبيه محمد علي رفضا باتا.

الحادثة الخامسة: في خريف عام ١٨٣٩ طلب القنصل البريطاني بالقدس من ابراهيم باشا السماح لثرى يهودي من التبعية الإنكليزية تبليط ساحة البراق (المبكى)، وكانت صدمة شديدة على متولي وقف أبي مدين، فرفع الأمر الى مجلس شورى القدس الذي رفض الطلب، كما رفع ابراهيم باشا الطلب الى والده محمد علي في مصر، فجاء رده بصدور الأمر القاطع بوجوب منع اليهود من تبليط ساحة البراق في القدس وعن رفع أصواتهم فيه ببقاء القديم على قدمه عملاً بنصوص الشرع الشريف.

وهذا هو نص الجواب الموجه من محمد علي الى والي الشام محمد شريف باشا الذي بدوره كتب الى متسلم القدس أحمد أغا الدزدار قائلا:[١٩٣]

(افتخار الاماجد الكرام ذوى الاحترام / أخينا السيد أحمد أغا دزدار متسلم القدس حالاً أنه ورد لنا أمر سام من سر عسكر مضمونه صورة إرادة شريفة خديوية صادرة لدولته يعرف مضمونها الى أنه حيث قد اتضح من صورة مذكرة مجلس شورى القدس الشريف بأن المحل المستدعين تبليطه اليهود هو ملاصق الى حائط الحرم الشريف والى محل ربط البراق وهو كاين داخل وقفية حضرة بومدين (قدس سره) وما سبق لليهود تعمير هكذا أشياء بالمحل المرقوم. ووجد أنه غير جايز شرعاً، فمن ثم لا تحصل المساعدة لليهود بتبليطه وأن يتحذروا اليهود من رفع الأصوات واظهار المقالات ويمنعوا . فقط يعطى لهم الرخصة بزياراتهم على

الوجه القديم. وصادر لنا الأمر السامي السر عسكري باجراء العمل بمقتضى الارادة المشار اليها. فبحسب ذلك أقتضى افادتكم بمنطوقها السامي لكي بوصوله تبادروا لاجراء العمل بمقتضاه المنيف يكون معلومكم في ٢٤ ربيع أول سـنة ١٢٥٦ جرنال ٦٨ نمرة) ، وكان ذلك موافقاً لسنة ١٨٤٠.[١٩٢]

نهاية حكم محمد علي باشا وولده ابراهيم باشا لبلاد الشام وفلسطين

على الرغم من تمكن ابراهيم باشا من سحـق ثورة ١٨٣٤ في فلسطين الا أنها كلفته الكثير من الجهد والضحايا بالإضافة الى حقد الناس وكرههم له، الأمر الذي جرأ أهل الشام ولبنان فيما بعد للقيام بثورات ضده وذلك بتحريض من الأتراك.

ومن ناحيـة أخرى وعلى الرغم من هزيمة الجيش العثماني أمام جيوش محمد علي في معركة نصيبين يوم٢٤/٦/١٨٣٩[١٩٣]، الا ان انكلترا بمساعدة الدول الأوروبـية الأخرى مثل النمسا –روسيا – بروسيا وفرنسا، تمكنت من جعل موقف الدولة العثمانية هو الأقوى أمام محمد علي، حيث تمكنت من فرض إرادتها على الموقف بين البـاب العالي ومحمد علي بتقـديم مذكرة للبـاب العالي في٢٧/ ٧/ ١٨٣٩ تطلب فيها الا يبرم أي أمر أو اتفاق في المسألة السورية الا باطلاع واتفاق الدول الأوروبية وهذا هو نص المذكرة:

(ان سفراء الدول الموقعين لهذا يتشرفون بأن يبلغوا الباب العالي أنهم تلقوا صباح اليوم من حكوماتهم بأن الاتفاق على المسألة الشرقية تام بينها، فهم يطلبون منه أن يوقـف كل قرار قاطع دون مساعدتها نظرا لما يكون له من المنافع التي يرونها).[١٩٤]

بعد ذلك حاول بالمرستون وزير خارجية بريطانيا آنذاك تقديم حل يعطى محمد علي حكم فلسطين دون مدينة عكا مع مصر، فرفضت فرنسا هذا الحل، مما أدى الى أن تعقـد انكلترا مع الدول الباقية مؤتمر لندن الأول في ١٥/ ٧/ ١٨٤٠ الذي تبنى الفكرة نفسها مع إضافة مدينة عكا الى الصفقة، وأن يكون حكم مصر وراثيا لمحمد علي وحـكم فلسـطين مدى الحياة بشرط أن يقبل ذلك خلال عشرة أيام وأن يتخلى فوراً عن كل ما تحت يده غير ذلك، فان رفض حُرم من ولاية فلسطين وأعطي مهلة عشرة أيام أخرى لقبول حكم مصر الوراثي فقط، على أن يظل تابعا للسلطان ويجبي الضرائب باسمه، فان رفض الإنذار تصرفت الدول بما تراه وتتعهد انكلترا والنمسا بقطع المواصلات بين الشام ومصر بكل الوسائل.[١٩٤]

الا ان محمد علي رفض الإنذار، وازدادت الثورات والقلاقل في الشام ولبنان في الوقت الذي أخذت فيه قوى الأسـطول الإنكليزي والنمسـاوي مع العثماني تحتل مدن لبـنان الساحلية ثم حيفا وتضرب عكا بحرا وتحتلها في ٤/١١/١٨٤٠[١٩٥]، ومن ثم توغلت وحدة إنكليزية في البلاد واحتلت القدس، واستسلمت يافا ونابلس، وعمّت الثورات ضد الحكم المصري في باقي المناطق الفلسطينية، كل هذا حتم على ابراهيم باشا ضرورة الانسحاب من الشام وفلسطين الى مصر.

لقي ابراهيم باشا أشد المتاعب والخسائر في تنفيذ الانسحاب، وقد جمع جيشه المؤلف من خمسة وخمسين ألف مقاتل بدمشق للانسحاب ، فقسمهم الى ثلاثة فيالق[١٩٦]:

١-انسحب فيلق بقيادة سليمان باشا عن طريق الحج - معان - العقبة - السـويس، وقد قاسى هذا الفيلق الكثير بسبب الجوع والعطش، فهلك فريق كبير من رجاله.

٢-وانسحب فيلق ثان بقيادة ابراهيم باشا من المزيريب - السلط - عبر نهر الأردن - أريحا - غزة- وعبر بحراً الى مصر.

٣-وانسحب الفيلق الثالث بقيادة منكلي باشا من المزيريب -حسبـان - ذيبـان - الكرك ثم اجتاز بوغاز الخنزيرة - ودار حـول الطرف الجنوبي من البحـر الميت الى غزة وعبرها براً الى مصر.

ترك أخرهم غزة في ١٩/ ٢/ ١٨٤١.[١٩٧] وهكذا استرد العثمانيون القدس وفلسطين وبلاد الشام في عام ١٨٤١ بمساعدة الدول الغربية.

عودة القدس تحت السيادة العثمانية

(١٨٤١-١٩١٧)

السلطان عبد المجيد العثماني: حكم في الفترة (١٨٣٩-١٨٦١)

بعد وفاة السلطان محمود الثاني سنة ١٨٣٩ تولى السلطنة من بعده ابنه السلطان عبد المجيد الذي حاول السير على نهج أبيه في اتباع السياسة الإصلاحية في البلاد، فكان أول عمل قام به عند توليه العرش هو إصدار مرسوم (خط كلخانة الشريف) الذي دشن الفترة الأولى للتنظيمات العثمانية في الفترة الواقعة من عام ١٨٣٩الى ١٨٥٦م، وقد تضمن المرسوم الأمور التالية:

١-صيانة حياة وشرف وممتلكات الرعايا بصورة كاملة بغض النظر عن المعتقدات الدينية.

٢ - ضمان طريقة صحيحة لتوزيع وجباية الضرائب.

٣-توخي العدل والإنصاف في فرض الجندية وتحديد أمدها.[١٩٨]

بعد أن وضع السلطان عبد المجيد أساس الحكم والعمل في بلاده أقال ابراهيم باشا عن حكم ولاية سوريا في فرمان تاريخه ١٨٤٠م[١٩٩]

وفي عام ١٨٤١ تمكن السلطان عبد المجيد من استعادة بلاد الشام وفلسطين بمساعدة الدول الغربية وبسط السيطرة العثمانية عليها من جديد، وهكذا عادت مدينة القدس تحت الحكم والسيادة العثمانية.

وفي عام ١٨٥٦ أصدر السلطان عبد المجيد مرسوم الإصلاح الثاني المعروف ب (خطى همايون) الذي دشن الفترة الثانية للتنظيمات في الفترة الواقعة (١٨٥٦-١٨٧٦) والذي يقضي بالمساواة بين جميع الرعايا العثمانيين في الحقوق والواجبات من غير تفريق بين العناصر والمذاهب.[١٩٩] وعلى اثر ذلك انتظم المسيحيون في الجندية مثلهم كمثل المسلمين.

القدس في عهد السلطان عبد المجيد

(١٨٤١-١٨٦١)

في أواسط القرن التاسع عشر كان سور المدينة ما يزال يشكل حدود مدينة القدس، و لم تكن هناك أية مبان خارج السور الذي كانت تغلق أبوابه عند الغروب ولا تفتح لأي إنسان يأتي متأخرا بعد غروب الشمس.[٢٠٠] وبداخل هذه الأسوار كانت ما تزال هناك مساحات كبيرة من الأراضي تستغل للزراعة، كما كان هناك العديد من البيوت والبنايات المهدمة والمهجورة.[٢٠١]

في سنوات الأربعينات والخمسينات كان البروتستنت الألمان والإنجليز أول من أقام البنايات الجديدة في داخل وخارج المدينة مثل كنيسة المسيح CHRIST CHURCH التي دشنت سنة١٨٤٩[٢٠٢]، الا أن الازدهار الحقيقي للبناء في المدينة بدأ في سنة ١٨٥٦ واستمر بعد ذلك باضطراد دون توقف، وفي سنة ١٨٥٨ تأسست المسكوبية[٢٠٣]خارج أسوار المدينة، وبعد ذلك أخذ المقادسة يبنون بعض المساكن خارج السور بجوار المسكوبية كما تم فتح باب صغير في إحدى درفتي كل باب من أبواب السور لتستعمل ليلاً لدخول المتأخرين الى المدينة.[٢٠٤]

أما عن الإحصاءات السكانية لمدينة القدس، والتي تعتمد على دفتر النفوس العثماني أن التعداد السكاني للمدينة لسنة ١٨٤٩ كان كما يلي:

٦،١٤٨ نسمة مسلم، ٣،٧٤٤ نسمة مسيحي، و ١،٧٩٠ نسمة يهودي، أي ما مجموعة ١١،٦٨٢ نسمه.[٢٠٥]

منذ عودة الحكم العثماني للبلاد سنة ١٨٤١ وحتى بداية الحرب العالمية الأولى تميزت مدينة القدس تميزا واضحا عن غيرها من المدن الفلسطينية والعربية وذلك بتطورها الكبير والسريع والذي كان يعكس الآثار الناجمة عن السياسة العثمانية من جهة، والتدخلات الأوروبية من جهة ثانية، أما تطورها في عهد السلطان عبد المجيد فقد سار في اتجاهين:

أولهما: تطورها الإداري بالنسبة للتقسيمات الإدارية المتبعة في النظام الإداري العثماني.

ثانيهما: تطورها التاريخي لتميزها الديني وليس لتميزها الجغرافي أو الاقتصادي.

أولا: التطور الإداري لمدينة القدس

في عشية الإحتلال المصري لبلاد الشام وفلسطي وبالتحديد في سنة ١٨٣٠م وحّد الباب العالي حكم فلسطين بسناجقها الثلاثة (القدس - نابلس - عكا) في يد والي عكا.[٢٠٦] واستمر الحال كذلك في إبان الحكم المصري لفلسطين في الفترة (١٨٣١-١٨٤١) حيث كانت عكا هي العاصمة الفعلية لسناجق فلسطين الثلاثة.

وبعد عودة السيادة العثمانية على البلاد عام ١٨٤١ عمل العثمانيون على الاستمرار في اتباع سياسة التنظيمات الإدارية التي كانت متبعة منذ عهد محمد علي في البلاد مع المحاولة على التأكيد على أهمية سنجق القدس، فجعلوا مدينة القدس هي العاصمة المركزية للمناطق الفلسطينية الوسطى والجنوبية، كما أصبحت أقضية غزة ويافا تابعتين لسنجق القدس بشكل دائم، وحتى عام ١٨٥٨ كان سنجق نابلس تحت سلطة حاكم القدس.[٢٠٧]

وهكذا برزت مدينة القدس كمركز للإدارة المركزية في فلسطين وهي إحدى التطورات الإدارية الهامة في فلسطين خلال القرن التاسع عشر.

ثانيا: التطور التاريخي لمدينة القدس

كنتيجة للاحتلال المصري لفلسطين وبلاد الشام توضحت الأهمية الاستراتيجية للمنطقة وخصوصاً أهميتها للتجارة الدولية وتوسطها بين الشرق والغرب على خطوط المواصلات العالمية.

وبما أن الغرب في ذلك الوقت كان في بداية عصر الإمبريالية والتطور الصناعي والتوسع الاقتصادي، فقد توجهت سياسات دوله الكبرى نحو المنطقة بشكل عام والمدينة المقدسة

بشكل خاص. وبما أن العثمانيين لم يكن بإمكانهم التراجع عن سياسة الانفتاح على العالم بشكل عام والغرب بشكل خاص، والتي اتبعها المصريون في البلاد وخصوصاً وأن عودة السيادة العثمانية على البلاد قد تمت بمساعدتهم، فقد توالى فتح القنصليات الغربية في مدينة القدس وهي المدينة التي لم يكن بإمكان أي دولة أن تقيم لها أي وجود فيها خلال العهد العثماني السابق للحكم المصري.

بعد أن تم افتتاح أول قنصلية غربية في مدينة القدس عام ١٨٣٨م في إبان الحكم المصري لفلسطين وهي القنصلية الإنجليزية، تبعها افتتاح العديد من القنصليات الأجنبية نتيجة لتغير المناخ الدولي بعد حرب القرم، ففي عام ١٨٥٦ تم افتتاح قنصلية بريطانيا للمرة الثانية، كما افتتحت نهائيا قنصلية فرنسا ورفع العلم .....وفي سنة ١٨٥٧ افتتحت قنصلية لأمريكا. وفي سنة ١٨٦٢ افتتحت قنصليتان لروسيا واليونان، فأصبح عدد القنصليات الأوروبية في القدس ثمانية.[٢٠٨] ولقد تم كل ذلك في عهد متصرف القدس كامل باشا الذي أمر بأن تطلق المدافع إحدى وعشرين طلقة تحية لأعلام هذه القنصليات عند رفعها، وكان أهل القدس يقابلون كل هذه المراسيم باحتجاج وغضب شديدين.[٢٠٨]

لم يقف التوجه الغربي نحو المدينة المقدسة بفتح القنصليات فقط، وانما وجدت الدول الغربية أن أسهل وأسرع الطرق لبسط نفوذها في المنطقة هو من خلال بسط حمايتها على الأقليات غير الإسلامية في الدولة العثمانية. فمثلاً لم يكن لبريطانيا وكنيستها الإنجيلية أية حقوق أو مصالح تدعيها في علاقاتها بالمدينة المقدسة، فعمدت الى ادعاء قيام قنصليتها بالمدينة المقدسة لحماية اليهود ولرعاية مصالحهم.[٢٠٩] فقد تلقى القنصل البريطاني الأول يونغ YOUNG تعليمات بأن يعتبر الحماية العامة لليهود جزءاً هاما من مهام وظيفته، كما أصبحت هذه المهام عزيزة للغاية على خلفه المستر جيمس فن JAMES FINN الذي تولى منصبه في ربيع سنة ١٨٤٦ حتى عام١٨٦٢.[٢١٠]

وبما أنه لم يكن للبروتستنت أي قاعدة مؤسسية في الأراضي المقدسة، تم خلق هذه القاعدة بتأسيس أسقفية انجليزية بروسية في القدس سنة ١٨٤١ [٢١١] وبناء كاتدرائية بروتستنتينية وهي كنيسة المسيح CHRIST CHURCH التي دشنت سنة ١٨٤٩.

وفي عام ١٨٥٠ تمكن البروتستنت من الحصول على الاعتراف بهم كطائفة دينية رسمية في الدولة العثمانية[٢١١] ، مما دعم دعم الدور البريطاني في ممارســــة وظيفة الحماية لليهود والبروتستنت معا.

بعد تأسيس الأسقفية البروتستنتينية، تلاه قدوم العديد من البطاركة الى مدينة القدس واتخذوها مركزا لهم بدلا من القسطنطينية، ففي سنة ١٨٤٧ عين البابا بيوس التاســع أول بطريرك لاتيني بمدينة القدس هو البطريرك يوسف فالرغا JOSEPH VALERGA ، في حين هذا المنصب لم يكن له أي وجود فعلي في المدينة من قبل.[٢١٢]

هذا وقد اعتبرت فرنسا تعزيز الوجود الكاثوليكي في فلسطين مهمتها الرئيســة، والأكثر إلحاحا للسياسة الفرنسية في الأراضي المقدسة، كما عمدت الكنيسة الكاثوليكية على تشجيع الجاليات والإرساليات الكاثوليكية للهجرة من شــتى بقـــاع العالم الى مدينة القدس والإقامة فيها.[٢١٣]

ومن الحوادث الهامة التي جرت في عهد السلطان عبــد المجيد وكان لها تأثير كبــير في ازدياد التغلغل الديني والثقافي الأوروبي في مدينة القدس، هي حرب القرم التي نشبت بــين روسيا والدولة العثمانية في الفترة الواقعة بين ١٨٥٣-١٨٥٦ وسببها اشتداد الخصام بــين الروم الأرثوذكس واللاتين حول النجمة الفضية التي اختفت من كنيسة المهد في مدينة بيت لحم واتّهم اللاتين الروم بسرقتها، ولما ناصرت الحكومة العثمانية اللاتين وأصدرت في سنة ١٨٥٢ اذنا لهم بتسلم مفاتيح بابــين من أبــواب مغارة المهد وأن يضعوا نجمة من الفضة للكنيسة، احتجت روسيا وطالبت الباب العالي بالاعتراف بحمايتها للروم الأرثوذكس في الدولة العثمانية، وعندما أعلن الباب العالي رفضه هذا الأمر، أعلنت روســيا الحرب على الدولة العثمانية، فناصر الفرنسيون والانجليز العثمانيين وتم قهر الروس[٢١٣]، وعقــدت على اثر ذلك معاهدة الصلح في باريس في ٣٠ آذار سنة١٨٥٦ .[٢١٤]

ومن الآثار المترتبة على حرب القرم، دخول الدول الأوروبية في سباق فيما بــينها من أجل تأمين الامتيازات الأوروبية والوجود الديني والثقافي الأوروبي في مدينة القـــدس، كما

انتشرت في هذا الوقت الدعوة بصورة مكشوفة الى الامتلاك الفعلي للأراضي المقدسة، على الرغم من حرص الدول الغربية على الحفاظ على وحدة أراضي الدولة العثمانية، وذلك من خلال التعليمات الموجهة الى قـناصلها في المدينة لأن التغلغل الأوروبي لم يكن يهدف الى السيطرة الإقليمية وإنما الى بسط نفوذه السياسي في المنطقة.

كما أخذت شركات الملاحة تعرج بانتظام الى الموانئ الفلسـطينية وتجلب جماعات من الحجاج والمسافرين الى الأراضي المقدسة، حتى أنه في أيام الأعياد كانت تزدحـم مدينة القدس بأعداد الحجاج الذي كان يفوق عدد سكان المدينة أحيانا.

كذلك اتجه الرأي الروسي الى ضرورة تأسيس وجود روسي في فلسطين، ففي سـنة ١٨٥٦ تم تأسيس شركة الملاحة البخارية الروسية التي كان من شأنها أن تزاحـم خطوط البحر المتوسط الفرنسية والنمساوية وأن تنتزع منها بشكل خاص أشـغال نقـل الحجاج الروس [٢١٥] الى فلسطين.

وفي سنة ١٨٥٧ كتبت وزارة الخارجية الروسية في تقرير الى القيصر تقول فيه (ينبغي علينا أن نبني وجودنا في الشرق لا عن طريق السياسة بل عن طريق الكنيسة، فلا الأتراك ولا الأوروبيون الذين لديهم بطاركتهم وأساقفتهم في المدينة المقدسـة، بمقـدورهم أن يمنعونا ذلك ... ان القدس هي مركز العالم وإرساليتنا ينبغي أن تكون هناك). [٢١٦]

وفي سنة ١٨٥٨ وصل الى القدس في وقت واحد أسقف روسي وقنصل روسي (وكيل شركة الملاحة) كما نقل في السنة نفسها بطريرك الأرثوذكس الذي كان يقيم حـتى ذلك الوقت في القسطنطينية الى المدينة المقدسة. [٢١٦]

وهكذا تحولت مدينة القدس من كونها مسرحا للصراع المحدود بين الطوائف المسيحية المتنازعة، لتصبح ميدانا تتصارع فيه كل القوى الدولية من أجل بسط نفوذها السياسي.

من أهم الأحداث التي جرت في مدينة القدس في عهد السلطان عبد المجيد ما يلي:

١ -في سنة ١٨٥٣ تم ترميم مسجد الصخرة بإرشاد مهندس أرمني خبير ببناء القباب اسمه (قرة بت) حيث قام بتقوية القبة، ورمم بعض النقوش والزينات الداخلية.[٢١٧]

٢ -في سنة ١٨٥٤ حاول اليهود الاستفادة من تمتعهم بـالحماية البريطانية في أنحاء الدولة العثمانية، فتقدموا الى الباب العالي للسماح لهم بتعمير محل عتيق على اعتبار أنه كنيس قديم يحتاج الى إعادة تعمير ولما جرى الكشف عنه تبين أنه دير قديم، ولما لم يجابوا الى طلبهم، أعلمهم القنصل البريطاني بالقدس أن يثيروا قضية سُمح فيها ببناء كنيسة لطائفة البروتستنت، فنجحوا في مأربهم وصار لهم كنيس خاص بالسكناج يقابل كنيس السفارديم.[٢١٨]

٣-وفي ذات العام ١٨٥٤ حصل السير منتفيوري على فرمان من السلطان عبد المجيد استطاع بموجبه شراء الأراضي في مدن يافا والقدس، وقد كان هذا محظوراً من قبل.[٢١٩] فكانت القطعة التي اشتراها في مدينة القدس بموجب هذا الفرمان أول أرض يمتلكها اليهود الأجانب في البلاد، وهذه القطعة هي (يمين موشيه) فوق بركة السلطان، وقد أقيم على هذه الأرض فيما بعد حي يهودي دعي منتفيوري ولا زال يعرف بهذا الاسم حتى يومنا هذا.[٢٢٠]

٤-وفي سنة ١٨٥٦ صدر فرمان سلطاني لمتصرف القدس بتسليم (الصلاحية) لقنصل فرنسا بالمدينة المقدسة، حيث قدمت كهدية من السلطان عبد المجيد الى نابليون الثالث إمبراطور فرنسا، فسلمت للقنصل الفرنسي وبنى لها سوراً وحصنها.[٢٢١]

٥-في سنة ١٨٦٠ تم تأسيس أهم موسسة تعليمية غربية في مدينة القدس هي مدرسة (شنلر) للأولاد الأيتام.[٢٢٢]

٦-وفي ذات العام ١٨٦٠ عمر ثريا باشا متصرف القدس قناة السبيل التي تستقي القدس بواسطتها الماء من برك سليمان.[٢٢٣]

٧-في أواخر أعوام الستينات تمكن وارن WARREN من إحصاء ١٩٣٢ تاجر وحـــرفي مقدســــــي يعملون في ١٣٢٠ محلا تجاريا منهم ١٤٣ متجر عام -٨٨ تاجر خضار - ١٨٩ متجر للسلع التموينية - ١٠١ مخبز -٤٦ بـــائع لحوم ودجاج - ٥٨ تاجر خمور -٣٠ طحانا للبن -٣٧ بائع تبغ -٢٣٠ حذاءً (صانع أحذية) -٦٢ خياط - ٢٨ صبـــاغا -٣٢ طاحن سمسم - ٧٦ صباناً (صانع صابون) -١٥١ حداد - ٣٦ نجاراً- ٨٦ صانعا للنعوش -٥٦ حلاقا -٢٣ ساعاتي - ٢٢ صرافاً. وهذه القائمة قد تمت ب ٨٢٨ مسلم ، و٦٠١ مسيحي و٥٠٣ يهودي.[٢٢٤]

القدس في عهد السلطان عبد العزيز

(١٨٦١-١٨٧٦)

بعد وفاة السلطان عبد المجيد عام ١٨٦١ تولى حكم السلطنة العثمانية من بعده أخيه السلطان عبد العزيز، الذي تابع الحركة الإصلاحية في البلاد والتي كانت تتحرك خلال فترة التنظيمات الثانية على الأصعدة الإدارية والمالية والعسكرية، فانبثق عنها تحسن الأمن العام في أرجاء الدولة، وتوسع إمكانيات الاتصالات والازدهار الاقتصادي، غير انه لم تكن هناك سياسات حقيقية في الدولة العثمانية بشأن البنية التحتية أو الشؤون الاجتماعية او الاقتصاد أو التعليم.[٢٢٥]

غير أن مدينة القدس تميزت عن غيرها من المدن العثمانية في عهد السلطان عبد العزيز بتطورها الحضاري المتميز في مجالات شتى منها:

أولا: التطور الإداري

حتى أواخر الخمسينات من القرن التاسع عشر كانت المدن الفلسطينية ومنها مدينة القدس المسرح الرئيسي للتنافس والصراع على السلطة بين العائلات والشيوخ الحاكمة مع السلطات العثمانية.

الا أن الأمر اختلف في عهد السلطان عبد العزيز حيث كان المسؤولون في القسطنطينية في ذلك الوقت على اقتناع تام بأن التنظيم الإداري الذي يقوم على أساس المرسوم الصادر باسم (خطي همايون) سنة ١٨٥٦ م لا يمكن تنفيذه الا من قبل حكومة مركزية وقوية وحازمة. لذا تم وضع قانون الولايات سنة ١٨٦٤ م[٢٢٦] الذي فصل القضاء عن الإدارة وقوى سلطة الحكومة المركزية في ولاياتها[٢٢٧]، كما قام بتجريد الزعماء المحليين في مختلف أنحاء الدولة العثمانية من السلطة وتم الاستعاضة عنها باستحداث المجالس المحلية مثل المجالس البلدية والمجالس الإدارية، فكانت مدينة القدس هي أولى المدن بعد القسطنطينية في تقبل مثل هذه المؤسسات، مما أدى هذا الأمر الى تطورها الإداري الواضح والكبير، كما أصبحت

مسرحاً رئيساً للتنافس السياسي والمالي وبروز القادة السياسيين من أفراد العائلات العريقة في المدينة مثل آل الحسيني وآل الخالدي.[٢٢٨]

١- مجلس إدارة سنجق القدس:

منذ عودة السيادة العثمانية على بلاد الشام وفلسطين عام ١٨٤١، استمر حكم وإدارة سنجق القدس تابعا لولاية دمشق حتى عام ١٨٧٢ حينما حاول العثمانيون إعادة توحيد حكم سناجق فلسطين الثلاثة (القدس - نابلس- عكا) في ولاية القدس المستقلة، الا أن الحكومة العثمانية سرعان ما ألغت هذا الإجراء في نفس العام وأبقتها تابعة لولاية دمشق.[٢٢٩]

وفي عام ١٨٧٤ أصبح سنجق القدس مستقلاً، واصبح حاكم القدس مسؤولاً مباشرة من وزارة الداخلية في القسطنطينية.[٢٣٠]

كان مجلس إدارة السنجق يضم كلا من المتصرف - القاضي- المفتي - أمين الخزنة - وممثل عن الطائفة الأرثوذكسية اليونانية وممثل عن الطائفة اللاتينية، وممثل عن التجمعات الأمريكية واليهودية، مع مجموعة من الأعضاء المنتخبين وفي الغالب كانوا هم أنفسهم أعضاء المجلس البلدي لمدينة القدس.[٢٣١]

وبالنسبة لقانون إدارة الولاية عام١٨٧١[٢٣١]، كان مجلس الإدارة مخولا سلطات للنظر في الأمور والأعمال العامة مثل الزراعة - تسجيل الأراضي - الأموال - جمع الضرائب - رجال الأمن، الا أن أهم أعماله كانت تتعلق بجمع الضرائب.

٢- المجلس البلدي لمدينة القدس:

في العام ١٨٦٣م تم تأسيس أول مجلس بلدي لمدينة القدس، وذلك وفقا لفرمان خاص صدر في عهد السلطان عبد العزيز بن محمود الثاني وولاية خورشيد باشا متسلم لقدس[٢٣٢]، وتم تشكيله من خمسة أعضاء معينين ثلاثة من المسلمين ومسيحي واحد ويهودي واحد، وكان يرأسهم العضو عبد الرحمن الدجاني[٢٣٣]، لكن هذا المجلس لم يباشر

أعماله فعليا الا في العام ١٨٦٧م، حيث يعزو البعض ذلك الى عدم وجود قانون ينظم أعماله.

ومع صدور قانون إدارة الولايات في العام ١٨٧١م لوحظ بعض النشاط المتزايد للمجلس البلدي، الا ان نشاطه أضحى أكثر بروزا بعد صدور قانون البلديات سنة ١٨٧٧م[٢٣٣] الذي حدد مهام ومسؤوليات وواجبات المجالس البلدية وطرق تشكيلها، ونص على وجوب تشكيلها من ستة الى اثني عشر عضواً ينتخبون لمدة أربع سنوات على أن يتم استبدال نصفهم كل عامين[٢٣٤]، أما الرئيس فيعينه الحاكم من بين الأعضاء المنتخبين.

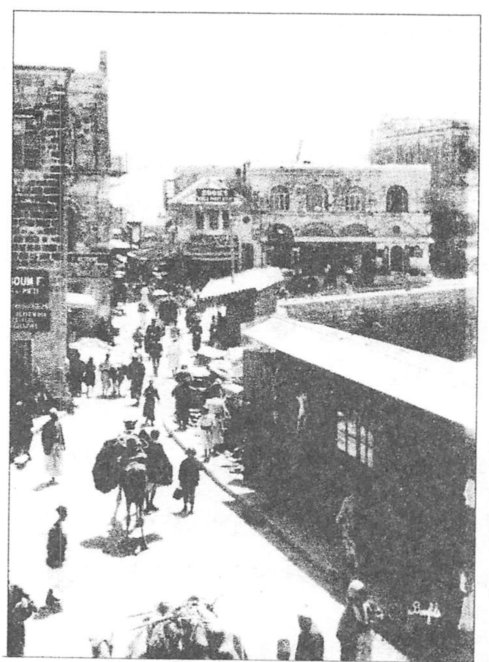
أما فيما يختص بقوانين الانتخاب والترشيح للمجلس البلدي، فقد كانت تنص على أن كل مواطن عثماني بلغ سن ٢٥ عاما وقام بتسديد جميع الضرائب السنوية المترتبة عليه والتي لا تقل عن ٥٠ دينارا تركيا يحق له الانتخاب في المجلس البلدي.

أما بالنسبة للمرشحين فيجب أن لا يقل عمر الواحد منهم عن ٣٠ عاما وأن يكون مسددا لضرائب الأملاك والتي يجب أن لا تقل عن ١٥٠ ديناراً تركيا في السنة.

وبناءاً على صدور قانون البلديات الجديد تم إعادة انتخاب مجلس بلدي موسع لمدينة القدس مؤلف من عشرة أعضاء ٦ من المسلمين و ٢ من المسيحيين و ٢ من اليهود.

ومن أوائل الشخصيات المقدسية التي تولت رئاسة المجلس البلدي السيد يوسف الخالدي[٢٣٥]، الذي ترأس المجلس البلدي للمدينة المقدسة لمدة تسع سنين متتالية، وكان له تأثير كبير في تقدم وتطور المجلس البلدي في تلك الفترة، حيث سعى المجلس البلدي الى تطوير أوضاع المدينة من حيث التركيز على النشاطات الأولية من إضاءة وتنظيف للمدينة، وتحسين ورصف شوارعها وأسواقها، لكن أهم مسؤولياته وأكبرها كانت تأمين موارد المياه للمدينة، فقام بإجراء عدة إصلاحات على قناة السبيل التي كانت تمد القدس بالماء من برك سليمان.

ثانيا: الازدهار العمراني



من أرشـيف المكتبـة الوطنية الأردنية

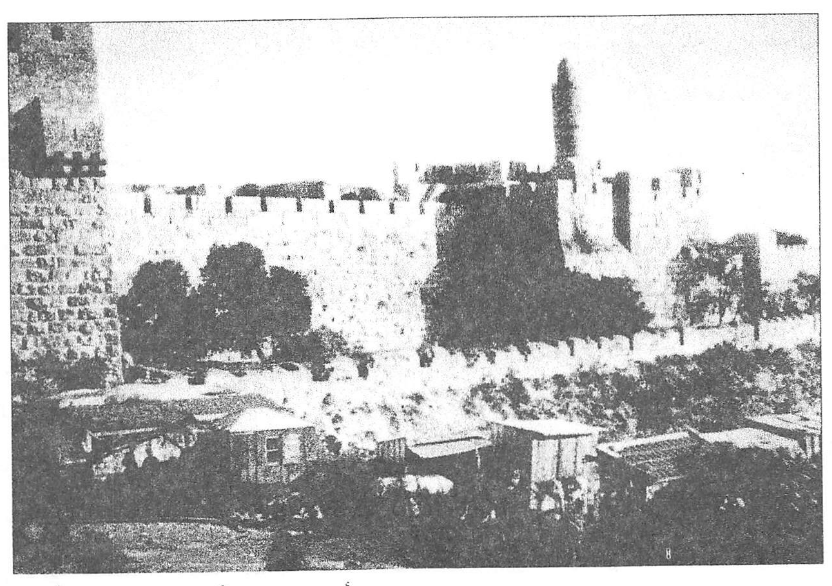
٤٦ شارع باب يافا (١٨٦٧-١٨٨٩)

ان من أهم سمات التطـور الحضـاري الذي شهدته مدينة القدس في عهد السلطان عبـد العزيز هو الازدهار العمراني الكبـير والمتميز في داخل أسـوار المدينة وخارجها. ففي خلال السنوات العشـر التالية لحرب القرم سنة ١٨٥٦، تم تنفيذ ٢٤ مشـروعا عمرانيا كبـيرا في داخل وخارج أسـوار المدينة[٢٣٦]، بـالإضافة الى المجمع الروسـي الكبير (المسكوبية) الذي شيد في منطقـة الميدان الكائنة شمال غرب المدينة في عهـد السلطان السابق عبد المجيد.

ومنذ أواخر الستينات حدث اندفاع وتوسع في بـناء دور سـكن جديدة، أو زيادة الطوابق على المباني القائمة في داخل المدينة، كما أقيمت مبـان لليهود في الجهة الشـمالية الغربـية للمدينة وعلى جانبي الطريق المؤدية الى يافا[٢٣٧]، كما تم افتتاح العديد من المدارس التبشيرية الألمانية الغربية في المدينة، منها المدرسة التبشيرية تاليتا قـومي TALITA KUMI وهي مدرسة خاصة للبنات أسست عام ١٨٦٨.

وفي ذات العام ١٨٦٨ زار مدينة القدس الأمير فريدريك ولي عهد بروسـيا، فأهداه السلطان عبد العزيز قطعة أرض كانت في الأصل تؤلف قسماً من المستشفى الصلاحـي، حيث بني عليها فيما بعد كنيسة حملت اسم (كنيسة الدبـاغة) أو كنيسـة المخلص، التي دشنها الإمبراطور غليوم يوم زيارته الى القدس عام ١٨٩٨.[٢٣٨] وفي بـداية السـبعينات وبالتحديد في عام ١٨٧١ أمر السلطان عبد العزيز بتعمير مسجد المغاربة بالقدس.[٢٣٩]

وفي عام ١٨٧٣ تم إنشاء مستعمرة ألمانية في الجهة الجنوبية الغربية للمدينة وسكنها ٢٥٧ شخص، كان معظمهم من الصناع المهرة وعائلاتهم.(٢٣٩)



من أرشيف المكتبة الوطنية الأردنية

٤٧ التجمعات السكنية اليهودية خارج أسوار القدس (١٨٦٧- ١٨٨٩)

وفي عام ١٨٧٤ تم تعمير قبة الصخرة ومسجدها والمسجد الأقصى، حتى قيل أن التعميرات التي تمت في المسجد الأقصى تعد من أضخم التعميرات التي لحقت به بعد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان. ويقول الخبراء ان هذه العمارة كلفت خزانة الدولة العثمانيةمقادير كبيرة من الذهب الخالص، وقد أعتبر عمله هذا إسرافا، فكان من جملة الأسباب التي أدت الى خلعه.(٢٤٠)

وفي خلال أعوام السبعينات أنشئت تجمعات سكنية يهودية خارج أسوار المدينة على شكل عمارات سكنية وبيوت مبنية في صفوف موحدة الشكل وشبيهة بالثكنات، وذلك لمواجهة الحاجة الملحة للأعداد المتزايدة من المهاجرين اليهود.(٢٤١) في حين أخذت كذلك العائلات الإسلامية الثرية في التوسع بسكناها وأماكن إقامتها خارج أسوار المدينة وفي الجهة الشمالية منها.(٢٤٢)

ثالثا: التطور الاقتصادي

بعد انتهاء حرب القرم سنة ١٨٥٦ انهالت الأموال بكثرة ساحقة من أوروبا على المدينة المقدسة، مما أفاد السكان المحليين من تزايد الإنفاق وخاصة فيما يتعلق بأعمال البناء والتعمير كأثمان للمواد والأجور، فكان للازدهار العمراني الذي شهدته مدينة القدس مورد اقتصادي هام للمدينة وأهلها، كما أدى كذلك الى انتفاع القرى والمدن المجاورة لها.

فقد راجت أعمال الكلاسين (صناع الجير) ودقاقين الحجارة رواجا شديدا، وفي كل يوم كانت تتحرك قوافل كاملة من الجمال المحملة بالجير والأحجار والخشب الى مدينة القدس.[٢٤٣] وكان الأمر في البداية يقضي بجلب المعماريين ودقاقين الحجارة من خارج فلسطين كما حدث عند بناء كنيسة المسيح، حيث جُلب هؤلاء من مالطا، لكن ما أن بدأت أعمال البناء والتعمير بالرواج في أعوام الستينات حتى أصبحت تتوفر هذه المهارات محليا وخصوصا من مدينتي بيت لحم وبيت جالا القريبتين من القدس. فقد نشأ فيها تخصص حرفي لتلبية متطلبات مهنة البناء خاصة وان العاملين في تلك المهنة كانوا يتقاضون أجورا جيدة.[٢٤٣]

وفيما عدا النشاط العمراني للمدينة وما صحبه من إنفاق، فان المدينة عاشت في معظمها على الموارد الدينية سواء من إنفاق المؤسسات التبشيرية، أو من قدوم الحجاج وزيارتهم للمدينة وما صحبه من تأمين للخدمات والسلع المختلفة.

رابعا: تطور الاتصالات

شهدت مدينة القدس في أعوام الستينات من القرن التاسع عشر تقدماً وتطوراً واضحين في وسائل الاتصال من تلغراف وإنشاء وتعبيد لطرق جديدة تصل المدينة المقدسة بباقي المدن الفلسطينية.

ففي شهر آب من عام ١٨٦٤ وصل خط التلغراف الى مدينة يافا ومنه وصل الخط الى مدينة القدس في شهر حزيران من عام ١٨٦٥م[٢٤٣]، وهكذا أصبحت مدينة القدس مربوطة

بـــالتلغراف مع كل من القســـطنطينية والقـــاهرة، ومن خلالهم الى العواصم الأوروبـــية المختلفة.[٢٤٤] هذا الاتصال بالعالم الخارجي من خلال التلغراف كان له أهمية كبرى للمدينة خاصة بعد انفصالها عن دمشق عام ١٨٧٤ واتخاذها صفة الاستقلالية، واتصالها مباشـــرة بالقسطنطينية.

أما عن إنشاء وتعبـــيد الطرق الواصلة للمدينة، ففي عام ١٨٦٧ بـــدأت الســـلطات العثمانية بإنشاء وتعبيد أول طريق بين يافا والقدس عن طريق أعمال السخرة وتحت إشراف المهندس الإيطالي بيروتي PIEROTTI ، وتم فتح الطريق للسير عليه سنة ١٨٦٧م.[٢٤٥] وفي عام ١٨٧٠م[٢٤٦] تم تعبيد الطريق الواصل بين القدس ونابلس الا أن تعبـــيد الطريق الواصل بين يافا والقدس لم يكن بالعامل المؤثر في ازدياد التبادل التجاري مع المركز التجاري لمدينة القدس، وانما كان عاملا مساعدا في تسهيل عمليات السفر والانتقال من والى المدينة.

في بادئ الأمر عمل رئيس بلدية القدس آنذاك يوسف الخالدي على تشغيل عربات نقل عادية للخدمة على الشارع الجديد، لكن في عام ١٨٧٥ تمكن فرسان المعبد من تأســـيس أول شركة نقل لتسيير رحلات يومية منتظمة بـــين يافا والقـــدس.[٢٤٧] وفي عام ١٨٧٩ تمكنوا من الحصول على امتياز حكومي لعملهم هذا وبالتالي فقدوا منافسة العرب واليهود لهم.[٢٤٧]

السلطان عبد الحميد الثاني

(١٨٧٦-١٩٠٩)

في العام ١٨٧٦م أطاح السلطان مراد الخامس بن عبد المجيد بعمه السلطان عبد العزيز ليقوم مقامه، لكنه لم يلبث على عرش السلطنة أكثر من بضعة أيام لكونه مصابا بمرض الصرع، وبتاريخ ٣١ آب ١٨٧٦م[٢٤٨] نودي بأخيه الأصغر منه عبد الحميد الثاني بن عبد المجيد سلطانا على البلاد.

عند تولي السلطان عبد الحميد الثاني حكم السلطنة وجد البلاد تعاني من ضائقة مالية شديدة، والخزانة العامة خاوية أدت الى إشهار إفلاسها سنة ١٨٧٥م[٢٤٩] وانعكس ذلك على وضعها العسكري مما هدد كيانها ووجودها، في حين كانت روسيا تهدد بالحرب وأوروبا تظهر العداء والعنت الصريحين للعثمانيين.[٢٥٠]

كل ذلك دفع العثمانيين الى زيادة الاهتمام بالولايات السورية ومن جملتها فلسطين لزيادة فاعلية وضعهم المالي والعسكري[٢٥١] عن طريق فرض الضرائب العادية منها وغير العادية، وكانت عمليات جمع الضرائب هي المحك لكفاءة وقدرة الحاكم، و لم يكن يقبل أي عذر لأي فشل أو إهمال في هذا الشأن، كما كان يترتب على سكان السناجق تقديم كميات من المؤن (الذخائر) الى الوالي وجنده، وكان عدم الامتثال لذلك يواجه بعقوبات قاسية جدا، هذا إضافة الى تكثيف عمليات التجنيد الإجباري التي كانت تتم في المناطق دون هوادة، مما دفع البلاد الى مزيد من الفوضى والفساد وتنامي روح الثورة ضد الجور والظلم.

وبتاريخ ٧ ذي الحجة سنة ١٢٩٣هـ/١٨٧٦م[٢٥٢]، وبتأثير من الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) مدحت باشا أعلن السلطان عبد الحميد الثاني القانون الأساسي للدولة (الدستور) الذي بموجبه منح الشعب حرية القول والعمل والاجتماع، كما أمر السلطان عبد الحميد الثاني بانتخاب مجلس العموم والمؤلف من مجلسين، وهما مجلس الأعيان ومجلس المبعوثان (النواب).[٢٥٣]

الا أن البلاد العثمانية لم تنعم بهذه الحرية زمنا طويلا، إذ لم ينقض ســـنتان على نشـــر الدستور الا وقام السلطان عبد الحميد الثاني متذرعا بإعلان روسيا الحرب على بلاده ســـنة ١٨٧٧ بإصدار قانون يعطل العمل بالدستور[٢٥٣]، وفي ســـنة ١٨٧٨ حـــلّ البرلمان وأغلق (ضولمة باغجة) التي كان يجتمع فيها مجلس المبـــعوثين[٢٥٤]، وعمل على مناوئة كافة الجهود الوطنية للإصلاح، ونفى مدحت باشا الى خارج البلاد وكان ذلك لثبات اعتقـــاده وإيمانه بوجوب الحكم المطلق في يده[٢٥٤]، فراح يدير ويحكم البلاد وفق إرادته الشـــخصية مما دفع البلاد الى عهد جديد من الطغيان وسوء استغلال السلطة وفسادها.

لكن سوء الأوضاع في البلاد العثمانية دفع ببعض المثقفين الأتراك لتأليف جمعية الاتحاد والترقي التي دعت الى إقامة حـــكومة دســـتورية تدخل النظم الحديثة في الإدارة والجيش، وتحقق الحرية والمساواة وتوقف تدخل الدول الأوروبـــية في شـــؤون الدولة العثمانية.[٢٥٥] وعمل أعضاء هذه الجمعية على نشر الدعوة سرا بـــين قـــوات الجيش الذي انضم أغلبـــه اليها.[٢٥٦]

وفي ٣ تموز سنة ١٩٠٨م[٢٥٦] تم إعلان الثورة على الحكومة مطالبين بإسقـــاطها الأمر الذي أجبر السلطان عبـــد الحميد بـــتاريخ ١٩٠٨/٧/٢٥م[٢٥٧] على معاودة إعلان العمل بدستور ١٨٧٦ بعد تعطيله مدة إحدى وثلاثين سنة وإطلاق الحريات العامة .

وبعد بضعة أشهر وبالتحديد بتاريخ ١٩٠٩/٤/١٣م[٢٥٧] حاول السلطان عبد الحميد الثاني القيام بثورة مضادة للتخلص من الجمعية ومن الدستور ومن مجلس المبـــعوثين، عندئذ زحف الجيش من سالونيك الى الآســـتانة وأعاد الى جمعية الاتحاد والترقـــي نفوذها، فعمل أعضاؤها على إسقاط السلطان عبد الحميد عن عرشه وأقاموا مقـــامه أخاه محمد رشـــاد سلطانا باسم محمد الخامس في ١٩٠٩/٤/١٧م.[٢٥٧]

القدس

في عهد السلطان عبد الحميد الثاني

(١٨٧٦-١٩٠٩)

على الرغم مما شهدته مختلف البلاد العثمانية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني من تراجع حضاري واضح، وتدهور كبير في أوضاعها الاقتصادية والأمنية الا أن مدينة القدس تميزت عن باقي المدن الفلسطينية والولايات السورية باستمرار نموها وتطورها الحضاري الناجم عن السياسة العثمانية التي عمدت خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر على تأكيد أهمية سنجق القدس بفصله عن ولاية الشام وارتباطه مباشرة بالآستانة عام ١٨٤٧، ومحاولة السلطات العثمانية في دعم وتثبيت وجودها الإداري في فلسطين قبالة الحكم المصري السابق من ناحية، وبشكل أقوى وأكبر أمام الدول الأوروبية من ناحية ثانية.[٢٥٨]

كما عملت على الاستمرار في سياسة الانفتاح التي اتبعها محمد علي باشا وولده ابراهيم باشا في المدينة المقدسة والتي لم يعد بإمكان العثمانيين التراجع عنها، وكذلك ازدياد الاهتمام والصراع الأوروبي الغربي فيما بينها لبسط نفوذها في المنطقة بحجة الأقليات الدينية التابعة لها من خلال فتح قنصليات جديدة في القدس في عهد السلطان عبد الحميد، غير تلك التي تم فتحها في عهد سلفه السلطان عبد المجيد، ففي عام ١٨٨٥ بدأ قنصل ألمانيا بالعمل في القدس بصفته مندوبا عن إمبراطور ألمانيا وملك بروسيا، وفي عام ١٨٨٦ اعترفت الحكومة التركية بوجود ملحق تجاري في القدس لدولة العجم (إيران)، وفي عام ١٨٨٨ اعترفت أيضا بوجود قنصل روسي يحمي المصالح الروسية في القدس.[٢٥٩]

كان القنصل المعين عند وصوله الى مدينة القدس عليه أن يقدم أوراق اعتماده الى المتصرف والنائب، مرفقا بها رسالة توصية من ولاة الأمر في الآستانة تشتمل على اسمه واسم سلفه والمدة التي سيمكثها في القدس، وصلاحياته تجاه رعاياه والامتيازات التي يتمتع بها، مع

بها، مع الطلب بأخذ جميع التدابير اللازمة لحمايته.[٢٥٩]

أما النمو والتوسع الحضاري الذي شهدته المدينة فيتمثل في الأوجه التالية:

أولا: النمو السكاني

ان الإحصاءات العثمانية للتعداد السكاني لمدينة وقضاء القدس بين عامي ١٨٧١ - ١٩١٤ يبينها الجدول التالي[٢٦٠]:

الموقع	السنة	المسلمون	المسيحيون	اليهود	إجمالي العدد
مدينة القدس	١٨٧١-١٨٧٢	٦،١٥٠	٤،٤٢٨	٣،٧٨٠	١٤،٣٥٨
قضاء القدس	١٨٨١ -١٨٩٣	٥٤،٣٦٤	١٩،٩٥٠	٧،١٠٥	٨١،٠٥٩
قضاء القدس	١٩١٤	٧٠،٢٧٠	٣٢،٤٦١	١٨،١٩٠	١٢٠،٩٢١

ان أرقام التعداد السكاني لعامي ١٨٧١-١٨٧٢ تعتمد على دفتر سلنام ولاية سوريا، وأرقام التعداد للأعوام ١٨٨١-١٨٩٣ والتي تشمل كافة قضاء القدس بما فيه المدينة، تعتمد على الإحصاء الذي تم فعليا على السكان، أما أرقام التعداد لعام ١٩١٤ فهي تعتمد على الإحصاءات السكانية لوزارة الداخلية العثمانية.

لكن الإحصاءات العثمانية وحسب الجدول السابق تعتمد على تعداد سكان ومواطني

الدولة فقط، في حين كان هناك أعداد كبيرة من اللاجئين اليهود وبعض رعايا الدول الأخرى من الأجانب لم يتم إحصاؤهم.[٢٦١]

وعلى الرغم من صدور قانون ١٨٨٢ الذي يحرم هجرة اليهود الى فلسطين وشراءهم الأراضي فيها[٢٦٢] بعد أن تفاقم أمر هجرتهم الى فلسطين بقصد الاستيطان فيها، فقد دلت احصاءات عثمانية تمت في عامي ١٨٩٥- ١٨٩٩ بوجود ما يقارب ٥٥٠٠ أجنبي في كامل سنجق القدس[٢٦٣]، أكثرهم من اللاجئين اليهود الذين ازدادت أعدادهم كثيرا خلال العقدين السابقين للحرب العالمية الأولى، وذلك من خلال استغلالهم للأوامر السلطانية الصادرة عام١٩٠٠م[٢٦٤] الى متصرف القدس، والتي تقضي بالسماح لليهود غير العثمانيين بدخول فلسطين والإقامة فيها لمدة ثلاثة أشهر بقصد العبادة، وإذا لم يغادروا عند انتهاء الفترة المسموح بها تقوم الحكومة بتسفيرهم وإبعادهم.[٢٦٤]

لكن يبدو أن هذه الأوامر السلطانية لم تقف حائلا دون هجرة اليهود الى مدينة القدس والإقامة فيها بصورة غير مشروعة[٢٦٥]، وذلك لفساد الإدارة العثمانية وتفشي الرشوة بين موظفيها.

وهكذا يتضح لنا من خلال الإحصاءات العثمانية لمواطني القدس، ان النمو السكاني المضطرد الذي شهدته المدينة في أواخر القرن التاسع عشر إضافة الى ازدياد أعداد المهاجرين اليها من اليهود جعلها عشية الحرب العالمية الأولى من أكبر مدن فلسطين من حيث التعداد السكاني بالإضافة الى النواحي الحضارية الأخرى.

ثانيا: التوسع العمراني والحضاري

شهدت مدينة القدس منذ أعوام السبعينات من القرن التاسع عشر توسعا كبيرا في البناء والتعمير خارج أسوار المدينة، خاصة بعد أن تم شق وتعبيد الطريق الواصل بين مدينتي يافا والقدس سنة١٨٦٧م[٢٦٦] الذي سهل كثيرا من عمليات نقل واستيراد مواد البناء من والى القدس على عربات دون عناء.

في أواخر السبعينات ونتيجة للتوسع العمراني الى خارج الأسوار أصبحت أبواب المدينة تفتح طوال الليل وفي أوقات صلاة الظهر من يوم الجمعة.[٢٦٧]

ومنذ أوائل أعوام الثمانينات بدأ المقدسيون في اتباع طرق حديثة في بناء المساكن المقامة خارج الأسوار حيث أصبحت جدران المباني أقل سمكا وغرفها مسقوفة بأعمدة خشبية، وكذلك أرضياتها من الخشب، ومن ثم تطورت عمليات البناء الى بناء الأسقف من الأعمدة الحديدية والأرضيات من البلاط الحجري، كما تم تغطية خشب الأسقف بحجر القرميد الأحمر.[٢٦٨] وهكذا بدأت في الظهور مدينة القدس الجديدة ذات الطابع الأوروبي والتي أخذت تنمو وتكبر الى جانب مدينة القدس التاريخية.

أما المباني التي أقيمت للمهاجرين اليهود الجدد في المنطقة المجاورة للناحية الشمالية الشرقية من القدس القديمة، فقد أخذت أيضا في النمو والتوسع لازدياد أعدادهم من جهة، ولسهولة حصولهم على أراض للبناء خارج المدينة لكونها أراض غير مملوكة للحكومة أو الأفراد[٢٦٨] أي مشاع. أما التجمعات اليهودية المقامة في داخل المدينة فقد كانت تعمل في الغالب على استئجار مساكن لها من الأوقاف الإسلامية.[٢٦٨]

هذا وقد تم اجراء العديد من أعمال البناء والتعمير في داخل المدينة المقدسة في عهد السلطان عبد الحميد، حيث تم بناء وتعمير العديد من المنشآت المائية منها تعمير السبيل الكبير المعروف بسبيل قايتباي، وقناة السبيل عام١٨٩٩م[٢٦٩] كما أنشئ السبيل الذي كان قائما تجاه باب الخليل الى الغرب سنة ١٩٠٧م[٢٧٠] كما أقيم برج الساعة فوق باب الخليل في ذات العام ١٩٠٧م.[٢٧١]

وقيل أن السلطان عبد الحميد أنفق على تعمير الحرم وزخرفته ثلاثين الف ليرة عثمانية خلا الطنافس المختلفة الألوان التي اتخذت فرشاً، وبلغت قيمتها عشرة آلاف ليرة عثمانية.[٢٧٢]

ثالثا: تطور خطوط المواصلات

من المشاريع المهمة التي أقيمت في عهد السلطان عبد الحميد وكان لها أثر كبير في إنعاش اقتصاد المدينة والمناطق المحيطة بها هو مدّ سكة الحديد بين القدس ومدينة يافا المطلة على البحر المتوسط بطول في حدود ٨٦،٦٣٠ كم.[٢٧٣] وقد حصلت على امتياز تنفيذه شركة فرنسية عام ١٨٨٩ وبدأ العمل بإنشائه في عام ١٨٩٠، وتم الانتهاء منه وتشغيله في عام ١٨٩٢م.[٢٧٤]

ومع نهاية القرن التاسع عشر قدرت الأرباح العائدة من تسيير الخط الحديدي بمبالغ طائلة من الأموال، حيث قدر عدد المسافرين من الحجاج والزوار بـ ٨٥،٤٤٠ مسافر في العام ١٨٩٣ و ١٤٩،٢٠٠ مسافر في العام ١٩٠٩م.[٢٧٥]

كما قامت السلطات العثمانية في القدس بإنشاء شبكة من الطرق الجديدة في اوائل التسعينات من القرن التاسع عشر، وصلت المدينة المقدسة بباقي المدن في وسط وجنوب فلسطين منها رام الله – نابلس – بيت لحم – الخليل – أريحا.[٢٧٦]

رابعا: تطور البنية التحتية

من الأمور التي ساهمت في تطوير المدينة حضاريا تمتعها بالمجلس البلدي الذي كان قائما والذي سعى جاهدا في اتباع الإجراءات الضرورية اللازمة لتحسين البنية التحتية للمدينة والأوضاع المعيشية لسكانها.

في اوائل السبعينات بدأت بلدية القدس إجراءاتها النشيطة لتنظيف المدينة وجمع النفايات ورصف الشوارع ومد شبكة للمجاري والتي استمر التوسع فيها حتى عام ١٩١٤[٢٧٧]، وفي عام ١٨٨٦ شكلت قوة شرطة للمدينة للمحافظة على الأمن والاستقرار فيها، كما قامت البلدية في نفس العام بإنشاء عيادة وتم تعيين طبيب لمعالجة المرضى مجاناً.[٢٧٧]

ومنذ اوائل التسعينات سعت البلدية الى تحسين الخدمات الطبية في القدس من خلال

إنشاء المستشفى البلدي[٢٧٨] ليخدم قطاعا أوسع من الناس. ويقول د. كامل العسلي في كتابه (مقدمة في تاريخ الطب في القدس) ان حقيقة أمر المستشفى هو: (ان الحاج سليم أفندي الحسيني رئيس بلدية القدس اشترى قطعة أرض في حي الشيخ بدر (روميما بعد ذلك) قرب لفتا وبنى عليها مبنى ذا طابقين يضم ٢٨ غرفة وكان البناء يضم ٤٠ سريرا ...... وكان المستشفى مزودا بغرفة عمليات مجهزة تجهيزا ممتازا، كما كانت صيدلية المستشفى مجهزة بجميع الأدوية المعروفة في ذلك الوقت.....).[٢٧٩]

وفي عام ١٨٩٢ افتتح متنزه عام للجمهور في شارع يافا وسط المدينة، وغدت الفرق الموسيقية تعزف ألحانها هناك مرتين أسبوعيا. ومع نهاية القرن التاسع عشر تم تركيب الآلاف من مصابيح الكاز لإنارة شوارع المدينة.

ومع بدايات القرن العشرين توسعت النشاطات الثقافية في المدينة حيث تم تأسيس متحف للآثار، وافتتاح مسرح قرب باب الخليل سنة ١٩٠١ كانت تقدم فيه المسرحيات باللغات العربية والتركية والفرنسية.[٢٨٠]

وفي الأول من أيلول سنة ١٩٠٨م صدرت أول مجلة عربية في فلسطين وظهرت في القدس أسماها صاحبها حنا عبد الله العيسى (بالأصمعي) وكانت تعالج الموضوعات الاجتماعية والأدبية والسياسية والتربوية، لكنها توقفت عن الصدور بعد وفاة صاحبها بتاريخ ١٢/٩/١٩٠٩ بعد أن صدر عنها أحد عشر عدداً في مدة خمسة أشهر ونصف، هذا وقد شارك في تحريرها والكتابة فيها الأديبان والكاتبان المقدسيان خليل السكاكيني ومحمد اسعاف النشاشيبي.[٢٨١]

نهاية الحكم العثماني

لمدينة القدس

ما أن انقضت بضع سنوات على تولي السلطان محمد رشاد الخامس حـــكم الســـلطنة العثمانية في عام ١٩٠٩ حتى أعلنت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤، وحـــارب الأتراك العثمانيون الى جانب ألمانيا ضد الحلفاء الانكليز والفرنسيين والروس في خمس جبهات هي القفقاس – الدردنيل – العراق – رومانيا – فلســـطين[٢٨٢]، ولكنهم خســـروا جميعها أمام الحلفاء مما أرغم حكومة الآستانة في نهاية الحرب على عقد معاهدة سيفر SEVRES ، والتي أجبرت فيها على التنازل عن جميع ممتلكاتها في إفريقـــيا وآســـيا وأوروبـــا ما عدا أراضي الأناضول والآستانة، ووضعت الآستانة تحت الرقابة الدولية.[٢٨٣]

أما على الجبهة الفلسطينية وعندما خسر الأتراك مواقعهم الحصينة في جنوبها أدركوا أن القدس لا بد وأن تسقط في أيدي قوات الانكليز، فبدؤا بالتراجع من مســـاء يوم الثامن من شهر كانون الأول / ديسمبر، كما أيقن متصرف القدس عزت بـــك أنه لا أمل يرجى من المقاومة فأرسل في تلك الليلة أيضا يطلب مفتي القدس كامل الحسيني ورئيس بلديتها السيد حسين سليم الحسيني للاجتماع إليه في داره.[٢٨٤] وهناك خاطبهما قائلا :

(ها قد أحاط الجنود الانكليز بالقدس، ولابد أن تسقط عما قريب بـــأيديهم، ولقـــد اعتزمت مغادرة المدينة بعد نصف ساعة، وأود أن القي بين أيديكم هذا الحمل الأدبي العظيم الا وهو تسليم المدينة......).[٢٨٥] ثم ناول رئيس البـــلدية وثيقـــة التســـليم ليســـلمها للإنكليز.[٢٨٦]

فيما يلي الترجمة الحرفية لنص وثيقة التسليم كما أوردها عارف العارف في كتابه،[٢٨٦]

(الى القيادة الإنكليزية:

منذ يومين والقنابل تتساقط على القدس المقدسة لدى كل ملّة. فالحكومة العثمانية رغبة منها في المحافظة على الأماكن الدينية من الخراب، قد سحبت القوة العسكرية من

المدينة. وأقامت موظفين للمحافظة على الأماكن الدينية كالقيامة والمسجد الأقصى. وعلى أمل أن تكون المعاملة من قبلكم على هذا الوجه. فإني أبعث بهذه الورقة مع وكيل رئيس بلدية القدس حسين بك الحسيني .)

٨/ ١٢/ ١٩١٧م -١٣٣٣هـ

متصرف القدس المستقل /عزت

وفي صبيحة يوم الأحد الموافق ١٩١٧/١٢/٩ وفي نحو الساعة التاسعة صباحا كانت القوات التركية قد أنهت انسحابها الكامل من المدينة، وتم تسليم وثيقة التسليم من قبل رئيس البلدية ومجموعة من الشبان المقدسيين الى قائد الفرقة الستين للجيش الإنكليزي الجنرال شي GENERAL SHEA وكان دخول الجيش الإنكليزي الى المدينة المقدسة في تمام الساعة العاشرة والنصف من ذات اليوم.[٢٨٦]

وبدخول الانكليز الى المدينة المقدسة بدأ عهد التحول الجذري في مصير المدينة المقدسة حيث انتهى الحكم العثماني الإسلامي لها بعد أن دام ما يقارب الأربعمائة عام امتدت منذ عام ١٥١٧ حتى ١٩١٧م وبدأ عهد جديد من المستعمرين الجدد.

هوامش الفصل السابع

١- فيليب حتي ، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ج٢، ص ٣٠٣-٣٠٤.

٢- د. عمر عبد العزيز عمر ، دراسات في تاريخ العرب الحديث ، ص٤٠.

٣- فيليب حتي ، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ج٢ ، ص٣٠٥.

٤- محمد كرد علي ، خطط الشام ، ج٢ ، ص٢٠٧.

٥- الانكشارية : هم صفوة الجنود المشاة في الدولة العثمانية نظمت قوائمهم كجيش محترف في القرن الرابع عشر، وكانوا يختارون من الشعوب الخاضعة للدولة وخصوصا من العائلات المسيحية ، وقد تمردوا في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وفي سنة ١٨٢٦م تمكن السلطان محمود الثاني من القضاء عليهم.

٦- محمد فريد بك ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٧٣.

٧- فيليب حتي ، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ج٢ ، ص٣٠٦.

٨- أحمد فريدون بيه ، منشآت السلاطين ، ج١ ، ص٤٨٣.

٩- ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج٥ ، ص١٣٦.

١٠- EVYLIA TSCHELEBIS ,*TRAVELS IN PALESTINE*,Trans. BY ST.H. STEPHEN QUARTERLY OF THE DEP. OF ANTIQUITIES IN PALESTINE, VOL V111, P 14.

١١ - أحمد فريدون بيه ، منشآت السلاطين ، ج١ ، ص٤٥٢-٤٥٦.

١٢- فيليب حتي ، تاريخ سوربة ولبنان وفلسطين ، ج٢، ص ٣٠٦.

١٣- رفيق النتشه ، تاريخ مدينة القدس ، ص ٦٦.

١٤- فيليب حتي ، تاريخ سوربة ولبنان وفلسطين ، ج٢، ص ٣٠٧.

١٥- محمد فريد بك ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص٧٨.

١٦- د. على حسون ، الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية ، ص٤٥.

١٧- محمد فريد بك ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٠٨.

١٨- د. علي حسون ، الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية ، ص٥٢.

١٩- الموسوعة الفلسطينية ، ج٣ ، ص٥٤٢.

٢٠- Dr. KAMEL.J.ASALI , *JERUSALEM IN HISTORY*, CH. 7 ,P 201.

٢١- م .رائف نجم ، كنوز القدس ، ص٧٣.

٢٢- د .كامل العسلي ، القدس في التاريخ ، ص٢٣٤.

٢٣- الموسوعة الفلسطينية ، ج٣ ، ص٥١٨-٥١٩.

٢٤- مجير الدين الحنبلي ، الأنس الجليل ، ج٢ ، ص٢٠.

٢٥- الموسوعة الفلسطينية ، ج٣ ، ص ٥٤٢.

٢٦- م .رائف نجم ،كنوز القدس ، ص٣٥١.

٢٧- الموسوعة الفلسطينية ، ج٣ ، ص ٥٤٢.

٢٨- م.رائف نجم ، كنوز القدس ، ص٣٣٣.

٢٩- ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص٢٤٥.

٣٠-عارف العارف ، المفصل في تاريخ القدس ، ص٢٦٥.

٣١- Dr. ASALI . *JERUSALEM IN HISTORY*, P201.

٣٢- م. رائف نجم ،كنوز القدس ، ص٣٤٤.

٣٣- المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ص١٦٨.

٣٤- م .رائف نجم ، كنوز القدس ، ص ٣٤٧.

٣٥- مجير الدين الحنبلي ، الأنس الجليل ، ج٢ ،ص٢٨ . والمقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص١٦٨.

٣٦- م. رائف نجم ، كنوز القدس ، ص ٣٥٣، ٣٥٤، ٣٥٦، ٣٥٩.

٣٧- د. كامل العسلي ، من اثارنا في بيت المقدس ، ص١٥١-١٥٢.

٣٨- يذكر مجير الدين الحنبلي في كتابه (الأنس الجليل لمعرفة تاريخ القـــدس والخليل ، ج٢ ، ص٩٩)، أنه كان يوجد في اواخر القرن الخامس عشر بركتين فقط (بركتا المرجيع). أما البركة الثالثة يبـــدو أنها أضيفت في عهد الســـلطان سليمان.

٣٩- دعيت بهذا الاسم نسبة الى السلطان برقوق الذي عمرها سنة ٨٠١ هـــ/١٣٩٨ م. مجير الدين الحنبـــلي – الأنس الجليل ج٢، ص٩٤.

٤٠- Dr. ASALI . *JERUSALEM IN HISTORY*. P 201.

٤١- م . رائف نجم ، كنوز القدس ، ص٣٦٠-٣٦١.

٤٢- الأمير بيرام جاويش بن مصطفى : هو من رجالات الحكم العثماني في عهده الأول في القدس ، وقد عينه الســـلطان سليمان ناظراً على أعمال البناء في سور القدس ، وبعد انتهاء العمل في السور سنة ٩٤٧ هـــ أقام في القدس وقـــام بأعمال عمرانية جمة .

٤٣- د. كامل العسلي ، من اثارنا في بيت المقدس ، ص١٦-١٩، ٢٠-٢٣.

٤٤- عارف العارف ، المفصل في تاريخ القدس، ص٢٦٦.

٤٥- محمد فريد بك ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص١٠٧.

٤٦- COHEN & LEWIS , *POPULATION*, P 204.

٤٧- Dr. ASALI . *JERUSALEM IN HISTORY* , P204-206 .

٤٨- عارف العارف ، المسيحية في القدس ، ص٢٤.

٤٩ - د. عز الدين فودة ، قضية القدس ، ص٧٦.

٥٠- PETERS, *JERUSALEM*, P 506,484.

٥١- Dr. ASALI. *JERUSALEM IN HISTORY*, P 204.

٥٢ - محمد سليم اليعقوب ، ناحية القدس الشريف (رسالة ماجستير غير منشورة) ، ص٢٤-٧١ ويذكر أن عدد القرى ١٦٩ قرية .

٥٣- Dr. ASALI, *JERUSALEM IN HISTORY*, P 203.

٥٤ - د. عبد الكريم غرايبة ، سورية في القرن التاسع عشر ، ص٥٢.

٥٥ - فيليب حتي ، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ج٢، ص٣٠٧.

٥٦- GIBB & BOWEN, *ISLAMIC SOCIETY AND THE WEST*, VOL 2, PART II, P288.

٥٧- هذه الدراسة مستندة الى سجلات المحكمة الشرعية في القدس ، وقد قام بها السيد محمد سليم اليعقوب في رسالة ماجستير بعنوان (ناحية القدس الشريف -الجامعة الاردنية) وهي غير منشورة، ص١٢٥-١٣٣، ١٣٦، ١٧١-١٧٣

٥٨- Dr. ASALI, *JERUSALEM IN HISTORY*, P 205.

٥٩- HEYD, *OTTOMAN DOCUMENTS*, N. 23.

٦٠- Dr. ASALI, *JERUSALEM IN HISTORY*, P 205.

٦١ - رفيق النتشة ، تاريخ مدينة القدس ، ص٦٧.

٦٢ - ولد السلطان مراد الرابع سنة ١٦٠٩ م ، وقد تولى الحكم وهو في الثالثة عشر من عمره.

٦٣ - محمد فريد بك ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص١٢٤.

٦٤ - عارف العارف ، المفصل في تاريخ القدس ، ص٢٦٦-٢٦٧.

٦٥ - د . كامل العسلي ، من اثارنا في بيت المقدس ، ص٢٣٨ ، ١٥٣-١٥٥، ٢٨٤

٦٦- STEPHEN, *TSCHELEBIS TRAVELS*, *QDAP*, VOL IX, P 95.

٦٧- EVLYIA CELEBI, *SIYAHATNAMESI*, VOL 13, P250-253.

٦٨ - قبل القرن التاسع عشر كان المسيحيون واليهود يعيشون في ذات الأحياء التي يقطنها المسلمون.

٦٩ - *TSCHELEBIS TRAVELS*, *QDAB*, VOL V111, P156.

٧٠- HENRY MAUNDRELL, *A JOURNEY FROM ALEPPO TO JERUSALEM*, P61.

٧١ - الخالدي ، رحلات في ديار الشام ، ص٥٦ و ص١٠٠.

٧٢ - عبد الكريم رافق ، بلاد الشام ومصر ، ص٢١٤.

٧٣ - كان باشا القدس او أمير الحاج الشامي في أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر يعين من الأمراء المحليين ، وفي أواسط القرن السابع عشر عين بعض الضباط الانكشارية في هذا المنصب ، وبعد سنة ١٦٦٠ تلا ضباط الانكشارية في امرة الحج ضباط عثمانيون وكانوا يتولون حكومات السناجق ، ولكن منذ سنة ١٧٠٨ أخذ ولاة دمشق يحتلون هذا المنصب بصورة منتظمة. انظر :عبد الكريم رافق ، بلاد الشام ومصر ، ص٢١٣-٢١٥.

٧٤ Dr. ASALI, *JERUSALEM IN HISTORY*, P 212

٧٥- *TSCHELEBIS TRAVELS*, *QDAP*, VOL VIII, P149-15.

٧٦ - Dr. ASALI, *JERUSALEM IN HISTORY*, P 213.

٧٧-الخياري ، تحفة الأدباء ، ج٢ ، ص١٩٤-١٩٥.

٧٨ - Dr. ASALI. *JERUSALEM IN HISTORY*, P 213.

٧٩-عارف العارف ، المفصل في تاريخ القدس ، ص٢٦٧-٢٩٦

٨٠- *TSCHELEBIS TRAVELS*, *QDAP*, Vol IX, P 100,840.

٨١- Dr. ASALI, *JERUSALEM IN HISTORY*, P 2

٨٢ *TSCHELEBIS TRAVELS*, *QDAP*, Vol IX, P 95.

٨٣ Dr.. ASALI. JERUSALEM IN HISTORY. P 214,208

٨٤- HEYD, *OTTOMAN DOCUMENTS*, P 28,43.

٨٥- Dr. ASALI, *JERUSALEM IN HISTORY*, P 209.

٨٦- د. كامل العسلي ، وثائق مقدسية ، المجلد الاول ، ص٢٨٩-٢٩٠.

٨٧- ايلك : كلمة تركية مكونة من مقطعين (أي بمعنى الشهر او القمر) وبلك : بمعنى السيد او الأمير ، والمقصود بالأيلك هنا البكوات والسادة.

٨٨- السباهية: وهي كلمة فارسية تعني الجيش ، وهم أفراد سلاح الخيالة الفرسان في الدولة العثمانية.

٨٩- الزعما : وهم الإقطاعيون الذين يتراوح دخلهم في النظام الإقطاعي بين ٢٠،٠٠٠ و٩٩،٩٩٩ اقجة سنوياً .

٩٠- أرباب التيمار : وهم أصغر أنواع الإقطاعيات ، وكان دخل التيمار السنوي يبلغ في حده الأقصى ١٩،٩٩٩ أقجة سنوياً

٩١- دزدار : أمين القلعة أو قائدها .

٩٢- النيكرجية :وهم من يعرفون بالانكشارية ، وهم فرقة خاصة من فرق الجيش العثماني كان أفرادها ينشأون على الولاء التام للسلطان ويدربون تدريباً عسكرياً دقيقاً.

٩٣- جناب المولى : لقب يطلق عادة على القاضي.

٩٤- لعدم التنصيص : لعدم وجود أي نص بذلك .

٩٥- هي الوثيقة رقم ٥٠ وهي من كتاب د. كامل العسلي ، وثائق مقدسية ، المجلد الاول ،ص٢٨٩-٢٩٠.

٩٦- Dr. ASALI, *JERUSALEM IN HISTORY*, P 210.

٩٧- د. عز الدين فوده ، قضية القدس ، ص٧٧-٧٩ .

٩٨- Dr. ASALI, *JERUSALEM IN HISTORY*, P 210.

٩٩- د. عز الدين فودة ، قضية القدس ، ص٨٠.

١٠٠- عارف العارف ، المفصل في تاريخ القدس،ص٣٦٣.

١٠١- PETERS, *JERUSALEM*, P 521.

١٠٢- أحمد سامح الخالدي ، أهل العلم.

١٠٣- Dr.ASALI, *JERUSALEM IN HISTORY*, P 218.

١٠٤- حسن بن عبد اللطيف ، تراجم ،ص٣٤٠-٣٤٢.

١٠٥- *JERUSALEM, ASIAN & AFRICAN STUDIES*, Vol 13, P 220.

١٠٦- الخليلي ، وثيقة مقدسية ، ص٤٣.

١٠٧- د.كامل العسلي ، وثائق مقدسية ، المجلد الثاني ، ص٢٧٥-٢٨٠.

١٠٨- سمير جريس ، القدس ، ص١٦.

١٠٩- VOLNEY, *TRAVELS THROUGH SYRIA* ,PP 307-309, 318.

١١٠- محمد الخليلي ، وثيقة مقدسية ، ص٤٣.

١١١- CHEVALIER D'ARVIEUX, *MEMOIRES*, Vol II,P 323.

١١٢- VOLNEY, *TRAVELS THROUGH SYRIA*, P 303.

١١٣- Dr. ASALI, *JERUSALEM IN HISTORY*. P 219.

١١٤- محمد الخليلي ، وثيقة مقدسية ، ص٣٨-٤٠، ٤٣.

١١٥- عارف العارف ، المفصل في تاريخ القدس ، ص٩١-٩٢.

١١٦- Dr. ASALI , *JERUSALEM IN HISTORY*, PP 214-215.

١١٧-محمد كرد علي ، خطط الشام ، المجلد الثاني ، ص٢٧٣

١١٨- Dr.ASALI, *JERUSALEM IN HISTORY*, P 216.

١١٩- حسين بن عبد اللطيف ، تراجم ، ص٣٤٦-٣٤٧.

١٢٠- Dr. ASALI , *JERUSALEM IN HISTORY*, P 216.

١٢١- *ENCYCLOPEDIA OF ISLAM*, Vol 5, P33.(1980)

١٢٢- Dr. ASALI, *JERUSALEM IN HISTORY*, P 217.

١٢٣- د. عز الدين فودة ، قضية القدس ، ص٨٠-٨٢.

١٢٤- ميخائيل بريك الدمشقي ، تاريخ الشام ، ص٧٢.

١٢٥- عارف العارف ، المسيحية في القدس ، ص٢٥٢.

١٢٦- Dr. ASALI , *JERUSALEM IN HISTORY*, PP 221-222.

١٢٧- د. عز الدين فوده ، قضية القدس ، ص٨٢.

١٢٨- الموسوعة الفلسطينية ، ج٢، ص٢٧٧.

١٢٩- Dr. ASALI, *JERUSALEM IN HISTORY*, P 222.

١٣٠- أحمد سامح الخالدي ، أهل العلم ، ص٣٧.

١٣١- فايز الكردي ، عكا بين الماضي والحاضر ، ص٩٤.

١٣٢- عارف العارف ،المفصل في تاريخ القدس ، ص٢٧٢.

١٣٣- الموسوعة الفلسطينية ، ج٢ ، ص٢٧٨ .

١٣٤- محمد فريد بك ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص٢١٩.

١٣٥- أحمد باشا الجزار ، وهو احد رجالات الدولة العثمانية الذين اشتهروا بالمقدرة والجبروت ، وهو من أصل بشناقي ، وقد علا شأنه بعدما أظهر مهارة عالية وقسوة متناهية في ذبح خصوم أسياده ، فكافأه هؤلاء بلقب الجزار ، للمزيد أنظر الموسوعة الفلسطينية ، ج١ ، ص٩٣-٩٤.

١٣٦- Dr. ASALI , *JERUSALEM IN HISTORY*, P 220-223.

١٣٧- VOLNEY , *TRAVELS THROUGH SYRIA*, P 304.

١٣٨- مناع ، أعلام فلسطين ، ص١٥٠-١٥١.

١٣٩- أحمد سامح الخالدي ، أهل العلم ، ص٣٧

١٤٠-الدباغ ، بلادنا فلسطين ، ج١٠ ، ق٢، ص١١.

١٤١- رفيق التتشة ، تاريخ مدينة القدس ، ص٦٧.

١٤٢- العورة ، تاريخ ولاية سليمان باشا العادل ، ص٢٩٢-٢٩٧.

١٤٣- Dr. ASALI , *JERUSALEM IN HISTORY*, P 223.

١٤٤- *ENCYCLOPEDIA OF ISLAM*, Vol V,P 335.(1980).

١٤٥- الدباغ ، بلادنا فلسطين ، ج١٠ ، ق٢، ص١٠.

١٤٦- العورة ، تاريخ ولاية سليمان باشا العادل ، ص٨٨-٨٩.

١٤٧- محمد فريد بك ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص٢١٩-٢٢٠.

١٤٨- الدباغ ، بلادنا فلسطين ، ج١٠ ، ق٢، ص١٥.

١٤٩- NEOPHYTOS , *ANNALS OF PALESTINE*, JPOS , Vol 18, PP 68,80.

١٥٠- Dr. ASALI , *JERUSALEM IN HISTORY*, P 224.

١٥١- مصطفى الدباغ ، بلادنا فلسطين ، ج١٠ ، ق٢، ص١٥.

١٥٢- محمد علي باشا : وهو من أصل البـــاني جاء الى مصر مع الحملة العثمانية عام ١٧٩٩ لاخراج الفرنســـين منها ، فأسس الأسرة العلوية بمصر وأصبح واليا على مصر وتابعا للآستانة ، وكان يتحين الفرص للاستقـــلال بحكمة عن الباب العالي

١٥٣- د .علي حسون ، الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية ، ص١٣٨.

١٥٤- الموسوعة الفلسطينية ، ج٢ ، ص٢٦٢.

١٥٥- سليمان ابوعز الدين ، ابراهيم باشا في سوريا ، ص٧٤.

١٥٦ - عارف العارف ، المفصل في تاريخ القدس ، ص٢٧٧ .

١٥٧ - سليمان ابو عز الدين ، ابراهيم باشا في سوريا ، ص٨٠

١٥٨ - فايز الكردي ، عكا بين الماضي والحاضر ، ص١٢٢ .

١٥٩ - سليمان ابو عز الدين ، ابراهيم باشا في سوريا ، ص١١٥

١٦٠ - محمد قاسم ، تاريخ القرن التاسع عشر ، ص١٧٣ .

١٦١ - داود بركات ، البطل الفاتح ابراهيم ، ص١٣٩ .

١٦٢ - جورج انطونيوس ، يقظة العرب ، ترجمة ا.د. ناصر الدين الاسد واحسان عباس ، ص٩٢ .

١٦٣ - محمد قاسم ، تاريخ القرن التاسع عشر ، ص١٧٣ .

١٦٤ - الموسوعة الفلسطينية ، ج٢ ، ص٢٦٦ .

١٦٥ - مصطفى الدباغ ، بلادنا فلسطين ، ج١٠ ، ق٢، ص٢٨ .

١٦٦ - أسد رستم ، عن الاصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا ، المجلد الخامس ، ص٢٢٣-٢٣٥ .

١٦٧ - جورج انطونيوس ، يقظة العرب ، ترجمة د. ناصر الدين الأسد و احسان عباس ، ص٩١ .

١٦٨ - سليمان ابو عز الدين ، ابراهيم باشا في سورية ، ص٧٦ .

١٦٩ - أسد رستم ، الاصول العربية ، المجلد الاول ، ص٨٧-٨٩ .

١٧٠ - عارف العارف ، المفصل في تاريخ القدس ، ص٢٨٨-٢٨٩ .

١٧١ - داود بركات ، ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا ، ص١٤٦ .

١٧٢ - الموسوعة الفلسطينية ، ج٢، ص٢٦٧ .

١٧٣ - عارف العارف ، المفصل في تاريخ القدس ، ص٢٨٨ .

١٧٤ - سليمان ابو عز الدين ، ابراهيم باشا في سوريا ، ص١٦٩ .

١٧٥ - داود بركات ، ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا ، ص١٢٥ .

١٧٦ - محمد كرد علي ، خطط الشام ، ج٣، ص٥٨ .

١٧٧ - عارف العارف ، المفصل في تاريخ القدس، ص٢٨١ .

١٧٨ - داود بركات ، البطل الفاتح ابراهيم ، ص١٢٦ .

١٧٩ - عارف العارف ، المفصل في تاريخ القدس ، ص٢٨٢ .

١٨٠ - داود بركات ، البطل الفاتح ابراهيم ، ص١٢٦ .

١٨١ - سليمان ابو عز الدين ، ابراهيم باشا في سورية ، ص١٧٣ .

١٨٢ - عارف العارف ، المفصل في تاريخ القدس ، ص٢٨٢-٢٨٤ .

١٨٣ - داود بركات ، البطل الفاتح ابراهيم ، ص١٢٦ .

١٨٤ - عارف العارف ، المفصل في تاريخ القدس ، ص٢٨٤ .

١٨٥- داود بركات ، البطل الفاتح ابراهيم ، ص١٢٦ .

١٨٦- الموسوعة الفلسطينية ، ج٢، ص٢٦٩.

١٨٧- داود بركات ، البطل الفاتح ابراهيم ، ص١٢٦ .

١٨٨- محمود العابدي ، قدسنا ، ص١٣٣ .

١٨٩- عارف العارف ، المفصل في تاريخ القدس ، ص٢٩١.

١٩٠- د. عز الدين فوده، قضية القدس ،ص١١٠.

١٩١- الموسوعة الفلسطينية ، ج٢ ، ص٢٦٥.

١٩٢- محمود العابدي ، قدسنا ، ص١٣٠-١٣٢ .

١٩٣-الموسوعة الفلسطينية ، ج٢، ص٢٦٥.

١٩٤- داود بركات ، البطل الفاتح ابراهيم باشا ، ص١٦٧ ،١٨٥-١٨٩ .

١٩٥- فايز الكردي ، عكا بين الماضي والحاضر ، ص١٢٣ .

١٩٦- سليمان ابو عز الدين ، ابراهيم باشا في سوريا ، ص٣٠٦-٣٠٧.

١٩٧- داود بركات ، البطل الفاتح ابراهيم ، ص٢٠٩.

١٩٨- د. علي حسون ، الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية ، ص١٥١ .

١٩٩- عارف العارف ، المفصل في تاريخ القدس ، ص٢٩٢-٢٩٣ .

٢٠٠- م . رائف نجم ، كنوز القدس ، ص٣٠.

٢٠١- الكزاندر شولش ، تحولات جذرية في فلسطين ، ص١٤٧..(مترجم)

٢٠٢- Dr. ASALI, *JERUSALEM IN HISTORY*, P 233.

٢٠٣- المسكوبية : وهو مجمع روسي بني في منطقة الميدان التي كانت تستعمل لتدريب الحامية العثمانية غربي المدينة وقد حطم بفخامته كل المقاييس السابقة المتبعة في البناء والتعمير في القدس.

٢٠٤- م .رائف نجم ، كنوز القدس،ص٣٠.

٢٠٥- Dr.ASALI ..*JERUSALEM IN HISTORY*, P 232.

٢٠٦- الكزاندر شولش ، تحولات جذرية في فلسطين ، ص٢٣.

٢٠٧- Dr..ASALI ,*JERUSALEM IN HISTORY* , P 238 .

٢٠٨- د. كامل العسلي ، وثائق مقدسية ، ص٢٨٧-٢٨٨ .

٢٠٩- د. عز الدين فوده ، قضية القدس ، ص١١١.

٢١٠- مصطفى مراد الدباغ ، بلادنا فلسطين ، ج١٠ ، ق٢، ص٣٨.

٢١١- الكزاندر شولش ، تحولات جذرية في فلسطين ، ص٦٣-٦٥.

٢١٢- د. عز الدين فوده ، قضية القدس ، ص١١٢.

٢١٣- مصطفى الدباغ ، بلادنا فلسطين ، ج١٠ ، ق٢ ، ص٣٩.

٢١٤- محمد قاسم ، تاريخ القرن التاسع عشر ، ص٢١٥.

٢١٥- كان الحجاج الروس يمثلون الفصيل الأقوى والأكبر في سيل الحجاج السنوي الى الاراضي المقدسة وقد بلغ عددهم حده الاعلى سنة ١٩٠٠ حينما وصل الى ١١،٠٠٠ حاج روسي.

٢١٦- شولش ، تحولات جذرية في فلسطين ، ص٧٢.

٢١٧- عارف العارف ، تاريخ قبة الصخرة والمسجد الاقصى ، ص٩٤.

٢١٨- محمود العابدي ، قدسنا ، ص١٣٢.

٢١٩- وجيه ابو ذكرى ، القدس العربية عبر القرون ،ص٨٠.

٢٢٠- محمود العابدي ، قدسنا ، ص١٣٣.

٢٢١- مصطفى الدباغ ، بلادنا فلسطين ،ج١٠، ق٢، ص٣٩.

٢٢٢- .Dr. ASALI , *JERUSALEM IN HISTORY*, P 233.

٢٢٣- مصطفى الدباغ ، بلادنا فلسطين ، ج١٠ ، ق٢، ص٤١.

٢٢٤- CHARLES WARREN,*UNDERGROUND JERUSALEM*,P 490-522.LONDON 1876

٢٢٥- شولش تحولات جذرية في فلسطين، ص ٢٩٣

٢٢٦- DR. ASALI , JERUSALEM IN HISTOR , P 241

٢٢٧- مصطفى الدباغ ، بلادنا فلسطين ، ج١٠، ق٢، ص٣٧.

٢٢٨- DR.ASALI, JERUSALEM IN HISTORY,P 239

٢٢٩- شولش ، تحولات جذرية في فلسطين ، ص٢٤.

٢٣٠- عوض ، متصرفية القدس (رسالة جامعية) ص٢٤ وما بعدها.

٢٣١- DR.ASALI , JERUSALEM IN HISTORY, P240

٢٣٢- BENVENISTY, MERON, JERUSALEM THE TORN CITY ,P 41. JERUSALEM, (1976).

٢٣٣- أسامة الحلبي ، بلدية القدس العربية ، ص٧

٢٣٤- DR.ASALI , JERUSALEM IN HISTORY, P240

٢٣٥ - يوسف الخالدي (١٨٤٢-١٩٠٦) :- هو سليل احدى عائلتي الأعيان المقدسيتين العريقتين اللتين كانتا تتنازعان الجاه والنفوذ في القرن التاسع عشر ، وهما عائلتا الحسيني والخالدي . كان يوسف الخالدي بمثابة مصلح عثماني للولاية ، وكان ممثلاً فلسطينيا لفترة التنظيمات التي كان لها في تصوره خمسة اهداف ١- انشاء نظام تعليمي يتخذ المؤسسات التعليمية الاوروبية مثالاً ،٢-القضاء على انعدام الفاعلية في الادارة وعلى التحكم الاداري ٣- تحقيق التسامح الديني ٤- ضمان الحقوق والحريات الدستورية ،٥- تحسين البنية التحتية . وبقي يوسف الخالدي مخلصا في محاولته لتحقيق هذه الاهداف حتى اواخر ايامه. (انظر شولش ،تحولات جذرية في فلسطين، ص٢٨٠-٢٩٠).

٢٤٠- د. علي محافظة ، العلاقات الألمانية - الفلسطينية ١٨٤١-١٩٤٥ ، بيروت ١٩٨١ ، ص١٠٠-١٣٣.

٢٤١- عارف العارف - تاريخ قبة الصخرة والمسجد الاقصى المبارك ، ص٩٥.

٢٤٢- DR. ASALI, *JERUSALEM IN HISTORY*, P234

٢٤٣- شولش ، تحولات جذرية ، ص١٤٨، ٢٥.

٢٤٤- DR. ASALI, *JERUSALEM IN HISTORY*, P237

٢٤٥- مصطفى الدباغ ، بلادنا فلسطين ، ج١٠، ق٢، ص٤٢. وانظر
JERUSALEM IN HISTORY, P237

٢٤٦- عارف العارف ، المفصل في تاريخ القدس ، ص٢٩٦.

٢٤٧- DR. ASALI, *JERUSALEM IN HISTORY*, P 237

٢٤٨- جورج انطونيوس ، يقظة العرب ، ص١٢٨.

٢٤٩ - شولش- تحولات جذرية في فلسطين ، ص٢٩٣.

٢٥٠- جورج انطونيوس ، يقظة العرب ، ص١٢٩.

٢٥١- شولش، تحولات جذرية في فلسطين ، ص٢٩٣.

٢٥٢- عارف العارف ، المفصل في تاريخ القدس ، ص٢٩٦.

٢٥٣- جورج انطونيوس ، يقظة العرب ، ص١٣١.

٢٥٤- محمد قاسم ، تاريخ القرن التاسع عشر ، ص٢٢٢-٢٢٣.

٢٥٥- للمزيد عن جمعية الاتحاد والترقي واهدافها وتاريخها ، انظر : الموسوعة الفلسطينية ، ج١، ص٧٥-٧٩.

٢٥٦- محمد قاسم ، تاريخ القرن التاسع عشر ، ص٢٢٥.

٢٥٧- الموسوعة الفلسطينية ، ج١، ص٧٦.

٢٥٨- DR.ASALI, *JERUSALEM IN HISTORY*, P239

٢٥٩- عارف العارف ، المفصل في تاريخ القدس ، ص٢٩٨.

٢٦٠- مصدر التعداد السكاني لمدينة القدس ، انظر ما يلي:
ALEXANDER SHOLCH, *THE DEMOGRAPHIC DEVELOPMENT OF PALESTINE*, 1850-1882, IN THE INTERNATIONAL JOURNAL OF MIDDLE EAST STUDIES, 17/4/1985.

ومصدر التعداد السكاني لقضاء القدس بما فيها المدينة ، انظر ما يلي:
KAMAL H.KARPAT, *OTTOMAN POPULATION 1836-1940*, MADISON, 1985, PP 144-145 & 184-185. 261-DR. ASALI, *JERUSALEM IN HISTORY*, P232.

٢٦١- DR ASALI, *JERUSALEM IN HISTORY*, P232

٢٦٢- عارف العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص٢٩٦.

٢٦٣- DR. ASALI, *JERUSALEM IN HISTORY*, P232

٢٦٤- مصطفى الدباغ، بلادنا فلسطين، ج١٠، ق٢، ص٤٩-٥٠.

٢٦٥- DR. ASALI, *JERUSALEM IN HISTORY*, P232

٢٦٦- عارف العارف المفصل في تاريخ القدس، ص٢٩٦.

٢٦٧- م. رائف نجم، كنوز القدس، ص

٢٦٨- شولش، تحولات جذرية في فلسطين، ص١٥٠.

٢٦٩- مصطفى الدباغ، بلادنا فلسطين، ج١٠، ق٢، ص٤٩.

٢٧٠- عارف العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص٢٩٨

٢٧١- مصطفى الدباغ، بلادنا فلسطين، ج١٠، ق٢، ص٤٦.

٢٧٢- رفيق النتشة، تاريخ مدينة القدس، ص٧١.

٢٧٣- مصطفى الدباغ، بلادنا فلسطين، ج١٠، ق٢، ٤٥.

٢٧٤- DR. ASALI, *JERUSALEM IN HISTORY*, P237

٢٧٥- شولش، تحولات جذرية في فلسطين، ص١٥٣

٢٧٦- CUINET, V. *LIBAN - SYRIE, GEOGRAPHIC ADMANINISTRATIVE*, PARIS 1896, P241

٢٧٧- DR.ASALI, JERUSALEM IN HISTORY, P240

٢٧٨- عارف العرف، المفصل في تاريخ القدس، ص٢٩٨.

٢٧٩- د. كامل العسلي، مقدمة في تاريخ الطب في القدس، ص٢١٩-٢٢٠.

٢٨٠- DR. ASALI, *JERUSALEM IN HISTORY*, P241

٢٨١- م.ف، ج١، ص٢٦١.

٢٨٢- عارف العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص٣٠٠.

٢٨٣- محمد قاسم، تاريخ القرن التاسع عشر، ص.٢٣٠

٢٨٤- عارف العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص٣٨٣.

٢٨٥- طوطح و بولص، تاريخ القدس و دليلها، ص٣٥.

٢٨٦- عارف العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص٣٨٣-٣٨٤.

المصادر والمراجع العربية

- ابن الأثير،عز الدين أبو الحسن علي بن محمد

الكامل في التاريخ، بيروت ١٩٦٦.

- ابن البطريق، سعيد (أفتيشيوس)

التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، بيروت ١٩٠٥.

- إبن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن

فضائل القدس، تحقيق جبرائيل جبور، بيروت ١٩٧٩.

- سبط إبن الجوزي، شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قراوغلي

مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، مطبعة حيدر آباد الركن ١٩٥٢.

- إبن القلانسي، أبو يعلي حمزة

ذيل تاريخ دمشق، بيروت ١٩٠٨.

- إبن إياس، محمد بن أحمد

بدائع الزهور في وقائع الدهور، القاهرة ١٩٥٤.

- إبن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكي

النجوم الزاهرة في أخبارملوك مصر والقاهرة، القاهرة ١٩٣٥.

- إبن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكي

حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين، القاهرة ١٩٩٠.

- إبن جبير، محمد بن أحمد الكناني

رحلة إبن جبير، بيروت ١٩٥٩.

- إبن خلكان، أحمد بن محمد بن أبي بكر

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٩٧١.

- إبن شاهين، غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري

زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، القاهرة ١٩٨٨.

- إبن شداد، بهاء الدين يوسف بن رافع
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق د. جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٦٤.
- إبن فضل الله العمري، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحي
مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، القاهرة ١٩٢٤.
-إبن قاضي شهبة، تقي الدين أبو بكر بن محمد الأسدي
الكواكب الدرية في السيرة النورية، تحقيق محمود زايد، بيروت ١٩٧١.
- إبن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل
البداية والنهاية في التاريخ، القاهرة ١٩٣٢.
- إبن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد
معجم لسان العرب، الكويت ١٩٧٢.
- إبن واصل، جمال الدين محمد بن سالم
مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، القاهرة ١٩٥٧.
- أبو شامة، شهاب الدين
أزهار الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، القاهرة ١٩٥٦-١٩٦٢.
- أبو الفداء، عماد الدين اسماعيل بن علي
المختصر في أخبار البشر، القاهرة ١٩٠٧.
- أحمد دراج
المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي، القاهرة ١٩٦١.
- أحمد دراج
وثائق دير صهيون بالقدس الشريف، القاهرة ١٩٦٨.
- أحمد سامح الخالدي
أهل العلم والحكم في ريف فلسطين، عمان ١٩٨٦.
- أحمد سامح الخالدي
رحلات في ديار الشام، يافا ١٩٤٦.

- أحمد عيسى
تاريخ البيمارستانات في الإسلام ، بيروت ١٩٨١.
- أحمد فريدون
منشآت السلاطين، القاهرة ١٩٣٤.
- أرنست باركر
الحروب الصليبية، ترجمة الباز العريني، بيروت ١٩٦٥.
- أ . س مرمجي الدومنكي
بلدانية فلسطين العربية، بيروت ١٩٤٨.
- اسحق موسى الحسيني
عروبة بيت المقدس ، بيروت ١٩٦٩.
- أسد رستم
الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا ، المجلد الخامس ، بيروت ١٩٣٤.
- اسكندر ميخائيل مكسي
القدس عبر التاريخ ، القاهرة ١٩٧٢.
-الإصطخري ، أبو اسحق ابراهيم بن محمد الفارسي
مسالك الممالك ، ليدن ١٩٦٧.
- الأصفهاني ، عماد الدين الكاتب
الفتح القسي في الفتح القدسي ، القاهرة ١٩٦٥.
- الأنطاكي ، يحي بن سعيد
تاريخ الذيل ، دمشق ١٩٦٨.
- البغدادي ، عبد اللطيف
عيون الأنباء في طبقات الأعيان ، مصر ١٩٤٣.
- البلاذري ، أبو العباس أحمد بن يحي بن جابر
فتوح البلدان ، القاهرة ١٩٥٦.

- البنداري، قوام الدين الفتح بن علي بن محمد
سنا البرق الشامي، وهو مختصر لكتاب البرق الشامي لعماد الأصفهاني، بيروت ١٩٧١.
- الحموي، ياقوت بن عبد الله
معجم البلدان، دار احياء التراث العربي (د.ت)
- الخياري، ابراهيم بن عبد الرحمن
رحلة الخياري، تحفة الأدباء وسلوة الغرباء، بغداد ١٩٨٠.
- السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن
التبر المسبوك في ذيل السلوك ، القاهرة ١٩٠٠.
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير
تاريخ الرسل والملوك، ليدن ١٩٦٤.
- العورة، ابراهيم
تاريخ ولاية سليمان باشا العادل، صيدا ١٩٣٦.
- القاضي محي الدين ابن عبد الظاهر
الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق فاطمة صديق ، القاهرة.
- القرآن الكريم.
- القلقشندي، أحمد بن علي بن أحمد الغزاوي
صبح الأعشى في صناعة الإنشا، القاهرة ١٩٦٣.
- الكزاندر شولش
تحولات جذرية في فلسطين ، نقله عن الألمانية الدكتور كامل العسلي، عمان ١٩٨٨.
-المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين
مروج الذهب ومعادن الجوهر، القاهرة ١٩٦٤.
-المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن مفلح
أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن ١٩٠٦.
- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي
اتعاظ الحنفا بأخبار الائمة الفاطميين الخلفا، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٤٨.

- المقريزي ، تقي الدين أحمد بن علي
البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب ، تحقيق عبد المجيد عابدين ، القاهرة ١٩٦١ .
- المقريزي ، تقي الدين أحمد بن علي
السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج١ ،ج٢ ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٧٢. ج٣، ج٤، تحقيق سعيد عاشور ، القاهرة ١٩٧٢.
- الموسوعة الفلسطينية
القسم العام ، أربعة اجزاء ، دمشق ١٩٨٤.
- الواقدي ، أبو عبد الله محمد بن عمر
فتوح الشام ، القاهرة ١٩٣٤.
- اليعقوبي ، أحمد ابن يعقوب
تاريخ اليعقوبي ، النجف ١٩٦٤.
- أمينة البيطار
تاريخ العصر الأيوبي ، دمشق ١٩٨١-١٩٨٢.
- جب (هاملتون)
مآثر صلاح الدين ، دراسات في حضارة الإسلام ، بيروت ١٩٧٤.
- جرجي زيدان
تاريخ مصر الحديث مع فذلكة في تاريخ مصر القديم ، القاهرة ١٨٨٩.
- جورج أنطونيوس
يقظة العرب تاريخ حركة العرب القومية، ترجمة د.ناصر الدين الأسد وإحسان عباس، بيروت ١٩٦٦.
- حتي ، جرجي ، جبور
تاريخ العرب المطول ، تأليف فيليب حتي، ادوارد جرجي، جبرائيل سليمان جبور، بيروت ١٩٦١.
- حسن باشا
الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والاثار ، القاهرة ١٩٥٧.

-حسن بن عبد اللطيف الحسيني
تراجم أهل القدس في القرن الثاني عشر ، عمان (د.ن) ١٩٨١.
-حمد أحمد عبد الله يوسف
بيت المقدس من العهد الراشدي حتى نهاية الدولة الأيوبية ، القدس ١٩٨٢.
-خليل طوطح
تاريخ القدس ودليلها ، القدس ١٩٢٠.
- داود بركات
ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا ، القاهرة ١٩٤٨.
- دريد عبد القادر النوري
سياسة صلاح الدين في بلاد مصر والشام والجزيرة ، بغداد ١٩٧٦.
- رائف نجم وآخرون
كنوز القدس ، عمان ١٩٨٣.
-رشاد الإمام
مدينة القدس في العصر الوسيط (١٢٥٣-١٥١٦م) ، تونس ١٩٧٦.
-رفيق شاكر النتشة
تاريخ مدينة القدس ، عمان ١٩٨٤.
-رنسيمان، (ستيفن)
تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العريني ، بيروت ١٩٨٧.
- سامي حكيم
القدس، القاهرة ١٩٧٠.
- سعيد عبد الفتاح عاشور
الحركة الصليبية، القاهرة ١٩٧٨.
- سعيد عبد الفتاح عاشور
المؤتمر الدولي الثالث لبلاد الشام، المجلد الأول ١٩٧٤.

- سعيد عبد الفتاح عاشور
أوروبا في العصور الوسطى، القاهرة ١٩٦٤.
- سعيد عبد الفتاح عاشور
العصر المماليكي في مصر والشام، القاهرة ١٩٦٥.
- سليمان أبو عز الدين
ابراهيم باشا في سورية، بيروت ١٩٢٩.
- شحادة ونقولا خوري
خلاصة تاريخ كنيسة أورشليم الأرثوذكسية، القدس ١٩٢٥.
- شفيق جاسر محمود
تاريخ القدس والعلاقة بين المسلمين والمسيحيين فيها منذ الفتح الاسلامي حتى الحروب الصليبية، عمان ١٩٨٤.
- عادل مناع
أعلام فلسطين في أواخر العهد العثماني (١٨٠٠-١٩١٨) بيروت ١٩٩٥.
- عارف العارف
المفصل في تاريخ القدس، القدس ١٩٦١.
- عارف العارف
المسيحية في القدس، القاهرة ١٩٥١.
- عارف العارف
تاريخ قبة الصخرة المشرفة والمسجد الأقصى المبارك ولمحة عن تاريخ القدس ، القدس ١٩٥٥.
- عارف العارف
تاريخ القدس ، القاهرة ١٩٥١.
-عبد الحميد السائح
أهمية القدس في الإسلام ، عمان ١٩٨٠.
-عبد الحميد زايد
القدس الخالدة ، القاهرة ١٩٧٤.

- عبد الكريم غرايبة

سورية في القرن التاسع عشر (١٨٤٠-١٨٧٦) القاهرة ١٩٦٢.

- عبد الكريم رافق

بلاد الشـــام ومصر من الفتح العثماني الى حملة نابــليون بونابـــرت (١٥١٦-١٧٩٨) دمشـــق (د.ن)١٩٦٧

- عبلة المهتدي الزبدة

صلاح الدين وتحرير القدس ، عمان ١٩٩٤.

- عز الدين فودة

قضية القدس في محيط العلاقات الدولية ، بيروت ١٩٦٩.

- علي ابراهيم حسن

دراسات في تاريخ المماليك البحرية وفي عصر الناصر محمد بوجة خاص ، القاهرة ١٩٤٤.

- علي السيد علي

القدس في العصر المملوكي ، القاهرة ١٩٨٦.

- علي حسون

الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية ، دمشق ١٩٨٠.

- علي محافظة

العلاقات الالمانية - الفلسطينية (١٨٤٠-١٩٤٥) بيروت ١٩٨١.

- عمر عبد العزيز عمر

دراسات في تاريخ العرب الحديث والمعاصر، بيروت ١٩٧٥.

- عبد العزيز محمد عوض

الإدارة العثمانية في ولاية سورة ١٨٦٤-١٩١٤،(متصرفيةالقدس)رسالة جامعية، القاهرة ١٩٦٩.

- فايز الكردي

عكا بين الماضي والحاضر ، عكا ١٩٧١.

-فوزي زيادين

يوم القدس ، أبحاث الندوة الرابعة ، عمان ١٩٩٣.

- فوشيه الشارتري

تاريخ الحملة الى القدس ، ترجمة د. زياد العسلي ، عمان ١٩٩٠.

- فيليب حتي

تاريخ سورة ولبنان وفلسطين ، بيروت ١٩٥٩.

- كامل جميل العسلي (مؤلف ومحرر ومترجم)

القدس في التاريخ ، عمان ١٩٩٢.

- كامل جميل العسلي

وثائق مقدسية تاريخية مع مقدمة حول بعض المصادر الأولية لتاريخ القدس ، الجزء الأول عمان ١٩٨٣ ، الجزء الثاني عمان ١٩٨٥ ، الجزء الثالث عمان ١٩٨٩.

- كامل جميل العسلي

مقدمة في تاريخ الطب في القدس ، منذ أقدم الأزمنة حتى سنة ١٩١٨ ، عمان ١٩٩٤.

- كامل جميل العسلي

معاهد العلم في بيت المقدس ، عمان ١٩٨١.

- كامل جميل العسلي

من آثارنا في بيت المقدس ، عمان ١٩٨٢.

- كامل جميل العسلي

مقال ، بمجلة القدس الشريف ، العدد (٥) اصدار أمانة القدس في عمان/ الأردن ١٩٨٥.

- كامل جميل العسلي

يوم القدس ، أبحاث الندوة الأولى، الكويت ١٩٨٩.

- الكتاب المقدس

اصدار دار الكتاب المقدس في العالم العربي ١٩٨٣.

- مجير الدين الحنبلي

الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، النجف ١٩٦٨.

- محمد أحمد سليم اليعقوب

ناحية القدس الشريف في القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي، رسالة جامعية، الجامعة الأردنية ١٩٨٦

- محمد أديب العامري

القدس العربية، عمان ١٩٧١.

- محمد الخليلي

وثيقة مقدسية، وقفيته المؤرخة سنة ١٧٢٦ عن ايرادات الأوقاف في القرن ١٨.

- محمد عبد الله عنان

الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية، القاهرة ١٩٠٠.

- محمد فريد بك

تاريخ الدولة العلية العثمانية، القاهرة ١٩١٢.

- محمد قاسم

تاريخ القرن التاسع عشر، القاهرة ١٩٥٤.

- محمد كرد علي

خطط الشام، دمشق ١٩٢٥.

- محمود العابدي

قدسنا، القاهرة ١٩٧٢.

- مروان أبو خلف

يوم القدس، أبحاث الندوة الرابعة، عمان ١٩٩٣.

- مصطفى مراد الدباغ

بلادنا فلسطين، بيروت ١٩٦٥.

- ميخائيل بريك الدمشقي

تاريخ الشام، تحقيق وتقديم أحمد غسان سبانو، دمشق ١٩٨٢ .

- ناصر خسرو علوي

سفرنامة، ترجمة د. يحي الخشاب، القاهرة ١٩٤٥.

- وجيه أبو ذكرى

القدس العربية عبر القرون، القاهرة ١٩٦٧.

- يوسف درويش غوانمة / تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي، عمان ١٩٨٢.

المصادر والمراجع الأجنبية

- ASALI, Kamel Jamil.
JERUSALEM IN HISTORY. Edited and Trans.B K.J.ASALI Buckhurst Hill Scorpion Publisher 1989.
- BERCHEN,Max Van
LA JERUSALEM MUSULMANE,Lausanne 1978.
- BEVAN, Edwyn Robert.
THE HOUSE OF SELEUCUS, Routledge&kEgAn Paul, London 1966.
- COHEN, A.and LEWIS,B.
POPULATION AND REVENUE In The Towns Of Palestine In The Sixteenth Century,Princeton,1978.
- CELEBI, Evliya.
EVLIYA CELEBI SEYAHATNAMESI, Istanbul 1971.
- CELEBI, Evliya.
EVLIYA TSHELEBIS TRAVELS IN PALESTINE,Trans by ST.H.Stephan, Quaterly Of The Dep.Of Antiquities In Palestine Oxford u.p.1934.
-CLEARMONT, Ganneau.
*ARCHEOLOGICAL RESEARCHES IN PALESTIN DURING THE YEARS (1873-1874)*London 1896.
-CRESWELL, Keppel Archibold Cameron.
EARLY MUSLIM ARCHITECTURE,Umayyads.A.D.622-750,Oxford 1969.
-CUINET,Vital.
LIBAN-SYRIA, Geographic Administrative,Paris 1896.
-DE VAUX, Roland.
ANCIENT ISRAEL,Its Life &Institutions,Trans by John Mc Hugh-Mc Graw-hill,NewYork 1961.
-*ENCYCLOPIDIA BRITANNICA*,
William Benton Publisher LTD ,1974.

-*ENCYCLOPEDIA JUDAICA,*
Keter Publisher House LTD, Jerusalem 1971.
-*ENCYCLOPEDIA OF ISLAM,*
Edited by H.A.R.Gibb.Leiden:Brill,1980.
- FRESCOBALDI, Gucci and Sigoli.
A VISIT TO THE HOLLY PLACES OF EGYPT, SINAI, PALESTINE, AND SYRIA IN 1384. Trans. By Thiophilus Bellorini, Eugene Huade, Bellarmino Bagatti, Jerusalem, Fransiscan Press 1948.
- FULCHER OF CHARTRE.
A HISTORY OF THE EXPEDITION TO JERUSALEM, New York, 1973.
- GIBB & BOWEN.
THE ISLAMIC SOCIETY AND THE WEST, Vol 2, Part 2.
-GRAY, John.
A HISTORY OF JERUSALEM, Robert Hale, London 1969.
-HEYD, Uriel.
OTTOMAN DOCUMENTS ON PALESTINE, 1552-1615, London-Oxford U.P. 1960.
-ASIAN & AFRICAN STUDIES,
Jerusalem, Vol 13, No 3.
- JOSEPHUS, Flavious.
THE GREAT ROMAN- JEWISH WAR, Trans by G. A. William Whiston, gloucester Mass: Peter Smith, 1960.
-KARPAT, Kemal H.
OTTOMAN POPULATION (1830-1914), Madison1985.
-KENYON, Kathleen Mary.
JERUSALEM EXCAVATING 4000 YEARS OF HISTORY, Thames & Hudson, London 1967.
-KENYON, Kathleen Mary.
DIGGING UP JERUSALEM, E.Benn,London1974.
-LA MONTE, John.
FEUDAL MONARCHY IN THE LATIN KINGDOM OF JERUSALEM (1100 to 1291), London1932.

-LEWIS, Hayter.
THE HOLY PLACES OF JERUSALEM, New York.
-MACPHERSON,James.
THE PILGRIMAGE OF ARCULFUS, Trans.from French And Rev. By James Rose Macpherson,(B.D.)
-NEOPHYTOS,
ANNALS OF PALESTINE, Journal of The Palestine Oriental Society (JPOS),Vol 18.
- OLDENBOURG, Zoe.
THE CRUSADES,Trans.From French By Anne Carter, London 1966.
- PETER,E.F.
JERUSALEM, In The Eyes of Chroniclers ,Visitors, Pilgrims And Prophets From The Days Of Abraham To The Beginning Of Modern Times, Princeton 1985.
- RICHMOND,Ernest Tathan.
THE DOME OF THE ROCK IN JERUSALEM, Oxford, Clarendon Press1924.
- RUNCIMAN,Steven.
A HISTORY OF THE CRUSADES, London,Cambridge U.P.1957.
-SETTON,A.& BALDWIN.
A HISTORY OF THE CRUSADES, Philadelphia 1962.
-SHOLCH, Alexander.
*THE DEMOGRAPHIC DEVELOPMENT OF PALESTINE (1850-1882)*In The International Journa of Middle East Studies ,17/4/1985.
-STEVENSON,W.B.
THE CRUSADERS IN THE EAST, Beirut 1958.
-VOLNEY, S.F.
TRAVELS THROUGH SYRIA, Leiden 1957.

-WARREN,Charles .
UNDERGROUND JERUSALEM, Richard Bentley&Son, London 1876.
-WILLIAM Of TYRE,
A HISTORY OF DEEDS DONE BEYOND THE SEA, New York 1943.

مصادر الصور والخرائط

اولا : الصور ١ ، ٢٣، نقلا عن كتاب (أثارنا في بيت المقدس)

تأليف د. كاما جميل العسلي، عمان ١٩٨٢.

ثانيا : الصور ٢ ، ٣، نقلا عن كتاب (القدس العربية)

تأليف محمد أديب العامري، عمان ١٩٧١.

ثالثا: الصور ٤ ، ٧، نقلا عن كتاب (أبحاث الندوة الرابعة ليوم القدس)

لجنة يوم القدس، عمان ١٩٩٣.

رابعا : الصور ٥،٢١ ، ٣٩، نقلا عن كتاب (فلسطين تاريخ وحضارة)

اعداد الفنان اسماعيل شموط، عمان ١٩٧٩.

خامسا : الصورة ٦، نقلا عن بطاقة اعلامية صادرة عن وزارة السياحة الأردنية.

سادسا : الصور ٨، ١٠، ١٢، ١٤، ٢٠، ٢٤، ٢٥، ٢٦،٢٧، ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٣، ٣٤

٣٦، ٣٧، ٣٨، ٤١ ، ٤٢، ٤٤، نقلا عن مجلات (القدس الشريف) الصادرة عن

مكتب أمانة القدس في عمان، خلال السنوات (١٩٨٥-١٩٩٠).

سابعا : الصورة ٩، نقلا عن كتاب *EARLY MUSLIM ARCHITECTURE*

BY : CRESWELL, KEPPEL ARCHIBOLD CAMERON.

ثامنا : الصورة ١١، نقلا عن كتاب (صلاح الدين وتحرير القدس)

تأليف عبلة المهتدي الزبدة، عمان ١٩٩٤.

تاسعا : الصور ١٣، ٤٠، ٤٣، نقلا عن كتاب (القدس الشامخة عبر التاريخ)

تأليف محمد هاشم غوشة، الكويت ١٩٨٩.

عاشرا: الصور ١٥،١٨، ٢٦، ٣٢، ٣٥، نقلا عن كتاب (كنوز القدس)

تأليف م. رائف نجم وآخرون، عمان ١٩٧٥.

الحادي عشر: الصور ١٦، ١٧، ١٩، ٢٢، وثائق خاصة للدكتور كامل العسلي.

الثاني عشر : الصور ٢٨، ٤٥، نقلا عن كتاب (أجدادنا في ثرى بيت المقدس)

تأليف د. كامل جميل العسلي، عمان ١٩٨٢.

الثالث عشر: الصور ٤٦، ٤٧، من أرشيف المكتبة الوطنية، عمان– الأردن.